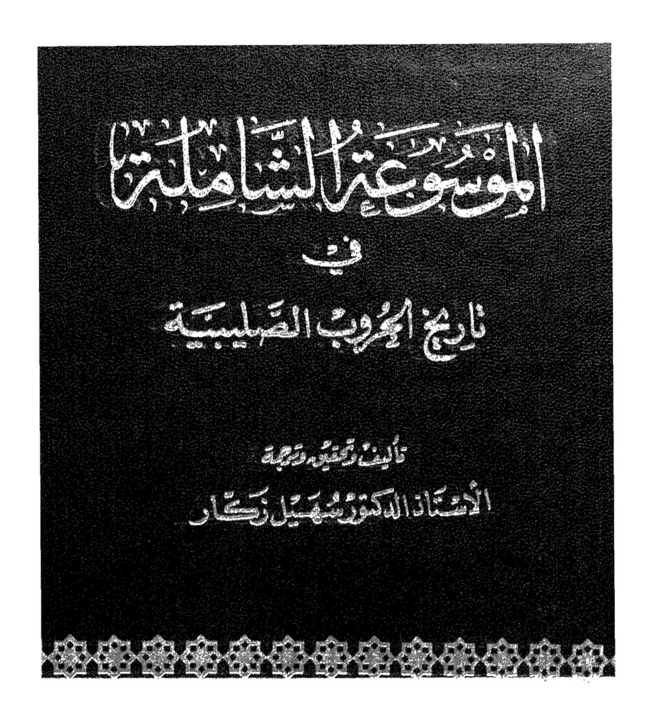


الجزء الثاني والأربعون

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثالث

تنويه

أثناء إعداد هذا الجزء فجعت سورية والأمة العربية والعالم الإسلامي والإنسانية بوفاة راعي مشروع هذه الموسوعة الرئيس المؤمن حافظ الأسد، وكان ذلك يوم العاشر من حزيران، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، وآلت الرعاية الآن الى ولده الرئيس الدكتور بشار الأسد،أنار الله سبيله، وجعله خير خلف لخير سلف .

سهيل زكار

المكان الذي يقال نمت فيه الشجرة التي من خشبها صنع الصليب

غادرنا الآن مكان ميلاد القديس يوحنا، وبمغادرتنا الوادي الذي جئنا عبره إلى ذلك المكان، تسلقنا الأرض المرتفعة على الجانب باتجاه القدس، ووصلنا إلى واد جميل وخصب، فيه قامت فيما مضى مدينة نوب التي كانت مدينة كهنة، وذلك حيث أكل داوود خبز التقدمة، وتسلم سيف جالوت، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر صموئيل الأول:٢١، وانجيل متى:١٢، وقد خرب الملك شاؤول هذه المدينة، وقتل كل انسان وجده فيها، وذلك حتى الأطفال الرضع، وقتل هناك بحد السيف خمسة وثمانين كاهناً، لأنها كانت مدينة كهنة وذلك كما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٢، وقد فعل هذا لأنهم أعطوا داوود خبز التقدمة والسيف.

ووصلنا من هناك إلى كنيسة جميلة، يلاصقها دير صغير، يعيش فيه رهبان جورجيون مع زوجاتهم، وعندما دخلنا إلى الكنيسة، اقتادونا إلى المذبح العالي، وهو المذبح الذي يقال بأنه قائم فوق البقعة ذاتها التي نمت فيها شجرة الصليب المقدس، ولهذا السبب، هذه الكنيسة مكرسة على شرف الصليب المقدس، واسمها كنيسة الصليب المقدس، ويوجد تحت الكنيسة حفرة، فيها حنينا أنفسنا نحو الأسفل،وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وتلقينا انعاشاً من هذه الحفرة، لأنه منها فاحت رائحة طيبة، أغرتنا بالوقوف مدة أطول أثناء تقبيلنا للموضع، ولقد جلبوا لنا ذراع القديسة بربارة، التي قبلناها، وهذه هي البقعة الطيبة، التي نمت فيها الشجرة الطيبة، التي تستحق التشريف الإلهي، التي وإن لم يعرفوها، فإن الوثنيين القدماء صنعوا تماثيل وفق نمط، لأنهم عندما قرروا صنع تمثال للرب،

قرروا بدقة أنه ينبغي عدم صنعه من الذهب، أو الفضة، أو الحجر، بل من الخشب، على أساس أن الخشب هو المادة المناسبة جداً، وقد قرأنا عن هذا عند يوسبيوس في: De Evangel praeparat, Book III .CH III

وبعدما صلينا، جلسنا في ساحة الكنيسة لنرتاح، لأننا كنا مانزال صائمين، وبدأ الحر يصبح عظيماً، وذهب بعض الحجاج إلى أكواخ أولئك الرهبان، وسألوهم إن كان لديهم أي شيء مطبوخ، غير أننا لم نر لامطابخ، ولاقدور طبخ في هذه الأكواخ، لأن هؤلاء الناس كانوا فقراء جداً، ووصل في الوقت نفسه، مسلم يحمل سله مليئة بالعنب، اشتريناها، وأكلنا معا بالخبز الذي جلبناه معنا في جعبنا، ونضحنا ماء من صهريج الرهبان، وعلى مقربة من هذا المكان يقوم الكثير من أشجار الزيتون، وهناك غابة صغيرة من أشجار الزيون والتين، وقد قالوا بأن سليمان قد امتلك بستانا في هذا المكان أيضاً، وأنه كان في بعض الأحيان يأتي إلى هنا في عربته الذهبية للتمتع فيها.

وكان بعد أن استردينا أنفاسنا، ركبنا حميرنا، وصعدنا إلى قمة الرابية، وذلك عبر طريق وعر وصخري، وعندما كنا فوق الأجزاء المرتفعة منها، رأينا المدينة المقدسة على مسافة منا، وعبرنا إلى جانب بيت سمعان، عبر طرقات تمر بين جدران البساتين المصنوعة من حجارة، جافة، وعلى طريقنا ولدى اقترابنا من القدس، دخلنا إلى قرية بين هذه الجدران الحجرية، حيث قدمت إلينا طريقاً عريضاً، لكن لسبب لم أعرفه، وقف رجل مسلم أسود، كان نصف عاري، في وسط الطريق، وكان يكوم حجارة إلى أكوام، وكان يمسك بهم عالياً، مهدداً برميهم على جماعة الحجاج، إذا ما سار أحدهم على ذلك الطريق، وبناء على صراخه وتهديداته توقف الحشد كله لمدة حوالي النصف ساعة، وبذل أدلاؤنا غاية جهدهم معه، وصرخوا مجيبين له، لكنه لم يهتم مطلقاً بهم،

وشرع وهو مغضب كثيراً، بكل جـرأة، برمي الحجـارة ضـد كل من حاول التقدم نحو الأمام.

وفكـرت في نفسي، وقلت آه: « لـو أنـك وقفـت هكذا في الطـريـق، بدون سلاح، في منطقتنا من العـالم، وأغلقت طريق رجل واحد من أقل هؤلاء النبلاء مرتبة، كم بسرعـة كنت ستجد سيفاً أو نشابة في طرفك»! لكن الحال في هذه المناطق الشرقية ليس هكذا، لأن الناس الشرقيين هم نوع مختلـف عنا، أو بالحري، أحكـامنا في الحيـاة غير أحكامهـم، فهم لديهم عـواطف مختلفـة، وطـرائق أخـرى للتفكير، وأفكاراً أخـرى، فأجسـادهم لها أشكال بشرة أخـرى مختلفـة، فهم خـاضعـون لتأثيرات نجوم أخرى، ومناخ آخر.

وهكذا تمكن ذلك الرجل المسكين، الأعـزل من السـلاح، والعـاري، من إرغـام الحشد كله على التراجع، وذهبنا عـائـدين عبر طريق طويل، وأدرنا ظهورنا لجبل صهيون حتى وصلنا إلى طريق آخر، حيث استدرنا هناك، ومضينا نحـو القـدس، جاعلين وادياً بيننا وبين المدينـة المقدسـة، والتففنا حـول هذا الوادي، ووصلنا إلى القـدس عبر حقل القصـار، ووافينا جبل صهيون في وقت القيام بالقداس، وكان الرهبان —على كل حال— قـد أخروا صلواتهم من أجلنا، حتى نتمكن من المشـاركة معهم في القداس في ذلك اليوم، وبعد الفـراغ من القداس، أخذ كل رجل منا نفسه إلى موضعه لتناول الطعام.

فصل حول
نزول الحجاج إلى نهر الأردن

سمع الحجـاج بعـد الغـداء بأن قبطاني الغليـونين، خططا في ذهنيهما، أخـذ الحجـاج واعادتهم إلى البحـر في غليـونيهما، وكأن الحج قـد انتهى الآن، وقمت على الفور فكشفت بالحدس هـذا السر، لأن من ممارسات

جون أوف بروسيا، وبتنا مستعدين لرحلتنا.

مغادرة الحجاج القدس في طريقهم إلى نهر الأردن المقدس

في الصباح الباكر، من اليوم التاسع عشر، وقبل أن يعم الضوء وينتشر ، نهضنا، وذهبنا إلى كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط، وهناك، بما أن اليوم كان يوم سبت، شاركنا في قداس العذراء المباركة، ومضينا بعد ذلك إلى جبل صهيون من أجل الصلوات الديرية،وفي بعض الظهر، وبعد الغداء، تسلمنا جعبنا في ساحة كنيسة جبل صهيون، وانتظرنا أدلاءنا وحميرنا مع سائقيهم، وأخيراً وبعد انتظار متعب، ولدى حلول وقت العشاء، جاءوا مع دوابهم لأخذنا إلى الأردن.

ولدى قدومهم، ركض الحجاج نحو الدواب لتجهيز أنفسهم، ووقتها نشب خلاف بين فارس وكاهن حول أتان، قال كل واحد منهما بأنه كان الأول بالحصول عليها، وضرب الفارس الكاهن ضربات كثيرة بقبضة يده، ولو كان معه سيف لجرحه، وطرده الفارس وأبعده عن أتانه، فحصل على حرمان كنسي، حرره منه الأب المسؤول قبل مغادرتنا.

وعندما انتهى كل شيء، نزلنا من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، وعبرنا الجدول، وتسلقنا الجانب الآخر بوساطة الوادي وجوانب من جبل الزيتون من خلال جبل العدوان، ونحن على طريقنا أشاروا لنا إلى بيت قديم، بني بقناطر معقودة، وهو مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الخائن يهوذا، ونظرنا نحو هذا البيت وازدريناه، وكأنه كان بيت الذي خلع حذاءه، وكان مكروها في اسرائيل، لأنه جاء في سفر التثنية:٢٥، أنه إذا مات أخ لرجل من دون أولاد، ورفض هذا الأخ أن ينجب أولاداً من الأرملة فلتقم وقتها زوجة أخيه هذه بخلع نعله من رجله، ولتبصق في وجهه، وبناء عليه يدعى بيته باسم بيت مخلوع النعل.

وجرى تنفيذ هذا القانون من قبل الرسل، حيث تولى كل واحد منهم الوظيفة التي لم يعتد عليها، وهي إنجاب أبناء في الكنيسة، لكن ليس بأنفسهم، بل من قبل المسيح، وقد حملوا بعد هذا اسمه، وقد فعل هذا الرسل بعد المسيح، لكن يهوذا قد حرم من كل شيء، لأنه لم ينجب أولاداً لأخيه، والكنيسة التي هي زوجة المسيح بصقت في وجهه، وطردته، واختارت ميتياس لأخذ مكانه، ولذلك لم يخلف شيئاً وراءه، باستثناء بيته الذي خلع فيه نعله، وهو مهدم ومزدرى، ولذلك مبارك ماقيل في الأمثال:١٧، «من يجازي عن خير بشر لن يبرح الشر من بيته» وبغم عبرنا من قرب هذا البيت الملعون «لأنه بيت متمرد» (حزقيال:٢).

المكان الذي لعن الرب فيه شجرة التين ولهذا لاتوجد ثمار عليها

وإثر تركنا للبيت المتقدم ذكره خلفنا في الوادي، سرنا بين جدران من الحجارة الجافة العائدة للبساتين والحدائق، وفي بطن الوادي، حيث إذا سرت أبعد، عليك الصعود، وصلنا إلى حديقة جميلة جداً، قامت فيها حشود من أشجار التين، وأغصان أشجار التين معلقة فوق الجدران الحجرية نحو الطريق، وهذه هي الحديقة التي رأى فيها المسيح من بعيد شجرة تين، عندما كان سائراً على الطريق من بيت عنيا إلى القدس،وكان جائعاً، وقد دخل إلى الحديقة، وجاء إلى الشجرة، طالباً ثماراً، ولكنه حيث وجد أوراقاً فقط، لعن الشجرة، فيبست على الفور، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى — الاصحاح الحادي والعشرين.

ولدى تعجب تلاميذه من ذلك قال لهم: «الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولاتشكون، فلاتفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر، فيكون»، وعندما قال الرب هذا أشار باصبعه إلى جبل الزيتون، الذي عند سفحه حدثت هذه الأشياء، وبناء عليه جئونا في هذا المكان مصلين، وبعدما صلينا للرب، حصلنا على

غفـرانات، وتغذينا بالنظام الروحـاني، متأملين كم هو مـرعب أن تحمل اسم مسيحـي أو ديانة من دون ثمار، مشـــاهـدين كيف أن لعنـة الرب سوف تنزل ثقيلة على مثل هـؤلاء، لأنهم أغصان جافـة أعدت لتحترق بنار أبدية.

وتابعنا سيرنا من هناك نحو الأمام، فوصلنا إلى بيت عنيا، وهي قرية مريم، ومرثا، ولعازر، وقد اجتزناها بخطوات واسعة وسريعة، ولسوف نقـدم وصفـاً لهذا المكان في المستقبل، ونزلنا من هذا المكان إلى صحـراء منستات monstat وجاء نزولنا عبر طرقــات وعرة، وهضاب خطرة، وقـارب حلول المساء، لأن الشمس قـد غابت، ورغبنا بالاستراحـة في مكان ما، حتى بزوغ القمر، وذلك بسبب وعـورة الطريق، وعندما نزلنا قليلاً، كانت الدنيـا مظلمة، وقد وصلنا إلى بيت مقنطر كبير، يمتلك من حـوله، داخل اطار مغلق، مـايشبه ديراً، لكنه مهجـور وفـارغ، وترجلنا قرب هذا البيت من على ظهور حميرنـا، بقصد أن نتمكن من الاستراحة هناك قليـلاً، وقـد دخلنا إلى المكان ونحـن نحمل مصـابيح، نبحث عن مكان يمكننا أن نرتاح فيـه، لكننا لم نجد مانريـده، لأن ذلك البيت كان مهـدمـاً ومليئاً بالقـاذورات والهوام، ولذلك خـرجنا منه ثانيـة، وتمددنا فـوق الأرض في مقـابل البيت، وقـد تفرقنا إلى عـدة جماعـات، في حين فصل أدلاؤنا المسلمـون أنفسهم أيضـاً عنا، واستراحـوا في مكان أعلى قليـلاً، وكـــان قـد لحق بهؤلاء الأدلاء بعض الشبـــاب ذوي الأوضـاع السيئة، الذين كرهونا، كما سيظهر فيمايلي:

والآن بعـدما أكلنا عشـاءنا معـا، أطفأنا مصـابيحنا،ووضعنا رؤوسنا فـوق جعبنا، وبـدأنا بالنوم، وفي الوقت ذاته، أقبل شـــاب مسلم بشكل سري، ونزل بشكل لصـوصي وسار بين حشـد الحجاج، وانتشل جعبـة حاج اعتقـد أنه نائم، وهرب بها إلى جماعته، لكن الحاج ورفاقـه ركضوا خلفه وهم يصرخون، وانتزعـوا منه الجعبة واستردوها ثانية، وبعد مضي

بعض الوقت نزل آخـر وسـار بشكل سري، وسرق جعبـة، كـان فيهـا خبزاً، وجبناً. ولحماً مدخناً، وبيضـاً مغلياً، وعندما اكتشف الحاج ذلك، شرع بالصراخ بصوت مـرتفع، ودعا بقيـة الحجاج إلى مسـاعدته، وبناء عليـه نهض الحجـاج، وركض عـدد كبير منهم مغضبين نحـو المسلمين، وحدث صراخ عظيم، واضطراب شـديد، أرغـم المسلمون بمـوجبه على الابتعـاد عن الحجـاج بوسـاطـة العصي والسيـوف، والتقط كل جـانب الحجـارة، لكن مـامن أحـد بدأ برمـاية أي منهـا، لأنه لو رمى أحـدهم بحجرة، لاشك كـان سينشب قتال خطير جداً، لأنه كـانت هناك أعداد لاتحصى من الحجارة، كلها ناعمة ومناسبة للرماية.

وهكذا وقفنا أمـام بعضنا بعضـاً، وصرخنـا، وبذل قبطانا الغليـونين والتراجمة جهوداً عظيمة لإعادة الهدوء، وكانوا يقـومون بتهدئة مكان ثم ينصرفـون نحو المكان الآخـر، لأن المسلمين شرعوا بإغضـاب كثير من الناس، وعندمـا هدأ هذا الاضطراب، وصمت الجميع، بدأ مسلم برمي الحجـارة على حشد الحجـاج من مكان خفي، وبناء عليه استأنفنا ثانيـة، وركضنا للحصـول على حجـارة، ودعـونا بصـوت مـرتفع الترجمان والقبطانين للدفاع عنا ضد هؤلاء اللصوص، ورمى بعضنا بحجارة بين المسلمين، مما أثارهم وأغضبهم، فنـزلوا بسيـوف مجردة، وأرغمـونا على رمي الحجـــارة التي التقطنـاها، وعلى كـل حـــال، لـدى رؤية -sa bothytanco، الترجمان، وكـالينوس الكبير، أن كــلا الجانبين في حـالة من الهياج عظيمة، يريد كل فريق منهما الايقاع بالفريق الآخر، ويصرون بأسنانهم غضبـاً، وقتهـا أمـر الحشد جميعـه بالنهـوض والمغـادرة، ولدى امتطاء حميرنا تركنا هذا المكان الملعون، وقد أشار الرب يسوع إلى مخاطر هذا المكان في الاصحاح العـاشر من انجيل القديس لوقـا، عندما تحدث عن الرجل الذي نزل من القـدس إلى أريحا بين اللصوص، وعنه سـوف يأتي في المستقبـل حـديث أطول، هذا ولقـــد كنا من بعـض الجوانب

الأخـرى حتى في خطر أعظم، لأننا جلبنا لصوصنا معنا، على حسـابنا، وكـان علينا تحمل وجود لصـوص غرباء وبامكاننا ذلك، لأنه قـد قيل: «أسوأ الأعداء هم الذين من آل بيت الانسان»، وكان البيت الذي رغبنا بالاستراحة إلى جـانبه، فيما مضى نزلاً وفق الطريقـة الشرقية، لأنهم بنوا بيـوتاً عظيمة إلى جـانب الطريق العام، مع كثير من الاسطبـلات تحت، وغـرفاً فـوق، من أجل دواب الانسـان للاستراحـة فيها، والبيت قـاتم مفتوح الباب، من دون أي سكان أو أي أثاث، وعندمـا كان يمر غرباء من هناك، كـان بامكانهم الدخول إليه، والاستراحـة في الظل، وأكل أي طعـام جلبوه معهم، لأنه لايوجـد هناك لارجل ولا امـرأة للطبخ، وفي الحقيقــة كــان للجمال الذين يحملون الأثقــال، محطات محددة، كــانوا لايتجاوزونها بل يرتاحون في نهاية كل واحـدة منها، وكان يقوم في مثل هذه الأماكـن بالعادة خانات مـن أجل الانسان والدواب للراحـة فيها، ولايجد الانسـان في الشرق نزلاً إلى جـانب بيـوت الاستراحة الفـارغـة هذه، حيث لاشيء فيها إلاّ ما يجلبه الانسـان معه إليها، ويبدو أن النزل الشرقيـة كـانت دوماً بيـوت راحـة من هذا النوع، ولهذا قـرأنا في سفـر التكوين:٤٢، حــول أخــوة يوسف، أنهم عندمــا كــانـوا في نزل، فتح أحـدهم عدله ليعطي علفـاً إلى حماره، وكذلك في سفـر الخروج:٤، بأن الرب طلب أن يقتل موسى في نزل.

فضــلاً عن هذا، لقــد حــدث في نزل من هذا النـوع أن ولد الرب (لوقــا:٢)، ولهذا انطلقنا من ذلك النزل، وكنـا مسرورين بأننا غــادرنا المكان، لأنه كـان من المتوجب علينـا امضاء الليل هناك في حـالة خطر، بسبب قتال المسلمين، وكان القمر، في الوقت نفسه، قد بزغ نوره، ونزلنا بخطوات واسعـة عبر الطريق الوعـر، كما نزلنا مسرورين عبر الصخـور المنزلقة، وعلى طرقات من هـذا النوع تعرف الحمير كيف تسير بسهولة، بدون وقـوع، وهم ينزلون بقـوائمهم الأمـاميـة فوق الصخـور ببراعـة

مدهشة، وذلك في طرقات هي مستيحلة بالنسبة للخيول، والطرقات في هذه الصحراء حجرية وهي بالعادة عالية وضيقة، مع وديان عميقة على كلا الجانبين، وبناء عليه إذا حدث وسقطت دابة من فوق الصخور المنزلقة، كانت هي ستسقط في هوة عميقة، ولسوف يهلك الانسان والدابة معا، ولقد دهشت تجاه النسوة اللائي كن برفقتنا، لأنهن ركبن بجرأة كبيرة، ومصدر عجبي هو أن المرأة ضعيفة بشكل طبيعي.

وكان معنا امرأة مسلمة، ركبت معنا حتى أريحا، وكانت شابة، جيدة الملابس وفق طريقتهم، لكن مامن أحد كان يمكنه أن يرى وجهها، لأن وجهها كان مغطى بقطعة قماش سوداء، كانت شفافة، وبذلك كان بإمكانها رؤيتنا، وأخيراً وفي نهاية النزول، وصلنا إلى المنطقة السهلية العائدة لأريحا، التي تبدأ عند سفح جبال اسرائيل، وعبرنا خلال أريحا ونحن نركض، ونزلنا خلال الجلجال لمدة ثلاث ساعات، وجاء سيرنا خلال منطقة منبسطة، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى قفار الأردن، التي من خلالها نزلنا إلى مجرى نهر الأردن، وهنا أعطينا حميرنا إلى سائقيهم وابتعدنا عن المسلمين، الذين مركزوا أنفسهم بين الأشجار لنيل الراحة، بينما أوينا نحن إلى فراش النهر المقدس وذلك وصولاً إلى الماء، حيث فيه جلبنا البرودة إلى أيدينا، ثم تمددنا للاستراحة فوق الرمال، حيث استرحنا بهدوء لبعض الوقت، لأن النهار لم يكن بعيداً.

قداس النهر المقدس الذي أقمناه على ضفته

وفي اليوم العشرين، الذي كان الأحد الثامن، بعد عيد الثالوث المقدس، وما أن صار ضوء النهار منتشراً، حتى نهضنا نحن الكهنة أولاً، وقرأنا ماتوجب علينا على ضفة النهر المقدس، وبعدما قرأنا صلواتنا الصباحية والأولى، نزلنا نحن الكهنة حتى الماء المقدس، وبدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Lavacra pu- rigurgitiscoelestis agnus attigit، الخ، وغنينا بعد هذا chris-

tum hodie in jordane baptizatum، الخ، لكننا لم نغن كلمة hodie، بل وضعنا في مكانها hoc loco in jordane baptizato Domino الخ، لأن من المعتقد، أنه في هذا المحل جرى تعميد الرب من قبل يوحنا، وعلى صوت غنائنا، أفاق الحجاج الذين كانوا نائمين بين القصب، وجاءوا يسعون نحونا، وأفاق المسلمون أيضاً، ووقفوا فوق أرض مرتفعة ينظرون نحونا، وبعدما غنينا الترنيمات المعينة في كتب المسيرات، ارتمينا على الأرض وقبلنا الأشياء الرطبة والأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ومكثنا بعض الوقت في الصلاة، لأن اليوم كان نهار أحد، ولم نكن ذاهبين لسماع أي قداس، وليس هذا بسبب إهمالنا، ولكن بسبب استحالة ذلك، مما أعفانا من ذنب الانتهاك.

استحمام الحجاج في الأردن والأشياء الثلاثة التي حرمت عليهم

وعندما فرغنا من صلواتنا، نزعنا عنا ملابسنا، حتى نتمكن من الاستحمام في النهر المقدس، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، سمحوا لنا بغسل أنفسنا، لكن حظروا علينا أشياء ثلاثة: (١) أن لايسبح انسان حتى الضفة الأخرى، (٢) لايجوز لانسان أن يغوص تحت الماء، (٣) ينبغي أن لايأخذ انسان أية مياه معه في قارورة، ليحملها إلى وطنه معه عبر البحر، ومن ثم إلى منطقته، وكان السبب الأول لهذه المحظورات، أن الذين يسبحون نحو الضفة الأخرى، يحصل كل واحد منهم، في جميع الأحوال، في دائرة الخطر على حياته، ولم يحدث قط أن انسانا من بين الذين سبحوا حتى الضفة الأخرى عاد من دون التعرض لبعض الأذى، والسبب من أجل الحظر الثاني، هو أن قاع الأردن طيني، وكل من يغطس فيه، ربما يلتصق هناك ويهلك، وسبب الحظر الثالث هو أن ابحار السفن التي تحمل على ظهرها ماء من الأردن، هو دوماً غير سعيد، فهذا غالباً ما وجده الملاحون بالتجربة.

وصحة ما قد قلته سوف تظهر فيها بعد، وهكذا بعدما نزعنا ثيابنا ذهبنا إلى الماء المقدس، وباسم الرب عمدنا أنفسنا في أمواجه، ولم يخلع بعض الفرسان ملابسهم، بل غطسوا في الماء بالثياب نفسها التي ارتدوها عندما امتطوا ظهور حميرهم، قائلين بأنهم سوف يكونون دوما سعداء بهذه الثياب من الآن فصاعدا، وبناء عليه، إنهم عندما سيصلون إلى الوطن، سوف يحفظون هذه الملابس ويدخرونها مثل الكنوز، ويلبسونها عندما يذهبون إلى المعارك، معتقدين أن مامن أذى سوف ينزل بهم، واشترى بعضهم قطعاً من الكتان أو الصوف، قاموا بتغطيسها بالماء، بقصد التمكن من أخذها معهم إلى الوطن، ومن ثم صنع ملابس منها حسبما يطيب لهم، معتقدين أنهم عندما سيلبسونها سوف يبتسم الحظ لهم، ويكون أكثر لطفاً .معهم من غير ذلك من الأوقات.

وكان بعضهم قد جلبوا معهم أجراساً صغيرة، كانوا قد اشتروها من البندقية، وقد جلبوها معهم إلى الأردن، وعمدوها في الأردن باسم الثالوث، وقد حملوا هذه الأجراس فيها بعد معهم إلى الوطن، ومن ثم إلى المناطق الخاصة بهم، وهم يقولون بأنه في أثناء العواصف، والبرق والرعد، إذا ما قرع جرس معمد في الأردن، لا البرق ولا البرد، يمكن أن يحدث أذى، في إطار المنطقة التي سمع فيها صوت القرع، وعلى كل حال إن مدى الصدق في هذه الحكايات حول الأجراس والملابس المعمدة في الأردن، وفيما إذا كان اعتقاد العوام، الذي يؤكد صحة الحكايات المتقدمة، كله صحيحاً أو وهماً، فهذا على الرجل العاقل تأكيده بالنسبة لنفسه.

وبناء عليه وقفنا في الماء وسط بهجة عارمة، وكان كل واحد منا يقوم مبادراً بتعميد الآخر، ومع أن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، لم تكن المياه باردة، بل دافئة، ومناسبة للاستحمام فيها، كما أننا شربنا بعضاً

منها، ومع أننا كنا صائمين، لكننا فعلنا ذلك صدوراً عن التقوى، وهي على كل حال —لم تكن طيبة الطعمة لأنها لم تكن باردة، وكانت موحلة مثل مياه المستنقعات.

وأول ما حدث أن بعض الحجاج لم يطيعوا أمر الحظر الأول، الذي صدر عن المسلمين، وسبح عدد كبير منهم إلى الضفة الأخرى من النهر، وكنت خلال حجي الأول قد سبحت أيضاً إلى الضفة الأخرى، لكن في الثاني مكثت، وجلست في المياء فوق الرمل، والماء حتى عنقي، وكنت مرتديا قميصي ووشاحي الكتفي، ولم أرغب، في حجي الثاني، بالسباحة عبر النهر، لأنه حدث في حجي الأول أنني ارتعبت بشكل هائل، عندما كنا على الضفة الأخرى من النهر، بسبب فعلنا ذلك، لأننا سبحنا وعبرنا برفقة عدد كبير من الفرسان الآخرين، وكنا نلعب بسرور في الماء على الجانب الآخر، عندما ارتفع فجأة صراخ مرتفع، وبدأت تحدث فوضى مع اضطراب عظيم، والذين كانوا على الضفة الأخرى صرخوا صرخات مخيفة، وعلاوة على ذلك، ركض المسلمون، الذين تألفوا من أدلائنا والآخرين، إلى أعلى الضفة، وصرخوا بأصوات مخيفة غاضبة، وشتمونا وهددونا، وتجاه ذلك وقفنا مندهشين، وبسبب كثرة الناس الذين كانوا يصرخون، لم نستطع أن نعرف ما الذي حدث، حتى سبح حاج نحونا من الضفة الأخرى، وعندما اقترب منا، صرخ: انتبهوا، إن واحداً من إخواننا الحجاج، قد غطس في وسط الماء، ولايمكن رؤيته، وبمجرد سماعنا ذلك، سبحنا إلى المكان الذي غطس فيه، وسبحنا من حوله، منتظرين له كي يظهر.

وأخيراً، وبعد مضي وقت طويل، أمكن رؤيته، وقمنا على الفور بجرّه من شعره، وجلبناه إلى الضفة الأخرى، أي إلى الضفة التي نحوها سبحنا وعبرنا إليها، لأنها كانت الأقرب بين الضفتين، وكان أشبه بالميت، ثقيلاً وغير قادر على التكلم معنا، حتى تقيأ الماء الذي

ابتلعه، وعندما أعدناه لمناه، وسألناه كيف بلغ به الحمق حداً، أنه ذهب إلى الماء، من دون أن يفهم فن السباحة، فأجاب: إنني منذ صغري، كنت دوماً عارفاً بهذا الفن، ذلك أنني نشأت على أطراف المياه، لكن عندما دنوت من وسط الأردن، لمسني شيء ما من تحت الماء، ولقد ارتعبت كثيراً بتلك اللمسة، إلى حد أنني فقدت كل قوة أطرافي، ولم يعد بإمكاني مساعدة نفسي، لابقدمي، ولا بذراعيّ، وعندما كان يقول هذا ارتجف، ولم يعد بإمكانه الوقوف.

وكان المسلمون وقوفاً على الضفة الأخرى من النهر، فأخذوا يصرخون للانتهاء من هذا الأمر، ولنسبح ثانية عائدين، وهكذا شجعنا ذلك الحاج، ونزلنا إلى الماء معه، ولكن بعدما سبح مسافة ضئيلة بدأ يغرق، فأمسكناه من شعره، وواجهنا بعض الصعوبة في جره، وكان المسلمون في تلك الآونة، وقوفاً على الضفة أمامنا، وكانوا قد فقدوا صبرهم، وكانوا يصرخون علينا، وهنا أقدم اثنان من الحجاج الأقوياء، كانا يتقنان السباحة، فوضعاه بينهما بشكل أنه أمسك واحداً منهما من ذراعة وأمسك بالذراع الأخرى ، وتعلق على رقبتيهما ، حتى يتمكنا من السباحة معه ومن ثم إعادته، ولكن ما أن بدأ الثلاثة بالسباحة حتى شرعوا بالغرق، وبصعوبة بالغة تمكن الاثنان من انتزاع نفسيهما من قبضته، وتمكنا من انتزاع نفسيهما، وخرجا إلى سطح الماء، لكنه بقي لمدة طويلة تحت الماء، ثم ظهر ثانية، وكما حدث من قبل، سحبناه إلى الشاطىء وكأنه ميت، وقد فقد جميع قوته.

وبناء عليه أمرنا أدلاؤنا، بالسباحة والعبور إلى حيث كانت ملابسنا، وأن نترك ذلك الحاج حيث كان، حيث سيتدبرون أمره، وهكذا سبح جميع الحجاج وعبروا، وعندما أردت السباحة والعبور، استولى علي الفزع، بسبب الخطر الذي رأيته، وبدأت أرتجف وأتخيل وأتمتم قائلاً: «إنني بخفتي وطيشي، تخليت عن ثوب طائفتي، وقدمت إلى هنا، على

الرغم من أوامر سادتي أدلائي، وإنني إذا ما غرقت هنا، فإنني سوف أغطس من أعماق هذا الماء إلى هوة الجحيم، وذلك بسبب فسقي وخفتي، وعريّ اللاديني، فلأجل هذا السبب أستحق الحرمان الكنسي لأنني عصيت أوامري، ولكم كان جميلاً لو كنت مع أولئك الحجاج، الذين هم على الضفة الأخرى، ذلك أنهم يقفون بأمن وأمان، يارب مولاي، أرجوك لاتدع عاصفة الماء تحملني نحو الأسفل ولا أن تبتلعني الأعماق، ولاتدع أيضاً هوة الجحيم تفتح فاها لإلتقافي».

وما أن فرغت من قول هذا، حتى قوّيت نفسي بشارة الصليب، وقفزت بقوة ورغبة شديدة إلى الماء، وأرغمت نفسي بقدميّ وذراعيّ على عبور وسط النهر، ووصلت إلى الضفة الأخرى من دون عائق، وعلى الفور، بعدما وضعت عليّ وشاح طائفتي، قطعت على نفسي عهداً خاصاً، في أن لا أبتعد ثانية مادمت حيا بين الناس، لمثل هذه المسافة عن ثوبي الرهباني وشعار طائفتي، لأنني في أن أكون بعيداً عنه أمر محزن جداً بالنسبة إلي، ويبدو أنه أمر غير محتمل بالنسبة لي في أن أغرق بالماء من دون ثوبي، لكن في ثوبي، ماكنت لأهتم بالأمر كثيراً.

ولو أنني قدّرت الأمر، وفكرت بالعمل قبل السباحة والعبور، لما قمت بالسباحة والعبور مقابل أي شيء في الدنيا، وإنني أعرف جيداً، أن الحكماء في كل من القانون واللاهوت، يؤكدون بأن على رجل الدين، إذا كان ملزماً بارتداء ثوب طائفته، أن يفعل ذلك سواء أكان مرتاحاً في فراشه، أو في أي حال من الأحوال، مالم تكن هناك حاجة ضاغطة جداً، أو مرض لايسمح له بارتدائه، وبدون ذلك يكون قد اقترف ذنباً مميتاً، علاوة على ذلك إنه إذا ما ظهر رجل دين دون أن يأبه —بدون ثوبه الكهنوتي — أمام رجل علماني، فبهذا العمل بالذات ينال الحرمان الكنسي، ولقد وقعت في خطر عظيم بسبب الإهمال.

وكان الآن، في ذلك الوقت، الحاج المتقدم الذكر، واقفاً وحده ،

عارياً، ومليئاً بالخوف، ومضطرباً مع وجه شاحب، وقام مسلم بامتطاء فرس قوي، وسار مسافة كبيرة عبر مخاضة للأردن، وأعاده إلينا، وأعطاه الحاج ذهباً كثيراً، ثمنا لحياته، وكان هذا الحاج، قبل أن يصاب بما أصيب به، رجلاً وسيماً، وشهوانيا، ومفرطاً، وكثير الخصومات، وكان مكروهاً من قبل كثير من أتباعه، لكن بعد إعادته إلينا، صار انساناً آخر تماماً، شاحب الوجه، وجباناً، ومتواضعاً، صاغراً، وقد بقي دوماً حزيناً، وكأنه كان منبوذاً، ولا أعتقد أنه عاش كثيراً من السنوات، بعد ذلك.

ولسوف أتحدث عن نازلة أخرى، أنا بالحقيقة لم أكن شاهداً لها، بل سمعتها من واحد جدير بالتصديق: ففي السنة التي كانت بين حجي الأول وحجي الثاني، ذهب عدد كبير من النبلاء الألمان بحراً نحو الأرض المقدسة، وجلب واحد من أعظم الرجال بينهم ديكه معه، ومع أنه لم يكن يعرف الأردن، كان لديه شعور مسبق بالخطر، ذلك أنه اعتاد طوال الرحلة على القول بأنه لايخاف من أي شيء خلال ذلك الحج، إلاّ من الأردن فقط، وعندما وصل إلى الأردن، رفض السباحة عبره مع البقية، ومع ذلك خلع ثيابه، ودخل إلى الماء لتبريد نفسه وغسلها، ولكن والماء لم يصل إلى صرته، بدأ يغطس، وقد غرق تحت الماء، ولم ير مرة ثانية.

وكذلك في حجي الثاني هذا، الذي أتولى الآن وصفه، سبح عدد كبير عبر النهر، دون مراعاة لأوامر الحظر التي صدرت عن المسلمين، وكانوا يتوقعون وقوع بعض المخاطر، ولذلك صرخوا يلومون الذين سبحوا عبر النهر، وكان بين هؤلاء كاهن، سبح عبر النهر، مثلما فعلت أنا من قبل، وقد فقد عند الضفة الأخرى قوته الجسدية، ولم يعد قادراً على السباحة، كما أنه لم يعد يعرف كيف، بل وقف يرتعد خوفاً، وقد أعيد من قبل رفاقه مع صعوبة كبيرة، أعيد وهو رجل ضعيف ومحطم، في حين أنه كان قبل هذا مفعما بالحيوية وقوياً، وكان صديقاً عظيماً لي،

وغالباً ما سألته عما حدث له، وقد أجابني بأنه فجأة فقد قوته، ولقد سألت حجاجاً قدموا إلى الأردن قبلي وبعدي، فوجدت نزول بعض المصاعب دوماً بواحد ما.

ومما تقدم قوله ينبعث سؤال هو: كيف حدث أن ذلك الخطر والاضطراب غالباً ما وقع في هذا الاستحمام، مشاهدين أن النهر ليس عريضاً، ولايمتلك تياراً سريعاً، بل تياراً بطيئاً إلى حد ما؟ ولهذا جواب ما، هو أن بعض الحيوانات الشريرة تكمن في تلك المياه، وهي عندما تشاهد حركة انسان وهو يسبح، تخرج من قعر الماء وتحاول الامساك به وهو يسبح، ويقول آخرون، إن السبب هو أن مكان الاستحمام قريب من المصبات التي يفرغ الأردن بها نفسه في البحر الميت، لذلك يحدث هناك بعض التمازج لمياه البحر الميت مع مياه هذا النهر، ونظر لسمية هذه المياه، يفقد الرجال الذين يسبحون عبره قوتهم.

ويقول آخرون بأن مامن شيء يعيش في البحر الميت، باستثناء بعض الحيوانات الجهنمية غير الطبيعية، التي تسبح، وتصعد من البحر الميت، وتسبب موت الذين يسبحون، ويقول آخرون بأن منشأ الخوف هو تصورات مرعبة، لأن الحجاج يسمعون دوماً حكايات حول هذه المخاطر، وكل واحد يرتجف تجاهها، ويقوم الجميع وهم محترزون، خشية من لحاق بعض الشرور بهم، يقومون وهم في حالة من الرعب بالسباحة عبر النهر، ويفقد بعضهم قوته من خلال التخيل والاعتقاد، بأنهم لمسوا، أو جرى جرهم نحو الأسفل للاغراق، ويقول آخرون بوجود سبب آخر، وهو أن السباحة عبر النهر فيها علامة على الشهوة واقتراف الاثم، ممالاينبغي اظهاره في مكان مقدس مثل هذا،فالرب عاني من الاضطراب ليأتي إلى رجل واحد، من أجل ان يعبر الآخرون هناك عن الجدية، والهدوء، والالتزام بالنظام، لأنه بسبب الأمور الاعجازية التي صنعت هناك، صار هذا المكان، مكان وقار، وليس

مكان طرب، مكاناً للبكاء وليس مكاناً للضحك، مكانا للصلاة وليس مكاناً للصراخ، مكاناً للركوع وليس مكاناً للصراع، ومكانا للتوبة وليس مكاناً للشهوة.

لكن الحجاج أخذوا هذا كله من الجانب المعاكس، ولهذا أرخيت الأربطة في مثل هذا المكان المهيب ولذلك تعرض بعضهم للعقوبة ليكونوا مثلاً للبقية، ولكن مامن شيء لحق الذين عمدوا أنفسهم بشكل رصين وخشوع، كما رأينا في أوضاع النساء من الحجاج، اللائي تحممن بين القصب فوقنا، بشكل لطيف وهادىء، وتقي، وأكثر سكونا مما فعلنا، وكنت أرغب، بالنسبة لمسألة هؤلاء النساء العجائز، أن يكون ماقيل صحيحاً ويتبرهن حقاً، لأن الناس يقولون، بأن من يستحم في الأردن، لايصير أكبر، لابل كلما بقي في الماء مدة أطول، صار صغيراً أكثر، فعلى سبيل المثال، إذا استحم لمدة ساعة، صار أصغر لمدة ساعة واحدة، وإذا استحم لمدة ساعتين، صار أصغر لساعتين، وإذا كان لثلاث ساعات، صار أصغر لثلاث ساعات، وإذا استحم لمدة سنة، صار أصغر لمدة سنة وهكذا ، لكن رفيقاتنا من النساء يحتجن للاستحمام لمدة ستين سنة، حتى يستعدن شبابهن، لأنهن كن نساء في الثمانين من العمر، فما فوق.

وإذا كان الذين يستحمون في الأردن لايكبرون، فوقتها إنه حمام شرير، لأن الرب قال على فم اشعيا (٦٥/ ٢٠): «لأن الصبي يموت ابن مائة سنة، والخاطىء يلعن ابن مائة سنة»، وسيكون هذا الحمام مطلوبا فوق كل شيء ومرغوباً، إذا كان يزيل الأمراض، والضعف، والشيخوخة من الجسد، ويعيد الشباب إلى العقل.

علاوة على ذلك، إن كثيراً من الناس العلمانيين تافهين، أوساذجين، إلى حد الاعتقاد أنهم إذا ماتعمدوا في الأردن سوف لن يكونوا أكبر مطلقاً، وهذا سبب بذلهم جهوداً كبيرة للوصول إلى الأردن وتعميد

أحـدهم الآخـر هناك، وهم أيضـاً الذين يغطسـون في الميـاه العميقـة، مخالفين لأوامر المسلمين.

وبعـدما فـرغنا من استحمامنا، أخـذ بعض الحجاج مـاء من الأردن، بجرار، ودوارق، وقـوارير من زجـاج مخالفين بذلك الأمـر الثـالث للمسلمين، الذين منعـوا ذلك، بناء على مبـادرة القبطانين، لأن قـادة السفن لايسمحون بوجود الماء على ظهـر سفنهم، لأنهم يعتقدون بشكل ثابت وأكيـد،. أن السفن التي على ظهـرها ميـاه من الأردن هي سيئة الحظ، ولايمكنهـا القيـام برحـلات سريعـة، بل هي في خطر، مـادامت نقطة صغيرة من الميـاه باقية على سطحهـا، وغالبـاً مارأيت أنا شخصيـاً هذا، فعندما كانت هناك مخاطر في البحر، ناجمة عن رياح معاكسة أو من الحاجـة إلى الريـح (١٩٨) يسعى القبـاطنة حـول أطراف الغليـون ويركضـون، يفتشـون جميع الحجـاج والصناديـق وكل مـاهو مغلق، ويبحثـون في كل شق وزاوية بحثـاً عن مياه الأردن، التـي إليها يعـزون سـوء الحظ وإذا لم يجدوهـا في التفتيش الأول، يبحثـون ثانيـة، وإذا مـا استمرت مصـاعب الملاحة، يعاودون البحث بحدة متناهيـة، ويتهددون كل من يجدون لديه أيا من هذه المياه، حيث يقومون برميه مع حقائبه في البحر.

وتحملنا في حجي الأول كثيراً من هذا القبيل، وجـرى تفتيشنا بشكل مهين من قبل الملاحين، بحثـاً عن هذه المياه، وبناء عليـه، إنه لمن المفيد، معـالجة هذا الأمـر، ورؤية مـدى الصـدق الموجـود في هذه الفكرة، أي فكرة، أن ميـاه الأردن، إذا مـا وضعت في قـارورة، وحملـت على ظهـر سفينة مسـافرة في البحـر، فيهـا أي طاقة تعيـق إبحارها، وتجعل البحـر هائجاً، وتمنع الريـح الطيبة من الهبوب، أو تغير أحـوال الهواء أو البحر في أي حال من الأحـوال،وذلك كما يقول قـادة السفن بأنها تفعل، وهنا علي أن أذكـر أنني سمعـت من رجل مـوثوق ومتعلم بـأنه قـد رأى في

روما مرسوماً بابويا بختم رصاصي، فيه جرى منع أي انسان من جلب ماء من الأردن إلى البلدان الموجودة فيها وراء البحار، وإذا فعل ذلك فسوف ينال لعنة البابا، وقالوا أيضاً، بأن سادة البندقية قد أمروا، بإعادة أي انسان من فوق سطح البحر، إذا كان معه الماء المتقدم الذكر، وأنهم غالباً مايقدمون ويفتشون السفن،ويريقون المياه التي يجدونها فيها.

وبناء عليه، فإن الذي يقول بأن ابحار السفن يعاق بحظر البابا، هو معلن معترف أن ذلك بسبب الماء، بل الذي هو مصدر الإعاقة هو الحظر البابوي، والآن إذا كانت أوامر الحظر البابوية، تعيق إبحار السفن، لابد أن ذلك يتم بوساطة معجزة، وبسبب وجود أشخاص محرومين كنسياً، وليس بسبب الماء، وذلك تماماً كما نقرأ حول أشخاص محرومين كنسيا، في كونهم عرضة لكثير من المآسي، من ذلك على سبيل المثال، أن مثل هؤلاء الأشخاص لايدفنون في أفنية الكنائس، بل يلقى بهم أثناء الليل في العراء ويتركون للافتراس من قبل الحيوانات المتوحشة.

ومثل هذا عندما كان النبي يونان عاصيا هبت عاصفة هوجاء، وعندما ألقي به من السفينة، توقفت العاصفة، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، وهذا — على كل حال— لايحدث إلى جميع الأشخاص المحرومين كنسياً، بل فقط مع الأشخاص الذين يرغب الرب في إظهار معجزة عليهم وبهم، وواضح أن هذا لايقع للجميع، من قضية هؤلاء الحجاج الذين يقلعون مسافرين من دون الحصول على ترخيص من البابا، ويصلون إلى القدس بسلام، مع أنهم في وضع المحروم كنسيا، ومن هنا ينبعث سؤال جديد، هو بناء عليه: لماذا أقدم البابا على اصدار قرار بمنع جلب مياه الأردن، والجواب كما يبدو، هو أنه فعل هذا، ليزيل الأوهام التي أثارها استخدام ذلك الماء، لأن بعض الكهنة الساذجين، يعتقدون أنهم لن يتملكوا القوة الحقيقية للتعميد، مالم

يمـزجوا الماء مع بعض الماء مـن الأردن، ذلك أنهم اعتقدوا أن التعميـد بذلك الماء هو أكثـر قـداسـة، وأعظم تأثيراً منـه بدونه، ومثل هذا، فإن بعض النساء اللائي يؤمن بالأوهام، لايقبلن بتعميد أولادهن، مالم يكن في الماء بعض الماء من الأردن، قد مـزج به،حتى وإن آمنّ بأن الماء الآخر فيه كفاية، تراهن مع ذلك يقدرن، أنه حيث توفـر ماء قد مزج به بعض ماء الأردن فهو أكثر قداسة، وجميع هذه الآراء خاطئة.

وعلاوة على ذلك إذا ما أراد المشعوذون والسحـرة، القيام باستخدام خاص لهذا الماء، استخدموه في الحال عندما يتمكنوا من جلبه، وذلك في ممارساتهم الواهمة،من أجل تحليل الحظر الذي أصـدره البابا حول جلب المياه، لكن إذا — بناء على ذلك — ماجرى إعاقة ابحار السفن، فوقتها يكون الرب قـد عمل معجـزة جـديدة، ويقـول آخـرون، بأن الماء من الأردن، مـادام جـارياً، هو مـاء حـيّ، لكن عندمـا يوضـع في قـارورة يمـوت، ويصبح آسنا، وبما أن البحـر لايمكنه أن يحتمل مـاهو ميت وفـاسد، لذلـك — كما يقولون— تعـاق السفن في إبحـارها، لكن هذا غير صحيح، لأنني رأيت أوعية كبيرة، صـار الماء فيها آسنا، وقـد جرى حملها إلى مسـافات عظيمـة فوق سطح البحـر، وذلك من أجل أن تبقى بعض الميـاه الطازجـة في السفينة، مع أنها كـانت آسنة، ومثل هذا رأيت جسد رجل ميت، قد مات مؤخراً، وقد حمل على ظهر السفينة من جزر السيكلاد cyclades حتى البندقيـة، وهذا أمر سوف أتـولى شرحه فيما بعد.

ويقـدم آخـرون سبباً آخـر، ويقـولون بأن البحـر الميت يحتـوي على صفات مدهشة، وبما أن مياهه تتمازج هنا مع مياه الأردن في هذا المكان، لذلك لايستطيـع البحـر الكبير تحمل ميـاههما ، بسبب العـداوة التي يحملهـا كل واحد من البحـرين نحـو الآخر، لكنني لا أصـدق هذا ولا أومن به، وأتصـور انعـدام وجـود الملوحـة فيه، في حين أن ميـاه البحـر

الميت، شديدة الملوحة، ولهذا أطلق عليه في الكتابات المقدسة اسم «البحر الأعظم ملوحة»، وعلى هذا لايوجد هناك، في ذلك المكان، تمازج بين المائين، ويقول آخرون بشكل أفضل، وأكثر صدقاً، بأنه من الأوهام أن تؤمن بأن مياه الأردن لها قوة إعاقة، أو تغيير الرياح، أو التدخل في حركات الهواء والبحر، ومع ذلك إنه بسبب عدم إيمان الأناس المسيحيين، يتم هذا كله بأمر من الرب، حتى وإن تكن هناك على ظهر السفينة مياه من الأردن، فإن هذا يحدث ليس بسبب الماء نفسه، ولكن بسبب الحاجة إلى الايمان، لابل حتى كما نرى أنه من خلال الايمان السيء، بعض الأشياء تعمل فتشفي من بعض الأمراض، وهي أشياء ليس لديها سبب لشفاء هذه الأمراض، كما أنها غير متبناه في فن الطبابة لفعل ذلك، من ذلك على سبيل المثال إذا ماوقع فرس وصار أعرجاً بقدمه اليمنى، أقوم مباشرة بربط القدم اليمنى لبقرتي، التي ليست عرجاء، ويشفى بعد ذلك حصاني، ليس بسبب ضماد بقرتي، بل بسبب سوء ايماني في اعتقادي بهذا،وهذا فيما يختص بالسؤال الذي هو أمامنا.

وحالما ترى قبطان سفينة يعتقد أن نقاطاً قليلة من ماء نهر الأردن يمكن أن تغير المجرى العام للهواء والماء في البحر الكبير، وتغير الرياح، وقتها عليك أن تعاقبه لذنبه،لأن الرب هو الذي يأمر بإعاقة الابحار، لزيادة الايمان السيء، هذا وكون هذا الاعتقاد هو وهمي، واضح أيضاً، من حقيقة أن كثيرا من الناس يمكن العثور عليهم، ممن جلبوا هذه المياه، علماً بأنهم اقترفوا خطأ بعملهم ذلك، لأن ذلك محرم من قبل البابا.

وليكن في هذا كفاية، ذلك أنني تجولت بعيداً عن مكان استحمامنا في الأردن، ووصلت بعيداً حتى البحر الكبير، وبناء عليه، عندما دعانا المسلمون، خرجنا من الأردن المقدس، وارتدينا ملابسنا، وخرجنا من

مجرى النهر، ووقفنا نتأمل المكان، ثم إننا جلسنا بين الشعراء، وأكلنا خبزنا والأشياء الأخرى التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، وذلك دون أن نعبأ بالمسلمين، الذين كانوا واقفين على أقدامهم، وتابعوا يستدعوننا لمغادرة ذلك المكان.

وصف الأردن وأولاً ينابيعه

أنا مقبل على تقسيم ماسأقوله حول نهر الأردن، إلى ثلاثة أقسام، هي:(١) ينابيعه، و(٢) صفاته و(٣)(إطرائه).

وفي وصفي للأردن، لابد أنني بحاجة لصنع إشارة إلى أماكن، أنا لم أرها بعيني، لأنه صحيح أن حجنا قد وصل إلى الأردن، لكنه بالفعل لم يصل إلى بداياته، وفيما يتعلق بينابيع الأردن، لقد قيل بشكل عام، وماقيل هو صحيح، بأنه ينبع من أسفل جبل لبنان، وذلك من نبعين، هما «أر» و «دان»، ومن هذين الاسمين مجتمعين نال اسمه وبات يعرف «بالأردن»، وأرجع بعضهم ينابيعه إلى الوراء كثيراً،وقالوا يرسل الفرات، الذي هو نهر من أنهار الجنة، فرعاً صغيرا من فروعه، من خلال قناة سرية، تحت الأرض، وهذه تجمع مياهها في نبع اسمه فيالا phyala، وهو نبع عميق، وملىء دوما، لكنه لايتدفق، ويطلق المسلمون على هذا النبع اسم «ميدان»، وورد هذا الاسم في انجيل متى: ١٥ «مجدل»، وفي انجيل مرقص:٨، باسم دلمانوثة.

وكما قلت من قبل لاتتدفق مياه هذا النبع، بل تمر خلال منطقة الطرخونية من خلال قناة تحت الأرض سرية، وبذلك تجعل النبع يجري عند سفح جبل لبنان، وهو الذي اسمه «دان»، وكون نبع دان هو نبع المجدل مبرهن عليه من خلال حقيقة القش الذي يرمونه في نبع المجدل فيجدونه جارياً من خلال نبع دان، ويبعد هذان النبعان عن بعضهما ستة آلاف غلوة.

ويقـولون بـأن نبع «الار» يتلقى ميـاهه من نهر الـدجلة الذي هو نهر الجنة الآخر، وذلك بـوساطة قناة من تحت الأرض، وتتدفـق مياه هذان النبعان: «أر» و «دان» من سفح جبل لبنان، مع وجود مسافة بين الأول منهما والآخـر، ويجريان معـا في نهر واحـد أمـام باب المدينة التي كـان اسمهـا القديم هو لايش،وصـار لهما اسم واحد هو الأردن، ونقـرأ عن مدينة لايش في انجيل يوحنا:١٠، وفي سفـر القضاة:١٨، فهنا ورد الخبر بأن أبناء دان قد وجدوها مدينة غنية وآمنة، فاستولوا عليها، وأحرقوها، ثم أعادوا عمارتها وأعطوها اسم دان، وهو اسم أبيهم.

وكانت هذه المدينة آخـر مدينة في الأرض المقـدسة باتجاه الشمال، وفي هذا المكان جـرى نصب صنم ميخا، الـذي نقرأ عنه في ثنايا الاصحـاح الثـامن عشر من سفـر القضـاة، عـلاوة على ذلـك نصب يربعـام، ملك اسرائيل، هناك واحداً من عجليه الـذهبيين، وأمر الناس بعبادته، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثاني عشر:٣٢، من سفـر الملوك الأول، وبعد زمـن طويـل من أيـام فيليـب، الذي كـــــان الطيطراخ لـلايطوريـة والطرخـونية، صـار اسمهـا قيسارية، صـدوراً عن احترام قيصر، ولهذا السبب ورد اسمهـــا في انجيل متى:١٦، «قيســـارية فيليـب»، وسماها الاغريـق فيما بعد «بانيـاس»، وهي في هذه الأيام، لاتدعى باسم لايش، ولا دان، ولا قيسارية، ولابانياس، بل بلنياس.

وبناء عليــه يلتقي «الأر» مع «دان» أمـام بـاب هذه المدينة، ويشكل اجتماعهما نهر الأردن، الذي يجري من هنـاك في طريق متعــرج وطويل، وبذلك يفصل منطقة الايطورية عن الطرخونية، ثم إنه يصب في وادي، حيث تتجمع مياهه في بحيرة، وتعرف هذه البحيرة باسم «مياه ميروم»، وحولها نقـرأ في سفر يشوع:١١، وتمتلىء هذه البحيرة في مـواسم الشتاء العظيمة، لكن الميـاه تجف في الصيف، وتتوفـر هناك نباتات كثيفـة، فيها تعيش الأسود، وحيوانات مفترسة أخرى.

وبعد ذلك تسيل المياه بين مدينتين هما كفرناحوم وكورزين، وهناك تشكل بحيرة كبيرة، هي بحر الجليل، أو بحر طبرية، وذلك مثلما يشكل الراين بحيرة كونستانس، وتتدفق المياه من الجزء المنخفض من هذا البحر، وتمر فيها بين جبال اسرائيل، وجبال العربية الصغرى، وتصل ممتدة حتى سهل أريحا، ومن هناك تصب بين فكي البحر الميت، ومن ثم يجري ابتلاعها.

هذا وإن المسافة من حيث يبدأ منطلقاً من بحر الجليل، إلى المكان الذي يدخل فيه إلى البحر الميت سفر اثني عشر يوماً، والبحر الميت في طوله يستغرق سفر خمسة أيام، وهذا البحر مرتبط مع المياه التي اسمها في سفر الخروج:١٥ «مياه ماره»، ومياه ماره مرتبطة بالبحر الأحمر، هذا ويرتبط البحر الأحمر بالبحر الهندي، الذي يتفرع عن المحيط، وعلى هذا إن مجرى الأردن طويل جداً من نبعه حتى نهايته.

صفات نهر الأردن

دعونا نرى الآن، أي نوع من الأنهار هو نهر الأردن، فهذا النهر المقدس ليس نهراً عريضاً جداً، فعرضه لايكاد يتجاوز الستين خطوة، لكن، صحيح أنه صغير بالعرض، هو عميق جداً، وله بشكل خاص في المكان الذي استحمينا فيه، قعر رملي، وضفتين طينيتين، وهو يفيض ويتناقص وفقاً للموسم من السنة وهو يفيض بشكل خاص في أيام حصاد القمح، أي في أيام الربيع، لأن القمح، كما هو معتاد، ينضج في ذلك الوقت، في بلاد فلسطين، وذلك كما قرأنا في سفر يشوع:٣، وفي الحقيقة يفيض بشكل كبير يبلغ به الحد أنه يتدفق خارج مجراه إلى الحقول، لأن أنهاراً كثيرة وجداول تصب فيه، من ذلك —على سبيل المثال — نهر يبوس، الذي عبره تصارع يعقوب مع الملاك، ويمتلك وقتها مجرى عميق إلى حد ما، مع ضفتين عاليتين، ومياهه طيبة، ومناسبة للشرب، ولاسيما في المواسم الباردة، أي في الشتاء، لأن هذه

المياه في الصيف دافئة جداً، ومياهه موحلة، هذا ولست عارفاً فيما إذا كانت دوماً كذلك، وفيها كميات وافرة من الأسماك الجيدة، ومجراه ليس مجرى سريعاً، لكنه يسيل بشكل صامت، ومع ذلك عندما يسبح الانسان عبره، يشعر وهو في وسطه بتيار الماء وهو يتحرك ضده.

ويمتلك نهر الأردن من منبعه عند قيسارية فيليب حتى نهاية البحر الميت، أي لمسافة حوالي المائة ميل، يمتلك على ضفتيه سهولاً واسعة، تنتهي بجبال عالية، وإلى جانب الأردن قفار، هي التي نقرأ عنها أيضاً في سفر اشعيا:١٢، حيث كان يوجد فيها في العصور الماضية عدداً كبيراً من الديرة، وأماكن سكنى لرجال دين، وخرائبها ماتزال مرئية في هذه الأيام، وتتجول في قفار الأردن وسهولها أعداد كبيرة من الحيوانات المتوحشة،وهم يأتون حتى في هذه الآونة وينزلون إلى الماء للشرب مثل قطعان من الأغنام، لكنهم ينامون في الأوقات الحارة من النهار في الكهوف بين الصخور، وهناك بينها أسود، ودببة، وثعالب، ويحامر، وغزلان، وأرانب، وحمر وحشية، وماشابه ذلك، وهم يسيرون هناك ويتجولون مثل الحيوانات الأليفة، ولايفرون من الناس، إلاّ عندما يحاولون الاقتراب منهم.

واعتاد منذ سنوات مضت أسد ضخم على السكنى هناك، ولم يكن هذا الأسد يؤذي أحداً لا من البشر ولا من الحيوانات، بل كان يراقب الناس وهم يمرون، ويظهر إلفته بتحريك ذيله، وحدث أن واحداً من المسيحيين كان معه قوس، فرمى بسهم على الأسد، وركض الأسد نحو السهم وشمه، فأطلق عليه سهماً آخر، وعندما كان السهم طائراً، نهض بنفسه وكان يريد أن يلتقطه، ومن ذلك الحين لم يعد يرى في بقعته المعتادة، بل أخذ يتجول خلال السهول وأماكن غابات الأردن،وكان يسير هناك وهو يزأر باحثاً عمن يمكنه أن يفترسه ، وأحدث منذ ذلك الحين كثيراً من الشرور لحقت بالبشر وبالحيوانات.

فخار وإطراء نهر الأردن المقدس

إن فخار نهر الأردن المقـدس أمر عظيم لايمكن تقـديره، لأنه يفصل أرض المؤمنين عن أرض غير المؤمنين، ذلك أنه كان يوجد وراء الأردن العمونيون، والمآبيون، والأدوميون والعرب، في حين كان يوجد على هذا الجانب ويسكن بنو اسرائيل، وقـد جعـل طريقـاً لبني اسرائيل، وبشكل اعجازي أوقف جـريانه وتجمعت مياهه، حسبما ورد في سفـر يشوع:٣، وقد شفى نعمان المجذوم، الذي كان قائد جيش الآراميين، كما ورد الخبر في سفر الملوك الثاني:٥/ ١٤، وقد أطاع هـذا النهر أوامر إيلياء، واليشع، وفتح طريقـاً لهما في وسطه (الملوك الثـاني:٢/٨)، وقـد طفا على وجهـه بشكل اعجازي عمود من الحديد (الملوك الثاني:٦/ ٦).

وقـام يوحنا المعمدان الأعظم قـداسـة، بتعميد الناس في هذا النهـر، حسبما قـــرأنا في انجيل لـوقـــا:٢، وفي انجيل يوحنـا:١، وفي انجيل مرقص:١، ويبقى الأكثـر أهمية من هذا كله، ومن هـؤلاء جميعاً، هو أن يسوع المسيح، ابـن الرب، كان مسروراً بأن يجري تعميـده في هذا النهر، ولقـد أمكن بلمسة من جسـده الأعظم نقاء أن يضفي على الميـاه هناك، قوة تجديد روحانية، وبناء عليه إن هذه المياه هي أم الجميع الذين عملوا تجديداً روحياً في المسيح، ولهذا السبب قال برنارد: «يتلقى الأردن ببهجة المسيحيين في صـدره، الذين يتفاخـرون بأنهم تقـدسوا بتعميـد المسيح»، ومثل هذا قال: «أي نهر أعظم قدراً من هذا النهر، الذي كرسه الثالوث المقـدس نفسه، وقـدسه لنفسـه، بحضوره المرئي؟، فـالآب هناك سمع، والروح القـدس شـوهد، والابن تعمــد، وذلك حسبما قـرأنا في انجيل متى:٣، ويوحنا:١، ولوقـا:٣»، واستطرد بـرنارد يقـول: «نفهم من هذا كله بأن المجـذوم الآرامي قد كذب حين فضل أي نوع مـن مياه دمشق لا أعرفه، على مياه اسرائيل، وذلك بوجود أردننا، الذي برهن مراراً بأنه يعبد الرب بخشوع».

ونواجه هنا سؤالاً: طالما أننا نرى أن نهر الأردن، بهذه الدرجة من القداسة، والسمو، وأنه لذلك هو مبارك، ونقي، ومقدس، وعذب، ومياهه صحية، لماذا عليه أن يصب في مياه هي ملعونة، وغير نظيفة، وشريرة، ومالحة إلى أقصى الحدود، وسامة، والمقصود بهذا صب مياهه في البحر الميت أو بحيرة سدوم؟ وفي إجابة لهذا السؤال يقول بعضهم بأنه صحيح أن الأردن يتدفق بالحقيقة نحو البحر الميت، لكنه عندما يصل إلى شواطئه، يخرق الأرض، ويدخل من هناك، قبل بلوغ البحر.

غير أن هذا غير صحيح، لأنه من الممكن رؤيته، وهو يجري في البحر لمسافة طويلة، وهو متميز عن مياه البحر، التي هي كثيفة، ومنظرها أسود، في حين نجد أن مياه الأردن بيضاء وصافية، ويقول آخر بأن هذا يحدث من أجل أن تتلطف لعنة الأول ببركة الثاني، ويتبنى آخرون وجهة نظر أرفع حول الموضوع، ويقولون تكمن هنا أسرار عظيمة، لأنه صحيح أن الأردن نهر مقدس، لكن بما أنه لايمجد نفسه، بل يجري نازلاً نحو البحر الميت، لاتتمكن قداسته من انقاذه ومنعه من السقوط في البحر الميت، ومن مشاركته لعنته، ومثل هذا الانسان، نجد مع أنه قد تقدس بعمادة المسيح، لايرفع نفسه عالياً، بل يتابع السير نازلاً على طريق الضعف الجسدي، ولعدم محافظته على قداسته يسقط في اللعنة، ويجعل من نفسه شريكاً لها، مثلما يفعل الآخرون الذين لم يتعمدوا، ولأنه مثلما الأنهار الأخرى والجداول غير المباركة تصب في البحر الميت، وتشارك في لعنته، كذلك الانسان المذنب مع أنه قد يكون معمداً، لكنه لم يكن مقدساً، هو مثل ذلك، وهكذا دواليك.

ومن المعتقد أن المكان الذي استحمينا فيه، قد قام بنو اسرائيل بعبور النهر عنده، فوق المجرى الجاف لاحتباس المياه عن الجريان، وأنه هناك جرى تعميد: ايليا، واليشع، والمسيح، ولهذا قام هنا — حسبما قرأت في كتاب حج قديم جداً — في هذا الجانب من الأردن، حيث تعمد الرب،

صليب طويل، اعتاد الحجاج على نزع ملابسهم إلى جانبه، ومن ثم كانوا يدخلون إلى الماء، وفي المكان الذي خلع فيه الرب ملابسه على هذه الضفة من النهر، كانت قد بنيت كنيسة كبيرة، لها سقف معقود على قناطر، مدعوم بتسعة أعمدة من الرخام، وكانت هذه الأشياء جميعاً قد جرفتها منذ زمن طويل مياه فيضانات الأردن وابتلعتها، ولهذا السبب، لايمكن في هذه الأيام رؤية أثر منها، وقد تحدث القديس برنارد بإطراء عن نهر الأردن، في الفصل التاسع من قداسه لفرسان الداوية.

مغادرة الحجاج للأردن باتجاه بيعة القديس يوحنا — قفار الأردن وصحراء القديس يوحنا المعمدان

وبعدما فرغنا من استحمامنا، عاودنا على الفور امتطاء ظهور حميرنا، وغادرنا النهر المقدس، وسرنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وعاد الحجاج الذين لم يكونوا عازمين على زيارة جبل سيناء، ببهجة عارمة، بسبب أنهم وصلوا أخيراً إلى نهاية حجهم، لأن الأردن هو خاتمة حج القدس، وبناء عليه مضينا مسرعين خلال قفار الأردن، إلى داخل صحراء القديس يوحنا المعمدان، الذي بدأ بسكنى هذه الأماكن المنعزلة، إلى جانب الأردن، فور تلقيه كلمة الرب، التي وصلته في القفار، قرب بيت أبيه، وبناء عليه، وصلنا الخبر في انجيل القديس لوقا:٣، بأنه تجول في جميع المنطقة التي من حول الأردن يبشر، ويعمد.

ومثل هذا، لقد سكن لبعض الوقت في بيت عبره، عبر الأردن، حسبما ورد في انجيل يوحنا:١، وتنقل بين جميع أماكن منطقة الأردن، من مكان إلى آخر، حتى يتمكن من التبشير، ففي هذه القفار التي نحن صاعدين إليها، جاء الرب يسوع مرة إليه، يطلب منه التعميد، ويوجد على ضفتي الأردن قفاراً وعرة، فيها سكن يوحنا المعمدان، ومن بعده عدد كبير من الآباء المقدسين، الذين احتذوا حذو المعمدان، فتحزموا بأحزمة الجلد وأكلوا الجراد، والعسل البري، وذلك حسبما قرأنا في

انجيل متى:٣، ويوحنا، ودعـونا نرى مـا كانتـه تلك الجرادات والعسل البري.

ويقول بعضهم بأن الجراد عبارة عن حيوانات صغيرة جداً، تطير على طريقـة القفـز، ولها مناشير في أرجلهـــا، ولهذا تسمى أيضـاً باسم -ser ratae، ولها أجساد صغيرة جداً وقصيرة، مثل اصبع يد الانسان، وهي من السهل امسـاكهـا في الأعشـاب، وبعـد قطـع رؤوسهـا تقلى بالزيت وتؤكل، وهي طعام القوم الفقراء، والجراد هذا موجود في هذه الأيام في صحـراء اليهــودية، وعلى هذه، عـاش —كما يقـال— القــديس يوحنا المعمدان.

ويقـول آخرون، ممن ينظرون إلى الأمـور نظرة أكثر سمـواً: «من غير المعقول أن يكون يوحنا المعمدان الأعظم مبـاركة أن يكون قد أكل لحم الجراد في الصحراء، لأنه رفض أن يأكل الخبز في بيته المتقدم»، ويقولون هناك نوعـاً من الأعشـاب ، ينمو في القفـار، اسمـه Longusta، وقد صحف العوام اللاتين هذه الكلمة إلى Locusta، ويجمع الناس الفقراء هذه العشبة، ويأكلونها، على أنها طعام القـديس يوحنا، وبناء عليه اعتاد رهبـان الأيام الخاليـة، الذين سكنوا إلى جانـب الأردن، أن يستخدمـوا يومياً هذه العشبة في أطعـمتهـم.

ويقـول بعضهم بأن العسل البري، هو مايتم العثـور عليه في جـذوع الأشجار، حيث تولى النحل حمله إلى هنا، ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع القصب ينمـو هناك، له عصير حلو، وهذا القصب، هو الذي نسميه قصب السكر، وينمو هذا القصب قرب الأردن، ومنه لايستخرج العسل، بل سائلاً أعلى قيمة، هو سائل السكر، وهكذا إنهم يقولون بأن يوحنا عـاش على قصب السكـر هذا، غير أن آخـرين يتفكرون بكلمات الرب (متى:١١/١٨) التي قـال فيها: «جـاء يوحنا لايأكل ولايشرب»، ويقولون بأن اللاهوتين قـد قالوا لدى تعاملهـم مع هذا النص، بأنه قد

قيل هو لم يأكـل ولم يشرب، لأنه لم يستخـدم الطعـام العـام، والشراب المعتـاد لبني البشر، ثم ما الذي يأكله ويشربه الذي يعيش في القفـار غير أشياء ضئيلة جـداً، هذا ولايعد العسل المتقـدم الذكر، سـواء المستخرج من تجاويف الأشجار أو الذي يستخرج من قصب السكر، بين الأطعمة المتيسرة للعـوام من الناس، بل من طعـام النبـلاء الذين يتغـذون بلطف بالأطعمـة الفـاخـرة اللذيذة، ويقـوم آخـرون بتطييب الطعـام بالعسل والسكر، لجعله أكثـر لذة وشهيـة، وبناء عليه ليس صحيحـاً القـول بأن القـديس يوحنـا قـد أكل مثل هذا الطعـام، ذلـك أنه رفض أن يأكل في بيت أبيـه الطعام المطبوخ، والفـواكه، أو الخضـار، فكيف من الممكن أن يكون قـد أكـل، العسل، وأقـراص العسل في القفـار؟ وبنـاء عليـه هم يقولون بأنه كان هناك نوعاً من جذور الأعشاب، اسمها العسل البري، ويقـول آخرون بأن العسل البري، هو أوراق بعض النبـاتات، التي هي بيضاء، ولطيفـة ومستديرة وهي عندما تفرك مع بعضهـا في اليد، يكون لها شيئاً من طعم العسل.

ويقول آخرون بأن هناك نوعـاً من أنواع البراعم، تنمو على نوع محدد من النبـاتات، فيها بذور خضراء مثل الفـاصـولياء، فهـذه ماكـان يأكله القديس يوحنا، والسهل كله مغطى بهذه النباتات عندما كنت في القفار، غير أنني وجـدت بذورها قـاسيـة مثل الحجـارة، بحيث لم يكن بامكاني فصم أي منها بأسناني، ويقول آخرون بأن هناك أشجاراً في القفار، اسم ثمارها «الخروب»، كنت قد أتيت على ذكـرها من قبل، وهي ثمار سوداء مستطيلة، وعندمـا تنتزعهـا من أغصانها جيـدة للأكل، ويطلق على هذه الثمار في كل مكان اسم «خبز القديس يوحنا»، وهي تباع من قبل الذين يبيعون التوابل في حـوانيتهم، وهي في الشرق كثيرة جداً، تكاد أن تكون لاقيمـة لها، يتولى الفقـراء جمعها، وانتـزاع قشورها بأسنانهم، وتجهيـزها وأكلهـا كمنقوع حلـو، مع بقاء القطع المنقـوعـة في العصير، وغـالباً مـا

أكلت مـن هذا الخروب في الماضي، غير أن نفسي لم تشبع منهـــا، ومن الممكن أن القديس يوحنا كان يشرب عصير هذه الحبوب.

وسرنا خلال هذه القفار، التي هي قفار القديس يوحنا بسرعة، وبعد قطعنا حـوالي الميل، فجأة انبعث صراخ وعـويل بين رفيقاتنا من النسـاء الحاجـات، مما أحـدث الفـوضى بين صفـوفنا، لأنهن اعتـدن على السير بهدوء عظيم جـداً، وبخشوع وصمت، وكـان هناك انزعـاج كبير بينهن واضطراب كبير، مما سبـب الدهشـة لكل واحـــد منا، ولذلـك بادرنا مسرعين نحـوهن، وهن يبكين، وسألنا عـن سبب بكائهن، وقـد أجبننا بأن واحـدة من رفيقاتهن قـد جرى البحث عنهـا بين الحشد، فلم يعثـر عليهـا، وأنهن كن يبكين لفقدانها، وقـد رجـوننا التوقف، وعـدم السير وراء المسلمين، الذين مضـوا أمـامنـا مسرعين جـداً، وذلك حتى يمكن العثـور على رفيقتهن، ولهذا وقفنا مع هؤلاء السيـدات، ولم نتقدم نحـو الأمـام، وفي الوقت نفســه استـدعـانا المسلمـون لمتــابعـة سيرنا، وهم يصرخون ويتهددون.

غير أنهم عندمـا رأوا أننا لم نلحق بهم، عـادوا إلينا، وبعـدما سمعـوا شكاوى كثيرة مضاعفـة، بعثوا على الفور بعدد منهم،على ظهـور خيول سريعـة جداً، وذهب معهم بعضـاً من أقوى الحجـاج للبحث عن المرأة العجوز، وتوجه هؤلاء الرجال مسرعين نازلين نحو الأردن، وذلك عبر طريق القفـار، لأننـا خفنا من امكانيـة غـرقهـا في ميـاه الأردن، أو أنها وقعت فاقـدة لوعيها لحاجتها للطعـام في القفار، أو أنها التصقت بالطين على طرف النهـــر، ولم تكن قـــادرة على الخروج، أو لعلهـــا اعتقلت، وسرقت، واغتصبت من قبـل أحـد المسلمين، وقـد تشـوقت أجـواف الحجـــاج لـرؤية أختهن، ومـع ذلك، فـإن بعض قســاة القلـوب من الفـرســان، أبـدوا انزعــاجهم تجاه تعــرض الحشـد كله للفـوضى والاضطراب من أجل امرأة عجوز واحدة، ولوجرى اتباع ما أشاروا به

لتمّ فقدان المرأة العجوز فقـداناً كاملاً، وبهذا الموقف كانـوا أشد وحشية من المسلمين، الذين لدى قلقهم بشأن ضياع المرأة، خـافوا من أن تكون قد خطفت من قبل بعض البداة أو الرعاة المدينيين، أو أنها افترست من قبل أسد، أو من قبل حيـوان مفترس آخر، ووقفوا بصبر ينتظرون معنا، في ظل حرارة الشمس العالية جداً.

وحدث أن قائد هؤلاء المتـزمرين،الذين رأوا إنها مسألة تافهة، فقدان امـرأة عجوز، والذين ربما رغبـوا بضيـاعها، سقط هذا فيما بعـد بأيدي هؤلاء النساء العجـائز (عندما مرضـوا) ورجاهن بدموع بنيل المسـاعدة ممن ازدراهن من قبل، هذا وكنا قد تعـرضنا لهذا الموضوع من قبل، وفي الحقيقة كان قد انحدر إلى وضع كان أسوأ من وضع المتسولين التعساء.

هذا وتجول الـذين أرسلوا للبحث عـن العقيلة التقيـــة، أي رفيقتنا، وأخـذوا يفتشـون وهم يصرخـون على طول الطريق في أرجـاء القفـار، وذهبوا حتى ضفة الأردن، إلى المكان الذي استحمت فيه النساء، وهناك وجدوها متمددة نائمة في فـراش من القصب، وقد أيقظوها، وأخذوها، وحملوها على ظهـر حصان، وقدمـوا إلينا وسط صرخات فـرح، وكأنهم قد أمسكوا حيواناً مفترساً.

كيف دخل الحجاج إلى كنيسة القديس يوحنا

وهكذا جرى استقبال العقيلة بسرور، وهنأهـا الرجال الجيدون، مثل الذي فقـد شـاة، في انجيل لـوقـا:١٥، وتابعنـا السير على طريقنا حتى وصلنا إلى نباتات وأشواك في أرض جـرداء، لاتنبت النباتات عليها ولا الأشجار، وبذلك صارت غير مستوية، وتـلالاً رملية، ومناطق مرتفعة، وفيها نحن على طريقنا وصلنا إلى كنيسة جميلة وواسعـة، التي هي كنيسة القـديس يوحنا المعمدان، وهناك ترجلنا من على ظهـور حميرنا، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم اننا دخلنا في قداس

مخصص للحجاج وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وجلسنا هنا لوقت قصير، في الظل وأرحنا أنفسنا.

وقد حكيت إلى الحجاج عن الازعاج الذي تعرضنا إليه في حجي الأول، في هذه البقعة، الأمر الذي أنا مضطر لإقحامه هنا أيضاً، لأننا عندما خرجنا من القفار، إنما قبل أن نصل إلى الكنيسة، دفع بنا أدلاؤنا من على ظهور حميرنا، وأرغمونا على قيادتهم بأيدينا، ومنعوا كل واحد من الصعود إلى الكنيسة، التي قامت فوق الطريق، بل أمرونا بالمرور إلى جانب الكنيسة مسرعين صامتين، وكان هذا العبور مزعجاً لنا، لأننا لم نكن راغبين بعدم رؤية الكنيسة، وغير راضين بفقدان الغفرانات، علاوة على ذلك كان الطريق رمليا، وغطسنا في كل خطوة عميقاً في الرمل، إلى حد أننا كدنا أن نغطس حتى ركبنا، وكان النهار حاراً جداً، والشمس كانت متوهجة جداً، وقد تعذبنا كثيراً ومرضنا بسبب تلك الرحلة ولمرورنا المقيت إلى جانب الكنيسة.

وكان سبب حدوث ذلك، هو أن أحد البداة الملعونين، وكان ابناً شريراً للشيطان، قد استولى على تلك الكنيسة، واتخذ منها بيتاً لنفسه، وهناك عاش كلص، يقوم بهجمات من هناك ويسلب المارين، وقد أعلن عن كراهية خاصة نحو جميع المسيحيين، وكانت هناك عادة بين المسلمين أنه إذا ما التقى رجلان في الحقل، وكان أحدهما يخاف من الآخر، يقوم الذي لا أمل لديه بالانتصار، بالترجل من على ظهر دابته، ويمشي على قدميه، حتى يقابل الآخر، وذلك كعلامة على الاحترام، ومن أجل أن يظهر بهذه الطريقة الاحترام نحوه، ومثل هذا إذا ما أراد حشد من الناس اظهار احترامهم نحو آخر، يقوم جميع الرجال بالترجل من على ظهور دوابهم، وكذلك أيضاً، عندما يركب ويسير على الدرب، أي ملك، أو أمير، أو نبيل مسلم، أو مملوك كبير، يقفز جميع الذين يواجهونهم من على ظهور دوابهم، ويقفون حتى يمرون بهم،وإذا لم

يترجلوا من على ظهور دوابهم في المناسبات المتقدم ذكرها، يقوم الآخرون باقتلاعهم من على ظهورها بالقوة، مع كثير من الاهانة والازعاج، وقد خشي أدلاؤنا من هذا البدوي، وخافوا أن يكون هو وأتباعه كامنين ينتظرون في الكنيسة، وأنه من الممكن الاندفاع من هناك، والانقضاض علينا، خاصة إذا ما مررنا بالبيت دون اظهار الاحترام، ولهذا أمرونا بالترجل من على ظهور حميرنا، وأن نمرّ بذلك البيت بشكل متواضع، الأمر الذي فعلناه، وعلى كل حال كان الفرسان في غاية الانزعاج، ولعنوا ذلك البدوي بأبشع الكلمات وأرهبها، ومهما يكن من أمر لقد عبرنا من هناك، ولم نر أحداً في ذلك المكان، وكان ذلك لصالحنا، لأننا خفنا كثيراً نحن مع أدلائنا من ذلك البدوي، وأكثر ماكنا نخشاه أن يقوم باللحاق بنا.

كنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر وقداسة المكان

وكنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر، واسعة إلى حد ما، لكنها الآن مشعثة بسبب سكنى البداة فيها، الذين يعيشون حياة قطاع طرق فيها، ويسكنون فيها وكأنها حصن، وقد جرى تهديم مذابحها، وفقدت من بعض الجوانب شكلها ككنيسة، وهم يقولون بأن القديس يوحنا المعمدان قد وعظ الناس في هذه البقعة، وأعطى إلى الجميع أحكاماً، بموجبها عليهم أن يعيشوا، وذلك حسبما قرأنا في انجيل القديس لوقا:٣، وهنا أيضاً قدم شهادة للرب يسوع، كما قرأنا في انجيل متى:١، فضلاً عن هذا كان يوحنا واقفاً في هذا المكان، عندما جاء الرب يسوع إليه، ولدى رؤيته له، أشار باصبعه إليه قائلاً: «هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا:١).

ويقول بعضهم بأنه من هذا المكان جرى رفع إيليا إلى السماء في عربة من نار، لكن هذا لايتوافق تماماً مع ماورد في سفر الملوك الثاني:٢، لأن إيليا جرى رفعه من وراء الأردن، وكان هناك فيما مضى دير ملاصق

لهذه الكنيسة، فيه كان القديس زوزيما Zozima الراعي لكثير من الرهبان، وكان على مقربة من الدير هناك دار ضيافة للحجاج، فيها أمضت القديسة مريم المصرية ليلتها الأولى، عندما نزلت من القدس بغية الذهاب إلى القفار عبر الأردن، وجاءت القديسة مريم المصرية إلى هذه الكنيسة قادمة من القفار، وكان ذلك يوم الجمعة بعد عيد الغطاس، وتسلمت فيها قداس القربان من القديس زوزيما، وقد سارت في ذهابها إلى القفار وإيابها منها فوق نهر الأردن، وعبرته جافة القدمين.

وفي الأيام الخالية كان يحتفل بعيد كبير عند هذه الكنيسة، وذلك في يوم عيد الغطاس، في الأيام التي كان العصر الذهبي مايزال فيها مستمرا، لأن بطريرك القدس، وأسقف بيت لحم، ورعاة الديرة، والرهبان، ورجال الدين، والشعب، هؤلاء جميعا كانوا قد اعتادوا على النزول إلى هنا، وبعد إقامة قداس، كانوا ينزلون معاً، مع الأعلام والصلبان إلى الأردن، وهناك يغنون مزامير إلى جانب النهر المقدس.

واعتاد راعي دير القديس يوحنا، أن يغطس الصليب الذي كان يحمله في الماء، ولدى تغطيس الصليب، اعتاد جميع الأشخاص المرضى على القاء أنفسهم في الماء، وبذلك كانوا يشفون، ويقوم في الوقت نفسه الأصحاء بتعميد أنفسهم بخشوع، وبذلك يصبحون أقوى، ومن المعتقد أن هذه المعجزات التي كانت تتم هناك، كانت تتم لابسبب قداسة النهر، بل بسبب المراعاة الصحيحة للدين، بين المسيحيين بشكل عام، وكذلك بين الرهبان وبين رجال الدين، ولدى الفراغ من الاحتفال كان كل واحد يذهب إلى وطنه وإلى موضعه الخاص، ويلي هذه القفار، صحراء القديس جيروم الواسعة، التي خلفها يقع البحر الميت، وفوق البحر الميت هناك جبال عين الجدي، ولسوف أتولى وصف هذه الأماكن جميعاً، في اليوم الرابع من آب.

موضع الجلجال المقدس ومكانته العلية

وبعدما استرحنا قليلاً وبردنا أنفسنا في كنيسة القديس يوحنا، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا بتواضع، ووصلنا إلى مكان بين تلال رملية، حيث يسير الطريق السلطاني بين هضبتين صغيرتين، وقد قال لي أحدهم، بأن اسم الهضبة الأولى منهما هو جرزيم، واسم الثانية عيبال، وهما جبلي المباركة واللعنة، اللذين قرأنا عنهما في سفر التثنية:٢٧، لكن الأمر ليس كذلك، ولسوف نتحدث عن هذين الجبلين ونبينهما بعد قليل.

ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل منطقة أريحا، الذي كان محترقاً بأشعة الشمس، ووصلنا هناك إلى موضع الجلجال، الذي ورد ذكره عدة مرات في الكتابات المقدسة، ففي هذا المكان وضع بنو اسرائيل علامات حددوا بها معسكرهم، وكان ذلك بعد عبورهم للأردن، وهنا كان أول مكان سكنوا فيه فوق تراب الأرض المقدسة، وهنا جرى ختانهم للمرة الثانية، وهنا حافظوا على عيد الفصح، وبدأوا هنا بأكل ثمار الأرض المقدسة، ولم يعد المن ينزل عليهم من السماء، بعدما أكلوا ثمار الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع:٤—٥.

هذا وإنني أتصور، أنه عندما قدم يوشع إلى الجلجال مع بني اسرائيل، لم يكن هناك بناء، ولاقرية، ولامدينة، بل تمدد الحشد فوق أرض جرداء في سهول أريحا، وبعدما نصب بنو اسرائيل خيامهم هناك، عملوا بعض الأبنية من أجل خيمة عهد الرب، وتابوه العهد، اللذان بقيا هناك لمدة طويلة، وكذلك من أجل الاثنتي عشرة حجرة، التي أمر يوشع بني اسرائيل باخراجها من الأردن، عندما عبروا في وسط الأردن، وساروا فوق مجراه وأقدامهم جافة، وقد نصبت هذه الحجارة في الجلجال، كما قرأنا في سفر يشوع:٤.

وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، بأن المسيحيين قد بنوا في العصور القديمة في الجلجال في المكان الذي وقفت فيه خيمة عهد الرب فيما مضى، وحيث أيضاً نصبت الحجارة الاثنتي عشرة ووضعت، بنوا كنيسة فخمة، فيها وضعت الحجارة المتقدمة الذكر، وكانت حجارة غير مصقولة وكبيرة إلى حد أنه لم يكن بامكان اثنين من الرجال حمل واحدة منهن بسهولة، ورفعها من على وجه الأرض، وكانت احداهن قد انقسمت بالصدفة إلى قسمين، وقد أعيد لصقها فنيا من جديد بوساطة أعمال حديدية.

ولم نكن — على كل حال — قادرين على رؤية خرائب هذه الكنيسة، ومع ذلك كنا مسرورين جداً برؤية المكان، وانكببنا على وجوهنا، وقبلنا الأرض المقدسة، التي هي عن حق مقدسة، لأنه هناك تخبأ يوشع ليحل حذاءه وليخلعه من قدميه، لأنه عندما ذلك الرجل القوي والمقدس، أي يوشع، كان في الميدان، رأى رجلاً واقفاً أمامه، مع سيف مجرد، ونحوه تقدم يوشع دونما خوف وقال له: «هل لنا أنت أو لأعدائنا»؟ فأجابه قائلاً: «كلا أنا ميكائيل رئيس جند الرب، والآن أتيت لمساعدتك» (يشوع:٥)، وقد عدّ هذا المكان مقدساً منذ القديم، وبسبب قداسته سكنت هنا جماعة من الأنبياء، وكانت مثل دير للرهبان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٤.

وكان هذا المكان الأول، الذي شرع الرجال المقدسون في سكناه مع بعضهم، مثلما يفعل رجال الدين في الدير، وذلك بسبب قداسة المكان، الذي قدسه رئيس الملائكة ميكائيل بشكل خاص بظهوره هناك، وذلك مثلما جرى تقديس جبل جرجانوس Garganus الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد، والذي إليه يسعى الناس من أقصى أجزاء الدنيا، هذا وإن تقديس هذا المكان بوساطة الملاك هو مؤكد تماماً، ذلك أنه مؤيد بشهادة الكتابات المقدسة القانونية، وهو أمر صحيح بدون أدنى

شك بظهور القديس ميكائيل، الذي وقع في هذا المكان.

ويسعى الناس إلى الحج في بلدان الغرب، حتى إلى البحر البريطاني، إلى مايعرف باسم جبل القديس ميكائيل ليشاهدوا حقاً بعض الآثار، والأسلحة —ولأتحدث مثل طفل— العائدة للقديس ميكائيل ، حيث قالوا بأنه فوق هذا الجبل وضع القديس ميكائيل الأسلحة التي غلب بها التنين، والتي بها دافع عن يوشع في منطقة أريحا، ولم يقتصر الأمر على الأطفال، الذين ارتحلوا إلى هناك في سنة ١٤٥٧، من جميع أجزاء ألمانيا، بأعداد كبيرة جداً، بل تعداهم الأمر إلى الرجال المسنين، ورجال ذوي مدارك كانوا غير قادرين على القراءة.

وحول هذه القضية، أود أن أ حدثكم عما عانيته شخصيا وجربته، ففي أحد الأيام خرجت من أولم مع مرافق واحد، من أجل أن أتمكن من الوعظ في بلدة جنتسبورغ Guntsburg ، وصدفنا ونحن على الطريق حاجاً، كان مسافراً على الطريق نفسه، والتحقت عن قصد بهذا الرجل، وسألته من أي حج كان عائداً، مضيفاً أنني شخصيا ذهبت حاجاً إلى بلدان أجنبية، ولهذا كنت أشد ميلاً لمعاشرة الحجاج، وكان هذا الحاج رجلاً له شخصيته كما كان محترماً، ومتفوهاً بلسان البنادقة، غير أنه كان رجلاً علمانياً غير متعلم، فأجابني قائلاً: «لقد قدمت من بلاد نائية، من المحيط، من جبل القديس ميكائيل» فسألته: «أرجوك ما الذي التمسته هناك، وما الذي رأيته»؟، فأجابني: «إن الذي التمسته قد وجدته، ورأيته بعينيّ، ذلك أنني رأيت في ذلك المكان ترس وسيف رئيس الملائكة ميكائيل المجيد، الذي بهما أنشب الحرب في السماء مع التنين، الذي هو الشيطان، حيث تمكن من طرد ابليس وجميع أتباعه من السماء، وبهما كان متسلحاً عندما ظهر أمام يوشع بن نون، في حقل أريحا».

وعلى هذا أجبته: «ياأخانا، هذه مسائل هائلة، فمن الذي أراك هذه

الأشياء»؟ فأجابني: «رهبان يرتـدون الثياب الكهنوتية البيضاء الطويلة، ورجال أتقيـاء، وقد عرضـوا هذه الأشياء على جميع الناس، مع كثير من الأبهة، وقد حصلوا على مرابح وافية من وراء ذلك»، فقلت: «من الذي وضع هذه الآثار الهائلة في تلك البقعـة»؟ فأجـاب: «القـديس ميكائيل، بعـدمـا تغلب على الشيطان، وتوقف عن القتـال، نزل شخصيـاً إلى هذا الجبل، وصنع مستـودعـاً هناك مـن أجل سـلاحـه، وفي أيام المسيح الدجال، سوف ينزل إلى هناك للمرة الثانية، ولسوف يحمل هذا السلاح ثانيـة، وبهذا السـلاح سوف يتغلب على المسيح الدجـال، وسـوف ينزل الهزيمة بشياطينه».

وسألته بعد هذا عن شكل هذا السلاح وحجمه، فأجابني بلغة منتقاه على كل نقطة، وأخبرني أشياء كثيرة، قـام رهبان ذلك المكان بالتبشير بها بشكل علني،وهي تحتـوي مافيـه الكفاية من الأخطاء العقـائدية، ولقـد تعـذبت كثيراً حتى أشرح لهذا الرجل، بـأن القـديس ميكائيل بانتصـاره على التنين لم يكن بحاجة إلى ترس مادي أو سيف، وأن هذه الأشياء قد اخترعت بشكل غير صحيح، بسبب جشع هؤلاء الرهبان، وأن السلاح الذي قـاتل القـديس ميكائيل فيـه، لم يلقـه قط، ولم يتـوقف مطلقـاً عن القتال به.

لأنه كما أنشب الحرب في السماء ضد الملائكة السيئين، كان مثل هذا، في العهـد القديم، قـائـد جيش بني اسرائيل، وقـاتل من أجلهم، كما هو واضح في يشـوع:٥، عـلاوة على ذلك، هو لم يقـاتـل قط —في العهـد الجديد— إلى جانب المسيحيين، كما هو مبرهن عليه في سفر دانيال:١٠، وبناء عليه هو لم يلق سـلاحه، عـارفاً أنه لم يكن سلاحـاً ماديا، وبعـدما فـرغت من توجيه هذا الرجل العلماني نحـو هذه القضايا، قـدم الشكر إليّ.

وغالباً مـااعتاد الراهب ميكائيل سيكز sicz، الذي كان طباخ الدير

في أولم، على الحديث عن هـذا السـلاح، لأنه زار المكـان في السنة التي تقدم ذكرها مع الأطفـال الآخرين بهدف رؤية السلاح، هذا والحكايات هذه حكايات أطفـال، في حين كان الظهـور في الجلجال ظهـوراً حقيقياً تمامـاً، وحقيقـة مقـدسـة،ولهذا يتـوجب هنا التماس القـديس ميكائيل والبحث عنه، لأنه من المؤكد تمامـا بأن الملاك المقدس، قد ظهـر ليوشع هنا بسيف مسلول، ولم يكن الذي معه سيفـا غير حقيقي، كما أن الجسد الذي ظهر به لم يكن جسـده الطبيعي، لأن كل من الجسد والسـلاح قد تشكلا من الهواء، وكـانا لايلبيـان الاستخـدام الانسـاني، وعـادا بعـد الظهور إلى حـالتهما المتقدمة، وعلى كل مـن يود —بناء عليه — أن يرى الأمـاكن التـي رؤيت فيهـا الملائكة بالفعل، عليـه أن يقـوم بهذا الحج، ولسوف يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى أعظم من هذه.

وادي اللص عكان الذي فيه رجم

وتابعنا سيرنـا من الجلجـال نحـو أريحا، واقتربنـا من وادي عكان، الذي دفن فيـه مع جميع آل بيتـه وكـل الذي امتلكه، تحت كـومـة من الحجـارة، وكـان ذلك بسبب السرقـة التي اقترفهـا، عندمـا جـرى هدم أريحا، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع:٧، وتعجبنا في هذا الوادي نحو قسـوة العدالة الربانيـة، التي تعـاقب شعباً كـامـلاً بسبب جريمـة رجل واحد، وتضفي ذنـب واحد على الجميع لأن النص يقـول (أخبار الأيام الأول:٢/ ٧) بأن بني اسرائيل نافقـوا، مع أن مامن واحـد منهم أذنب، باستثناء عكان الـذي سرق لسـاناً مـن الذهب، وثوباً وبعض الفضـة، وعكان هذا هو نموذج للراهب السيء، الذي استولى على النظام الذهبي العـائد للقـديس أوغسطين، وقد عـرف هذا النظام بالذهبي لأنه ثمين، وفخم، وثقيل، ومليء بالقيمـة، وحدث هذا الاستيلاء من قبـل مذنب، كـان قـد لبس بشكل غير صحيـح الثـوب الرهبـاني، وأسـاء استخـدام الصدقات التي تسلمها بصرفها على ترف غير ضروري، فضلاً عن هذا،

إنه عندمـــا أفســد المواهـب التي منحت له، بـالانصراف نحــو المدح البشري، كـــان بذلك يدفن الفضــة بالأرض، وبهذا الاثم، لم يعــدّ هو وحده مسؤولاً، بل الدير كله معه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا إلى البقعة، التي هي غير بعيدة عن مدينة أريحا، وذلك حيث جلس الرجل الأعمى على طرف الطريق وهو يستجدي، وذلك عندمـا مرّ الرب، وهو صاعـد من الجليل إلى القدس، وهناك منـح الرب النور إلى عينيـــه، وذلـك حسبما قـــرأنـا في انجيل لوقـا:١٨، وقـرأنا فـوق هذه البقعـة القـداس المعين في كتب المسيرات، وانكببنا فــــوق الأرض، وقبلنـا آثار أقــــدام مخلصنـا وحصلنا على غفرانات(+).

بيت العاهرة راحاب وبيت زكاً والمحنة التي عانى منها الحجاج

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة أريحا، وكـان يقوم إلى جانب باب المدينة، بيت مقنطر، وهو قديم جداً، وقد قالوا بأنه كان فيما مضى بيت العاهرة راحـاب، حيث عنـه نقـرأ حكاية جليلة في سفـر يشـــوع:٢، ومثل هذا أعطيت هذه العـــاهـرة مكاناً في سلسلة نسـب الرب يســوع في انجيل القـــديس متى (الاصحـاج الأول)، لأن سليمان، أمير سبط يهوذا، قـــد تزوج من راحـاب، وأنجب منهـا بـوعـز، وهكذا ارتقت هذه المرأة من وضعهـــا كعـــاهرة دنيئـة، ومنحت مكانا في الانجيـل المجيــــد؟ هذا وتعرضت هذه المدينـة للتهديم مراراً، ومع ذلك ممتـع أن يحكي الانسان أن بيت راحـاب العـاهرة قـد بقي لوحـده من دون أذى، وهو مشـاهد حتى هذا اليوم.

وبعدمـا سرنا لمسافة بعيـداً عن بيت راحاب، وصلنا إلى بيت كبير في وسط البلدة، ماتزال جدرانه سميكة وعالية، وكأنه كان فيما مضى قلعة، وقد قيل بأن هذا كـان بيت زكاّ، وهو الذي تفضل الرب يسوع فبـاركه

وقدسـه، بطريقة خاصـة عندما قال: «يقـدم الخلاص هذا اليوم إلى هذا البيت»، وهنـا في داخله أكل، وهدى كثيراً مـن المذنبين مع زكـاً، وكنا راغبين بالدخول إليه، لكن لم يسمح لنا بذلك، وعلى كل حال توقفنا إلى جـانب الجدار، وقال واحـد من الحجاج بـأنه يرغب لو أن زكاً مـايزال صاحب ذلك البيت، لكان زودنا وضيفنا، لأننا كنا جائعين وعطشانين، والأشيـاء التي كنا قـد جلبناها معنا من القـدس، في جعبنا، كـانت قـد أكلت كلها تقريباً.

وكنا نأمل أن نجـد في أريحا خبزا وماء لإنعـاشنا، لأننا من دون ذلك كنا سنكون فارغي الوفـاض، وكان هناك نقص آخـر بانتظارنا، هو خبز الآلام، وماء المحنة، وبينها كنا وقـوفاً هناك ويتحدث أحـدنا مع الآخر، بدأ أدلاؤنا بسرعـة، وبأصـوات مخيفة، يعملون على دفعنـا نحو الأمـام، والاسراع بمغادرتنا أريحا، لأن أهـل أريحا جمعوا بعضهم بعضاً، وكـانوا يعملون ويخططون لمنعنا مـن الانسحـاب، بقصـد استخـراج المال منا، ولدى رؤية أدلائنا لما كان يحدث، سـاقونا إلى خـارج المدينة بأكبر سرعة ممكنة، وركب الرجال المسلحون المرافقون لجماعتنا خيولهم، وساقوها في وسط الحشد، فقسمـوه إلى قسمين، وشقوا لنا طريقـاً في وسطهم، وهنا ركض الأطفـال والنساء، ورمـوا حشـدنا بالحجـارة، وأثناء عملهم هذا سحبوا عدداً كبيراً منا من على ظهـور حميرهم، وسرقوا قبعاتهم، وجرح بعضهم بالحجـارة، وحـدث بعض الاضطـراب بسبب الركض وتقـدم الرجال والدواب، فثـار الغبار من الأرض، وبلغ من الكثافـةحداً، بدت فيه أريحا وكأنها قد غلفت بسحب مظلمة.

وعندما رأى أهل أريحا أننا سوف ننجو من بين أيديهم، ولن يحصلوا على شيء منـا، وأننا أفلتنـا من بين أيـديهم، لجأوا إلى الحجـــارة، وبها طردونا مع أدلائنا من مـدينتهم، ولشدة خوفنا، هربنا جميعـاً، وكأننا كنا مطاردين بالسيوف، وهكذا خرجنا من أريحا ليس فقط خاليي الوفاض،

بل مضروبين وبشكل فوضوي، مما دفع عدداً كبيراً من الفرسان إلى الغضب، وودوا لو أن ناراً تنزل من السماء، وتلتهم أريحا وكل الذين سكنوا فيها، لأنهم أثيروا بالروح نفسها مثلما أثير كل من جيمس ويوحنا، حسبما ورد في انجيل لوقا:٩، عندما جرى رفض استقبال الرب وتلاميذه في قرية من قرى السامرة،فوقتها رغب هذان الاثنان، بنزول نار من السماء والتهامها، لكن لفعلهم ذلك قد ليما حسبما قرأنا في المكان نفسه.

مدينة أريحا: ماالذي كانته وماهي عليه الآن

مدينة أريحا، التي تعرف أيضاً باسم مدينة النخيل (أخبار الأيام الثاني:١٨/ ١٥)، وأنها كانت من ميراث سبط بنيامين، قد كانت في الأيام الخوالي مدينة مزدهرة، وذات مظهر جيد، باستثناء أنها افتقدت الماء العذب، وذلك حتى أيام النبي اليشع الذي حوّل نبعاً مالحاً جداً إلى نبع عذب، كما سوف نرى فيما يأتي، وكانت هذه أول مدينة استولى عليها بنو اسرائيل، بعد عبورهم للأردن، وتمّ فعل عدد كبير من المعجزات أثناء الاستيلاء عليها، وهذا يمكن الاطلاع عليه في سفر يشوع:٦.

وقام يوشع بتدميرها بالكامل، وأنزل اللعنة على كبار أولاده وصغارهم، الذين سوف يعيدون عمارتها، وبناء عليه، عندما شرع بعد مضي سنوات طوال حيئيل البيتئيلي بإعادة عمارتها، ووضع الاساسات لها، توفى ابنه الأول أبيرام، وعندما نصب أبوابها توفي الأصغر سجوب، وذلك وفقاً للعنة يوشع (الملوك الأول:١٦/ ٣٤).

وكانت هذه المدينة قد هدمت أولاً من قبل يشوع، وثانياً من قبل الرومان، وثالثاً من قبل التتار، وآخر شيء من قبل شعب آخر، لذلك هي الآن قرية بلا أسوار أوخنادق، والذين يسكنون فيها عددهم قليل،

وسكان هذه القرية سود البشرة، وأقوياء، والنساء هناك، هن من القوة مثل الرجال العاملين، لذلك يصعب على الانسان تمييز المرأة عن الرجل.

حدائق أريحا الجميلة وورودها

وبعدما خرجنا من أريحا، نظرنا بأعين شريرة نحو أدلائنا، بسبب الانزعاج الذي عانينا منه، ذلك أننا كنا نتوجس أن ماتعرضنا إليه، كان تدبيراً مقصوداً من قبلهم، وكان صبرنا قد انعدم، من خلال الصوم، فاليوم كان يوم أحد، وكنا حتى ذلك الوقت لم نأكل شيئاً، وكان هناك إعياء في حرارة الشمس، وكانوا في الحقيقة قد وعدونا بأننا سوف نجد خبزاً وماء في أريحا، وأنه سيكون بإمكاننا إراحة أنفسنا هناك، وعندما رأوا أن ثائرتنا تكاد تنفجر، جعلونا نهدأ بكلمات ناعمة، قائلين بأننا سوف نصل على الفور إلى نبع جيد، وأن خبازين سوف يلحقون بنا من أريحا، جالبين الخبز معهم، ولذلك خرجنا من أريحا، وتقدمنا باتجاه جبل القرنطل، ولدى مرورنا بين أسوار الحجارة الجافة لبساتين أريحا، رأينا أجمل الحدائق، التي كانت تسقى من مياه الجداول التي تسيل من نبع اليشع، ولذلك سوف أحدثكم عنها في مكانها.

ورأينا في هذه البساتين كثيراً من أشجار الجميز، التي هي أشجار طويلة، وقد ذكرنا مشهدها بشجرة الجميز التي تسلقها زكاً، عله يرى يسوع (لوقا:١٩)، وإلى جانب أشجار الجميز، نمت أشجار أخرى، تألفت من أشجار الفواكه،ودوالي عنب الخمر الطيبة، مع كثير من أشجار التين، الحاملة لثمار حلوة جداً، ومثل هذا، رأينا هناك أنواعاً متعددة من الورود والزهور، من مختلف الأشكال، وشممنا روائح طيبة جداً، لأن النباتات الشوكية والأشجار، تحمل وروداً رائعة بشكل خاص، وفواكه حلوة، وبدا أن الأعشاب الخضراء، وكذلك حشائش الطبخ، قد نمت هناك بشكل كانت أفضل فيه من أي مكان آخر، فكل

النباتات وكل ماكان نامياً هناك في التربة كان مزدهراً إلى أبعد الحدود.

ولهذا شبهت الحكمة الربانية نفسها إلى الوردة، لكن ليس إلى أي وردة، بل إلى وردة أريحا، ذلك أن ورود أريحا هي الأكثر جمالاً، ولقد قرأنا في سفر الإلهيات:٢٤/ ١٤، «لقد أطريت مثل وردة في أريحا»، وكذلك أعلنت العذراء المباركة عن نفسها، كل يوم، على لسان الكنيسة، أنها مثل وردة في أريحا، وفي الحقيقة، هذه الورود هي الأجمل، وهي تشبع النظر بجمالها ورونقها، وتجعله يبتهج بشم شذاها، ويتمتع بملامسة لطافتها، فهذه الورود تشفي المريض بفضائلها، وتبعث السرور في نفس الحزين بألوانها، وتجعل حتى المتزمتين من الناس يعجبون بروائعها ومظهرها، وتمثل الورود بجمالها الشكل المتوقع للفردوس، وكان في واحدة من هذه الأشجار أكثر من مائة وردة.

ولدى ذكر يوسفيوس لهذه البساتين، في كتابه «تاريخ حروب اليهود» الكتاب الخامس، الفصل الثامن، قال بأن هذه المنطقة اعتادت فيما مضى على انتاج البلسم، الذي هو أثمن الثمار جميعها وشجر السرو الذي ينتج صمغ المصطكا، وذلك إلى جانب ثمار النخيل، من مختلف النكهات والأسماء، والذي عندما يعصر يعطي كثيراً من العسل، الذي قليلاً منه تغني عن العسل الحقيقي، وبالنسبة للفواكه الأخرى أيضاً، من الصعب القول بأن بلداً آخر في العالم يمكن أن يساويها، فهي تنتج أضعافاً مضاعفة كل بذر يبذر في أرضها، وقد اعترتنا الدهشة تجاه خصبها العظيم، في الوقت الذي كانت فيه المنطقة التي فوقها والتي تحتها جرداء، وسبب خصب التربة هو نبع اليشع.

جرزيم وعيبال: جبلا المباركة واللعنة

وتابعنا صعودنا مسايرين مجرى الماء الذي يسقي هذه البساتين، وذلك باتجاه المنطقة التلية، التي منها تتدفق، وتلك المنطقة التلية

مرتفعة،وقد رأينا هناك جبلين يقابل أحدهما الآخر، اسم الأول منهما جرزيم، واسم الآخر جيبال أو عيبال، هذا ويقول السامرة بأن هذين الجبلين واقعان قرب نابلس، التي هي شكيم، وفي الحقيقة يقول بعض الكاثوليك مثل هذا، وقد وجدت الأمر كذلك في كثير من أوصاف الأرض المقدسة، غير أن جيروم المبارك، قد قال في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» بأنهم يخطئون كثيراً بجعلهم بعض الجبال هي جبلي جرزيم وعيبال(٢٠٥)، غير الجبلين اللذين هما قرب أريحا، لأن الكتابات المقدسة تشهد دوما بأنهما قرب الجلجال، فضلاً عن هذا، إن الجبلين اللذين قرب شكيم، واللذين يقولون عنهما بأنهما جرزيم وعيبال، يبعد أحدهما مسافة طويلة عن الآخر، وكذلك من غير الممكن سماع أصوات المباركة واللعنة منهما معا، وقال بعضهم بأنهما الجبلين الواقعين فوق بيعة القديس يوحنا، وتحت الجلجال، ولكنني لا أصدق هذا أيضاً، لأن هذين الجبلين مجرد تلتين من الرمل، تجمعتا بوساطة الريح، ولاتتسعان لعدد كبير من الناس، ولالعدد الأمراء الكبير، فضلاً عن هذا من غير الممكن إقامة مذابح من حجارة غير مصقولة فوق الرمال، وذلك مثل المذابح التي ورد ذكرها في سفر التثنية:٢٧.

ودعونا —على هذا— نقف مع القديس جيروم، بأن هذين الجبلين، الموجودين على يميننا هما جبلي جرزيم وعيبال، بما أن أمراء الأسباط الاثني عشر كان يمكنهم الوقوف، وبناء مذابح والصراخ بلعنات ومباركات، وارسالها من الجبل الأول إلى الجبل الآخر، وكذلك يمكن للناس الوقوف في السهل من تحت، وسماعهم.

ولدى مشاهدتنا لهذين الجبلين، أصابنا الرعب، بسبب اللعنات المخيفة التي أنزلت على الذين أهملوا الشريعة، الأمر الذي من الممكن العثور عليه في سفر التثنية:٢٧—٣٨، ولايمكن لأي مسيحي أن يقول بأن تلك اللعنات والمباركات، عائدة إلى اليهود فقط، ذلك أنهم يعودون

إلى المسيحيين أيضاً، فلنقرأ ما جاء في انجيل متى:٥/ ٢٠ قوله: «فإني أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات»، ومن هذا إنه واضح بأن هذه اللعنات والمباركات تتعلق بنا بشكل كامل بالنسبة للقضايا التي أمرنا بمراعاتها، بعد قدوم الرب، وهكذا جثونا على ركبنا أمام هذين الجبلين، ودعونا إلى رب الجبال.

المكان الذي سخر فيه الأطفال من اليشع النبي الأقرع

وابتعدنا بعد هذا عن جبلي المباركة واللعنة، ووصلنا إلى سفح جبل القرنطل، وسرنا إلى جانب مجرى الماء، وذلك على طول الطريق الذي يقود من أريحا إلى بيت ايل، الذي قرأنا عنه بأن النبي اليشع قد صعد عليه (الملوك الثاني: ٢/ ٢٣—٢٤)، وعندما كان صاعداً، جاء عدد قليل من الأطفال من أريحا، وساروا خلف الرجل المقدس وسخروا منه، وقالوا له: «اصعد أيها الأقرع»، وعندما سمعهم النبي ورآهم صلى ولعن أولئك الأطفال، وعلى الفور قدم دبان من الغابة وافترسا اثنين وأربعين من هؤلاء الأطفال، ونعرف من هذا أنه شيء خطير أن نسخر من رجل عجوز، أو من أناس قرعان، لابل على العكس علينا بالحري احترام الرجال المتقدمين بالسن من ذوي الرؤوس البيضاء، أو الصلعان.

** ** **

رحلة الحجاج إلى نبع النبي اليشع

واثر مغادرتنا للمكان الذي سخر فيه من الرأس الأقرع المقدس، مضينا صاعدين(٢٠١) مسايرين لمجرى الماء، حتى وصلنا إلى مستنقع عميق، توجب علينا بذل جهد كبير لعبوره، والتصق بعض الرجال مع حميرهم في الطين، وبصعوبة بالغة أمكنهم الخروج، وثيابهم كلها قد

توحلت، أما الذين سلكوا ممراً جانبياً فحصلوا في مكان أعمق، في حين واجه الذين بذلوا جهودهم للعبور حيث نمت النباتات، مشاكل مضاعفة، لأنهم غرقوا في وحول عميقة، ووصلوا إلى أشواك حادة جداً، لأن جميع النباتات التي تنمو في تلك البلاد دونها زراعة، لها أشواك حادة، أدنى لمسة لها تسبب جرحاً خطيراً، وكأن رؤوس الأشواك مسممة، وفي محاولة عبوري هذا المستنقع سقطت مع حماري بين هذه الأشواك، ولم أستطع الخروج منهم سالماً، غير أنني بذلت غاية جهدي وكنت خائفاً، وحككت كثيراً من الفتحات التي تمزقت من ثيابي:

إن الشوك والقتاد مؤذ لعقل الراهب

لأن ثيابه تبلى هناك وتتمزق

وبعدما عبرنا المستنقع، صعدنا مسايرين لجانب مجرى الماء، ووصلنا إلى مكان فيه نوع من أنواع الطواحين، حيث تحرك المياه دواليب، وحيث لم يتوفر هناك ممر للصعود مسافة أعلى، إلا من خلال الطاحون نفسها، وعندما وصلنا إلى هناك، وقف صاحب الطاحون وخدمه عند الباب، في مواجهتنا، وبأيديهم عكاكيز ورماح، ومنعونا من المرور خلالها، إنما بعد جدل طويل اقتحم أدلاؤنا ودخلوا إلى البيت، وعملوا لنا ممراً للمرور من خلاله، ومضينا من الجانب الآخر من الطاحون نحو الأعلى أكثر، ووصلنا إلى مكان ظليل مليء بالأشجار والنباتات، من وسطها تتدفق المياه في مساحة كبيرة، وهنا ترجلنا من على حميرنا، وسرنا نازلين تحت أوراق خضراء، كل جماعة لحالها، وجلبنا ما كان قد بقي في جعبنا، وأكلناه وشربنا من الماء، الذي كان ينبع من بين الصخور، وكان نقياً، براقاً، وطازجاً وصحياً، هذا وعندما جلبت جعبتي وأخرجت ماكان فيها من بقايا، وجدت كل شيء قد تكسر وتمازج من البيض المسلوق والخبز والجبن، وقد حدث هذا لي عندما كنت أحاول السير في المستنقع والخروج منه مع حماري، فوقتها تعرضت جعبتي لكثير من

الحركـة، حيث كـانت تحتي، ذلك أنني جلست فـوقهـا، وهكذا انسحق طعامي إلى قطع صغيرة جداً، وعلى كل حال، بما أنني كنت جائعاً جداً، فقـد جلست أرضـاً، وأكلت تلك الفتـات الممـزوجـة بكل سرور، لأنه بالنسبـــة للانســـان تبـــدو حتى الأشيـــاء المرة، حلوة كما قـــال أيوب (الاصحاح:٦/ ٧): «مـاعافت نفسي أن تمسهـا هذه صارت مثـل خبزي الكريه»، وأعترف أنني تناولت هنا بدون كراهيـة، الأشياء التي كنت في الوطن أكره النظـر إليها، أو حتى كنت أرتجف نحوها، وحـزنت بسبب ضـآلة كمية تلك الفتـات، ونحت وبكيت بسبب قلتهم، لكنني أنعشت بوسـاطة واحـــد من الرهبـان الفـرنسيسكان، الذيـن عـرفـوا هذا الحج بالممارسـة، والذين أعـدوا لأنفسهـم زاداً كـافيـاً من الخبـز وكـذلك من الخمـر، وفي الوقت نفســه، عندما كنـا جالسين هناك، قـدم إلينا رجـال ونساء من أريحا، جالبين معهم سلالاً كبيرة مليئة بالعنب وأرغفة الخبز، التي اشتريناها وعملنا بذلك وجبة جيدة من دون أي طعام مطبوخ.

وبعدمـا انتعشنا، إنما وفقاً لطعامنا، وليس وفقـاً لمعيار رغبتنا، جلسنا للاستراحـــة، وأخـذ كل واحـــد منا المكان الذي استقـر فيـــه، وأزحنا الحجارة التي أعاقت تمددنـا على الأرض، لأن الأرض كلها كانت مليئة بحجارة حـادة جداً، ومع أن هذا الفراش كـان قاسياً، لقـد لبى حاجتنا للاستراحـة، وذلـك بالنسبـة لنا وللمكان، لأننـا كنا منهكين ومصـابين بالإعياء، وقـد مرت بنا الليلة الفـائتة بلا نوم تقـريباً، بعـد الجهود التي بذلناها وبعد استحمامنا في الأردن، فضـلاً عن هذا كانت أيام القمـر قد حلت، وهي الأيام التي اعتاد الناس أن يغلبهم النوم فيها.

وكان المكان ظليـلاً، ومحمياً من الحرارة، وكـانت المياه متوفـرة أيضاً، وكانت وهي تجري فـوق الصخور تعمل صوتـاً يستدعي الرجل المتعب للنوم، عـلاوة على ذلك كـانت أوراق الأشجار والنبـاتات تتصـارع مع بعضهـا بعضا، أثناء هبـوب الريح عليهـا، وجعلت أصواتها نومنا أكثـر

حلاوة، لأنه كان هناك غدير له مياه صافية جداً، وكان يسيل بين النباتات الخضراء بخرير لطيف، ورائحة طيبة صادرة عن النباتات، وكانت الريح تحرك الأغصان بأصوات صفير منخفضة، تحث المتعب على الاستراحة، وفي تلك الأثناء، نهض بعض الحجاج، بعدما استراحوا قليلاً، وصعدوا مجارين لمجرى الماء، قاصدين الوصول إلى المكان الذي تنبع منه المياه من الجبل، لكن المسلمين تصدوا لهم، وأرغموهم على الفرار بوساطة الحجارة، وأجبروهم على العودة إلى أماكنهم.

وصف نبع النبي اليشع: كيف كان وماهو عليه الآن

يطلق على النبع الذي يصدر عنه هذا الجدول، اسم نبع اليشع، ومصدره ليس بعيداً عن المكان الذي استرحنا فيه، وعلى كل حال لم يسمح لنا بالذهاب إلى هناك، وهو بعيد مسافة لابأس بها عن سفح الجبل، يتدفق بكميات كبيرة من المياه، تجري بجدول قوي، وتتدفق نحو فسحة واسعة، وتسقي المنطقة السهلية حول أريحا، وتسيل من هناك نحو البحر الميت، ولهذا افترض بعضهم بأن مياه البحر الميت قد اتخذت طريقها إلى هناك بوساطة قناة تحت الأرض، وأنها تتدفق هنا، ومن ثم تعود ثانية إلى المكان الذي جاءت منه، ومن هذا النبع إلى البحر الميت، مسافة ثلاثة أميال ألمانية.

وكانت هذه المياه قبل اليشع، غير قابلة للاستخدام والشرب، لا للبشر ولا للحيوانات، بل كل من أرغم على الشرب منها، كان يتلوث فمه، وحلقه، ولسانه، وبلعومه، على الفور بطعم المرارة المقيت، وإذا ما ابتلع أيا من هذه المياه، كان يقع مريضاً مباشرة، بداء يشبه مرضاً مميتاً، كان يتبعه الموت، وذلك مثلما تفعل مياه البحر الميت في هذه الأيام، فضلاً عن هذا، كانت كل امرأة تستخدم هذه المياه تتحول على الفور عاقراً، والتي هي حامل بولد في الرحم كانت تهلك لدى تذوق هذه المياه، وحدث مثل هذا مع الدواب، وكانت الأرض التي تسقى بهذه

المياه، تصبح غير قادرة على انتاج أي شيء أخضر، بل تتحول إلى أرض غير صالحة، وهكذا صارت مدينة أريحا، حيث تضررت كثيراً بجريان هذه المياه الملوثة.

وحدث في أحد الأيام أن النبي مرّ بأريحا، وقد استقبل ببهجة واحترام من قبل شعب أريحا، وعندما سألهم عن أوضاع مدينتهم أجابوه: «اعلم، نرجوك، إن وضع المدينة جيد، لكن الماء فيها ليس كذلك، والأرض جرداء»، وعندما سمع النبي هذا، أخذ كأساً مملوءاً بالملح، ومضى نحو نبع الماء، وألقى الملح فيه، وقام وهو رافع يمينه، يمين الصلاح نحو السماء، ووقتها صب سائلاً مهدئاً في النبع، وصلى لأن يوقف هذا السائل مرارة النبع، ويفتح عيون ومجاري الماء العذب، وتوسل إلى الرب أن تهب على النهر ريحاً مثمرة، وأن يمنح سكان المدينة، الوفرة في الثمار الناتجة عن الأرض، وأن يزيد من تعداد الأطفال حتى يرثوهم، وبهذه الصلوات صار الماء صحيا، وعذباً أكثر من أية مياه أخرى، والينابيع والمياه التي كانت حتى الآن سبب القحط والمجاعة، أصبحت الآن مصدر الخير والخصب، وصارت قوة المياه عظيمة جداً، إلى حد لو أنها بللت الأرض فقط كانت تجعلها أكثر خصباً من الأراضي الأخرى التي تقف فيها المياه مدة طويلة، والذين يستخدمونها بكثافة يجنون قليلاً، أما الذين يستخدمونها بقلة فيجنون وفرة عظيمة.

علاوة على ذلك، تسقي هذه المياه مساحة أكبر من غيرها من مياه الينابيع الأخرى، وتروي سهلاً طوله خمساً وسبعين غلوة، وعرضه عشرين غلوة، وتعمل حيث تمرّ بساتين فائقة الجمال، وهذا ماتحدثنا عنه أعلاه، وهذه المياه في الصيف باردة، وفي الشتاء دافئة، وتحمل النساء اللائي بلا أولاد، والحيوانات العقيمة بعد الشرب من هذه المياه والاستحمام فيها، ولخصوبة وصحة مجرى هذا الماء، لن يخطىء الانسان، إذا ماقال بأن تلك القطعة من الأرض بأنها سماوية مقدسة، ويقدر

الناس جميع الثمار هناك تقـديراً عاليـا، لأنها تنمو كبيرة، وفـائقة الجودة، فهـذا مـاقالـه يوسفيوس في كتـابه الثـاني من «تاريخ حـروب اليهـود»، الفصل الثامن.

ويبعد هذا النبع مسافة مـائة وخمسين غلوة عن القدس، وستين غلوة عن الأردن، وجميع المنطقـة من القـدس حتى هناك هي قفـار حجـرية ، وتمتـد نزولاً حتـى الأردن، والبحـر الميت هو منخفض ومثـل شـاطىء بحـر، لكنه أجـرد، وغير مفلوح مثل البقيـة، وذلك بـاستثناء الأجـزاء المروية من قبـل ذلك النبع المبـارك، فهي مـزدهـرة خضراء مثل الجنة، وشربنا من هذه الميـاه مثل أبقـار، وبدون حـدود، لأننا عندمـا وصلناها كان الجفـاف قد أعيـانا، وكنا عطشى إلى أبعد الحدود، ومع ذلك مـامن انسان تأذى من اسرافه بالشرب، فهذه الميـاه مع قدرتها الشافية، قد أتت الكنيسة على ذكرها في قداس من أجل تكريس الماء المقدس.

الصعود الخطر إلى الكهف الذي صام فيه المسيح ووضع ذلك الكهف والجبل

وهكذا استرحنا إلى جانب الجدول، الذي كان يسيل من النبع المتقدم الذكـر، لمدة سـاعـة أو أكثـر، منتظرين أن تخف حـرارة الشمس، إنما في الوقت نفسه، وعلى الرغم من الحرارة، عانينا من أعمال شاقة، لكن لسنا جميعـاً، بل فقـط الذين رغبـوا بالعمل، وكـان يمكنهم ذلك، وعلى كل حال شارك الشطر الأكبر من الحجاج في هذا العمل، وفي المخاوف التي تلته.

فقد نهضنا، وتـركنا الظل البارد والمنعش، وخرجنـا من بين الأشجار الجيدة، إلى حرارة الشمس المحرقة، ومن دون وجود ممر، يجمعنا لنتسلق جبـلاً عاليـا، وزحفنا صاعـدين الصخـور والحجارة، وفي هذا الصعـود تخلف عدد من الأصحـاء والذين قهرهم الحر، وكـانوا غير قادرين على

المتابعة، بل استراحوا حتى استردوا أنفاسهم، ثم نزلوا إلى الظل مرة ثانية، وأثناء صعودنا وصلنا إلى حيث كان بعض الحجاج والسيدات من جماعتنا في الحج، كانوا قد وصلوا إلى هناك وقت ساعة الاستراحة، فقد كانوا جالسين، دون التجرؤ على المضي أبعد، وعندما سألناهم، لماذا لم يتابعوا سيرهم نحو الأمام، أجابونا أنهم لن يتابعوا الصعود مقابل أي شيء في الدنيا، وذلك بسبب مخاطر الممر، فالذي عليه أن يرتحل هناك، لابد له من السير على الجهة اليسرى، على طول حافة واد عميق جداً، وأيضاً على طول ممر ضيق كثيراً، بحيث مامن أحد يمكنه المرور إلاّ بالسير على الجوانب، لأن الممر قائم على وجه جدار من الصخر، شكله أنك تجد على جهتك الأولى هناك وادياً عميقاً جداً، وعلى الجهة الأخرى جداراً مرتفعاً وعالياً من الصخر، يتوجب على الانسان المتسلق بأن يتوجه نحوه بوجهه، وذلك خشية أن يفقد وعيه من الخوف من الهوة السحيقة التي تحت، وأيضاً من أجل أن يمسك بالجدار بكلتا يديه، وإذا ماوجد هناك أماكن يمسك بها، يمكنه أن ينظر إلى قدميه ليرى أين يمكنه أن يضع قدمه الأولى بعد الثانية، ويده الأولى بعد الثانية، لأنه إذا ما انزلقت قدمه، أو انزاحت جانباً من المكان الذي وضعها فيه، لابد من أن يسقط على رأسه إلى الوادي في الأسفل، لأن الوادي موجود عند ظهره، وأمام وجهه جدار من الصخر منتصب عاليا في الهواء، وتحت قدميه ممر ضيق وغير مستوي، وهو في بعض الأماكن متقطع بفجوات وتشققات في الصخر، ومن خلال هذه الفجوات يمكن للانسان أن يلمح وجود أعماق سحيقة ومظلمة.

وإذا مانظر المسافر الصاعد نحو الأسفل إلى الوادي، سوف يبدأ على الفور بالارتجاف، لأنه تطلع نحو الأسفل من مثل هذا الجرف الشاهق،وإذا مانظر نحو الجدار الذي تعلق به، يخاف من امكانية ان تسقط الصخور المعلقة فوقه عليه، وشجعنا أنفسنا، وتسلحنا بالنعمة،

ودخلنا إلى هذا الممر الضيق، الذي من خلاله اتخذنا طريقنا، لكن ليس من دون خوف، ووصلنا بعد هذا إلى مكان للصعود خطير جداً، وقف عند سفحه عدد كبير من الفرسان بدون حراك، خوفا من تسلقه، لأن معنى الانزلاق أو أن يدوس الانسان فوق مرقاة غير صحيحة أثناء التسلق،كان الموت، ذلك أنه لم يكن هناك من سبيل للصعود، إلاّ أن يضع الانسان يده ثم قدمه حيث يستطيع ذلك.

وعندما وصلنا إلى القمة، قدمنا إلى مدخل كهف، وهناك وقف بدوي مسلم وبيده عكاز،(٢٠٨) وماكان ليسمح لأحد بالدخول مالم يدفع مارك بندقي، ودفعنا هذا المال، ودخلنا إلى الكهف، فهناك —كما هو معتقد — صام الرب يسوع لمدة أربعين يوماً وليلة، وذلك حسبما جاء الخبر عند الانجيليين (متى:٤، مرقص:٢١ ولوقا:٤)، وغنينا هناك «Ductus est jesus» الخ، مع ترانيم أخرى معينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وانحنينا بعد هذا بأنفسنا ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وبقينا لبعض الوقت في هذا الكهف الأعظم قداسة، في حالة تأمل، وأحاديث خاشعة، فهنا — على هذا— أقام مخلصنا وحيداً، حيث صام وصلى، وسهر، وتمدد، ونام على الأرض العارية، وعاش بتواضع وهدوء مع حيوانات الحقل، وابتهج عندما صلى وتعبد بوساطة الملائكة.

آه، ما أقدس هذا القفر! الذي إليه اقتاد الروح القدس ابن الرب،القفر الذي قدسه الرب يسوع بسكناه فيه، وشرفه بصيامه ذي القيمة العالية، ومجده بالأمثلة الرائعة من الفضائل التي أبداها، وهنا فضح دسائس أعظم أعداء الجنس البشري، وأشدهم، وسلم إلى الذين تعرضوا للإغواء من قبله، الوسائل التي يمكنهم بها التغلب عليه، ولهذا ان هذا الكهف جدير بأن يسمى مدرسة الفضائل، وليس مجرد كهف في القفار.

وبعـدما فـرغنا من تأملنا، سرنا للقيـام بتفحص هذا المكان المقـدس، وأمعنا النظر في هـذا الكهف بفضـول اكثـر من ذي قبـل، وهو كهف واسع نسبيـا في الصخـر، ليس منحـوتاً بعمل بشري، بل هو محفـور من قبل الخالق منذ البـداية، له من جانبـه الأول ضوء ينزل إليـه من الأعلى من خلال فتحة، وكان هذا الكهف قد جرى تكريسه في القديم من قبل المسيحيين، واتخذ بيعة، وكـان فيه مذبحين وصـوراً على الجدران، مازال من الممكن رؤيتهـا، ويوجد من خـلال الفتحة التي يدخل منهـا الضوء إلى الكهف طريق إلى قمـةالجبل، وذلك فـوق صخرة شـديدة الانزلاق، والصعود إلى هـذه القمة خطير جداً لأن يقـوم به أي انسان، وكـان من خـلال هذا الطريق أن أخذ الشيطـان الرب يسوع إلى قمـة الجبل، ومن هناك أراه جميع ممالك الأرض، كما سنوضح ذلك.

وقـد تسلقت من خـلال النافـذة، غير أننـي لم أتجرأ على المغـامـرة بالصعـود إلى فوق، وفي الحقيقـةلقـد ارتعدت تجاه منظر الهوة السحيقـة الموجـودة تحت، ونحـو ارتفـاع الصخـرة فـوق، ووقف عـدد كبير من الحجـاج الآخـرين يراقبوننـي، حتى إذا ما صعـدت، قـام كثيرون منهم باتباعي، وهكذا بعـدما رأينا كل ماكان في الكهف المقـدس، خرجنا منه مع الحذر نفسه والخوف، وتسلقنا فـوق الصخور باتجاه آخـر إلى كهوف أخرى، لأن حول الجبل هناك كهوف في الصخور، وتحت الحجارة، وفي الجدران الحجـرية، وهذه الكهـوف بعـض منهـا طبيعي، وشطر آخـر مصطنع، وفيهم اعتـاد القـديسـون المسيحيـون على الإقـامـة في الأيام الخالية، لأنه وقتها كان الجبل كله مليئاً برجال دين أمضوا أوقاتهم هناك مع الرب في استغفار مميت للجسد، وقمت خلال حجيّ بالتجول حول هذا الجبل المقـدس، فوجدت كثيراً مـن القلايات قد نحتـت في الصخر الأصم، وكهـــوف في أشـــد الجروف انحـــداراً، وأقبيـــة على أخطر المنحـدرات، فيهـا كـان بإمكاني رؤية أمـاكن الاقـامـة الخطرة للرهبـان

المقدسين، وكان من الممكن بالنسبة لي أن أتتبع الآثار في هذه الكهوف، فأميز أماكن للصلوات، وأخرى للنوم، وثالثة لتحضير الطعام، وأماكن لحفظ الحاجات الضرورية، وكان في الجدران حفراً مربعة لوضع الكتب فيها، ورأيت في الجهة المقابلة من المنحدرات كهوفاً، لم يكن من الممكن لأحد أن يصل إليها، إلاّ صيادي الماعز والحيوانات البرية، وفيها قد عاش فيما مضى رهبان، كانوا قد اعتادوا على الدخول والخروج، عبر ممرات سرية، بطريقة كانت تخفيهم عن الناس جميعاً، وذلك من أجل أن لاينزعجوا بزيارة الناس لهم.

لكن ويالللأسف، جميع هذه الكهوف والقلايات فارغة الآن، وهي مسكن للحيوانات المتوحشة، وقبل مضي سنوات قليلة انقضت، كان رهبان شرقيون مايزالون يعيشون هناك، لكنهم طردوا من قبل واحد من السادة المسلمين من غزة، حيث دمر الممر إلى الكهف، وبذلك لم يعد أحد قادراً على الوصول إليه، لكن السلطان، عندما تشكى المسيحيون إليه، رمم الممر حتى صار في الحالة القائمة الآن، ولقد حدث أنه إلى هذه المنطقة الجبلية، كان ارسال الجاسوسين من قبل يوشع إلى أريحا، وقد صعدا إليها للالتجاء، ومكثا هناك متخفيين في هذه الكهوف وفقا لمشورة راحاب العاهرة، وذلك حسبما قرأنا في يشوع:٢.

صعود جبل آخر والمشاكل التي واجهناها هناك

وبعدما فرغنا من تفحص أماكن سكنى وكهوف القديسين بدقة، رغبنا في أن نكون على قمة الجبل، التي إليها هناك ممر طويل فوق صخور منزلقة، وقد بدا لنا هذا الطريق جرفي وشديد الانحدار، لذلك من المعتقد أن مامن انسان قادر على تسلقه، وكان معنا رجل، كان قد تسلقه فيما مضى، وقد أخبرنا أنه لن يكون بامكاننا الوصول إلى القمة من ذلك الجانب، لكن إذا ما أردنا الصعود، علينا أولاً أن ننزل ثانية كل الطريق الذي صعدناه، وأن نسير حول سفح الجبل باتجاه الشمال،

فمن ذلك الجانب يمكننا الصعود من دون خوف من الجروف، إنما ليس من دون تعب ومشقة، وبناء عليه نزلنا ثانية حتى وصلنا تقريباً إلى المكان الذي تركنا الحشد فيه، وهناك وقفنا، وتناقشنا حول ما إذا كنا سنسير حول الجبل، ونتسلقه، ذلك أنه لم يكن معنا دليل يرينا المكان الصحيح للصعود منه.

وصدف — على كل حال— أن مسلما طويلاً في سن المراهقة، كان عابراً على المنحدرات التي كانت فوقنا، وقد استدعيناه إلينا، وأعطيناه مدنوس حتى يقودنا إلى القمة، وأخذ الشاب المال، وبدأ يسير نحو مكان الصعود، وقمنا نحن باتباعه، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، خرجوا من الظل، وبدأوا يصرخون لمنعنا من الذهاب، قائلين بأنهم على وشك مغادرة المكان واستئناف السفر، علاوة على ذلك، وقف الحجاج الآخرون الذين بقيوا في الظل، وبذلوا جهدهم لدعوتنا للرجوع، وتظاهروا بأنهم يتجهزون للسفر من جديد، وعلى كل حال، تبعنا الفتى، ولم نهتم بصراخهم، وفي الحقيقة كنا قد غضبنا من قيام إخواننا الحجاج بدعوتنا للعودة، وقد سمعت واحداً من الفرسان الذين كانوا معنا يقول: «لولا وجود المسلمين، الذين أخشى من غضبهم، لعدت وقمت بإهانة الحجاج الذين يصرخون خلفي، وإذا ماتابعوا صراخهم، سوف أريهم... العارية»، ولدى قوله ذلك جعلنا جميعاً نضحك من قلوبنا، وكنا في الوقت نفسه قد ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، إلى حد أننا لم نعد نسمع صرخاتهم، لكن كنا نراهم وقد امتطوا خيولهم وحميرهم، وكأنهم قد عزموا على الذهاب من دوننا، ورأينا عدداً من الحجاج يركضون خلفنا، لكنهم عندما شاهدوا اصرارنا، أهملوا صراخ المسلمين والتحقوا بنا.

وبناء عليه تابعنا سيرنا، ولدى ابتعادنا عن نظر الحشد، وصلنا إلى المكان الذي فيه مكان بداية مكان الصعود إلى الجبل، حيث انتظرنا

هناك الذين كـانوا يتبعـوننا، حتى نكون جميعاً مـع بعضنا، ثم شرعنا نتسلق تلة منحدرة، وقام وقتها واحد من الحجاج، فجثا على ركبتيه أمام الجبل، ودعـا إلى الرب، ثم بدأ يصعد الجبل في وضعـه ذلك مع ركبتين جاثيتين، وجسـده منتصب، وقد مـدّ ذراعيه على شكل صليب، وهكذا صعد فـوق ذلك الطريق العظيم الوعورة، والتلـة غير المستوية، دون أن يعين نفسـه بيـديه أو بقدميـه، لكنه عندمـا كـان يرغم، كـان يستند على مـرفقيه، بشكـل أنه لم يستخدم يديـه لجرّ نفسه بهما نحـو الأعلى، إلاّ في الحالات التي لم يكن بامكانه فعل ذلك بدونهما، كما حـدث عدة مـرات في أماكن منحدرة.

كم كـان التعب، وكانت المشقـة، التي عانى منهـا هذا الحاج في ذلك التسلق، والذي تبرهن مـن خـلال تأرجحـه مـن جنب إلى جنب، وهو يخطو صاعداً على ركبتيه، لأنه عندما خطا بركبته اليسرى، مال كلياً على جانبه الأيسر، وحدث الشيء نفسـه عندما خطا بركبته اليمنى، فمال على يمينه، وأثناء قيامه بذلك غالباً ماسقط على جانبه الأول أو جانبه الثاني، أو وقع متمدداً على وجهه، وقـد تمزق نعله، وسال الدم على ركبتيه على جلده، وبذلك صبغت كل خطـوة من خطواته بالدم، وتمزق كميـه عند مرفقيـه، وألمت الجراحة بذراعيه، وتورم وجهـه، وتغير المظهر الخارجي للرجل كلياً.

عجبـاً، كنا بصعـوبـة نزحف نحـو الأعلى، مستخـدمين لأقـدامنا ولأيدينا، في حين تسلق هو على ركبتيه وعلى أربعته، بكل رجولة، دونما اهتمام بعذابه، لأن الاستغفار التقوي يجعل الأشياء المرة حلوة، والأشياء الثقيلة خفيفـة، والأشيـاء القـاسيـة ناعمـة، أتوسـل إليكم، من الذي لايرتقي إلى الخشـوع، لدى رؤيتـه لهذه الشـدة، والصعـوبـة، وممارسـة الفضيلة من قبل ذلك الحاج؟، ومن الذي لايتـوب من ذنبـه لدى رؤية مثل هذه العقوبة المرعبة للمذنبين؟

وهكذا بعدما تسلقنا إلى قمة ذلك التل، رأينا فوقنا قمة أخرى بعيدة عنا، إليها تشوقنا بهمة عالية، وبأنفاس سريعة، ظانين أن تسلقنا لها سوف يكون هو النهاية،إنما بعدما وصلنا إلى تلك الذروة بكل مشقة، ظهرت لنا هناك ذروة أخرى عالية، كانت هي الأعلى في تلك المنطقة الجبلية، ومع أننا كنا أعلى من جميع الجبال من حولنا، صعدنا من ذلك الارتفاع الذي كنا فيه إلى جبل آخر مستدير، عريض من الأسفل، كان كلما صعدته صار مدبباً في الأعلى، وكان كلما غدا أعلى صار أعظم انحداراً ووعورة، وكان مغطى من كل جانب بصخور حادة جداً، مع أن الجبل نفسه كان من حجارة ناعمة جداً، منه اقتطعت هذه الصخور والجروف، وهكذا بادرنا مسرعين واحداً تلو الآخر، وبمشقة تسلقنا ذلك الجبل نفسه، ووصلنا إلى القمة هناك، وكان الذين وصلوا أولاً، يمدون أيديهم إلى الذين تحتهم وينتشلونهم فوق تلك الجروف، وانتظرنا نحن جميعاً وصول الحاج المتقدم الذكر، وسحبناه وهو متلاشي ونصف ميت،ثم سرنا إلى الجزء المتوسط من قمة الجبل، وجلسنا تحت جدار للبيعة هناك، في الظل حتى نسترد أنفاسنا، وذلك قبل أن نتلو صلواتنا، لأننا كنا منهكين جداً، ومصابين بالإعياء بسبب مابذلناه من جهود أثناء الصعود، كما كنا نتوهج من حرارة الشمس، ولذلك فإن بعض الحجاج عندما كانوا يحاولون الجلوس على الأرض لاسترداد أنفاسهم، وقعوا وهم يرتجفون ، وكان بعضهم قادرين بكل صعوبة على التنفس، وأثناء الجلوس للاستراحة، روحوا عن أنفسهم بالتهوية أمام وجوههم بقبعاتهم وبملابسهم.

واضطربنا كثيراً وقلقنا على واحد من الحجاج، الذي لا أريد ذكر وضعه ومرتبته، بسبب مشاعر تقوية،فقد تمدد هذا الحاج على الجبل مثل انسان ميت، بدون مشاعر أو عقل للاستخدام، بل سحبناه بين أيدينا مثل جثة هامدة، وقد استطاع راهب دومينيكاني من فلورانسا انعاشه

وردّه إلى وعيه، لأنه حمل منعشات لهذه الغاية معه، وأعتقد بشكل مؤكد أنه لو لم يكن ذلك الراهب هناك لمات ذلك الحاج فوق الجبل، وفيما يتعلق بإغماء ذلك الحاج أود أن أكشف هذا السر، من أجل تهذيبنا، فقد جاء هذا الحاج من البلدان الواقعة فيما وراء البحر، وكان كاهنا وراهبا متقيداً بدقة بأحكام نظامه، فلدى مغادرته لوطنه، عندما شرع في تنفيذ هذا الحج المقدس، ارتدى على جسده العاري دروعاً حديدية كاملة، هو لم يخلعها خلال الرحلة كلها، بل كانت مخفية تحت ثياب حجه ليلاً ونهاراً، في البحر وفي البر، وفي الحر والقر، وقد اتخذ سبلاً كثيرة لإخفاء هذه الدروع عنا، لكنه لم يستطع.

وعندما عرفت هذه وأشياء أخرى، وانتشرت بين الحجاج، جعلت حجهم أكثر تقوى من أية أماكن مقدسة أخرى، لأن مثل هذه الأمثلة كانت تثير الناس اكثر من الكلمات، وكانت الكلمات تحركهم أكثر من الأماكن،ويعتقد المسيحيون البسطاء والطيبين، أنهم إذا ماكانوا في المواضع التي صنع فيها ربنا يسوع عمل خلاصنا، عليهم استقاء كثيراً من التقوى منهم،غير أنني أقول لهؤلاء الناس، صدقاً إن التأمل والتفكر حول هذه المواضع، والاصغاء إلى وصفهم، فيه تهذيب وتأثير أكثر من رؤيتهم الفعلية وتقبيلهم، فما لم يضع الحاج أمام ناظريه بعض الأمثلة الحية للتقوى، تساعده الأماكن قليلاً في مسألة القداسة الحقيقية.

هذا وإن البكاء والتنهدات التي هي عامة في الأماكن المقدسة، تثور في الغالب من حقيقة أنه عندما يبكي أحد الحجاج، لايستطيع آخر منع نفسه من البكاء، ويحدث أحياناً أنهم جميعاً يبكون وينوحون، أو بسبب أن بعض الناس يمتلكون فن جعل أنفسهم يبكون حتى نحو قضايا لاعلاقة لها بالدين، ويذرف مثل هؤلاء الناس دموعاً لاقيمة لها في الأماكن المقدسة، وينوحون ويولولون كلهم تقريباً، إنما ليس بسبب القوة الذي يمارسها المكان عليهم، مع أن الأماكن قد تدفع على الخشوع

بكل تأكيد، إنما القضية تتعلق بالسهولة التي يبكون فيها، ومما لاشك لديّ فيه، أن هناك عشرة مسيحيين جيدين في قلايتي في أولم، يرغبون برؤية الأرض المقدسة، والأماكن التي كانت مقدسة لدى الرب يسوع، وأن هؤلاء يمكنني أن أثير خشوعهم حول هذه الأماكن، أكثر مما لو أنهم كانوا منكبين على الأرض في الأماكن المقدسة نفسها.

وقد حرضت على قول هذا، في هذا المكان، بسبب أننا كنا خاشعين كثيراً على هذا الجبل، لأننا قد أنجزنا عملاً صعباً، ورأينا فضيلة عظمى متمازجة، وهكذا بعدما انتعشنا، واستردينا أنفاسنا نهضنا كلنا معاً، وأنشدنا القداس المحدد في كتب المسيرة مع الاضافات،وانكببنا بخشوع عظيم بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا للرب، وقدمنا صلواتنا المتوجبة إلى الرب يسوع، لنظهر رفضنا للشيطان الذي كان يبكي كثيراً، وهو الذي تجرأ في هذا المكان على إغواء الخالق له نفسه ولجميع الأشياء، وأن يستجره إلى وعود كاذبة، لكي يهوي إلى عبادته، حيث أراه في لحظة من الوقت واحدة —كما قرأنا في لوقا:٤ — جميع ممالك الدنيا، ومجدها قائلاً: «لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إليّ قد دفع، وأنا أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع»، وحصلنا في هذا المكان على غفرانات مطلقة(++).

الاماكن التي رأينا من ذلك الجبل

وعندما فرغنا من صلواتنا، فجأة، وصلت مجموعة أخرى من أفراد الحجاج، إلينا، الذين قالوا بأننا لولم نصعد، لغادروا المكان منذ زمن طويل، وقد سررنا بقدومهم، لأنهم لوغادروا من دوننا، لسارت الأمور، بالحقيقة، بشكل سيء، ورفعنا الآن أبصارنا، ونظرنا من حولنا طويلاً وعريضاً، ورأينا بأعيننا كل ما ذكره القديس متى في الاصحاح الرابع، وتبين لنا أنه صحيح، وذلك عندما أطلق على هذا الجبل اسم جبل في غاية الارتفاع، لأن هذا الانجيلي ماكان ليقول «غاية» مالم يكن

الجبل بالفعل في غاية الارتفاع، وقد رأينا على كل جانب أماكن غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة(٢١٠)، لأننا رأينا من جهة الشرق المنطقة الجبلية للعربية نفسها، الممتدة من خلال ممر طويل من الشمال إلى الجنوب، ويقوم بين هذه الجبال: جبل نوب، وجبل فشخة، أو عبريم، الذي منه رأى موسى الأرض المقدسة، وهو الذي رأيناه واقفاً متميزاً فوق البقية، ورأينا أمام أعيننا منطقة جلعاد الجبلية، التي أعطيت إلى سبط رأوبين، وسبط جاد، ونصف سبط منسا، وأرض وسهول مآب وعمون، حتى القفار الحجرية الواقعة عبر الأردن، هذا وكانت هذه كلها بعيدة عنا، وأيضاً رأينا هشبون وباشان، ورأينا على طرفنا من الأردن سهل أريحا العظيم، ومجرى نهر الأردن مع قفاره، والبحر الميت.

ورأينا باتجاه الجنوب، عبر البحر الميت، قفار القديس جيروم الكبيرة، وجبال عين الجدي، وجبل لوط، وبراري تقوع، ومنطقة أدوم التلية.

وباتجاه الشمال رأينا جبال اسرائيل، الذين كنا فيهم أيضاً، ولم نكن قادرين على أن نلمح الجبال التي قامت من حول القدس، لأنها كانت أعلى مماكناه، لأن جبال القرنطل وقفارها واقعة على كتف جبل الزيتون، وقد رأينا هذه الأماكن المتقدمة الذكر بوضوح أكثر عندما كنا على جبل عين الجدي، ولسوف نتحدث عن هذا الجبل وعن مسائل أخرى في ص٢٨٣ظ.

وأخيراً هناك عند سفح الجبل الذي وقفنا عليه، أريحا، التي تقع عاي (تل الحجر) إلى الجنوب منها، وباتجاه الغرب، هناك المدينة التي اسمها بيت إيل، حيث رأى يعقوب في منامه السلم، وحتى هذا اليوم من الممكن رؤية الحجر التي كان قد وضعها تحت رأسه عندما رأى السلم، والتي عليها صب زيتاً عندما أفاق من نومه، وقال العبرانيون بأن يعقوب قد رغب بالنوم، فكوّم ثلاث حجرات، ووضعهم تحت رأسه. بسبب أن النص يقول بأنه قد أخذ الأحجار من ذلك المكان، وذلك

بعدما أفاق من رؤياه المتعلقة بالسلم، وجعلت الأحجار الثلاثة في حجر واحد، ولهذا قال النص بأنه أقام حجراً واحداً، وفي هذا المكان، نصب يربعام،ملك اسرائيل، واحداً من العجلين الذهبيين، حتى لايذهب الناس إلى القدس، وقد قرأنا حول سلم يعقوب في سفر التكوين:٢٨، وعن العجل الذهبي في سفر الملوك الأول:١٢/ ٣٢.

وحملنا بعد هذا أنفسنا لمشاهدة الجبل نفسه، الذي كان في غاية الارتفاع، ولأنه منتصب قائم من منطقة سهلية، فإن الجبال على الجهة الغربية مستندة عليه، ولهذا هو أعلى منها، والجبل كله صخري، وأجرد، ومنحدر، وتقوم بيعة على قمته، هي الآن مهدمة، غير أن جدرانها وخرائبها مرئية في هذه الأيام، ويبدو وكأنه كان هناك دير،وفي ماقلناه كفاية.

عودة الحجاج نحو مدينة القدس المقدسة

وبعدما أمضينا ساعة على قمة الجبل المقدس، اتخذنا طريقنا نازلين، وقد مضى بعض الفرسان الشباب أمامنا، وهم يركضون ويقفزون نزولاً، لكننا تبعناهم بثبات فوق الصخور والجروف، والمنحدرات والأماكن المنزلقة، وعندما كنا على طريقنا نازلين، وأثناء وصولنا إلى جرف مرتفع، كنا نسمع من الأسفل من عند سفح الجبل صراخاً وأصواتاً عالية صادرة عن رجال كانوا يزمجرون غاضبين بالعربية والألمانية، وبين هذه الأصوات كان بامكاننا سماع واحد يصرخ -Rob bery، وبالألمانية كلمات: mordjo, mordjo، ولدى سماعنا ذلك، أدركنا مباشرة، بأن الفرسان الذين ذهبوا أمامنا كانوا في ورطة، ولذلك انزلقنا مسرعين نازلين، وقد انزلقنا بأنفسنا من فوق الجرف إلى مكان الخصام، فهناك كان قد وقف خمسة من النبلاء الحجاج في كهف عميق عند سفح الجبل، يمسكون حجارة بأيديهم، جاهزين [illegible]يها، وقد وقف أربعة من البداة العرب أمام الكهف، مع حجارة وكانوا يزمجرون مع

بعضهم، فقد طلب البداة منهم مالاً على سبيل الخفارة، الأمر الذي رفضوه، ووضعنا أنفسنا بينهم بمثابة صانعين للسلام، خشية أن يرمي أحدهم الحجارة على الفريق الآخر، وقد رأينا أن هذا لو حدث، لعدّ جميع الحجاج خارقين لمعاهدتهم بالمرور الآمن، وكان سيسبب لنا اضطراباً عظيماً، وكان علينا بذل جهد عظيم حتى تغلبنا على رفاقنا لإلقاء حجارتهم، وطلب البدو أيضاً بعض المال، وأخبرناهم أننا لن ندفع لهم شيئاً في ذلك المكان، بل فقط وسط الحشد، وبحضور أدلائنا، وهكذا أحضرنا إخواننا من ذلك الكهف، وخلصناهم من أيدي البداة العرب، لكنهم لو كانوا أقوى منا، لما أمكننا المغادرة بسلام، علماً بأن أولئك الحجاج الخمسة كانوا سيأكلون البداة الأربعة لو أنهم وصلوا إلى الضراب، وعندما كنا مبتعدين عن هؤلاء البداة، هددوننا بأنهم سوف ينتقمون منا، وبالفعل قاموا بذلك، كما سيتضح فيما بعد.

وهكذا عدنا إلى الحشد في المكان الظليل، قرب الماء، وكان قد جلب إليهم خبز وعنب، ووجبات جاهزة، غير أن البداة المتقدم ذكرهم، دعوا إليهم أتباعهم، ومركزوا أنفسهم أمامنا، متسلحين بالرماح وبالاسلحة الأخرى، ووقفوا في وسط الطريق الذي كان علينا أن نقطعه أثناء ذهابنا، وعند غياب الشمس، وتناقص حرارتها، نهضنا من ذلك الموضع، وركبنا حميرنا وانطلقنا نسير فوق السهول، ولكن البداة العرب تصدوا لنا، رافضين السماح لنا بالمرور، قبل أن ندفع لهم خفارة من أجل ذهابنا إلى الجبل، وللمقاومة المتسرعة للحجاج، ذلك أن البداة يقولون بأنهم سادة القفار، والأماكن المشعثة، ولذلك هم لايعبأون بكتب الأمان، بل يجبون خفارات من جميع الذين يمرون من خلال الصحراء.

وهكذا وبعد جدال طويل، أرغم أدلاؤنا قبطاني الغليونين، على دفع ثماني دوقيات إلى البداة العرب كخفارة لدخول الجبال، ومن أجل

العنف الذي مورس ضدهم، ولأن الحجاج حملوا الحجارة ضدهم، وتخلصوا منهم بالقوة، ودفع القبطانين المال بغضب عظيم، مع عظيم اللعنات الموجهة إلينا، وأرادا أن يعرفا من كان السبب وراء هذه القضية، لكن مامن أحد أخبرهما، لأنهما لو علما من من الحجاج كان وراء ذلك، لاستخرجا المزيد من المال منهم، وبناء عليه عندما انتهت هذه القضية، وتركنا البداة وغادروا، نزلنا نحو أريحا، غير أنا تركناها على يسارنا، وتابعنا سفرنا باتجاه الجنوب،مسايرين لسفح الجبل، حتى يمكننا الوصول إلى الطريق السلطاني، الذي جئنا عبره عندما نزلنا إلى هاهنا من القدس.

وفيمانحن على الطريق العام فوق أريحا، وصلنا إلى بيت مقنطر، قد بني على شكل بيعة، حيث كان الموضع الذي أعطى فيه الرب يسوع النظر إلى رجلين أعميين، وذلك حسبما قرأنا في متى:٢٠، وكان الأول منهما معروفاً من قبل كثيرين، وكان اسمه بارتيماوس بن تيماوس، وهذا وحده ورد ذكره في مرقص:١٠، وترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وقبلنا طبعات قدمي الرب يسوع، وحصلنا على غفرانات(+).

واثر مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى الطريق الصاعد إلى المنطقة التلية، التي هي جبل قفار أدوميم،وقام هنا فيما مضى بلدة، رأينا خرائبها وقد كان اسمها أدوميم، أي الصعود إلى الأيدي الحمراء، وذلك بسبب الدماء التي غالباً ما سفكت هناك من قبل قطاع الطرق، ومن هذا الحصن أطلق على جميع القفار الممتدة من أريحا إلى بيت عنيا، اسم أدوميم، ومن أجل حماية الرحالة المسافرين خلال هذا المكان الدموي المتوحش، جرى بناء حصن هناك، وهو حصن أدوميم المتقدم ذكره، وورد ذكر هذا المكان في سفر يشوع:١٨، علاوة على ذلك، نجد في الحكاية المثلية حول الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا، قد أتى الرب على ذكر هذا الطريق الخطير جداً، وذلك حيث جرى سلب

الرجل وجرحه (لوقا: ١٠)، ولذلك نجد الألمان في هذه الأيام يدعون الحصن المتقدم الذكر مع القفار باسم Rothbach، ومعنى ذلك «نهردم»، لأن البداه يصعدون إلى هناك، ويكمنون في تلك القفار على جانب الطريق، ويسلبون العابرين، ولايتجرأ المسلمون على المرور صعوداً أو نزولاً، إلاّ في عساكر كبيرة.

وبناء عليه، عندما وصلنا إلى صحراء أدوميم، لم يتوقف أدلاؤنا عن حثنا ودفعنا للسير مسرعين، الأمر الذي لم يسبب لنا أدنى اضطراب في حجي الثاني، إنما من الصعب عليّ اخباركم عن المصاعب التي عانينا منها على ذلك الطريق في حجي الأول، وأتجرأ على القول أنني في حجي الأول، شخصيا ورفاقي تعرضنا لمصاعب وتعاسات على طريق حجنا إلى الأردن وحده، أعظم من كل ما واجهناه على جميع الطرقات التي سافرنا عليها في حجي الثاني، فعندما كانت الدنيا مظلمة وصلنا إلى أماكن منحدرة وتلال، وعندما كنا عاملين على التسلق أكثر نحو الأعلى، أرغمونا على الترجل من على ظهور حميرنا، وأن نسير على أقدامنا، لذلك كان من الصعب علينا التنفس لشدة حاجتنا إلى الطعام، ولقد رأيت عدداً كبيراً من الحجاج جالسين على ظهور حميرهم، وهم غير قادرين حتى على حمل مقاود حميرهم، بسبب ضعفهم، ولذلك سقط بعضهم، وتركوا حميرهم تذهب، وتمددوا على الأرض، ومع ذلك أرغمهم المسلمون بحنق على المتابعة، وكانت مشاق تلك الليلة لايمكن تحملها بسبب الظلام، وخطورة المنحدرات، والاغماء على الحجاج، والطريقة المرهقة التي ساقهم فيها المسلمون نحو الأمام، وكان الحال مثل سائقي عربات كانوا يحملون أوزاناً عظيمة في عرباتهم، فوق طرقات منحدرة وجبلية، وكانوا يهددون دوابهم ويحثونها على الاسراع نحو الأمام بصرخات لم تعرف التوقف وبضربات، إنهم مثل هؤلاء كان قادتنا، لم يتوقفوا عن تعجيلنا نحن ودوابنا فوق طرق خطيرة جداً،

حيث كان معنى انزلاقة واحدة الموت بالنسبة للدابة، وسقوط الانسان فوق واحد من الجروف والمنحدرات، وكان هذا العمل شاقاً إلى حد لو أن أي انسان لمح وجوه الحجاج بوساطة ضوء، لرأى وجنات مبللة بالدموع، وعيون محمرة من شدة البكاء، بين رجال كانوا في بلادنا مزينين بالذهب، والفضة، والحجارة الكريمة.

وسمعت في تلك الليلة بعضهم يئن، وبعضهم يبكي، وبعضهم يصلي، في حين كان بعضهم يلعنون أنفسهم، والطريق، والبلاد، وفروسيتهم، والمسلمين، وسمعت آخرين يتمتمون ويحدثون أنفسهم للحفاظ عل ذواتهم، إنما خلال هذه المشاق كلها، تفوقت رفيقاتنا من الحاجات، والنساء العجائز، علينا جميعاً، حيث احتللن المكان الأول واستولين عليه من الفرسان، فلم يصدر عنهن أنين، كما أنهن لم ينحن بسبب متاعبهن، بل مضين في الصف الأول من المسيرة، أقوى من الرجال، وأشجع من الفرسان، ولقد وصمت هذه العجائز الفرسان بعار كبير، من خلال تحملهن، وفي الحقيقة قال فارس لي: «انظر ياأخي، أنا لا أعتقد أن هذه المخلوقات المسنة هي نساء مطلقاً، بل شياطين، لأن النساء خاصة النساء العجائز، ضعيفات، لطيفات، حساسات، في حين هؤلاء النسوة صنعن من حديد، وهن أقوى من جميع الفرسان»، ولكم وددت لو أن سليمان قد كان في حشدنا، فوقتها كان لن يجد امرأة واحدة قوية، بل عدداً كبيراً من النساء قويات، لأنه في أيامه عين جائزة لامرأة قوية واحدة ولو كانت من أقصى أطراف الأرض، حسبما ورد الخبر في الأمثال:٢١، ووقتها لم يجد أية امرأة قوية، ولذلك قال (الالهيات:٧): «رجلاً قوياً واحداً بين ألف، وجدت، لكن امرأة واحدة بين كل هؤلاء لم أجد»، ولو أنه كان في حشدنا، لما وجد رجلاً واحداً قوياً، لأنهم كانوا جميعاً محطمين بالتعب، وضعفاء بسبب الصوم، في حين لم تكن هناك امرأة ضعيفة، أو متذمرة، أو شاكية من الشقاءالذي

تعرضت إليه وعانت منه، ومن أين من الممكن قد جاءت القدرة إلى الضعفاء، والقوة إلى النساء، إلاّ منه، الذي اختار الأشياء الضعيفة في العالم ليخزي القوي، ومن الذي وضع هؤلاء النسوة فوق الرجال، حتى لايمكن لواحد منهم التفاخر بجنسه، وبقوته، وبجماله، وبفتوته، أو بأصالة مولده؟ لأن أولئك النسوة لم يكن رجالاً، ولاأقوياء، ولاجميلات، ولانبيلات، ومع ذلك تحملن جميع المتاعب من دون الإصابة بإغماء، مثلما حصل للفرسان، وهنا أخزى الرب شموخ هؤلاء الفرسان الذين ازدروا اصطحاب هؤلاء السيدات، وأن يكن برفقتهم، مثل الذي عدّ مسألة صغيرة ضياع واحدة منهن في القفار إلى جانب الأردن، حسبما تحدثنا من قبل وهنا ستجد المزيد حول هذه القضية.

وإذا صدف وكنت ممن يضحك نحوهن، أو تستخف بأوهامهن النسوية، قد تجد الجواب في رسالة جيروم ضد فيجيلانتيوس Veg-ilantius حيث قال: «أنا لا أستحي تجاه إيمان النساء، مشاهداً أنها كانت امرأة التي شهدت قيام الرب أولاً، والتي أرسلت الرسل، والتي أطريت من قبل الرسل المقدسين، بشخص أم الرب مخلصنا»، لكن لماذا أضيع أنا الوقت على مديح هؤلاء السيدات العجائز؟ ليكن في ذلك كفاية في الوقت الحالي.

وهكذا وصلنا في حوالي منتصف الليل بعد كثير من المتاعب وأعمال التسلق الشاقة، إلى نبع كان ينبع من جانب رابية، وهذا النبع هو الذي أعتقد أن اسمه نبع الشمس، كما ورد في يشوع:١٨، ولعل سبب ذلك أنه قائم في مواجهة الشمس المشرقة، وبأشعتها كان يسخن، أو أنه كان مقرراً من قبل الروح القدس، وجوب تسمية هذا النبع بهذا الاسم، بسبب شمس صلاح واستقامة ربنا المسيح، الذي من المعتقد أنه غالباً ما شرب منه، ذلك أنه صعد على هذا الطريق ونزل مراراً عدة، وعند هذا النبع لم يرغب أدلاؤنا بأن نترجل، ولدى سماعنا ذلك نحن لم نترجل بل

رمينا أنفسنا من على ظهـور دوابنا بكل سرور، ويوجد حـول هذا النبع بناء قديم ومهدم ،الذي قـد بقي منه الجدران الأربعة فقط واقفة، ولعله كان فيما مضى محطة قوافل أو نزل، واسمه البيت الأحمر، واسمه هذا قد اشتق أيضـاً من اسم صحـراء أدوميم، وقـد دخلنـا إلى هذا البيت مع شمـوع مضاءة، وجعلنا المكان مناسباً لنا بوساطة إزالة فضـلات البشر والحيـوانات، وكان بـذلك مليئاً، وقد وضعنا حجـارة للجلوس عليهـا وللنوم.

وبعدما نظفنا المكان، جلسنا، وجلبنا آخـر ماكان في جعبنا من فتات، وأكلناهم، لكن الجزء الأعظم منا كـان منهكاً، حيث أنهم ما أن ترجلوا من على ظهور حميرهـم، حتى ألقوا بأنفسهم فـوق الارض، وكانوا غير قـادرين على الأكل، أو الشرب، أو الكلام، وكـانوا يأملون بالراحـة، وكـان في الوقت نفسـه حـول الماء تدافـع وفـوضى، فقـد كـان كل من البشروالدواب يبـذلون جهـودهم للوصـول الى الماء، ولهذا السبب كـان المرضى يصرخـون، لأننا جميعـا كنا عطشى، وكـان النبع صغيراً جـداً، ونشبت خـلافـات كثيرة بيننا وبين المسلمين، لانهم أنفسهم وقفـوا في الواجهة متماسكين، وشربوا مثل بقر، لكنهم لم يمنحونا مكاناً.

ولدى فـراغنا من طعامنا وشرابنا، وفق طريقـة خاصـة، أطفأنا جميع الأضـواء، وأخـذنا بالنوم فـوق الارض، وتمددنا فـوق الحجـارة، حيث غرقنا في نـوم عميق جداً، وبما أنه قـد قيل بأن الجوع طباخ جيـد، فهذا صحيح لانه يجعـل جميع الاطعمـة طعمهـا طيب، ومثل هـذا قيل بأن العمل فراش جيد، لانه يجعل جميع الامـاكن مناسبة للنوم والاستراحة، وكـان النـوم في هذا المكان خطيراً: أولاً، بسبب أن الجدران كـانت مهـدمة، والحجـارة التي انتزعت من الملاط، كـانت معلقة فـوق رأسنا، وتهدد بالسقوط، وثانياً، بسبب الأفـاعي، والعقارب المتخفية في الجدران القديمـة، وتحت الحجارة، وهي خطيرة جداً عندما تلدغ، وثالثـاً، كانت

هناك هوام أخرى خطيرة وذلك بسبب الخرائب واهمال المكان ورابعاً، أخص بالذكر نوعاً من الهوام هو المسمى نملة فرعون، ويدب هذا النوع على الارض في القفار كلها، كما عنه سأتحدث في ص ٢٤٧، وكان هذا النمل الاحمر الصغير يسعى هناك حول الأرض، وخامساً بسبب قسوة مضاجعنا، وسادساً، بسبب اللصوص المسلمين الذين بقيوا برفقتنا، غير أننا لم نهتم بهذا كله، وقذفنا بكل شيء كان هناك، ونمنا بعمق كبير.

وأخبرنا ادلاؤنا بأنهم عازمون على ايقاظنا قبل الفجر، لكن الذي حدث كان غير ذلك لانهم انفسهم كانوا منهكين مثلنا نحن- ومع ذلك كانوا أقل تعباً منا- وقد نمنا نحن وهم حتى شروق الشمس، وكان داوود قد أنعش نفسه عند هذا النبع، عندما وصل الى هنا متعبا، قادماً من القدس مع رجاله، حسبما جاء الخبر في سفر صموئيل الثاني: ١٧.

مسيرة الحجاج ورحلتهم صعوداً إلى القدس

في اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم القديسة براكسيدس، Praxedes العذراء، وبعدما أشرقت الشمس، وغطت بأشعتها الذهبية الرائعة قمم الجبال، ورؤوس الصخور الوعرة، بدأ المسلمون بإلحاح في ايقاظنا بصرخات عالية، وصرخ بعضهم بلغتهم «روق، روق» وبعضهم Trica, trica وبعضهم Cabalca, Cabalca ، وصرخ بعضهم بلساننا، ذلك أنهم كانوا قد تعلموا بعض كلماتنا، فصرخوا: Rita, rita, uff, uff ، وهذه الكلمات معناها في الحقيقة الحث على الانطلاق، وقد نهضنا، ورفعنا أعيننا، فرأينا أشعة الشمس على قمم الجبال، لأننا كنا في وادي، محاط من كل جانب بجبال وعرة، وكنا قد ارتحنا بشكل جيد، وانتعشنا باستراحتنا فملأنا قواريرنا بالماء من بئر المخلص، وغادرنا، ونحن نقود حميرنا بأيدينا، لانه كانت هناك منحدرات منزلقة، ممتدة حتى مسافة بعيدة، وما كان بإمكاننا الابقاء على أنفسنا على ظهور دوابنا، وبناء عليه بدأنا بالتعرق في الصباح الباكر،

وذلك قبل انتشار حرارة الشمس.

ونحن على طريقنا، وصلنا إلى حجرة قائمة مثل مرجل، على طرف الطريق، ولهذا أطلقوا عليها اسم Thaben Boen، أي حجرة بوهن ابن رأوبين، وهذه الحجرة هي علامة حدود أرض بني يهوذا، وذلك وفقاً لجيروم، في كتابه «حول مسافات الأماكن»، وقد ورد ذكر هذه الحجرة في سفريشوع: ١٨/ ١٧، ومن هذا النص، يبدو أن تلك الحجرة كانت أبعد نزولاً، وراء حصن أدوميم، إنما هل هي الحجرة نفسها أم غيرها، فتلك مسألة قليلة القيمة، وفكرنا في ذلك المكان بعجب حول أفاعيل الأيام الخالية، التي الحجرة مثل عليها.

المكان الذي أعلن فيه عن ميلاد العذراء المباركة إلى واكيم

ولدى مرورنا بحجرة بوهن، رأينا ونحن صاعدين الرابية، بيتاً قديماً، على جهة اليمين، وهو قائم بين جروف ونباتات، وهذا البيت قائم فوق الموضع الذي كان فيه رعيان واكيم يطعمون قطعانهم، وواكيم هو والد مريم العذراء الاعظم مباركة، واليهم هرب عندما سمع بنفسه الملامة بأنه بلا أولاد، وبشكل علني، ورميت تقديماته من على المذبح في الهيكل، وهنا سكن وهو حزين، يتوسل الى الرب بصلوات خاشعة، حتى يرحمه ويعطف عليه، ويمنحه الصبر.

وفي أحد الأيام، عندما كان يصلي بخشوع أعظم، وبحرارة أكثر من المعتاد، فجأة ظهر الملاك جبرائيل أمامه، على شكل ضوء مشع، وكان وقتها يصلي، ولدى رؤيته له دهش واضطرب وقال الملاك له: «لاتخف ياواكيم، لأن دعاءك قد استجيب له، وكانت دموعك أمام الرب، وهاهي حنة زوجتك سوف تحمل لك ابنة، وستسميها أنت مريم،وهي سوف تمتلىء بروح القدس، حتى وهي في رحم امها، ولسوف تمجد فوق جميع النساء، وستظل عذراء بشكل أبدي، وستحبل من العلي

الأعلى، وستحمل ولداً ذكـــراً ولســـوف تـدعى باسم «أم ابـن الرب» وإليك فيمايلي شـارة ممنوحة لك: عندمـا ستـذهب إلى القدس، وعندمـا تقترب من الدخـــول من البـــاب الـذهبي، هناك ســـوف تلتقي بحنة زوجتك وهي سوف تفرح من قلبها برؤيتك».

وبهذه الكلمات اختفى الملاك، وبناء عليه انكببنـا على وجوهنا في هذا المكان ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات، وعندما كنا نتحادث أحدنا مع الآخـر في هذا المكان، طرح واحد من الحجـاج السؤال التـالي حيث قال: «عجباً، إننا نقيم عيد القديسة حنة، لكن القديس واكيم لاعيد له، مع ان واكيم مثله- على الاقل- في القـداسـة مثل حنة، حسبما رأينا من الحكاية ذاتها»، وحاول بعضهـم حل هذه المعضلة، فوقع بأخطاء غـريبة حـول الحمل بالعذراء المبـاركـة، وأعلن أنها لم يحمل بها في ذنب أصيل، لانها كـانت موجـودة مع الطفل بوساطة الروح القـدس قبل ان يحصل اللقـاء بين واكيم وحنة تحت الباب الذهبي، وقـال آخرون بأن حنة قـد حملت من واكيم بقبلة فقط، وكانت هناك تفاهات كثيرة، تفوه بها الذين حاولوا ايجاد سبب لوجـوب الحفاظ على عيد القديسـة حنة، وليس عيد واكيم.

بحوريم حيث شتم شمعي الملك داوود

ولدى متابعتنا سيرنا، صعدنا إلى جانـب تل بحوريم، الذي قام عليه فيمامضى حصن، اسمـــه بوريم، عنه نقـــرأ في سفـر صمـوئيـل الثـاني: ١٦/ ٥، واسم هذا الحصن في بعـض الاسفـاربحـوريم، ويمـــر الطريق السلطاني تحت هذا الحصن، ولذلك وقفنا هناك، واسترجعنا إلى ذاكـرتنا العمل الجليل جداً، التالي: فعندما جـرى طرد الملك داوود وجميع اتباعه من القـدس، بوساطة ابنه أبسـالوم، وقـدم إلى هذا المكان، تقدم واحـد اسمـه شمعي وشتم الملك داوود وجميع خـدمه، ورمى حجـارة عليهم، وألقى بالرمل عليهم من الأعلى، وعنـدما أراد واحـد من رجـال داوود

قتله، منعه داوود، ورغب في أن لايتعرض للأذى من أجل الخطأ الذي اقترفه، ولقد أعجبنا بصبر وشقاء الملك المقدس، وكنا غاضبين من أنفسنا نحن الذين نثور بكلمة مزعجة واحدة، ونرغب بالانتقام من جيراننا، ياللهول، على هذا الطريق كان الملك داوود عابراً، حافياً، ورأسه مغطى، وهو يبكي، وجميع خدمه معه وهم في ثياب الحزن، حيث كانوا قد طردوا من بيوتهم.

وقتها خرج واحد من خدمه، وكان من أهل الحرب، وصعد هذا الرجل وأخذ يشتم الملك، ويرمي الحجارة نحو الملك، ويلقي بالرمل عليه، ويكرر شتائمه، وبذلك اقترف جريمة خيانة عظمى، ومثل هذه الخيانة تعاقب في جميع البلدان، ومع هذا فإن هذا لم يثر الملك المهذب، ولم يغضبه، بل مر بكل تواضع، وأطفأ غضب أتباعه، قائلاً لهم: «دعوه يسب، لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتي ويكافيني الرب خيراً عوض مسبته بهذا اليوم».

لايوجد في طول الكتابات المقدسة نص محزن مثل هذا النص عن فرار داوود من القدس، وصبره عندما تعرض للشتم، وعندما يكون انسان عارفاً بهذا النص ويمر عابراً لهذا الطريق، من الصعب عليه أن يمنع نفسه من البكاء، وذلك عندما يتفكر حول مثل هذه المحاسن،آه، كم كان القديس غريغوري سيبكي بحرقة في هذا المكان، بعدما رأينا -كما قرأنا- الذي أظهره ذلك الامبراطور إلى أرملة تضرعت إليه، لأنه أكثر رحمة، أن يظهر الانسان الرحمة نحو انسان تولى شتمه والاساءة إليه، ولايمكن مقارنة ذلك بالرحمة التي يبديها نحو الذي تضرع إليه وباركه، ومن هذا المكان مضى داوود نازلاً إلى نبع الشمس واستراح هناك لأنه كان مرهقاً.

وذهبنا الآن من هذا المكان صاعدين، وقد رأينا جبل الزيتون عن بعيد، وذلك مع كنيسة صعود الرب، القائمة على القمة هناك، ولدى

رؤيتنا ذلك ابتهجنا، بسبب أننا بتنا على مقربة من القدس.

السهل القائم أمام قلعة بيت عنيا

وهكذا مضينا نريد القدس، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل، من طرفه الأول يقوم جبل الزيتون، ومن الطرف الآخر جبل العدوان، وفي هذا السهل تنتهي قفار أدوميم، لأنه من هناك نزولاً حتى الأردن قفار جرداء، باستثناء المنطقة المسقية من نبع اليشع، لكن من هذا السهل حتى جبل الزيتون، الذي يقوم عند سفوحه، توجد أجمل البساتين والحدائق، والكروم، وفوق هذا السهل تقوم قلعة بيت عنيا، التي بنيت على طرف جبل الزيتون، وتمتد من هناك نزولاً إلى السهل، وهذا السهل مغطى بحجارة واسعة جداً ومستوية، وكأنه قد جرى تبليطه بشكل فني، لكن في الأماكن حيث الأرض غير مغطاة بالحجارة، تنتصب هناك أشجار الزيتون وأشجار فواكه أخرى، علاوة على ذلك، يوجد في هذا السهل عدداً كبيراً من الصهاريج، حفرت عميقاً في صخور قاسية جداً.

وتابعنا سيرنا عبر هذا السهل، نحو بيت عنيا، ووصلنا إلى أمام القلعة حيث حجرة واقفة قد وضعت بشكل يمكن للانسان أن يجلس عليها، ولايمكن نقل هذه الحجرة، لأنها منبعثة من أعماق الأرض، وهي قاسية جداً، وقد قيل بأن الرب يسوع قد جلس على هذه الحجرة، وذلك عندما جاء صاعداً من المنطقة التي حول الاردن، بعد وفاة لعازر، وجلس أمام باب القلعة، حيث إليه جاءت مرثا، وتحدثت بصدق مطلق مع الرب يسوع حول الايمان، والقيامة، والحياة الأبدية، وبالطريقة نفسها قابلت مريم المجدلية المسيح وهي تبكي، لأنها كانت غائبة عندما مات أخوها لعازر، كما قرأنا في انجيل يوحنا: ١١/ ٢١.

وبناء عليه توقفنا في ذلك المكان المقدس، وعملنا الصلوات المعينة في

كتب المسيرة، وانكببنا بعـد ذلك على الأرض، وقبلنـا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وبكى الرب في هذا المكان، وقد انزعج تجاه بكاء الأختين، ولذلك تغني الكنيسة لهما:

ofelicis soror utraque meriti, qucrum laerimis est motus fons ip fse pietatis

وأعتقد أنه قام في هذا المكان، في الأيام الخالية، بيعةما، أو كنيسة.

بيت القديسة مريم المجدلية ومخزنها

وسرنا من هـذا المكان نحـواً من رميـة سهـم باتجاه جهـة اليمين، ووصلنا إلى كنيسـة قـديمـة مهـدمة، قـائمـة فـوق المكان الذي سكنتـه القـديسة مـريم المجـدلية بشكـل خاص، لأن لعـازر ومـريم المجدليـة، ومـرثا، كانوا أغنيـاء، وامتلكوا كثيراً من المسـاكن في داخل الحصن وفي خـارجـه، وفي القـدس، وفي حصن المجـدل في الخليل، وكـان هذا بيت مريم المجدليـة، وبعد تحولها إلى المسيحية أقامت فيـه مخزناً للرب، يحتوي على توابل متنوعـة، منهـا عملت هناك منعشات ومـراهم تمنع التعـرق، والسخـونة، والبرودة، والقشعـريرة، والانهاك، وقـد تبعت الرب في كل مكان حـاملة معهـا هذه الدهون المصنوعـة من التـوابـل، وكـانت قـد اعتادت على دهن أطرافه بها، وهكذا فإن هذه التي اعتادت قبل هدايتها ان تستخدم هذه الأشياء لترفها الجسـدي، استخدمتهم بعد ذلك لتقوية جسـد الرب، وبنـاء عليـه، قمنا في هذه الكنيسـة بـالصلوات المحـددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

بيت القديسة مرثا الذي كان الرب فيه ضيفاً

ومضينا من هناك إلى الجهـة اليسـارية من الحجـرة المتقـدمـة الذكـر، فـوصلنا إلى خرائب جـدران بيت منعزل قـديم، قد قيل بأنه بيت مـرثا المبـاركة، الذي إليـه غـالبا مـادعت الرب، وذلك حسبما ورد في انجيل

لوقا:١٠، حيث جاء قوله: «فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها»، وفي هذا البيت لامت مرثا أختها مريم أمام الرب، وأعطى الرب قراراً لصالح مريم قائلاً: «ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح»، وهكذا دواليك، وقبلنا الأرض في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ذلك أننا تلونا وغنينا الصلوات المعينة في كتب المسيرة.

كنيسة ضريح القديس لعازر الذي تمدد فيه لمدة ثلاثة أيام

وانعطفنا بعد هذا بأنفسنا نحو بيت عنيا، وبعدما دخلناه، أتينا إلى كنيسة كبيرة وجميلة، لكنها كانت مغلقة، إنما قام أهالي بيت عنيا بفتحها لنا، بعد إعطائهم دريهمات قليلة من قبطاني الغليونين، ودخلنا إليها، وقد وجدنا في جهة اليمين ضريح لعازر، الذي تمدد فيه ميتاً لمدة ثلاثة أيام، حيث أقامه الرب ثانية بعدها، حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ١١، وبناء عليه توقفنا أمام ضريح لعازر، وقمنا بالصلوات المحددة لذلك المكان، وقبلنا الضريح نفسه، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

ومثل هذا، ذهبنا صاعدين من القبر الى المذبح العالي، القائم فوق المكان الذي وقف فيه الرب يسوع وصرخ: «لعازر هلم خارجاً»، وكانت هذه الكنيسة فيما مضى كنيسة جليلة، بنيت من قبل القديسة حنة (هيلانة)، فوق ضريح لعازر، وفي الأيام الأخيرة للصليبيين كان إلى جانبها دير للراهبات من طائفة القديس لعازر، في ظل نظام القديس بينت، وكان لباسهم الرسمي ازاراً أبيض ورداء أسود، مثل راهبات القديس يوحنا، مع صليب أخضر، وفي بيت عنيا(١) الأخرى الواقعة عبر الأردن، حيث كان يوحنا يعمد، كما قرأنا في انجيل يوحنا ١، فقد كان هناك ديراً آخر مثل هذا، ملكاً للطائفة نفسها، وهؤلاء الراهبات قد كن ثريات جداً وتقيات، وكان هذا الدير محاطاً بأشجار الزيتون، إلى

١ - وهم فابري، فالذي في انجيل يوحنا : ١/ ٢٨ «بيت عبرة».

حـد كان من غير الممكن رؤيتـه من قبل الذين قـدمـوا نازلين من جبل الزيتـون، عـلاوة على ذلك، راهبـات هـذا الدير، اعتـدن أن يرسلن إلى البلدان الأخـرى من العالم لبنـاء أديرة مماثلة، وعلى هذا هناك في الوقت الحالي واحد من هذه الديرة في دولة أصحـاب كيفخبورغ Kyvchburg قرب ثورغو Thurgau، واسمه دير سيدات القديس لعازر.

وبعد فقدان الأرض المقدسـة، تفرقت الراهبات، وهدم الدير والبلدة جميعـاً، باستثناء الكنيسة مع الضريـح، حيث مازالا قـائمين، وهناك قبر مرتفع من الرخـام، يوجد تحتـه كهف، هو الآن مغلق، ويحترم المسلمون هذا القبر، مثلما نفعل نحن، ذلك انهم يحترمون جميع الأماكن التي عمل فيها الرب أعمالاً رائعة، لكنهم يزدرون الأمـاكن التي عانى فيها من أي من سوء المعـاملة، وهذه الكنيسة مهملة ومـذابحها محطمـة، وعندما كنا فيها كانت مليئة بحزم القمح، مثل مخزن رجل فلاح.

بيت سمعان المجذوم الذي حل الرب به ضيفاً

ومضينا من هذا البيت، فصعـدنا إلى كنيسة أخـرى مهـدمة، بقـاياها العظيمـة ملقاة مـوزعـة هناك، وقد بقـي أحد الجدران قـائماً، منه يمكن للانسان أن يرى أنها كـانت كنيسة كبيرة النفقات، فقد كـانت لها أرضية معمولة من مختلف أنواع الرخـام، حيث وجدنا بعض البقـايا وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي قام فيـه بيت سمعان المجذوم، الذي أتى على ذكـره متى الانجـيلي (الاصحــاح:٢٦) ومـرقص (الاصحـاح: ١٤).

وإلى هذا البيت جـاء يسـوع بمثـابة ضيف في يوم السبت، قبل أحـد السعف، وهنا صبت مـريم المجدليـة العطور فـوق رأسه، وهو جـالس يتناول الطعـام، وهنا أبدى تلاميذه حـزنهم تجاه الاسراف، حسبما تحدثنا في صفحات تقدمت، وفي انجيل يوحنا:١٢.

وهناك بيت آخر لسمعان، لكن ليس سمعان هذا، وهو موجود في القدس، وإلى هذا البيت جاءت مريم المجدلية، عندما اهتدت للمرة الأولى، كما قرأنا في انجيل لوقا: ٧، وعن هذا البيت كنت قد تحدثت من قبل، وهذا البيت- على كل حال- يعرف باسم بيت سمعان المجذوم، وهو لم يكن مجذوماً، عندما عمل العشاء، لكنه كان قبل هذا مجذوماً، وقد شفي من قبل الرب، إنما حافظ على اسمه «المجذوم»، وبناء عليه، بعدما تلونا هنا الصلوات المعينة، حصلنا على غفرانات (+).

حصن بيت عنيا ووصفه

أنا لم أجد متى بني حصن بيت عنيا، ولا من قبل من قد بني، لأنه لم يرد ذكره في جميع العهد القديم، إلاّ إذا كان قد جاء ذكره تحت اسم آخر، أنا لم أجده، أو مالم يكن اسم بيت أوريم، الذي ورد ذكره من قبل، وجميع أصحاب الأناجيل قد أتوا على ذكر بيت عنيا، ليس بيت عنيا هذا، وإنما أيضا الموجود عبر الأردن، وأعتقد أن الحصن قد بني حديثاً في أيام المسيح، وتظهر خرائبه أنه كان بناء قوياً وجليلاً، لكن ليس بناء واسعاً، وهو في هذه الأيام قرية مكتظة بالسكان، فيها مسلمون غدارون، وهي مجاورة لجبل الزيتون، على الجهة الشرقية منه، ومنه لايمكن رؤية مدينة القدس، بسبب جبل الزيتون، الذي يقف في الطريق، ويوجد -على كل حال- على طرف جبل الزيتون، بينه وبين جبل الصعود، مكان لمشاهدة وادي جهنم وجبل جيحون، وكانت قرية بيت عنيا قلعة: مريم، ومرثا، ولعازر، حسبما أخبرنا في انجيل يوحنا:١١، وتبعد عن القدس خمسة فرلنغ، مما يعادل أربعة أميال ايطالية، وميلاً ألمانيا قصيراً، وقد تحدث القديس برنارد بشكل طيب عن هذه القلعة، في قداسه لفرسان الداوية، كل من يرغب يمكنه أن يجد هذا النص فيه.

رحيل الحجاج من بيت عنيا نحو جبل الزيتون

وبعدما رأينا الأماكن المقدسة في بيت عنيا، استدرنا نريد القدس، وقد أعطينا سائقي حميرنا الإذن بالمغادرة للعودة إلى القدس بأقرب الطرق، أي على الطريق السلطاني، الذي عليه كنا قد غادرنا، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وقد نوينا على العودة مشياً بخشوع على الأقدام، على طول ذلك الطريق الذي قدم الرب يسوع عليه وسار من بيت عنيا إلى القدس، في يوم أحد السعف، وهو جالس على ظهر أتان.

وهكذا عاد سائقو الحمير إلى القدس نازلين عبر الطريق المنخفض، ومعهم ذهب عدد كبير من الحجاج، الذين كانوا مستعجلين لنيل بعض الطعام المطبوخ، مع مكان للاستراحة فيه، لأننا لم نتذوق منذ مغادرتنا القدس حتى عودتنا إلى هناك طعاماً ساخناً، ومع هذا بقي الشطر الأكبر في بيت عنيا، ومنهم ما كان -في الحقيقة- أحداً سيبقى لولا أنني حثثتهم على فعل ذلك، وبناء عليه عندما غادر الآخرون، خرجنا نحن أيضاً من بيت عنيا، ووصلنا في خارج القرية، دون أن نعرف، إلى أرض مقبرة اسلامية، توجب علينا عبورها أوالسير من حولها، ولقد قمنا بعبورها، لكن الذي حدث أن امرأة مسلمة كانت واقفة عن بعد كبير، رأتنا، فركضت مسرعة نحونا، وصرخت عالياً، وشتمتنا ورمت حجارة علينا، وطردتنا من أرض الدفن، وبناء عليه فررنا مسرعين، خشية قدوم مسلمين آخرين وقيامهم بازعاجنا، لأنهم لايتحملون سيرنا فوق قبور موتاتهم، وهذا ما كنت قد تحدثت عنه من قبل.

وهكذا وصلنا إلى الطريق الذي يسير عبر جبل الزيتون، والذي عليه سار الرب يسوع في يوم أحد السعف، وسرنا بخشوع، وصمت، وصلاة، خلال بساتين التين، ووصلنا إلى واحدة من هذه البساتين، رأينا فيها تيناً ناضجاً شكله أرجواني داكن، وذهب اثنان من جماعتنا إلى هذا البستان، لكن عندما تسلقا الشجرة، قدمت امرأة عجوز، رمت حجارة

عليهما، وطردتهما خــارج البستــان، ومع ذلك جلبــا لنا بعض الثمار، أكلناها، وتابعنا سيرنا صاعدين للرابية.

ووجدنا على هذا الطريق كثيراً من القطع المربعـة الصغيرة من الرخام المصقـول من مختلف الألوان، وقـادنا راهب خـارج الطريق الحديث إلى مكان حيث وجدنا ميدانا كله مبلطاً برخام مصقول من مختلف الألوان، فلقد كـانت القديسة هيلانة هي التي زينت ببـلاط رخامي جميع الطرق التي عـرفت بأن الرب يسوع قـد عبرها أثناء اسبـوع الآلام، وذلك من بيت عنيـا صعـوداً إلى جبل الزيتـون، ونزولاً من الجانـب الآخـر هناك صعوداً إلى الباب الذهبي، ومراراً وجدت آثاراً من هذا البلاط، وبشكل خاص عندما يسير الانسان على جانب الطريق وهو صاعد، لأن الطريق الحديث قـد حفر عميقـاً وتلف بسبب أعداد الذين يعبرون عليـه، وكل انسـان يذهب صعـوداً، إذا مـا استـدار جـانبـاً، وكشط الأرض بيـديه، وعمل حفـرة، سـوف يجد الطريق القديـم المبلط برخام مصقـول، وقـد علمت شخصيا صحة ذلك عن طريق الخبرة.

عودة الحجاج إلى القدس عبر بيت فاجي، قرية الكهنة

وتابعنا من هناك تقدمنا، ووصلنا إلى مكان، قامت فيه فيما مضى قرية

F.F.F.F.F.

الكهنة، التي هي بيت فـاجي، التي نقـرأ عنهـا في انجيل القـديس متى(الاصحـــاح:٢١)، وحـدث أن الرب أرسـل من هذه القـرية اثنين من التـلاميذ إلى القـدس ليجلبا له أتانا، وقـد انتظرهما هناك، وغنينا في هذا المكان ترنيمة:« Cum appropinquaret dominus » ، الخ، وقبلنا طبعات أقدام مخلصنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وورد ذكر بيت فاجي في الاطراء الذي ورد في قداس القديس برنارد إلى فـرسان الداويـة(الاصحاح:١٢)، ومن بيت فـاجي مـابرحت المدينة المقـدسـة لايمكن رؤيتها، ولدى متـابعتنا تقـدمنا، تسلقنا مصعـد جبل الزيتـون، ووصلنا إلى منطقة يوجـد أعلاها مصعـد منحدر، فـوق تسع درجـات، وحيـث قـائم فيهـا حجـرة طولها طول الطريـق صعـوداً إلى الرابية، وعرضها بعـرض الطريق نفسه، ونحتت هذه الحجرة وفق عمل فني إلى درجات يمكن للبشر وللدواب عليها الصعود إلى الرابية، وهذه الحجرة مقسـومة طوليـاً إلى قسمين، وكأنها قطعت بسكين، وهـم يحكون أثراً قديماً يروونـه عن القديسين، بأن هذه الحجرة قـد انشقت أثناء آلام الرب، لتكون شهـادة إلى جميع الذين يمرون من هناك، ولتكون ذكـرى دائمة(عن موته).

وقبلنا هذه الدرجـات، بسبب المعجـزة، وبسبب طبعات قـدم الرب، لأننا لايمكن أن نرتاب بأنه غـالباً مااجتـاز هذا الطريق، وعندما مضينا نحـو الأعلى من هذا المكان، بدأت أبراج المدينة المقدسـة تبدي أنفسهـا، وكـان أول برج رأينا أعـلاه هو بـرج الناقـوس، وبرج كنيسـة الضريح المقـدس، الـذي كنا قـد تحدثنا عنه من قبـل، وهذا البرج في هذه الأيام أعلى من غيره من الأبنية، ورأينا بعد ذلك مباشرة، المدينة المقدسة كلها، وهي متألقة سروراً تحت أشعة الشمس، لأن هذه المدينة الأعظم حلاوة لها منظر بهيج، برؤيتـه يشرق عقل مشـــاهده، وأعـرف أنا حقيقـة هذا، لأنني لم أكن قط قـادراً على اشبـاع نفسي من النظر إلى المدينة، لأنه كلما

زاد الإنسان من النظر إليها، كلما بدت له أكثر حلاوة، وزادت من انفعال الانسان وعطفه نحوها، وفي الحقيقة عندما كان الرب يسوع ماشياً على طول هذا الطريق، وشاهد المدينة بكى عليها، وأثير بالشفقة عليها بوساطة المنظر الفعلي، ذلك أنه ليس من دون سبب دعيت القدس باسم« رؤيا السلام».

ومضيا الآن نازلين من الجانب الآخر لجبل الزيتون، عبر الطريق الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وعبرنا جدول قدرون، حيث صعدنا إلى جبل صهيون، وهناك جرى الترحاب بنا بسرور من قبل اخواننا هناك، وبعدما تناولنا الطعام تمددنا أرضاً للاستراحة، لأننا كنا مقبلين على أعمال جديدة.

الدخول الثالث للحجاج إلى ضريح الرب والازعاجات التي تحدث بالعادة هناك

وفي اليوم نفسه(أي يوم الحادي والعشرين) وبعد الظهر بوقت طويل، وعندما كان المساءيقترب، جرى استدعاء الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، وعندما كنا في الساحة في الخارج، قدم السادة المغاربة، ووضعونا في الكنيسة، وفق الطريقة نفسها التي وصفناها من قبل، وعندما كنا في الداخل فعلنا مثل ماكنا قد فعلنا من قبل، وقام الحجاج، الذين عرفوا أنهم لن يروا الأماكن المقدسة بعد الآن، بزيارتهم مع كثير من الخشوع، ولمسوهم بمجوهراتهم، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل مراراً، وذلك وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها في ص١٩٨.

ولقد أمضى الفرسان تلك الليلة، بشكل أقل رصانة، وكانت أفكارهم مشتتة أكثر مما كانت في الليالي الماضية، التي بقيوا فيها مستيقظين عند الضريح المقدس، وانشغلوا في الليلة الأولى في اعداد أنفسهم لتناول قربان العشاء المقدس مع الاعتراف، وقد تجدد الأثر

الذي عملتـه الأماكن المقـدسـة على عقولهم، مثلما ذكـرنا ذلك من قبل، وكانوا في الليلة التالية قلقين بشـأن فروسيتهم، وأمضوا الليل في طلبها، كما سلف لي الحديث عـن هذا الموضـــوع ، ولأنه في تلـك الليلة لم يكن لديهم مـايشغلهم، فقـد أودعوا أنفسهم للراحـة ولأعمال التسليـة، لكن هذا لم يشمل الجميع، بـل فقط الذين كـانوا أقل غيرة مـن البقيـة، ومع الأسف، شكلوا العـــدد الأكبر، وبناء عليــه دعـــونا نـرى كيف أمضى وقتهم هؤلاء الحجـاج، الذين كانوا بلا خشـوع،وبدون عرفـان، وبدون غيرة أو انضبـاط، فقـد قـام بعضهم بجـولة اعتيـادية حـــول الأمـاكن المقدسـة، ثم جلسوا بعد ذلك، وشربوا ماكـان في جعبهم، التي جلبوها معهم محشـوة بالطعـام، وعملوا مناقشـات طويلة، ثم مـالبث أن غلبهم النوم فبحثـوا عن أمـاكن منعـزلة، أو زوايـا هادئـة، حيث نامـوا طوال الليل، وذلك لمدة ست سـاعـات أو سبـع، وكأنهم كـانوا متمـددين في مضاجعهم وغرف نومهم.

وقام آخـرون كانوا مدمنين، وبالحري كسالى، بتـزويد أنفسهم بخمرة قـوية جيـدة، وبأطعمة تشجـع على العطش، وبعدمـا ركضـوا مسرعين حـول الأماكن المقـدسـة، جلسـوا مع بعضهم، يأكلون ويشربون، وكأن الكنيسة الأعظم قداسة من جميع الكنائس كانت حانة، وتابعوا على هذه الشاكلة حتى باتت قوارير رفاقهم فارغة.

وقام آخرون، أقل بعد نظر، بعدمـا أفرغوا قواريرهم، بالحديث حول المسائل الدنيوية غير المفيدة، وحـول الأمراء، وتخاصموا حول الحملات التي خدموا فيها، ومقارنة المقـاتلين أحدهم بالآخر، وخلال ذلك كانت هناك أقـــوال شريرة، وخـلافــات، وكـذب، وتمجيـــد ذاتي من مختلف الأنواع، وقد استمر ذلك، دون اعطاء أدنى اهتمام لقداسة المكان.

وعندمـا اكتفى آخـرون وشبعـوا من المناقشـات الطويلة، وانفجـروا ضـاحكين، ســاروا حـول داخـل الكنيسـة، ودخلوا إلى بيع الأمـــاكن

المقدسة، وبعد تظاهر قصير بالصلاة، وقفوا هناك يتحدثون دون ابداء أي احترام للمكان المقدس، ولاالجميع ماحل بهم، وهكذا زاروا الأماكن المقدسة من دون أية فائدة لأنفسهم، وقبل سنوات خلت، تصرف واحد من الفرسان الألمان هكذا، وقد عاقبه الرب ليكون مثلاً للآخرين، فلبعض الوقت كان يختال برعونة حول الكنيسة مع أتباعه الذين دخل معهم إلى ضريح الرب، وعندما كان واقفاً هناك، قال بطيش سخيف:« انظروا يارفاقي، وليكن ما أنا مقدم عليه، علامة على صدق أنني لم أتردد في إعلان أنني كنت في الضريح المقدس للرب، وأنتم شهوداً على ذلك» وما أن فرغ من كلامه هذا حتى صعد فوق القبر المقدس، وتمدد بنفسه كلياً فوقه، وذلك على ظهره، وعندما كان متمدداً هناك وهو يضحك، فجأة امتدت يد الرب إليه، وأصابته بالشلل، وبناء عليه بدأ جسده يزداد قسوة، حتى لم يعد قادراً على النهوض بنفسه، وعندما شعر بيد الرب ثقيلة عليه، توسل بتواضع وبكثير من الدموع أن يرفعها عنه، لكنه لم يسترد أبداً بعد ذلك الاستخدام الحر والطبيعي لأطرافه، وعاد إلى وطنه أعرجاً ومريضاً، ومات مشلولاً، والعجيب أنه لم يهلك في البقعة ذاتها.

وأمضى آخرون الليل كله وهم يقامرون مع تجار وباعة، لأنه إلى كل مكان ذهب إليه الحجاج وهم في الأرض المقدسة، رافقهم تجار مسيحيون، من أصل شرقي، كانوا على درجة عالية من البراعة، وهراطقة جشعين، لاينامون خلال الوقت الذي يكون فيه الحجاج في الأرض المقدسة، وكان كلما دخل الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، جاء هؤلاء التجار مع بعضهم، ودخلوا معهم، وكانوا يحصلون على اذن بالدخول بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، وكانوا يمركزون أنفسهم على الفور أمام باب الكنيسة، ويمدون أقمشة فوق الأرض، ويضعون سلعهم فوقها من أجل البيع، وكان بعض الحجاج، وقد رأوا أن وقت

مغادرتهم بـات قريباً، يجلسـون مستيقظين طوال تلك الليلة، يتسـاومون ويشترون جميع أنواع الأشيـاء، وكـان مع التجـار للبيع هناك ليس فقط حبوب الصلاة الربانية، والأحجـار الكريمة، بل أقمشة الدمستق، ووبر الجمل، والحرير، وكـان من حـول هؤلاء التجار كثيراً من الاضطراب والضجة، وكان الوضع مثل وضع سوق للبيع والشراء.

وقـد رأيـت هناك بعض الحجـاج الـلامعين من ذوي الأصل النبيل، الذين يرون بأن المقـامرة والمسـاومة مع البـاعة، حتى ولو كـان ذلك في سـوق عام، شيئاً غير مقبـول بالنسبـة إليهم، ودون مستواهم في الحيـاة، ومع ذلك، هنا في هذا المكان الأعظـم قداسـة لم يتـوقفـوا عن المقـامـرة وعقد الصفقـات، وشراء السلع الثمينة والمجوهرات، وهكذا فإن الذين قـد تركوا بلادهم منفـردين من أجل حب الرب، وفي سبيل الفروسيـة، أغـراهم الجشـع وحب الربح، لأن يصبحـوا تجاراً، وعملوا في سبيل تحقيق مصـالحهم واعتمـدوا على الكـذب، والغش والخداع، والأيمان المرعبـة، وذلـك مثل أولئك المنشقين والهراقطة الـذين كـانـوا معهم يتعـاملـون، والذي كـان المتـوجب عليهم الابتعـاد عنهم وعـدم استخـدامهم، لأن أولئك الحجـاج كـانوا يبـذلون غـاية جهـدهم لشراء الأشيـاء بسعـر رخيص، مـن أجل أن يتمكنوا من بيعهم بمبـالغ أكبر لأناس آخـرين في بلادهم، وذلك مثلما يفعل التجـار الحقيقيـون، الذين يجنون نفقـات حياتهم بمثل هذه المبـايعات، أو أن يتمكنوا بالمجـوهرات وبالأحجـار الكريمة من شراء الصـداقـات الدنيوية، ومحبـة كثيرين، أو استخدام ماشروه في سبيل فخارهم، والمجد الفارغ.

وفي هذه المبـايعـات لم يعيروا اهتمامـاً، لاللمكان المقـدس، ولالليـوم المقدس، لأن عيد القديسـة مريم المجدلية كان قد بـات الآن قريباً جداً، ولم يقتصر عمل هـذا على العلمانيين فقط، بل شـارك في هذه الأعمال بعض الرهبـان غير المحترمين ورجـال الدين، ولكم كـان عمـلاً مـؤذياً

وبلا تقوى أن يرى المسلمون ويشهدوا هؤلاء الباعة يجلسون ويبيعون سلعهم في الكنيسة، ويتجادلون حول الأرباح، وهذا واضح من نقاء مساجدهم، حيث لن يسمحوا مقابل أي شيء في الدنيا بالبيع والشراء فيها، أو بالكلام حول الشيء نفسه، بل نحن جعلنا بيت الصلاة وحولناه إلى بيت تجارة، والكنيسة جعلناها وكراً للصوص، وعندما يرى المسلمون هذا، يعدون إيماننا حماقة وشيئاً لاقيمة له.

ولم يكن بعض المتجاوزين الآخرين أقل من هؤلاء المتقدمي الذكر، لأنهم كانوا يأثمون بحق المسيحيين والمسلمين سواء، لأن بعض النبلاء، اقتيدوا بعبث نحو كتابة أسمائهم مع شعار نبالتهم ومكانتهم الاقطاعية، على جدران الكنيسة، أو نحو رسم رنوكهم عليها، أو القيام بلصق أوراق، عليها كتبت هذه الأشياء كلها، ولقد ألصقوها على جدران هذه الكنيسة وكنائس أخرى، وحفر بعضهم أسماءهم بأزاميل حديدية، ومطارق على الأعمدة، وعلى الألواح الرخامية، وأغضب هذا وأزعج جميع الناس هناك، ولقد رأيت بعض النبلاء ذوي الفخار الفارغ، ممن دفعهم تشامخهم إلى مثل هذه الأعمال الحمقاء، ذلك أنهم عندما دخلوا إلى بيعة جبل أكرا(الجمجمة)، وانحنوا بأنفسهم فوق الصخرة المقدسة، حيث توجد حفرة الصليب، كانوا يتظاهرون بالصلاة، وفي اطار ذراعي كل واحد منهما، كانوا يحفرون بآلات حادة جداً رنوكهم، مع علامات أصالة ميلادهم الأمرالذي لايمكنني قوله، لأنهم بالحري وضعوا علامات سخافاتهم، لتكون ذكرى دائمة على حماقتهم، وقد فعلوا هذا بشكل سري، لأن حارس الصخرة المقدسة، الذي اسمه جورج، لو رآهم يفعلون ذلك، لجرهم من شعورهم وأبعدهم، ودفعت الحماقة نفسها بعضهم لحفر أسمائهم ورنوكهم وشعاراتهم بآلات حديدية حادة على الألواح التي تغطي قبر الضريح الأعظم قداسة للرب، وهكذا وضعوا جانباً الخوف والاحترام الذي يدينون به للرب، من أجل أن

تبقى ذكـرى حماقتهم وسخـافتهم دون دمـار، بـل أن تدوم إلى الأبد، وبذلك يمكن أن يعلنوا في كل يوم، على كل من جبل أكـرا، وفي الآبدة أمام ضريح الرب، لأن كل حـاج تقي وعاقل، عندما يأخذ طريقـه نحو هذه الأماكن بعد كثير من النفقات والأتعـاب، وبعدما يمر خلال آلاف المخاوف، ويصل إلى الأماكن المقدسة المتقـدمة الذكر، ويجثوا على ركبتيه للصلاة، فوقتها سوف يرى أمـامه هذه القطعة من الحماقة، وعندها لابد أن يقـوم بعـد صـلاته بلعـن الأحمق الذي أقـدم على صنع هذه الأعمال الشائنة في هذه الأمـاكن الأعظم قداسة، ويدعـو عليه بالموت، أو بشلل يده ويباسها، أو أن تتقلص يده أو أن تنبتر، أو أن يدعو إلى الرب لينتقم لكرامته من الذي أقـدم على حفر شاراته الشرفية، على الصخـرة القائمة كعلامة على التشريف الذي يستحقه.

والرجال الذي يتولون أعمال الحفـر يظنون أن جميع الناس سيعجبون برنوكهم، وسوف يكونون مسرورين بـرؤيتهم، والذي أقوله أنا، أنه بين عشرة آلاف لايوجد واحـد ممن يقدمون إلى هـاهنا، سوف يكون لديهم أدنى سرور نحوهم، وإذا كان الحجاج أجانب، ولايعرفون هذه الرنوك، سـوف ينظرون إليهم بازدراء، وسيعجبـون نحـو هذا التبجج، ويعلنون عن صـاحبـه بأنه أحمق، مـع أنهم لم يروه قط، ذلك أنهم سيمقتـون هذه الخربشة، وسينظرون إليها برفض، وسيمجـونها، وربما قد يصدف ويأتي ابن المخربش إلى هنا، وقتها سوف ينزعج بسبب وراثته لحماقة أبيه.

والنبلاء الألمان هم وحـدهم الذين يقترفون هذه الحماقـة، وكأن العالم ليس فيـه أي نبيـل، إلا هم أنفسهم، فلكم هم سخفـاء بـابتـلائهم بهذه العـادة، وذلك بين المسيحيين والمسلمين، وأعرف أنا بشكل جيـد، أنني، لأسفي وخجلي، قـد شعرت بالارتبـاك العظيم تجاه ذلك بين المسيحيين والمسلمين، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لكتـابة كل الذي شهدته، فلقد عرفت واحداً من الحجاج، حمل دوماً معه في حافظته حجرة حمراء، كان

قد اعتاد أن يكتب بها أحرف اسمه على ألواح المذابح، إما بحجرته الحمراء، أو بمدية أو بمخرز، وكان يكتب اسمه في رأس الهامش الفارغ لكتاب الصلوات، أو كتاب الترانيم، أو كتاب القداسات، أو كتاب المزامير، وكأنه كان هو مؤلف الكتاب، في حين لم يكن يفهم ولاجملة لاتينية، لأنه كان مجرد رجل علماني.

وكان يبذل جهداً كبيراً ليحفر اسمه ورنكه في هذه الأماكن، وفوقها جميعاً، الأمر الذي سوف يلاحظ من قبل الناس الذاهبين والآيبين، لكن كيف كانت نهاية هذا الانسان؟ أنا أخجل أن أقول، فقد مللت منه، كما أنني لاأرى أنه أمر لائق بكتاب رحلاتي وجولاتي أن أضع فيه مثل هذه الأشياء، ويكفي— على كل حال— أن أقول، أن رفاق وأقرباء الحاج المتقدم الذكر، هم على استعداد لدفع كثير من الذهب لو تمكنوا من محي اسمه من على وجه الأرض، وأن هؤلاء الناس أنفسهم، رغبوا لو أنهم لم يعرفوا اسمه قط، الذي بذل جهداً كبيراً لرسمه في كل مكان.

ويمكن أن يسمح، أو ربما هو مفيد من بعض الجوانب، أن يقوم بعض النبلاء برسم رنوكهم، أو بكتابة أسمائهم، في نزل، وحانات، وقاعات، وساحات، وأبراج، وقلاع، وأبواب، وأسوار، ومسارح، وأسواق، وساحات المثاقفة والمنازلة، وأماكن علمانية أخرى، إنما أن يفعلوا هذا في الكنائس والأماكن المقدسة، فذلك خطأ، وحماقة، واجرام، وبعضهم يبذل جهوداً عظيمة من أجل ذلك، ففي سبيل ذلك يهملون صلواتهم وزياراتهم إلى الأماكن المقدسة، لابل يهجرون النوم، ويحذو حذوهم بعض العمال البسطاء، فيأخذون قطع فحم، ويكتبون أسماءهم غير المعروفة، وألقابهم التافهة على الجدران، لابل لحق الضلال بعض الكهنة ورجال الدين، واقتيدوا من قبل بعض القرود الحمقى لفعل هذا، ولوثوا الجدران بالحبر الذي جلبوه معهم لكتابة روايات عن الأماكن المقدسة التي رأوها، وأعجب نحو جميع هؤلاء الناس، الذين لم

يتفكروا حول المثل العامي، الذي حتى الأطفال، يقوله أحدهم للآخر، وهو:« تلوث أيدي الحمقى أطراف البيت»، وبناء عليه، إذا — حسب المثل العامي— عدّ حمقى الذين يلوثون جدران بيوت الناس، لابد من أن يعد أعظم حماقة الذي يلوثون بيت الرب، والأماكن المقدسة عند الرب، ويعد فوق الجميع حماقة الذين يرسمون، أو يعلقون ترستهم وسوابغهم ودروعهم، فوق صور الرب، وصور العذراء مريم المباركة، وصور الصليب المقدس، والنخبة من قديسي الرب، لأنه في كثير من الحالات، يوجد على دروع النبلاء صوراً لبعض الحيوانات، أو الوجوه الشنيعة، أو المخلوقات غير الطبيعية، أو مجموعات من الألوان والأشكال لامعنى لها، كلها انحدرت من الوثنية القديمة.

وهكذا نقرأ بأن أنوبيسAnoubis ومسيدوMacedo ولدي أوزوريس، اللذان تجولا في جميع أنحاء العالم، وهما يقترفان الشرور، قد حملا شعارين، فكان شعار الأول كلباً، وشعار الثاني ذئباً، حيث رسما صورتيهما على المعابد التي بنيت في جميع البلدان، ليظهرا استخفافهما ببقية الأرباب، ومثل هذين فعل نبلاؤنا في كنيسة الضريح المقدس، التي جدرانها في حالة فوضوية[٢١٧ظ]، بسبب الترسة التي جرى تعليقها فوق الصور، لأنه حول القاعة المستديرة، كانت الجدران القديمة مغطاة ومزينة بالفسيفساء، لكن الفرسان والنبلاء لم يظهروا رحمة نحو هذه التماثيل والصور الثمينة، وعلقوا ترستهم فوقهم، وبذلك غطوا جميع صور المسيح، والعذراء المباركة، وقد خرقوا هذه الصور بالمسامير، وقد قام الرب منتقماً لانعدام الاحترام هذا، فقد حدث في إحدى المرات أن ملك مصر جاء إلى القدس ليصلي في معبده الذي اسمه هيكل سليمان، وبعد ماأنهى صلواته، صعد ودخل إلى الـ Anastasis أي كنيسة قيامة الرب، حتى يمكنه أن يصلي هناك أيضاً، وعندما كان ينظر من حوله ويتعجب من حجم الكنيسة وجمالها، رأى ترسة نبلاء مربوطة إلى

الجدران، وموضوعة فوق صور الفسيفساء، وعندما علم سبب تعليقهم هناك، غضب غضباً عظيماً، وأراد أن يهدم كنيسة القيامة كلها ويسويها بالأرض، لولا أن الرب جعله يغير نيته، وعلى كل حال، أمر بانزال جميع هذه الترسة وانتزاعهم من على الجدران، وكومهم في كومة واحدة، وأمر بإلقاء النار فيهم، وأحرقهم جميعاً، ولذلك لايوجد الآن هناك أي ترس، كما ليست هناك صور فسيفساء كاملة، بل مشوهة وغير واضحة.

ومضى آخرون حول الكنيسة مع أدوات حديدية، مخفية في ملابسهم، وعندما كانوا يصلون إلى الأماكن المقدسة، كانوا يقومون باقتلاع الأحجار المقدسة، والتقاطها، أو كسرها أو اقتطاع أجزاء منها، لحملها معهم إلى الوطن، لأنه ماهو السبب، إلا أن يكون الإنسان قد ضل، أو أعمته الشرور، حتى يفكر بتعرية الأماكن المقدسة من زينتها، أو أن يقوم بتشظيه، أو تشويه بعض الأعمال الفنية، التي عملت بعد جهد كبير ونفقات عالية؟

واقتادتنا أعمال التشظية السخيفة للحجارة إلى رعب عظيم، ليس مرة واحدة، بل أكثر من مرة، ففي احدى المرات، بعدما ذهب الحجاج إلى منازلهم، بقينا طوال الليل في كنيسة القيامة، وفي الصباح اكتشف بأن شظايا قد اقتطعت من صخرة الجمجمة، ومن لوح الضريح، ومن حجرة تحنيط الرب، وعندما رأى المسيحيون الشرقيون هذا، صرخوا في الكنيسة ضدنا، ودعونا باسم لصوص وسارقين، وثار اضطراب عظيم ضدنا، وهددونا بأنهم سوف يتشكون ضدنا إلى سادة المغاربة وسادة المسلمين.

ولدى سماع الأب المسؤول بهذا، كان خائفاً، وظن أن شراً عظيماً بات يحيق بنا، فدعانا جميعاً إلى بيعة العذراء المباركة، وبسلطاته الرسولية، حرم الذين قاموا بتشظية الحجارة، ولم يدعنا نخرج من الكنيسة، حتى أعطيت الشظايا إليه، وهكذا وقعنا هناك باضطراب

وارتباك وخجل، وثار الناس جميعاً ضدنا، بسبب الاثم الذي اقترفناه.

وبسبب مثل هذا، وقعنا بارتباك في القديسة كاترين في العربية، وقد ارتجفت رعباً وخوفاً، عندما تذكرت ذلك، لأننا سلمنا إلى البداة العرب من قبل الرهبان الشرقيين وقد أرغمنا بالضرورات الحادة على إعادة ماسرقناه، ولايقتطع الناس هذه الشظايا بدافع التقوى، بل بسبب أن بعض الشرهين من الفرسان، هم رعاة لبعض الكنائس أو المذابح، وهم يفعلون هذه الأشياء، بقصد إثارة السواد الأعظم من الناس ودفعهم لزيارة كنائسهم، وبذلك يحصلون على الفائدة، فالجشع هو الذي يدفعهم لمحاولة فعل ذلك، على الرغم من الأوامر التي أعطيت للحجاج بأن لايفعلوا ذلك، الأمر الذي سلف تبيانه في أكثر من موضع.

هذا وإن موضوع الذين يلتقطون الحصا من الأماكن المقدسة، ويسعون إلى التقاط الآثار المقدسة، دون أن يشوهوا الأماكن المقدسة، مختلف، والقيام بذلك عمل مقدس وتقوي، كما سنبرهن على ذلك في ٢٥٣و، وبناء عليه، أمضى بعضنا هذه الليلة في عمل ما قمت بوصفه، بينما شغل آخرون أنفسهم بالأعمال التعبدية، وأقمنا القداسات منذ منتصف الليل حتى أضاء الصباح.

مغادرة الحجاج لضريح الرب واجتماعهم فوق جبل صهيون للتشاور حول مغادرتهم للقدس

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان عيد القديسة مريم المجدلية، غنينا قداس قيامة الرب في ضريح الرب، وفي هذا القداس المهيب، أتينا على ذكر القديسة مريم المجدلية، وبعد انتهاء القداس، قام الحجاج الذين كانوا على وشك المغادرة، بالسعي من مكان مقدس إلى آخر وتقبيلهم مع الدموع، مودعين لهم مع الأسف، لاقتراب مفارقتهم لهم،

وفي الحقيقة للأماكن المقدسة قوة جذب خاصة، بها يجد الحجاج أنفسهم في النهاية منجذبين إليهم أكثر من ذي قبل، وقد احتشدوا جميعاً حول ضريح الرب، وتابعوا الدخول والخروج مثل نحلات في خلية للنحل.

وعندما كانوا يعملون هذا، جاء المسلمون، وأخرجونا من الكنيسة، وطلبوا منا جميعاً الصعود إلى جبل صهيون، لأنهم أرادوا التحدث هناك معنا حول بعض الأعمال، وبعدما خرجنا من الكنيسة، دخلنا إلى بيعة القديسة مريم المجدلية، الموجودة في الساحة خارج الكنيسة كما تقدم لنا ذكر ذلك، وتوسلنا هناك من أجل حمايتها، وغنينا ترنيمة« O mundi lapas» ، الخ، وصعدنا بعد هذا إلى جبل صهيون، ووجدنا الرهبان هناك قد بدأوا للتو، بقداس من أجل عيد القديسة مريم المجدلية، وقد مكثنا حضوراً هناك حتى النهاية، لأن الوقت كان مايزال مبكراً، وساعة الغداء لم تحل بعد.

افتراق الحجاج عن بعضهم من أجل جبل سيناء والاجتماع الذي عقدوه

وقدم بعد القداس السيد جانم الذي كان حاكماً للقدس، مع بعض شيوخ المسلمين، والسيدSabathytanco ، أي كالينوس الأكبر، الرئيس الأعلى للمشفى، والترجمان المسلم، والفحل كالينوس الأصغر، الذي كان دليل الحجاج عبر الصحراء، وعدد كبير آخر من الأعيان، وعندما اجتمعوا كلهم، جلسوا في قاعة الرهبان، وفي القاعة الكبرى، التي يطلق الرهبان عليها اسم قاعة البندقية، وجلس معهم الأب المسؤول، والأخ جون أوف بروسيا، مع شيوخ آخرين من الرهبان الفرنسيسكان، ومثل هذا الشخصيات البارزة بين الحجاج مثل اللورد جون ويرنهير Wernher، والبارون فون زيمبيرن Zimbern، واللورد جون التروخسيس، واللورد برناردفون بريتنباخ Braitenbach،

وحـاجب الكنيسة الكاتدرائيـة في مينز، واللورد فيرديناند فـون ويرنوي Wernawe، واللورد ماكس فـون روبولستاين Roppolstein، وكان إلى جـانب هؤلاء بين الحضور القبطانين لأنهما كـانا أساسيين، وكـذلك أعوانهما، ووقتها صدر الأمر إلى جميع الحجاج للوقوف أمام هذا الجمع، وعند اكتمال حضورهـم، جرى إخبارهم بصـوت المنادي، بأن الحج إلى القدس قـد انتهى الآن، وأنه لم يبق هناك من شيء لعمله سـوى المغادرة من هناك، والعـــودة إلى الأوطان، الأمـــر الذي يتـــوجـب علينا الآن الاستعداد له بأكبر قدر ممكن من السرعـة، وعلى كل حال، إذا وجد بين الحجـاج أي واحد يرغب في التخلف في القـدس، والانطلاق من هناك إلى جبل سيناء، فعليه وعلى أمثالـه الاعلان الآن عن أنفسهم، والبقاء في القاعة مع السـادة، وعلى الآخرين مغادرة القاعـة والاستعداد للمغادرة، لأنه بعد انتهاء الغداء سوف يقودونهم نازلين من القدس نحو البحر.

وبناء عليه غادر جميع الحجاج القـاعة، باستثناء ثمانية عشر، هم الذين بقيـوا مع الســادة، وهم الذين سلف لي أن ذكـرت أسماءهـم، ثم بدأنا نبحث حول الحج إلى سيناء مع السادة، وهي مباحثات، تقتضي الإجراء قبل مغادرة قبطـاني الغليونين، ورفاقنا من الحجـاج، كما ينبغي أن تكون بحضـور قبطاني الغليونين، والأب المسـؤول، وبعض الحجـاج المثقفين، لأنه بعـد فـــراقهم، ســوف يتصرف المسلمـــون مع الحجـاج المتبقين كما يرغبـون، ولسوف يبتـزون الأموال منهم بقسـوة وبدون رحمة، ذلك أنه مع وجود القبطانين قد تصرفوا بشكل معقول أكثر، ثم إنهم إذا ماطلبوا مبلغاً غير معقـول، سوف ينزل الحجاج إلى البحر مع رفـاقهم، ولسوف يتخلون عن الحج إلى جبل سيناء.

وبناء عليه نظمنا نوعاً من العقد من أجل سلامتنا، واعطاء الأمان لنا للسفـر من القدس في اليهـودية، إلى غـزة في فلسطين، ومن غزة خـلال الصحـراء العـــربيـة حتى جبل سيناء، ومن جبـل سيناء حتى مصر من

خـلال بلاد مـدين، ومن مصر إلى المطرية حيث بستـان البلسم، واعطاء أمـان لتراجمة القدس ليصلوا إلى هذا المكان وليس أبعـد من ذلك، وفيما يلي الشروط التي أبرمناها معهم، وأبرموها معنا:

الشرط الأول: على السيد Sabathytanco أي كالينوس الأكبر، أن يتلطف بوعـدنا باتخاذ اجـراءات من أجل اقتيـادنا بسـلام من هنا حتى مصر، وذلك من خـلال الأماكن المتقـدم ذكـرها، وأن يقوم هو نفسـه، بشخصه ذاتيا، بمرافقتنا على نفقته وحسابه من القدس حتى غزة، وعلى هذا الشرط أعطى كلمته بأنه سوف يفعل ذلك.

ثانيا: فيما يتعلق بجميع الخفارات، والضرائب، والعشـور التي سوف يجري دفعهـا فيما بين القـدس وغـزة، هو الذي سـوف يدفعهم عنا من مـاله، وقـد طلبنا هذا منه، على أسـاس معـرفتنا أنه بدون ذلك سـوف نتعرض للنهب بدون حدود من قبل المسلمين على الطريق.

ثالثاً: عليه أن يؤمن لكل حاج حماراً يركب عليه، مع رجال لسوقهم (وهؤلاء السـائقين يعـرفـون أيضـاً باسـم مكارية)، وأن يكون سـائقي حميرنا مسيحيين، وأن يأخـذونا ويخدمـونا من هنا حتى المطرية في مصر، ويقـدمـون الطعام لأنفسهـم ولحميرهم، مالم يصـدف ويقـوم الحجـاج باختيارهم، بإضفاء شيء ما عليهم.

رابعاً: عليه القيام بتأمين نقل جميع حـاجياتنا، مثل الملابس والأوعية، كلهـا على حسـابه الخاص، وذلك من القـدس إلى غزة المتقـدم ذكـرها، باستثناء الخمرة، التي سوف نأخذها معنا على حسابنا.

خامساً: عليه أن يؤمن على حسابه في غـزة مجموعة من الجمال لحمل حـاجيـاتنا إلى جبل سيناء، ومن هناك إلى مصر إلى المطـرية، وعليـه أن يؤمن لنا في غزة نزلاً معقولاً وله حجم مناسب ويضعه تحت تصرفنا.

سـادسـاً: عليـه أن ينيب واحـداً من رفـاقـه، ليتـولى مـرافقتنا مكانه

شخصياً من غـزة حتى القاهرة في مصر، عـلاوة على ذلك رجـوناه أن يرسل معنـا الفحل، الذي اسمــه كــالينوس الأصغــر، الذي —كما سنتحدث فيها بعد— غالباً ماارتحل خلال الصحراء مع الحجاج، ونحن ملزمون بأنفسنا بتزويده بالأطعمة من مخزننا.

سـابعـاً: عليـه أن يزود كل حـاج بـزق، ليحمل فيـه الماء خـلال الصحـراء، لأنه غالبـاً لايمكن العثور على مـاء، على ذلك الطريق لأيام سفر كثيرة.

ثامناً: عليــه أن يعطينا إذناً لشراء خمرة في القــدس، من المسيحيين الشرقيين، وأن يتـدبر تمكننا من حملهـا على ظهـور الجمال أو الحمير، من دون أن نتعـرض للإهانة من قبل المسلمين، لأنه مـالم تتخـذ احتيـاطات فائقة جداً أثناء شراء الخمرة وحملها، لكن يكون الحجاج بأمان.

تاسعاً: عليه أن يعيرنا ثلاثـة سرادقات أو خيماً صغيرة، حتى نتمكن من نصبهـا في كل مكان في الصحـراء، حيث نـرتاح، لنحمي أنفسنا من الحر الصادر عن الشمس.

عـاشراً: على كل واحــد منا أن يدفع إلى الترجمان، من أجل جــواز المرور والخفارة، وكل شيء آخـر تقدم ذكره مبلـغ ثلاثاً وعشرين دوقية، ندفع له نصفهـا في القـدس والمتبقي في غـزة، بعدمـا نكون قـد جهـزنا الجمال، والأمـور الأخـرى المتقـدم ذكـرهـا، وفقـاً للاتفـاقيـة والشروط الواردة فيها.

حـادي عشر: ينبغي وضع الاتفـاق كله كتـابـة، وتوقيعـه مع أختـام السيد حاكم القدس، وكالينوس الأكبر، وحفظه في ديوانه.

ثاني عشر، وأخيراً: طوال بقائنا في القدس، ينبغي أن يسمح لنا بزيارة الأمـاكن المقـدسة، في داخل المدينـة وفي خارجهـا، أي أن يسمحـوا لنا بالدخول إلى كنيسة القيامـة عندما نطلب منهم ذلك، وأننا عندما ننطلق

برحلتنا إلى جبل سيناء، أن يأخذوننا إلى بيت لحم، وأن يدعوننا نقيم هناك لمدة أيام، وأن يقتادوننا من بيت لحم إلى حبرون، لنرى المكان الذي صنع فيه آدم من طين، والكهف المزدوج.

لقد كانت هذه شروط العقد الذي أبرمناه، وعانينا من خلافات كثيرة مع اضطراب عظيم قبل أن نتفق على رأي واحد، وأخيراً اتفقنا، وجرى ختم العقد في اليوم نفسه، أمام الحجاج، وإخواننا الرهبان، ومضينا، إنما دفعنا دوقيتين رسماً من أجل الختم.

مغادرة الحجاج القدس وعودتهم إلى الوطن

وفي اليوم نفسه، أي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، وبعد انتصاف النهار، جاء السادة المغاربة مع السادة المسلمين، مع حشد كبير من الأتباع المسلحين، وجاء جميع سائقو الحمير مع حميرهم إلى جبل صهيون، ليأخذوا الحجاج من هناك وينزلونهم إلى البحر، وقد جاءوا مع جيش شجاع وقوي للدفاع عنهم ضد الكمائن على طريقهم، ذلك أنهم عرفوا بأن هناك كمائن جرى إعدادها للحجاج على الطريق، وذاع الخبر في جميع أنحاء البلاد، بأن هناك كثيراً من الحجاج في القدس، والناس سوف يكونون مسرورين لمهاجمتهم، ولذلك تآمروا واجتمعوا مع بعضهم.

وفي الوقت نفسه عندما كان كل واحد يسعى نحو الأمام ونحو الخلف، ويعد نفسه للرحلة، أرسل خلفي موالي اللوردات الأربعة الذين قدمت معهم، عندما تركت الوطن، وهم الفارس اللورد جون بارون فون زيمبيرن، والفارس اللورد بير فون ريخبيرغ، والفارس اللورد هينريخ بارون فون ستوفل، والفارس اللورد جون التروخسيس، وأضافوا إلى جميع أعطياتهم المتقدمة لي مايلي: فقد أعطوني كمية من الدوقيات، لأدفع نفقات رحلتي إلى جبل سيناء، ورجوني أن أصلي

للرب من أجلهم عندما أكون في تلك الأماكن المقدسة، وأن أتفحص بدقة تلك الأماكن، وأن أكتب وصفاً عنها، وكررت شكري لهم، وأعطيت واحداً منهم رسالة ليأخذها إلى المعلم المبجل لودويغ فوخس في أولم، فله كتبت واصفاً أوضاعي وأنها تسير على مايرام.

وساعدت بعد هذا خدم موالي لحمل أغراضهم، وحزمها على ظهور حميرهم، وكان بعض الفرسان يغادرون القدس وهم مرضى كثيراً، إلى حد أنهم كانوا غير قادرين على الجلوس على ظهور الحمير، ومن أجلهم جرى جلب جمال، مع سلال كبيرة، علقت كل سلة على طرف من طرفي الجمل، وفي السلال جرى حمل المرضى إلى البحر، وكان هناك واحداً من الحجاج الشباب مريضاً جداً، إلى حد تعذر فيه حمله على ظهر الحمار أو في سلة، لذلك تركوه وراءهم، ولقد مات بعد مغادرتهم مباشرة، وقد دفن في مقبرة الرهبان على جبل صهيون.

والآن عندما باتوا جميعاً جاهزين امتطوا حميرهم، وبدأوا يغادرون القدس، وبكى كثيرون بسبب محبتهم للأماكن المقدسة، التي كانوا الآن كارهين جداً لتركها، وبكى آخرون لانفصالهم عن رفاقهم وإخوانهم، الذين تركوهم خلفهم، الذين كان بينهم لوردات، وخدم لوردات، وهؤلاء عندما نظروا إلي لم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء، وقد بكوا معي، وفي الحقيقة لقد افترقت مع مرارة عظيمة في القلب عن موالي الأعظم لطفاً، فهم لم يكونوا سادة لي، بل أصدقاء لطفاء وإخوان، وقد بكيت خشية من الاضطرابات التي سوف يواجهونها في البحر، أكثر من بكائي على انفرادي ووحدتي، والتعاسة التي أنا مقبل على مواجهتها في عبور المنطقة التي بلا حدود من الصحراء، ومن البحر في رحلة شتوية، فهما معاً مليئتين بالرعب الدائم، لأنني تذكرت التعاسات والشقاء الذي عانى منه الحجاج أثناء عودتهم في حجي الأول، الأمر الذي تحدثت عنه من قبل، وكذلك حتى الوصول إلى البندقية، ولقد

كنت خائفاً جداً، خشية من أن يواجهوا مثل ذلك النوع من الشقاء.

وهكذا غـادر الآن باسم الرب قبطانـا الغليـونين القـدس، ومعهما اللوردات والحجاج، وأرسلنا معهما اثنين من جماعتنا، ليجلبا إلى القدس الأشيـاء التي تركناها خلفنا في الغليـونين، وقـد وصلوا إلى الرملة، التي تعرف بشكل عام باسم رامـا، وحجزوا هناك لكثير من الأيام، وتعذبوا بشكل فظيع، لأنـه يسكن في تلك المدينة الأسـوأ بين أهل الشرور، كما وضح معنا ووضعناه في ص ٣٧٦، ويقـوم سكان الرملة دومـاً بإزعـاج الحجاج المغادرين للأرض المقدسة أكثر من القادمين الجدد.

وبعد مضي هذه الأيام، نزلوا إلى يافـا، وعندما كانوا نازلين إلى هناك، عذب المسلمـون اثنين من الحجاج كثيراً، وأرغمـوهم على التمـدد لعدة أيام في حانة قذرة في يافا، إليها تقدمت الاشارة في ص ٣٢٩، ففي هذه الحانة أصيب كثير الحجاج بالمرض، بسبب القذارات في المكان، وبسبب الحاجة إلى الضروريات، وبشكل خـاص أكثر بسبب العـذاب والإزعاج الذي تعـرضوا له على أيـدي المسلمين، وعلى أيدي أطفال المغـاربة، كما سلف وتحدثنا عن ذلك، ولقـد عـذبـوهم أثناء عـودتهم أكثـر مما فعلوه عندما قدموا، ولذلك وصـل الحجاج إلى حالة من الغضب والمرارة ضد المسلمين على طرف البحـر، أنهم قـرروا وهم صـاعـدون على ظهـر السفينة، قطع أعناق جميع المسلمين الذين سـوف يقابلونهم، من كل من الشيـوخ والشبـاب، غير أنهم أرغمـوا على التخلي عن هذه الخطة، من أجل الذين بقيـوا في القدس، لأنهم لو أقـدمـوا على قتل إنسان واحـد، لجرى رمينا جميعاً بالسجن، ولربما أقدمـوا على قتل بعضنا انتقاماً للدماء التي سفكت.

وغـالباً مـاحدث أنـه عندما يكون الحجـاج على وشك الافتراق عن المسلمين، يعطي بعضهم للآخر أسماءً سيئة، ويشتم أحـدهم الآخر، مع أنهم قد يكونوا أصـدقاء عندمـا يكونوا على الشاطىء، وقـد حدث قبل

بضع سنوات مضت، في ميناء يافا، أن غضب الحجاج من المسلمين، وغضب المسلمون من الحجاج، حتى صفّ الطرفان أنفسهم في صفوف قتال، وتحاربوا مع بعضهم بعضاً.

ومكثنا في حجي الأول لمدة أربعة أيام في ميناء يافا، انزعجنا فيها وتعذبنا إلى أبعد الحدود، ومثل هذا فعلوا اليوم حيث عذبوا الحجاج، وكما قلت من قبل، لولا خوفهم على سلامة الحجاج الذين بقيوا خلفهم في القدس، لما كانوا صعدوا إلى ظهر الغليون من دون سفك للدماء، وعلى كل حال، أقلع الحجاج بسلام— من أجل سلامنا— في قوارب كبيرة، وأبحروا إلى الغليونين، اللذان كانا حتى الآن راسيان بدون حركة، في المكانين اللذين تركناهما فيهما في البداية، ثم فك شعبنا الغليونين من أربطتهما، ورفعوا المراسي، وحركوا علامات الغليونين، وأطلقوا حجارة من أدوات قذفهما على أبراج يافا، وغادروا الميناء بصرخات عالية تحدياً للمسلمين.

وعندما وصلوا إلى قبرص، كان عدد كبير منهم مرضى، وقد مات عدد من الفرسان النبلاء هناك، وأقلعا من هناك، وذهبا إلى رودس، غير أن رحلتهما كانت رحلة بطيئة، ولذلك عانيا كثيراً من الحاجة إلى الماء، ولهذا توجها نحو ناتوليا Natolia ، التي كانت أقرب البلدان، وكانت تحت حكم الأتراك، محاولين الحصول على الماء من هناك، ولكن عندما دخلا إلى الميناء، وعرف الأتراك، أنهما كانا غليونين، جالبين لحجاج القدس، لم يسمحوا لهما بالحصول لاعلى الخبز ولاعلى الماء، كما رفضوا منحهما جوازاً بالنزول إلى الشاطىء، بل أرغماهما على المغادرة بسرعة، والابتعاد عن شواطئهما، ولذلك ذهبا آسفين بسبب حاجتهما إلى الماء، وأرسل الرب — على كل حال— لهما مباشرة ريحاً طيبة، حملتهما إلى جزر السيكلاد، حيث رسوا في جزيرة رودس بينها، وهناك أنعشوا أنفسهم، وأقاموا هناك عدة أيام.

وعندما أقلعـا، وابتعدا عن رودس، ووصـلا إلى أعالي البحـار، قابلا فجأة سفينة قـرصـان مسلحـة، مهيـأة لقتـال الغـلايين، ولولا أن الرب أعـانهما بريح جديدة وقـوية جـداً، من المؤكـد أنهما كانا لن ينجيـان من أيدي القرصـان، ذلك أنه عندما كـان القرصـان على مقربة منهما، هبت الريح، وبسرعـة حملت الغليـونين عائـدين إلى ميناء رودس، وأبحـرا في اليـوم التـالي على طريقهما، وعمـلا رحلة طيبـة، حيث عبرا المقـاطعـات الشرقيـة، أي بلاد الاغريق وآخيـا والبقية، حتى وصـلا إلى بارنزو Pa-renzo في استريا ودالماشيـا، وكـانت بـارنزو آخـر ميـنـاء قبل أن يدخل الإنسـان إلى بحـر البنادقـة، الذي لاتستطيع الغـلايين والسفن الكبيرة عبـوره من دون ريح خـاصـة، وعندمـا لاتهب تلك الريح،لابد لهم من الرسـو والانتظـار في ذلك الميناء لبعـض الوقت، أي حتـى تهب تلك الريح، ولهذا السبب هناك دومـاً في ذلك الميناء أصحـاب قـوارب، مع قـوراب كبيرة، وعندمـا يكون هناك بعـض الناس يريدون الوصـول إلى البندقية بسرعـة، يستأجرون قارباً، ويذهبون به إلى البندقيـة، وبناء عليه عندمـا رأى الحجاج أن الريح لن تهب بشكـل موائم للابحـار في خليج البندقيـة، استأجروا قـوارب، لكن فجأة هاج البحـر، وأخذت قـواربهم تتقـاذفهـا الأمـواج الكبيرة، لذلك لم يبق لديهم أمل كبير بـالنجـاة من الموت، لأنهم عندمـا كـانوا في هذا الاضطراب، انكسرت دفـة القـارب الذي كان فيـه موالي، وباتوا لـذلك في فزع عظيم، وتحركت الميـاه بشدة بوسـاطة الريح، وانصبت عليهم من كل جانب، وانكسرت السـارية في القـارب الذي كان بجـوارهـم، وطار الشراع مع عـارضته، وبناء عليـه، كـان هؤلاء الرجـال حتى في خطر أعظم، وقـد فقـدوا كل أمل، لذلك شرعوا بالاعتراف بذنوبهم أحدهم إلى الآخـر، وقطعوا العهود، ونذروا النذور، كما جرت العادة بالنسبة للذين يكونون بمثل هذه المضائق، ومع ذلك تمكنوا على كل حـال، بمعـونة الـرب، الذي حفظهم في ضيقهم، من الرسـو جميعـاً في ميناء البندقيـة، وكانوا مبللين، يرتجفـون وفي حـالة

مزرية.

وقد مكثوا في البندقية لعـدة أيام، ثم غادروا المدينة نحو وطنهم، وفي حوالي يـوم عيد القديـس غول Gall ، كـانوا في منطقتهم، وكان قــد مات عدد كبير من النبلاء ومن الخدم، لكن مـامن واحد من موالي ومن خـدمهم قد فقـد، باستثنائي أنا وحدي، فقـد بقيت بعدهم في القـدس، وذلك بموافقـة موالي، وكـانوا جميعاً مع خـدمهم بصحة جيـدة، والعدد نفسـه الذي سـافـر، عـاد إلى الوطن، وقـد جـرى الترحيب بهم بسرور لاحـدود له، وببهجـة، وجـاء ذلك مـن آبائهم، وأزواجهم، وأولادهم، ورفاقهم.

الحمد للرب

هنا نهاية الحج الذي عمل بشكل جماعي إلى القدس.



هنا بداية الحج إلى الأرض المقدسة الذي عمل خلال الأرض المقدسة من قبل الحجاج الذين عزموا على الحج إلى جبل سيناء بعد مغادرة الحجاج الآخرين للقدس وللأرض المقدسة

في اليوم الثالث والعشرين، الذي هو يوم القديس أبو لينارس Apol-linaris الشهيد، اجتمع حجاج جبل سيناء في الصباح الباكر، فوق جبل صهيون، واستدعوا إلى هناك الأب المسؤول، والراهب جون أوف بروسيا، وشيوخ الدير، ورجوهم مع كثير من التوسل، بأن يتكرموا عليهم ويتفضلوا بتعيين غرف لهم، يمكنهم العيش فيها وتلقي الرعاية خلال الوقت الذي سوف يبقون فيه بالقدس، وأثار الأب كثيراً من المصاعب حول هذه المسألة، وعرض أسباباً كثيرة لعدم التمكن من أخذهم في الدير، وعندما سمع الفرسان ذلك، حاولوا الحصول على موافقته بالذهب، وأحضروا عدداً كبيراً من الدوقيات، قدمها أحدهم إلى الراهب جون قائلاً:« خذ ياأخانا هذه القطع من الذهب، وامنحنا مسكناً، أرجوك، واحصل على طعام لنا، وعند صرف هذه النقود، سوف نعطيك بعضاً آخر»، لكنهم حتى بذلك لم يصلوا إلى هدفهم، لأن الأبوين رفضا النقود، وخاطبا الفرسان بهذه الكلمات:« اعلموا ياسادتي الحجاج الفرسان، لقد تعلمنا بطول التجربة أنه أفضل لكم الإقامة في الخارج، وليس معنا في الداخل، ولذلك سوف نساعدكم على اكتراء مكان للاقامة، ووقتها سوف يكون الدير تحت تصرفكم من أجل الأمور الروحية، وإذا ماوقع أحدكم مريضاً، سوف ندعه يرقد في قاعة المعالجة، ولسوف نرعاه ونعتني به، علاوة على هذا، ولكي لانبدو أننا رافضين كلياً لطلبلكم، سوف نستقبل بيننا رفيقكم وزميلكم بالحج، الراهب فيلكس، مثلما استقبلناه لدى أول قدومكم إلى هنا، وهو سوف يقيم بالقلاية التي يشغلها الآن، وسوف يرتاح فيها، وسوف يأكل

ويشرب معنا في قـاعـة الطعـام طوال الوقت الذي ستبقـونه في المدينة المقدسة».

ولدى سماع الحجاج لهذا، أقلعوا عن الضغط من أجل مطلبهم الذي كانـوا قد بدأوا به، في حين قـدمت أنا الشكر للأبوين على لطفهما الذي أبدياه نحـوي، وشغلت وأنا ممتن، مكـان اقـامتي هنـاك، طوال الوقت الذي بقيتـه في القـدس، وكنت أدخل وأخـرج مـع الرهبـان المبجلين، وكأنني مـن أفـراد طائفتهم، وذلك دونما خـوف أو ازعـاج من قبل المسلمين، وهكذا أقمت في الدير، وقـد جهـزت بشكل رائع، وذلك من دون نفقات.

واكترى الآن بقيـة الحجـاج مسكنا في بيت الفحل، أي كـالينوس الأصغـر، الذي كـان مسلماً وكان هذا البيت قـائماً في اطار أحـواز جبل صهيون والقـدس، على الرابية التي تنزل إلى الضريح المقـدس، وكان في هذا البيت ثلاث قاعات إلى جانب قـاعة صغيرة منفردة، وكان هناك في الوسط قـاعـة أو سـاحـة ذات حجم لابأس به، حيث توجـد دوالي مع عناقيـد عنب، وكـان تحت البيت صهـريج كبير، مـن أجل أعمال الاستحمام الاحتفـاليـة للمسلمين، وقـد أعطى كـالينـوس قـاعتين من قاعات بيتـه إلى الحجاج، وقد احتفظ مع أخيه بالقاعة الثـالثة مع أثاثها، وفي المدة التي أقام بها الحجاج في البيت، لم يأكل هذين الرجلين ولم يناما في البيت، بـل تركـا البيت تحت تصرف الحجـاج، ولذلـك دخلوا وخرجـوا، وناموا وأكلوا في البيت، وكـانوا يتابعون مـاكانوا يحتـاجونه، ويطبخونه حسبما يرضيهم، وقسم الحجاج أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، حتى يكـون بذلك وضعهـم أفضل، وأعظم تـزويداً بالضروريـات أثناء السفـر بالصحراء، كما أنه بذلك يكون حفظ السـلام بينهم أحسن، لأنه يكون أمراً أسهل بين مثل ذلك العـدد، وبقيت— على كل حال— الفئة الأولى والفئة الثـانية، دومـاً مع بعضهـا، ومثل ذلك بقيت الفئـة الثالثـة

لحالها.

وكـان في الفئة الأولى ستـة حجـاج هـم: اللورد جـون، كـونت أوف سولمسSolms الذي كان الأصغـر سناً بين الجميع، لكن الأكثـر نبالة من حيث الميلاد.

— اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي هو الآن عميد الكنيسة (الكاتدرائية) في مينز.

— اللورد فيليب فون بينخن، الذي كان فارساً، ووصياً على الكونت المتقدم الذكر.

— ايرهارد، وكـان تابعـاً، ووظيفتـه حمل السـلاح، كما كان خـادمـاً للكونت

جون، ويدعى هنجي Hengi، وكان متعهداً للمؤن وطباخاً خبيراً.

جون كنوس Knuss، وكان مترجماً إلى اللغة الايطالية.

وكان في الفئة الثانية، ثمانية حجاج، أسماؤهم كما يلي:

اللورد مـاكس، وكـان يكنى بسيناسينوسSinasinus، وهو بارون فون روبلستاين Roppelstein.

اللورد فرديناند، بارون فون ميرنا وMernawe، وكان فارساً.

المعلم كاسبر فون بولاخ،Caspar von Bulach، وكان فارساً.

المعلم جورج ماكس، وكان فارساً.

المعلم نيقولا(عرف بالميجر انكروت Inkrut)، وكان فارساً.

كونراد، وكان حلاقاً، وعازفاً على المزمار، وطباخاً، ومتعهداً للمؤن

الأب بول جـوجلنغرGuglinger وكـان كـاهناً من طائفـة

الفرنسيسكان

الراهب توما، وكان راهباً علمانياً من الطائفة نفسها، وكان رجلاً بارعاً بكثير من اللغات.

وكان في الفئة الثالثة، ستة حجاج، هاكم أسماءهم مرتبة:

اللورد هنريخ فون سخونبورغ Schauenburg (كذا)، وكان فارساً.

اللورد كاسبر فون سيكولي Siculi، وكان فارساً.

اللورد بيتر فون مورسباخ Morspach، وكان فارساً.

المعلم بيتر فلسخ Velschوكان فارساً.

المعلم جون لازينوس Lazinus ، رئيس شمامسة، وقانوني كنيسة ترانسيلفانيا في هنغاريا.

والراهب فيلكس، وكان من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، وهو كاتب هذه الرحلات والجولات، وهو أيضاً الذي جلب رئيس الشمامسةالمتقدم الذكر إلى فئتنا، وفي الحقيقة هو لم يكن ليقوم بهذا الحج لولا ثقته بي، لأنه كان هنغارياً تماماً، ولم يفهم كلمة ألمانية واحدة، مع أنه كان بارعاً باللغات اللاتينية، والسكلافونية، والايطالية، والهنغارية، وكان رجلاً من أصل نبيل، وفاضلاً، ومثقفاً، وخطيباً عظيماً، وعالماً بالرياضيات، وقد بقي، كما ذكرت من قبل، إلى جانبي، الأمر الذي سنراه فيما بعد أيضاً.

ويتوجب علي في هذا المكان، أن أصف الفحل، الذي هو كالينوس الأصغر، الذي في بيته أقام الحجاج، والذي تقدمت الاشارة إليه من قبل، وسوف تأتي فيما بعد، فقد كان للمشفى وللحجاج في القدس معلمين، هما الأعلى والأدنى، وكان اسم الأعلى Sabathytanco،

وكـاليـنوس الأعلى، أي معلـم المشفى والحجـاج، وكـان كـل من هذين الكالينوسين يعـرف بـاسم الترجمان، أي حـامي الحجـاج المسيحيين، ودليلهم، والوصي عليهم، وفي الحقيقة، كان في كـل مدينة أناساً منحهم السلطان امتيـاز، قيـادة المسيحيين خـلال البـلاد، وحمايتهم من الأذى، وكـان هـؤلاء الناس مـوظفين في الدولة لـديهم سلطات منحت لهم من قبل السيد السلطان، وهم يعرفون باسم التراجمة.

ومثل هذا، وبالطريقة ذاتها، كـان لليهود تراجمتهم، أو كالينوس، وفي الأمـاكن حيـث يتـوفـر عـدد كبير من الحجـاج، يكون هناك بـالعـادة كالينوسين: أعلى وأدنى، وذلك على سبيل المثـال في كل من القدس وفي القـاهرة، وهذين خـاضعين أحـدهما لـلآخـر، ويتلقى الأدنى راتبـه من الأعلى، في حين يستخرج الأعلى راتبه من الحجاج، وعندما يكون هؤلاء التراجمة جيدين ومستقيمين، كل شيء يسير بشكل جيد مع الحجاج، كما سـوف نـرى فيما بعـد، وكـان الترجمان الأعلى في القـدس Sa-bathytanco رجـلاً عجـوزاً وطويـلاً، وثريا، وصـاحب معنويات عاليـة، غير أنه كان قـاسياً على الحجاج، يتعجـل بهم دوماً من مكان إلى آخر، ويستخـرج المال منهم بشكل محزن، علاوة على ذلك، هو لم يحافظ على عقـوده بشكل جيـد، وخـرق كثيراً من وعـوده، ومـع هذا حمانا باخـلاص كبير، وبذل قصـارى جهـده للدفـاع عنا، عنـدمـا طلبنا منه المساعدة.

وكان كالينوس الأدنى في القدس، أي الفحـل، رجلاً متقدماً بالسن، وأعتقد أنه قد تجاوز الثمانين، وكـان رجـلاً حكيماً، ومسلماً مستقيماً، مليئاً بالمحـاسن والفضائل، لكنه قليـل المعرفـة بالإيمان الحقيقي، أي أن جميع الناس من الممكن انقـاذهم بالايمان حيث ولدوا، شرط البقـاء ظاهرين، في حين أعلن هو أن الذين يتخلون عن إيمانهم، سـوف يكونون مدانين، ولذلك أدان المماليك الذين كـانوا من أهل إيمانه، وكانوا قـد ارتدوا عن

الإيمان المسيحي، وكـذلك جميع المسيحيين الشرقيين، فقـد قـال بأنهم يستحقون الادانة واللعنة، لأنهم جعلوا أنفسهم مثل المسلمين، وأقسموا يمين الولاء والتبعية لملوكهم، وقد حمل الرأي نفسه حول اليهود الذين سكنوا معهم، وقد قدر تقديراً عـالياً إيماننا وخلاصنا، لكنه اعتقد أنه لو تخلى عن إيمانه، لايمكنـه نيل الخلاص بإيماننا، كما أنه اعتقـد أن مـامن مسيحي مـرتد، يمكنه نيل الخلاص بإيمانه هو، وغـالبـاً ما تحدثت معـه حول هذا الموضوع، لأنه عرف اللغة الإيطالية، وبعضاً من اللغة الألمانية المكسرة، التي تعلمها من الحجاج، الذين عبر معهم صحراء جبل سيناء ثمان وأربعين مرة.

وقد أبدى حباً عظيماً نحو المسيحيين مـن بلاد ماوراء البحار، إلى حد أنه كـان يخاطر بحيـاته معهم، لابل أكثـر من ذلك، كـان على استعـداد لوضع نفسـه في خطر الموت مـن أجلهم، ولهذا نجـده وإن كـان رجـلاً متقـدماً بالسن، ومشهـوراً بلطفـه، قد قـام على الرغم من ذلك، بعبـور الصحراء مع الحجاج، وليس في ذهنه الحصـول على أية مكافأة، بل كان هدفه فقط رفقتهم، وكان ينزعج كثيراً، لدى تفكيره بالكيفية التي يمكن قيادة الحجاج بها، بعد موته، خلال الصحراء، وخلال هذه المناطق، وفي الحقيقة أنا شخصياً انزعجت حول هذا، وفزعت من موته، مثلما فزعت من موت الراهب جون الذي تحدثت عنه من قبل.

وزار هذا الكالينوس البندقيـة، وكـذلك بلاط الامبراطور فـردريك الثـالث، كمازار روما في أيـام بابوية البابا نيقـولا الخامس، وحـدث هذا وفق الطريقة التـالية: فقد قـاد في إحدى السنوات، بعض الفـرسان عبر الصحراء، كان بينهم فارس ألماني قوي، أحبـه حباً عظيماً، وغالباً ماعتاد على حثـه، ورجـائه، أن يـذهب معه إلى ألمانيـا عبر البحـر، وأنه سـوف يحسن إليه ويعامله معاملة جيـدة، ويبقيه سالماً، لكن المسلم لم يوافق على هذا،وكـان عندمـا ذهبـا إلى القـاهرة حيث اعتـاد كـالينوس على ترك

حجاجـه والعودة ثانيـة إلى القدس، سأل هذا النبيل كـالينوس أن ينزل معـه حتى الاسكندرية ويبقى برفقتـه حتى هناك، وهناك سـوف يدعـه يذهب.

وعندمـا كانا في الاسكندرية، طلب النبيل من قبطان الغليـون، الذي عـزم على العودة على ظهـره، أن يعلمـه لوحـده باليوم وبالسـاعـة التي سـوف يقلع الغليـون بها، وبناء عليـه، بما أن الغليون كـان سيسـافـر في وقت متأخـــر من احـدى الليـالي، جلب ذلك النبيـل في تلك الأمسيـة كالينوس إلى ظهـر الغليون معه، ولم يعرف كـالينوس بأن السفينة سوف تقلع في تلك الليلة، وظن أنه سوف يعود في الصباح إلى المدينة، لكن في ظلام الليل أقلعت السفينة بصمت، ولاقت ريحاً طيبـة، فقطعت مسافـة كبيرة في البحر، وهكذا أرغم المسلم على البقاء معهم، وعبور البحر.

وأخذه الفـارس إلى كل من الامبراطور والبابا، وحـدثهما عن محاسن الرجل وعن تقواه، إنما كان من غيرالممكن تحويله عن دينه، وهكذا أعيد إلى البندقيـة، وسـافـر من هناك مـن جـديد إلى وطنه، ومنذ ذلك الحين أظهر نفسه حارساً أعظم اخـلاصاً لجميع المسيحيين، وأكثر مما كانه من قبل، لأنه أحضر معـــه هدايا ثمينة مـن الامبراطور، ومن البـــابا، ومن النبـــلاء، واعتـــاد أن يتحـــدث لأبناء وطنـه عن الكـرم العظيم للمسيحيين،وعن أمجادهم.

وكما قلت من قبل، سكـن السـادة النبـلاء من الحجـاج في بيت هذا الرجل الأمين، الذي إليه نزلت كل يوم، وكنت أدخل إليه وأخرج منه، كما أشاء، ويكفي ماقيل حول هذا الموضوع.

وفي اليـوم الرابع والعشرين،عقـدنا نحن الحجـاج اجتماعـاً على جبل صهيون، لنبحث معاً بشؤون الحج الذي عزمنا على القيام به في الأرض المقدسـة، وعقدنا هذا الاجتماع،لأننا لم نرغب بأي حـال من الأحوال

أن نستسلم للكسل في تلك الأيام التي كنا سنمضيها في الأرض المقدسة، بل أن نقوم بالحج إلى هذا المكان وإلى ذاك، ووافقنا جميعاً على هذه الرغبة، لكن الشيطان، ماكان ليسمح لنا أن نفعل ذلك، فقد بذر الخلاف وبدا الحجاج مختلفون واحدهم مع الآخر، ويتجادل أحدهم مع الآخر حول الأماكن المقدسة التي يودون قصدها، واختلفوانتيجة لهذا حول مسائل أخرى أيضاً،وفي الحقيقةإنهم امتلكوا مطبخين في اطارالبيت المتقدم الذكر: مطبخان،وطباخان، وشراء منفصل للميرة، مع أن ذلك كله كان من الممكن صنعه بشكل أسهل وأحسن تحت ادارة واحدة، واتحد— على كل حال— سيدا الفئة الأولى والفئة الثانية مع بعضهما، وكان لهما نار واحدة، وإدارة مطبخ واحدة، لكن سادة الفئة الثالثة— التي أنا انتميت إليها— عاشوا منفصلين بأنفسهم، وكان الفارس الذي اسمه بيتر فلسخ هونفسه الطباخ والمسؤول عن تأمين الميرة للفئة، وقد اكترى اثنين من اليهود الألمان الفقراء لمساعدته، حيث كانا يذهبان معه إلى السوق لشراء الذي كنا نطلبه.

وكان بعض الحجاج متشوقين كثيراً لزيارة الأماكن المقدسة في الجليل، أي لزيارة قرية الناصرة، وجبل الطور، ومرج ابن عامر الكبير، وبحر الجليل، وكفرنا حوم، وكوروزين، وهو الجبل الذي فيه بشر المسيح، وفيه أطعم الناس، ودمشق، وغير ذلك، ولكن عندما تشاورنا حول هذه القضية مع الأب المسؤول، وكالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، أخبرانا بوجود كثير من العوائق تقف في وجه هذا الحج، وأنه يتوجب علينا دفع مبالغ كبيرة لشراء سوء معاملة المسلمين، الذين قيل عنهم بأنهم في تلك المناطق معادين كثيراً للمسيحيين، إلى حد أن الحجاج نادراً مايتجرأون على الذهاب إلى الجليل، وأعلن لنا الأب المسؤول، أنه يوجد في الحقيقة في هذا الحج مخاطر أعظم من عبور الصحراء إلى جبل سيناء، وعندما سمع بعض الحجاج هذا سحبوا

اقتراحهم، وتخلوا عن الحج إلى الجليل، بيد أن آخرين كانوا راغبين بالذهاب، على الرغم من المخاطِر التي أخبرنا عنها، إنما على الرغم من انفصالنا الشديد إلى فئتين، تمّ التخلي عن هذا الحج، لأنه لايمكن لفئة واحدة دون الأخرى تحمل النفقات العظيمة، فضلاً عن هذا قام الذين لم يرغبوا بالذهاب بالشكوى ضد الذين قالوا إنه سيتوفر وقت لنا قبل العودة من الجليل للشروع بحجنا إلى جبل سيناء، وأننا في هذه الحالة علينا أن ننتظرهم، الأمر الذي ماكانوا ليقوموا به، وفي هذه النقطة كانوا مخطئين، لأنه كان بامكانهم الذهاب إلى هناك ثلاث مرات قبل أن ننطلق من القدس، وذلك كما سيظهر فيما بعد، وهكذا حدث أنه بسبب الانقسام بين صفوف الحجاج، تُركت أشياء كثيرة دونما إنجاز، كان بإمكاننا إنجازها بسهولة، لو أننا كنا على رأي واحد، لأننا لو اتفقنا، ودفع كل واحد منا خمس دوقيات، لكان من الممكن أخذنا خلال الجليل كله، لابل ليس خلال الجليل فقط، لابل حتى أنطاكية، التي كانت تعرف في الماضي باسم ربلة، كما ورد في سفر الملوك الثاني: ٢٥/ ٢٠—٢١.

ولقد رغبنا فوق كل شيء برؤية الناصرة، التي قيل بأنها في هذه الأيام قرية صغيرة، لايعبر فيها عن الاحترام للمسيح أو لعبيده، لكنها كانت في الماضي، في أيام القديس جيروم كرسي رئاسة أساقفة محترمة، ترأس عليها القديس سيلفانوس Sylvanus ،حسبما جاءنا الخبر عند سيريل، في رسالته إلى أوغسطين،« حول معجزات القديس جيروم».

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس جيمس الرسول استيقظ رهبان جبل صهيون قبل شروق الشمس، وأخذوا كل شيء كانوا بحاجة إليه من غرفة المقدسات وخرجوا من الدير، وكنت أنا معهم، وقصدوا كنيسة القديس جيمس، لأقامة قداس هناك، وكنا

قد قدمنا من قبل وصفاً لهذه الكنيسة، وعندما وصلنا إلى الكنيسة، تركت الرهبان يدخلون إليها، وركضت أنا مسرعاً، ونزلت إلى مكان سكنى الحجاج، وقرعت على الباب بحجر، وأيقظتهم من أجل سماع القداس، وصعدت ثانية معهم إلى الكنيسة المتقدمة الذكر، ورتلنا في بيعة إعدام القديس جيمس قداساً مهيباً، لابل أقمنا قداساً تلو آخر فوق ذلك المذبح ذاته، ورجعنا إلى أماكننا التي فيها أقمنا من أجل الاستراحة في ذلك اليوم، الذي كان يوم سبت، وهو اليوم الذي حافظ المسلمون عليه، وعدوه مقدساً مثلما نحافظ نحن على يوم الرب، ولم يسمحوا لنا بالتجول في أنحاء المدينة، في مثل هذا اليوم، لأنهم يقيمون صلوات مقدسة وقتها. (١)

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديسة حنة، أم العذراء الأعظم مباركة، استيقظنا باكراً، وذهبنا إلى الكنيسة القائمة فوق مكان بيت القديسة حنة، الذي فيه حملت بأم الرب، ورجونا الذين سكنوا هناك بالسماح لنا بالدخول، لكنهم لم يستجيبوا بأي شكل من الأشكال، وبناء عليه صلينا للقديسة حنة، وتعبدنا ابنتها من خارج الأبواب، وقد سلف لي الحديث عن هذه الكنيسة، ولسوف أتحدث عن المكان بعد وقت قريب، وغادرنا الآن تلك الكنيسة، وعبرنا من خلال باب اسطفان، ونزلنا إلى وادي شعفاط، من أجل أن نقيم قداساً في كنيسة صعود العذراء المباركة، لكن عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مغلقة، ولم يكن بإمكاننا الدخول إليها، ولذلك تركناها وصعدنا إلى قبو صلاة المسيح وآلامه، حيث زيّنا مذبحاً، وأقمنا قداساً، علماً بأن هذا لم يحدث مثله من قبل، أي أن تقيم الطقوس اللاتينية قداساً هناك، هذا ولقد سلف لي أن قمت بوصف هذا المكان.

ولدى الفراغ من قداساتنا، قمنا بزيارة الأماكن المقدسة الأخرى على

١— وهم فابري، وكان عليه أن يقول بأن اليوم هو يوم الجمعة.

جبل الزيتون، إنما عندما وصلنا إلى كنيسة صعود ربنا، أوقفنا واحد من المسلمين، ولم يسمح لنا بدخول الكنيسة مالم ندفع له مالاً، وهددناه بأننا سوف نشتكي ضده إلى السيد جانم حاكم القدس، غير أنه لم يعبأ بذلك، وهكذا عدنا إلى مسكننا لتناول طعام الغداء على جبل صهيون.

وفي اليوم السابع والعشرين، الذي كان الأحد التاسع بعد التثليث، قدم جميع الحجاج باكراً إلى القداس على جبل صهيون، وهو القداس الذي توليت أنا ترتيله لصالح الراهب سيرافينوس Seraphinus، القانوني الذي كان مسؤولا عن السدة في ذلك الأسبوع، ذلك أنه رجاني بتلاوة القداس عوضاً عنه، وتوليت إدارة القداس إلى جميع الرهبان الذين ليسوا في طوائف الرهبان، ولقد وافقت على هذا بسرور، وعددته فضلاً خاصاً خصصت به حين نظر إليّ على أنني جدير بتلاوة قداس للدير في المكان الذي نعتقد أن هذا القداس الذي هو قداس القربان، قد تأصل بالأساس في هذا المكان، وأنني حين أشارك بذلك القداس مع إخواني أفعل ذلك في المكان نفسه الذي شارك فيه المسيح مع تلاميذه بقداس أكل جسده على هذه البقعة، كما تحدثت من قبل في ص ٤٢٠، وبعد الغداء استرحنا.

ونزلت في اليوم الثامن والعشرين باكراً مع المسؤول عن التموين إلى المدينة، وقصدنا السوق، وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع، وحشداً عظيماً من الناس، وكثيراً من المطابخ، للناس الذين لايطبخون في بيوتهم، كما يفعلون في ديارنا، بل يبتاعون طعامهم من المطابخ العامة، الذين يعدون اللحوم بنظافة متناهية في مطابخ مفتوحة، ولايمكن رؤية أية امرأة هناك قريباً من النار، لابل ما من امرأة تملك الجرأة حتى على دخول هذه المطابخ لأن المسلمين يكرهون الأطعمة المطبوخة من قبل النساء، كراهيتهم للسم، ولذلك لايوجد في الشرق كله امرأة تعرف كيف تطبخ كعكة، بل الرجال وحدهم هم الطباخون،

وتحتاج المطابخ في هذه المناطق جدراناً عامة، وذلك بسبب جفاف البلاد، والخشب نادر، ولذلك من غير الممكن أن يكون هناك مطبخاً في كل بيت، مثل الحال في بلادنا، وذلك بسبب الحاجة إلى الخشب، وبعد رؤيتنا لهذا كله، عدنا إلى أماكن الإقامة، وتناولنا الغداء بعد القداس.

وفي اليوم التاسع والعشرين، اشترى كل حاج لنفسه فراشاً محشواً بالقطن، وذلك لصالحنا، من أجل استخدامهم في القدس، وفي خيمنا في الصحراء، وقد تدبرت صنع واحداً لي أيضاً عندما كنت في القدس، وقد حملته معي عبر الصحراء، وعبر البحر إلى البندقية، ومن البندقية إلى أولم، إلى قلايتي الخاصة، حيث أنني مددتها بمثابة أثر مقدس من آثار حجي المقدس.

وبعد الغداء ركب الأمير جانم حاكم القدس، والسيد فكاردينوس Vaccardinus، والسيد Sabathytanco ، والأعيان المسلمون،وصعدوا على ظهور الخيول إلى جبل صهيون للترويح عن أنفسهم، لأن الهواء على جبل صهيون دوماً منعش أكثر منه في القدس، ولهذا اعتاد أعيان الناس على الصعود إلى هناك بين آونة وأخرى، لإنعاش أنفسهم، وللتمدد في كنيسة الرهبان، التي هي دائماً باردة، وعندما قدموا، مدّ الرهبان زرابي فوق البلاط، مع فرش ومساند، وجلس السادة هناك، واستندوا بمرافقهم فوق الفرش، لأنه لم تجر العادة في هذا البلاد بالجلوس فوق المقاعد، أو فوق الكراسي بظهر أو بدون ظهر، بل يضطجعون على الأرض، وإذا كانوا أغنياء ومن أعيان الناس، يجري مدّ زرابي من أجلهم.

وعندما استقربهم الحال جلب لهم الرهبان أطعمة في صحون من المعدن، ومعجنات صنعت مع التوابل ،وبعض الأرغفة من خبزهم، وأقراص معمولة بالعسل، وفواكه وأعناب، ولوز وبطيخ، مع ماء بارد للشرب، لأنهم لايشربون الخمرة، وأكل هؤلاء السادة بكل سرور، وفي

الوقت نفسه وقف الرهبان الفرنسيسكان ونحن الحجاج من حولهم وتولينا خدمتهم، في حين وقف خدمهم من المسلمين من حولنا، وقد سألونا أسئلة كثيرة من خلال مترجم، وسمعوا أجوبتنا بإعجاب، وناقشوا بجدية، أحدهم مع الآخر ماسمعوه، لأنهم كانوا قوماً متقدمين بالسن، وعليهم سمات الوقار، مع لحى طويلة، وذوي خبرة واسعة، ذلك أنهم كانوا أعيان حكام المدينة المقدسة، ولهم حضور أصيل.

وحدث في اليوم المتقدم، أن بعث الأب المسؤول باثنين من الرهبان من جبل صهيون، إلى بيت لحم، لكن مسلماً انقض عليهما على الطريق، وضربهما ضربات كثيرة، حتى وصل الأمر إلى سفك الدماء، واشتكى الأب المسؤول من هذا المسلم، إلى هؤلاء السادة، الذين وعدوه بمعاقبته، وأنهم سيتعاملون معه بشكل يمنعه من إلحاق الأذى بأي مسيحي مرة أخرى، وبعد الفراغ من سماع شكوى الأب المسؤول، تقدمنا نحن الحجاج، وعرضنا شكوانا ضد المسلم الذي لم يسمح لنا بالدخول إلى كنيسة صعود الرب، حسبما عرضنا ذلك تحت عنوان اليوم السابع والعشرين، ورجوناهم السماح لنا بزيارة الأماكن المقدسة من دون دفع، وقد أجابوا بأنه ينبغي علينا أن لاندفع أي شيء إلى الذي يتولى حفظ باب كنيسة الصعود، وأنه من الآن فصاعداً لن يطلب منا أي شيء، وفيما يتعلق بزيارة الأماكن المقدسة لقد قالوا:« يمكنكم الذهاب إلى أي مكان تريدون، وحسبما ترغبون، ونحن ننصحكم أنكم كلما سرتم في الخارج، ليكن معكم بعض المسلمين، لكي لايتمكن الأولاد الأشقياء، الذين لايمكننا ضبطهم، من ازعاجكم»، وهكذا مضى ذلك اليوم، وفيه أكلت أثناء كل من الغداء والعشاء بشراهة فائقة من البطيخ، الأمر الذي اقترفته لايذاء نفسي.

وكنت في اليوم الثلاثين مريضاً طوال اليوم، حيث عانيت من حمى حادة جداً، وكنت ملتهباً بحرارة فائقة، وأعتقد أن سبب ذلك، هو

البطيخ، الذي هو في القدس كبير جداً، وعظيم الحلاوة، وقام— على كل حال— الراهب بابتستا Baptista ، المسؤول عن قاعة المعالجة، بالاعتناء بي بشفقة، وجعلني على الفور أشفى، بجعلي أتعرق، وهكذا لم أغادر في ذلك اليوم قلايتي.

وسمعت في اليوم الحادي والثلاثين بأن اثنين من إخواني الحجاج كانا مرضى، وأنهما يسيران وهما متكئين على عصا، ونزلت من جبل صهيون، وأنا عظيم الاضطراب والانزعاج بسبب ضعفي، وسرت حتى مسكن الحجاج، مع أن الطريق صعوداً ونزولاً طويل نسبياً، وبما أنني كنت مريضاً، فقد زرت قوماً مرضى، وبقيت معهم طوال اليوم، وفي المساء تولى اثنان من الفرسان مرافقتي صعوداً، وسط رعاية كبيرة، حتى أنني عدت سليماً من جديد، إلى مكاني في جبل صهيون، حيث وجدنا أهل الدير كله مشغولين بطوافهم اليومي حول الأماكن المقدسة، وبناء عليه ذهبت معهم، مثلما اعتدت أن أفعل في أوقات أخرى، وعدت مع إخواني للهجوع في قلايتي.

وكان لرهبان جبل صهيون عادة مقدسة وجديرة بالثناء، وهي قيامهم كل ليلة، بعد غناء القداس، والفراغ منه، القيام بزيارة الأماكن المقدسة، للحصول على الغفرانات وفق الطريقة التالية: يذهبون أولاً إلى المذبح العالي، في المكان الذي تأسس فيه القربان، وهناك يسجدون بأنفسهم ويقبلون المكان، ويحصلون على غفرانات، ومن هناك يذهبون إلى مكان غسل الأقدام، وبعد هذا يذهبون فيطوفون حول الرواق، إلى المكان الذي أنزل إليه الروح القدس، ومن هناك ينزلون إلى بيعة القديس توما الرسول، ويعبرون حول الرواق، ويدخلون إلى بيعة القديس فرانسيس Francis الملاصقة لباب الرب وعموده، وقبلوا هنا الباب، وخرجوا من الرواق إلى المكان الذي قام فيه موضع اعتكاف مريم العذراء المباركة، وتابعوا من هناك إلى المكان الذي وعظ فيه

المسيح، وهناك استداروا بأنفسهم إلى ضريح داوود والملوك الآخرين، وتابعوا من هناك إلى مطبخ الرب، ومنه إلى ضريح القديس اسطفان، ومن هناك أخذوا يستديرون حول المنطقة، وينزلون إلى كهف توبة داوود.

وشرعوا يتابعون من هذا الكهف سيرهم، إلى زاوية جبل صهيون، ثم ليستديرون بأنفسهم نحو الشرق على ركبهم الجاثية، أي باتجاه جبل الزيتون، فيتعبدون أماكنه المقدسة بصلاة واحدة قصيرة، ثم يلقون نظرة على وادي شعفاط، ويصلون، وهم ينظرون نحو كنيسة صعود العذراء المباركة، من أجل أنه بفضائلها وشفاعتها يمكن أن نحظى هنا بلقاء قاضينا بسرور فوق تلك البقعة.

وكانوا يبقون بعد هذا فوق البقعة نفسها، ويستديرون بأنفسهم نحو الشمال، ومدينة القدس المقدسة، وينظرون نحو هيكل سليمان المقدس، ثم يلقون نظرة واحدة على كل الأماكن المقدسة في المدينة المقدسة، وبعد الفراغ من هذا كانوا يستديرون بأنفسهم من الشمال نحو الغرب، أي نحو كنيسة الضريح المقدس للرب، التي هي كنيسة القيامة؛ والتي لايمكن رؤية شيء منها باستثناء الأجزاء العالية من برجها، وذلك بسبب وقوف جبل صهيون في الطريق، ولدى تطلعهم إلى هناك كانوا يصلون بتقوى عظيمة، وينهضون بعد هذا، ويصلّون عندما يصبحون أمام بيت عناس، الكاهن الأعلى، ويمضون من هناك نحو بيت كيفاس، ويقدمون صلواتهم هناك، ويديرون وجوههم نحو الدير، ويصلون إلى موضع افتراق الرسل.

ثم كانوا يتابعون سيرهم من هناك إلى بيعة القديس يوحنا، حيث اعتاد أن يقيم قداساً، وأن يقوم يومياً بإقامة قداس قربان إلى مريم العذراء المباركة، وعبروا من تلك البيعة إلى بيت العذراء المباركة، وذلك حيث أنهت أيامها، وكانوا يذهبون من هناك إلى المكان الذي جرى فيه

اختيـار القديس ميتيـاس رسولاً، وحيـث أيضاً جـرى اختيار القـديس جيمس أسقفاً، وحيث أيضاً جرى اختيـار سبعة رجال جيدين شمامسة، وعبروا من هناك إلى مقبرة إخـوانهم الذين دفنوا هنـاك، فخـاطبـوهم وصلوا من أجلهم، وبعد فـراغهم من عملهم هذا، كانوا يعـودون ثانية من خـلال باب الدير، ومن ثم يأخـذ كل واحـد نفسـه إلى قـلايتـه للاستراحة، ووفق هذه الطريقـة طفت كل يوم معهم، عندما كنت مقيماً معهم.

الفصل الخامس

ويحتوي: على أعمال الحجاج خلال شهر آب، مع وصف لمختلف الأماكن في الأرض المقدسة التي إليها ذهبوا، كما ويحتوي على مسائل أخرى كثيرة مفيدة

جلب لنا شهر آب، في يومه الأول عطلتين مزدوجتين: كانت أولاهما، اطلاق سراح القديس بطرس الرسول وفك أغلاله، والثانية كانت عطلة عيد محمد(صلى الله عليه وسلم)..... والعيد الأول معروف لدينا، أما الثاني فغير معروف لدينا، إنما له مهابة عظيمة لدى المسلمين، الذين يحافظون على عيد اعطاء شريعة محمد(صلى الله عليه وسلم)، لأنه في ذلك اليوم أعطيت شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).... ونشرت بين الناس، وأيضاً في ذلك اليوم تدفق القرآن بحر (الفضائل) فغمر العالم كله تقريباً، ونشر بين الناس....

وكان هذا اليوم الأول من آب، يوم جمعة أيضاً، وقد عدّ هذا اليوم مقدساً لدى المسلمين خلال السنة، ليس فقط لأنه اليوم السادس من الاسبوع، بل بسبب.....(١) ولهذا لم نتجرأ في هذا اليوم على اظهار أنفسنا خارج الأبواب، بل بقينا بعيداً عن الأنظار في أماكننا، وذلك مثلما يفعل اليهود يوم الجمعة الحزينة، فيغلقون أبوابهم على أنفسهم، ولايتجرأون على التجول في الطرقات، وبسبب عيد محمد(صلى الله عليه وسلم) هذا، لم نكن قادرين على الاحتفال بعيد القديس بطرس في الأغلال بشكل لائق، لأن رفاقي الحجاج، لم يتجرأوا على الصعود من مسكنهم إلى جبل صهيون، لسماع القداس، وأرغمنا نحن على تمضية ذلك اليوم بهدوء بدون سماع أي قداس، لأن المسلمين قد قرروا أنهم كلما احتفلوا بيوم عيد أو بيوم صيام، أو امتنعوا عن الطعام، أو حافظوا على أي يوم على أنه مقدس، سواء أكان لفرح أو ترح، كانوا يرغمون

١— قمت باسقاط العبارات النابية.

جميع الغرباء والحجاج على فعل مثل ذلك، ومثل هذا يفعلون أيضاً فيما يتعلق بمسألة الخمرة: فبما أنهم لايستخدمونها هم أنفسهم، فإنهم لايسمحون للحجاج بشربها في بلادهم، إلاّ بالسر، عندما لايراهم أحداً.

وفي اليوم الثاني الذي كان يوم القديس اسطفان، البابا والشهيد، وبعد سماعنا للقداس، أخذنا بعض الطعام، والتقينا عند جبل صهيون، مع نية الذهاب حول مدينة القدس كلها من الخارج، لنرى دفاعاتها، أو بالحري خرائب دفاعاتها، دون أن نأبه بالحرارة العالية جداً، وبأشعة الشمس المحرقة، لأنه لم يكن بإمكاننا فعل ذلك إلاّ وقت حرارة الشمس، ففي ذلك الوقت يبقى المسلمون في الظل، ففي الصباح الباكر، وفي المساء، عندما تكون الشمس أقل حرارة، كانوا يذهبون إلى حدائقهم، ويمشون من حول خارج الأبواب، ووقتها كانوا لايسمحون لنا بالطواف حول المدينة، ولهذا اخترنا ساعة راحتهم، لنعمل ذلك أثناءها.

وبدأنا طوافنا كما يلي: عبرنا أولاً وسرنا حتى برج داوود على الجانب الغربي، وذهبنا من هناك إلى باب السمك، أو باب التجار، القائم عند الزاوية الغربية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الجنوبي، ومضينا من هذه الزاوية إلى حقل القصار، الذي يقوم فيه في الوقت الحالي بستان أشجار، ومسجد، ومقبرة للمسلمين، وهو قائم حيث هو كما كان في أيام القديس جيروم، وذلك حسبما قرأنا في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، واستدرنا في حقل القصار نحو الشمال، حيث أبقينا خندق المدينة المقدسة على يميننا، ومشينا نحو الشمال على طول الحافة هناك، وكان هذا الخندق فيما مضى عميقاً وواسعاً، وقد بني سور المدينة نفسه على صخرة، وقد بنيت البيوت فوق السور نفسه، وهي تطل على الخندق، ورأينا تحت الصخرة نفسها كهوفاً عظيمة، من

خلالها هناك طريق يقـود تحت الأرض إلى وسط المدينة تقريبـاً، ولوكان معنا مصبـــــاح مشعـل لكان مـن الممكن لنـا الذهـاب والسير في هذا الكهف، وكنا آسفين لعـدم جلبنا واحــداً معنا، وأطلق يوسفيـوس، في الفصل الثامن من كتابه السـادس عن «حرب اليهود» على هذه الكهوف اسم« كهوف الملك»، لكن لماذا أسماهم هكذا، أنا لم أقرأ قط حول ذلك، غير أنني أفترض أنه قـد توفرت فيهم بعض الطرقـات في داخل المدينة، وكـانت هذه الطـرق معـروفـة من قبل الملك وحــده، حتى يتمكن من الدخـول إلى المدينة، والخروج منها، من دون معـرفة أية انسـان، أو ربما كان هناك طريقاً فيهم من قصر الملك.

وتابعنا تقـدمنا من هناك، وسرنا مسـافـة طويلة على حـافـة الخندق، حتى وصلنا إلى الزاويـة الشماليـة، وذلك حيـث يتصل السـور الغــربي بالسور الشمالي، ويوجد في مـواجهة هذه الزاوية هناك تضخم أو ارتفاع بالأرض، حيث عليـه خرائب الأسوار، وقـام هنا فيما مضى برج عظيم الارتفـاع، كـان اسمـه Phaselus أو Phaselus Hippicus، هناك مشهد منه لكل من البحرين، أي البحر القائم في جهة الشرق، الذي هو البحر الميت، والبحـر القائم في جهة الغـرب، الذي هو البحر الكبير، أو البحـر المتــوسط، وقـد قــرأنا عن هذا في الفصل الثـامـن، من كتـاب يوسفيـوس الســادس، أي كتـاب«حـرب اليهـود»، ومع ذلـك غـالبـاً ماتساءلت كيف يمكن هذا، مشاهداً من جهة الغرب الجبال وهي مطلة فوق المدينة المقدسة.

واستـــدرنا من هذه الزاوية نحـــو الشرق، وسرنا على محاذاة حـافـة الخندق، ورأينا هناك جـزءاً كبيراً من أسـوار قـديمـة، لأن السـور كـان مزدوجاً، بشكل أنه كانت هناك ممرات داخل السور، وفي الوسط هناك، في كل من الأعلى والأسفل، وجعلت الصخـور التي قام عليهـا السور، مـربعــة بشكل صناعي في كثير من الأمــاكن، وقـد وقفت فـوق هذه

الأماكن الأبراج، وفي الحقيقة، كانت المدينة جيدة الدفاعات من هذا الجانب، لأنه من الممكن مهاجمتها من هنا بسهولة أكبر من الأماكن الأخرى، وبناء عليه من هنا تمكن صلاح الدين ملك مصر من الاستيلاء على المدينة وانتزاعها من أيدي الصليبيين في سنة ١١٨٧التي كانت السنة الأخيرة لحكمهم لها.

وتابعنا السير من هناك حتى وصلنا إلى باب إفرام، أو باب القديس اسطفان، وهو الموجود عند الزاوية الشرقية، أي حيث يتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، وهذا السور الشرقي ليس له خندق أمامه، بل يمتلك بدلاً عن ذلك وادي شعفاط، الذي على طرفه ينهض السور مرتفعاً، وهناك على كل حال، ممر صغير يسير على طول طرف السور، فوق الوادي، وذلك من الزاوية الشرقية للسور، حتى الزاوية الجنوبية منه، ومع ذلك لم نتجرأ في متابعة طوافنا، بسبب وجود مقبرة اسلامية، قائمة في مواجهة الباب الذهبي، ولم يكن بامكاننا عبور هذه المقبرة من دون تعريض أنفسنا إلى خطر عظيم، وذلك كما ذكرنا من قبل.

وهكذا تخلينا عن هذا الممر، ونزلنا من الزاوية، من فوق منحدر منزلق إلى وادي شعفاط حتى جدول قدرون، ذلك أننا سايرناه، فكان جبلي الهيكل والمدينة من الجانب الأول، وجبل الزيتون من الجانب الآخر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى سفح جبل صهيون في وادي سلوان، واستدرنا هنا نحو الغرب، وذهبنا صاعدين خلال الوادي الذي يفصل جبل صهيون عن جبلي حقل الدم وجيحون، امتداداً حتى حقل القصار، حيث كنا قد بدأنا طوافنا، وقد دخلنا إلى المدينة من خلال باب السمك، وذهبت مع موالي الحجاج إلى مكان سكنهم، وهناك أنعشنا أنفسنا، حيث كنا نشعر بالحرارة والتعب، لابل كنا في غاية الانهاك، وهكذا مرّ ذلك اليوم، وعلى كل من يرغب بالاطلاع على حجم القدس ودفاعاتها في الأيام الخوالي، أن يقرأ مصنف يوسفيوس«

حرب اليهـود»، الكتاب السـادس، الفصل الثامن، ومع ذلـك خشية أن يظن بأنني أتجنب قـول أي شيء واضح حـول حجـم المدينة الأعظم قـداسـة، ليكن معلومـاً أنها ليسـت بأي حـال من الأحـوال كبيرة مثلما يعتقد عوام الناس، فهؤلاء يظنون أن حجمها لابد أن يكون عظيماً بقدر شهرة اسمها وفضائلها.

قد قيل أشياء رائعة جداً عنك أنت يامدينة الرب، ويقال الآن عنك، ولسـوف يقال عنك مـادامت الدنيـا قـائمة، وهذه المدينة الآن، ودومـا كـانت، أدنى من المدن الكبيرة، لكنهـا أكبر من المدن المتـوسطة الحجم، ومثل هذا قيل عنها من قبل الأمم، فقـد قال هيكاتيوس Hecataeus الفيلسوف أوف أبدرا Abdera :« القدس مـدينة حصينة جداً، يبلغ محيطها حـوالي الخمسين غلوة، ويسكن فيها أكثر من مائـة وعشرين ألفاً من الناس»، ومضى في حـديثه فقال عنهـا أشياء أخـرى حسبما قرأنا في مصنف يـوسبيـــوس « Praeparatio Evangelica » الكتـــاب الثامن— الفصلان الثاني والثالث.

وأخبرنا فيلسـوف آخر هو تيمـوخارس Timochares، الذي كتب تاريخ انطاكية أن «مقياس محيط القدس هو حوالي الأربعين غلوة، وهي محميـة من جميع جوانبهـا بوديان عميقة جـداً، وهي تشرب من كثير من الينابيع التي تنبع في داخلها، علماً بأنه لايوجد ماء صالح للشرب حولها في اطار يبلغ أربعين غلـوة»، وقـد زاد على هذا كثيراً، حسبما قـرأنا في مصنـف يوسيبيـوس المتقــدم الذكـر— الكتـــاب العـاشر، الفصل الرابع.

هذا وحدثنا يوسفيوس، الذي كان يهودياً، وكـاتباً متميزاً للتاريخ، في الفصل الخامس من كتــاب تاريخه المتقـدم الذكـر بأن« مـدينة القـدس بكامل سعتها، مـوجودة ضمن إطار مقـداره ثلاث وثلاثين غلوة»، وقد حـدثنا في هذا الفصل نفسه، بأشيـاء كثيرة رائعة عنهـا، وأنا ميال أكثـر

لتصديق كلماته، لأنه كان من أهل القدس، وقائداً ليهود المدينة أثناء تدميرها من قبل تيتوس.

وواضح من هذه المصادر المعتمدة، بأن القدس قد كانت قبل التوسعة التي عملها الامبراطور اليوس هدريانوس، أكبر من أولم(التي هي من المدن المتوسطة الحجم) في الوقت الحالي، وفي الحقيقة غالباً ماقمت أنا شخصياً بقياس محيط أولم، فوجدت أن هذا المحيط هو خمساً وعشرين غلوة، وخمساً وسبعين خطوة واسعة، مما يساوي نصف ستاديوم، وبناء عليه كانت القدس أكبر من أولم بثمان غلوات.

وقد حدث أنه بعد مضي سنين كثيرة من أيام يوسفيوس، قام الامبراطور إليوس، بإعادة بناء القدس، التي كانت مهدمة، وأدخل فيها موضع الجمجمة وضريح الرب، وجعلهما داخل الأسوار، وبذلك وسعها توسعة كبيرة جداً، وبذلك صارت حسب خطة التوسعة هذه، بالمقياس والحدود، حسب الذي أورده الفيلسوفان، اللذان تقدم ذكرهما، وإذا كانا قد كتبا قبل التوسعة، فإنهما أدخلا في قياسهما جبل صهيون، الذي لم يدخله يوسفيوس في قياسه، لأننا إذا أخذنا جبل صهيون مع جبل الجمجمة والجلجلة، فإنه يتكون لدينا اطار كبير، مقياسه ليس أقل من اطار مدينة أوغسبورغ Augsburg ، التي هي مدينة في سوابيا، وتعدّ بين المدن الكبيرة في ألمانيا، ومع ذلك عندما ينظر الانسان نحو مدينة القدس من جبل الزيتون، لاتبدو له مدينة كبيرة جداً، لأنها تقوم فوق بقعة غير مستوية، أي ليس فوق أرض منبسطة، وفيها فراغات وأماكن كثيرة لايمكن رؤيتها، لأن جبل صهيون منفرداً بذاته، يمكنه أن يحتوي على مدينة ليست ذات حجم صغير، ولو أنه بني كله، فإن الخرائب تبرهن أنها كانت فيما مضى كذلك، هذا ولسوف نقدم في المستقبل المزيد حول وصف هذه المدينة.

الدخول الرابع للحجاج إلى ضريح الرب

في اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد ميلاد القديس اسطفان، والذي وافق الأحد العاشر بعد التثليث، رجونا في مساء السبت المتقدم، أصحاب السيادة الحكام المسلمين للمدينة المقدسة أن يحسنوا إلينا، فيدعونا ندخل إلى كنيسة الضريح القدس، وقد وافقوا على هذا، شريطة أن ندفع الرسم المعتاد، وهو خمس دوقيات عن كل شخص، وهنا رجوناهم أن يرأفوا بنا، وبينا أن هذا المطلب حاد جداً، وأن عددنا صغير الآن، وبسبب أننا ننوي أن ندخلها مراراً قبل مغادرتنا، وأنهم إذا لم يقوموا بتخفيض الرسم المعتاد، لن نتمكن لا الآن ولا في المستقبل من الدخول إليها، وهكذا بعد التماسات طويلة ومناقشات تمكنا من اقناعهم بسبب الحاحنا، واتفقنا أننا كلما اردنا الدخول إلى كنيسة الضريح المقدس أن ندفع رسم انسان واحد، أي أن ندفع خمس دوقيات، وقد أرضانا هذا.

وبناء عليه عندما اجتمعنا جميعاً في ساحة كنيسة الضريح المقدس، جاء السادة المغاربة مع المفاتيح، وفتحوا الأبواب، ودخلنا نحن وأمضينا تلك الليلة سهرانين حول الضريح المقدس وفق الطريقة التي ذكرتها في ص ٥٠٤، ولدى حلول الفجر، غنينا قداساً في بيعة العذراء المباركة التي تقدم وصفها في الصفحة نفسها المتقدمة الذكر، وتلونا قداسات خاصة، حسبما أردنا دونما ازعاج، وعند الفراغ من هذا كله، قدم المسلمون، وفتحوا الأبواب، ورمونا بالخارج، وذهبنا الآن جميعاً إلى جبل صهيون المقدس، وتدبرنا تلاوة قداس في المكان الذي وجد فيه جسد القديس اسطفان مدفوناً، وانظر حول هذا المكان ماتقدم في ص ٤٢٢، ولدى الفراغ من القداسات، اتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بعض الأماكن المقدسة في داخل المدينة، مما لم نزره من قبل.

والتقينا بعد الغداء فوق جبل صهيون، وأخذنا معنا الفحل، أي

كـاليبنوس الأدنى، ودخلنا إلى القـدس مـن باب القـاذورات، أو من تلة القـاذورات، التي غالبـاً مـاجاء ذكـرها في الكتـابات المقدسـة، وبشكل خـاص في سفرنحميـا— الاصحاح الثـاني، ففيه أطلق على البـاب باب الدمن القـديم، وهو مايـزال يعرف بالاسم نفسـه حتى الآن، بسبب أن الأوساخ والقاذورات تحمل من خلاله، ويرمى بها نحو الوادي، وهكذا تشكل من الأوسـاخ المرميـة هناك كومـة تنامت حتى صـارت مثل تلة، وغدت عاليـة حتى باتت تطل على السور في ذلك المكان، وعندما عبرنا من خـلال هـذا البـاب، وصلنا إلى سـوق الضـأن، وذهبنا من هناك إلى طريق ضيق، سكـن فيـه كثير من المسيحيين النوبيين، وقـد قـرعنا باب كنيستهم.

وعندمـا فتح البـاب، دخلنـا وتلونا صلواتنا هنـاك، وكـانت هذه الكنيسـة واسعـة نسبيـاً لكنهـا مظلمــة، وفي الحقيقـة إن جميع الكنائس الشرقية معتمة ومظلمة، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى بيت مـريم، أم يوحنـا، الذي لقبـه مـرقص، وهو الذي قـرع بطرس بابه، عندمـا أخرج من السجن بوسـاطة الملاك، والحكاية الحلوة حـول ذلك من الممكن قـراءتها في الاصحـاح الثـاني عشر من أعمال الرسل، وتـابعنا سيرنا قليـلاً من هذا المكـان، فـوصلنا إلى بيت آخـر لمسيحيين شرقيين، وعندمـا سمحوا لنا بالدخـول إليـه، أرونا في ساحـة ذلك البيت صهريجاً تابعاً للبيت، وقـالواً بأنه هناك ظهر المسيح للقديس توما الـرسول، فعندما كـان ينضح بعض الماء، وواقفاً على أحـد أطراف الصهـريج، وقـف الرب يسـوع على الطرف الآخـر، وأخبره أن عليـه الذهاب إلى الهند، فهـذا مـاقالـه المسيحيون الشرقيـون وأنه حـدث هنا، لكن الاسطورة اللومبـاردية قـد ذكـرت بأن هذا قـد وقع في قيسـارية، ومثل هذا ذكرت كتب أخرى لكنيستنا.

ومضينا من هناك إلى بيت آخـر، حيث كـان فيه كنيسـة أيضاً، يقـول

المسيحيون الشرقيون بأن فيها قد ولد الرسولان المقدسان جيمس وجون، لأنهم قالوا بأن أباهما زبدي قد سكن هناك مع زوجته، إنما بعد اصابتهم بالفقر سافروا من هناك إلى الجليل، وحصلوا على نفقات عيشهم باصطياد السمك إلى جانب بحر الجليل، ولهذا جاء الخبر في انجيل يوحنا— الاصحاح؛ ١٩، بأن« ذلك الرسول كان معروفاً لدى الكاهن الأعلى».

وقام على مقربة من هذا البيت مسجد اسلامي، وكان بابه مفتوحاً، وبما أننا لم نر مسلماً فيه، دخلنا إليه، ولم نجد فيه شيئاً جميلاً، ولاشيء يبعث على التدين، ولاشيئاً مرغوباً به، بل مجرد بناء فارغ، مقبب، ومستدير، وجدران مطلية بالبياض، ومصابيح معلقة من السقف المطلي، وكانت الأرضية مغطاة بالحصر، عليها يركعون ويسجدون أثناء صلواتهم، وبعد مشاهدتنا لهذا خرجنا ثانية، وهذه الأماكن المتقدمة الذكر، قريبة من هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان.

وذهبنا بعد هذا باتجاه الهيكل، ورأينا في الساحة هناك كثيراً من المسلمين واقفين ومعهم قوارير وأوعية، وجرار لنضح المياه، التي كانت تتدفق هناك بقوة من انبوب ماء، عجبت منه كثيراً ،لأنني قرأت دوماً وسمعت بأن المدينة المقدسة كانت بلامياه شفه، ولكن عرفت فيما بعد بالخبرة بأن هذه المياه تنبع من مكان بعيد عن المدينة المقدسة، وهي تحمل إلى القدس بوساطة أقنية من تحت الأرض ومجاري مياه، عنها سوف أتحدث بتوسع في ص ٩٨٩.

وصعدنا من هذا المكان نحو الهيكل، ثم إلى شارع مغطى بسقف مقنطر، من خلاله ذهبنا إلى باب كبير، يقود إلى ساحة الهيكل، وكان في هذا الشارع كثيراً من الحوانيت والأبواب للتجار على كلا الجانبين، وعندما رأونا نسعى مسرعين نحو باب الهيكل، ركض كثير من الناس لمنعنا من الدخول إلى هناك، وأخبرناهم بالاشارات بأننا لن ندخل إلى

هناك بل سنصلي للرب فقط خارج الباب، وبذلك سمحوا لنا بالذهاب إلى البـاب، حيث صلينا على ركبنا المنحنيـة، ناظرين نحـو هيكل الرب، إنما حتى هـذا أغضب المسلمين ولذلك صرخـوا علينـا، وكـان باب الساحة نفسها واسعاً وكبيراً، مصنوعاً من عوارض حديدية ثقيلة، وهم يقولون بأن هذا الباب الحديدي هو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل— الاصحاح الثاني عشر:١٠، والذي من خلاله قاد الملاك القديس بطرس إلى الشارع لأن سجن بطرس كان فيه.

ومن هناك عـدنا ثانيـة، على طول الشـارع نفسـه، واستـدرنا قليـلاً، فـوصلنا إلى شارع آخـر مقنطر، فيـه أيضاً، مثل المتقـدم تجار جلوس في حوانيت، ودخلنا إلى هذا السوق وسرنا صاعدين فيه حتى باب الهيكل، دون أن نعبأ بصرخـات المسلمين وبانزعـاجهم، كما أننا لم نعـر اهتمامـاً لأوامـر كـالينوس دليلنا، الذي بذل طـاقـة جهـده لمنعنا من النظر إلى الهيكل، لأن المسلمين كـانوا يخشـونه ليمنعنا مـن الاقتراب من الهيكل، وقالوا بأن هذا البـاب هو «الباب الجميل» العائـد للهيكل، الذي تحته شفى بطرس الـرجل الأعـرج، عندمـا صعـد هو ويـوحنا إلى الهيكل للصلاة في السـاعة التـاسعة، وقـال:« ليس لي فضة ولاذهـب»، كما جاء الخبر في أعمال الرسل:٣.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، تابعنا سيرنا خلال شوارع البيوت، القائمة حول الهيكل، ووصلنا إلى جزء آخر من السـاحة، حيث هناك إلى جانب سـور الساحـة، مسجد جـديد، قيد البناء، بنفقـات عاليـة ليكون مكان اعتكاف لصـاحب السيـادة السلطان، فيـه يمكنه·أن يصلي كلما كـان في القدس، وهكذا صعـدنا إلى ذلك المكان، ورغبنا في أن نصعـد أكثر، إلى حيث كان العمال، لننظر إليه، ولكن أخبرونا أن مـامن انسان يتجرأ على الصعـود إلى حيث كـان العمال، من دون إذن مـن القـاضي، الذي كـان أسقف هيكل المسلمين، وهكذا دخلنا إلى بيت القاضي، الذي كان صعباً

حتى نسألـه من أجل الاذن، وبيت هذا القـاضي واسـع ومـرتفع، وله سقف مقنطر، مزيـن برخام مصقول، ومجمل برزابي، وهـو مثل كنيسة، لكن من دون مذابح، وأعتقد الآن أنه كان مسجداً اسلامياً، فيه استقبال لجميع الناس من جميع الملل، بسبب القـاضي، الذي كان سـاكناً بجواره، وذلك مع أهل بيتـه وحاشيتـه، لأنني رأيت نساء وأطفـالاً ينظرون إلينا من خلال فتحة في السقف.

وجاء القاضي لمقابلتنا، وكان مهيباً ومتقدماً بالسن، ومحترماً وله لحية، وعندما فهم الذي نريده، وافق على الفور، وتدبر أمر أخذنا إلى المسجد، وذلك بأن أمـر واحداً مـن أصحابه بمـرافقتنا، وصعـدنا نحو المسجـد، فوجدنا كثيراً من الحرفيين والعمال هناك، وكانوا يصنعون زينة رقيقة من مختلف أنواع الرخام المصقـول، ومن مختلف الألوان، وكانوا يزينون كل من الأرض، والجدران بالصور، زيادة على هـذا كان الجزء العلوي يلمع بالذهب وبالألوان الثمينة، وكانت النوافذ مزججة، وتضيء المبني بشكل رائع جداً.

وفي الجدار الذي يرتفع من سـاحة الهيكل، كانت هناك نـوافذ طويلة وعظيمـة، لم تكن قد زججت بعـد، ولكنهـا مفتـوحة، رأينا من خـلالها سـاحة الهيكل، والهيكل نفسـه، وقد رأينا هناك الأعمال الرائعـة العاليـة النفقـات لذلك المكان، والتي سـوف نصفها في حـديثنا عن الهيكل على الصفحة ٢٦٠، وقبلها.

وعندمـا فـرغنا من رؤيه هذه الأشيـاء، أعطينا الحرفيين ثمن شراب، وخـرجنـا ثانيـة، وأنا لاأعتقـد أن أي مسيحي سـوف يتمكن قط من الدخول إلى ذلك المسجـد، لأنهم سوف يقومـون بعد قليل بإيقـافه على عقيـدتهم المرتبطة بمحمـد(صلى الله عليـه وسلم)، وعند القيـام بذلك سوف لن يدعو مسيحياً يدخل إليه، وهكذا ذهبنا عائدين إلى أماكننا.

وفي اليوم الرابع، نزلنا جميعاً، بعد الغداء من جبل صهيون، واقتادنا بشكل شبه سري يهودي، قال بأنه سوف يرينا بعض الأشياء التي كانت مخفية، وعندما كنا نازلين وصلنا إلى الجانب الجنوبي من الكنيسة، القائمة قرب هيكل الرب، حيث كان في أيام الصليبيين هناك طريق يقود صعوداً ببعض الدرجات الحجرية، إلى باب عالي، من خلاله يدخل الانسان إلى تلك الكنيسة، وتسلقنا صاعدين إلى هذا الباب، فوق خرائب جدران، وقبلنا الجدار الذي فيه الباب، وذلك من أجل الغفرانات المطلقة، التي يمكن الحصول عليها هناك(++).

وقد قيل يوجد هناك خمس عشرة درجة، تقود صعوداً إلى ذلك الجدار، وعليه صعدت العذراء مريم مع ابنها— الذي كان في الثالثة من عمره— بشكل اعجازي، إلى الهيكل من دون دليل، وحدث أنه على هذه الدرجات، كتب داوود خمسة عشر مزموراً، واسم هذه المزامير«مزامير الدرجات»، وقد زرنا هذا المكان بخوف وصمت، لأنه لو رآنا المسلمون، لأصبحنا بخطر، ولهذا اخترنا الوقت الذي يرتاحون فيه، ونزلنا من ذلك المكان نحو الأسفل أكثر، فوصلنا إلى سور قديم جداً، وكان فائق القوة، وقد بني من صخور كبيرة مربعة، وهذا السور مرتفع، مع أنه كان من قبل أعلى بكثير، وهذا يمكن مشاهدته من الخرائب، لأن المكان كان مليئاً بصخور مربعة موزعة هناك.

وقد قيل بأنه قام فوق هذا السور بيت غابة لبنان، الذي كان بيت الملك، وهو قد بني من قبل سليمان، فهذا ماقرأنا عنه في سفر الملوك الأول: ٧، حيث قال:« المجد» الخ، وقد أطلق على هذا البيت اسم بيت غابة لبنان، لأن الجزء الأعلى منه قد بني من الخشب الذي قطع من غابة لبنان، وقال مصنف كتاب Speculum Historiale، بأن هذا البيت قد بني من مادة مزدوجة، وكان الجزء الأول من الحجارة، وكان اسمه Nethota، أي موضع العطور، حيث خزنت فيه التوابل والعطور، من

أجل استخدامات الهيكل وبيت الملك، وذلك أنه بسبب(برودة) الأرض (وسماكــة) الجدار، كــان من الممكــن حفظ هذه المواد، والحفــاظ على سلامتهـا، وكان الجزء العلوي من الخشب، أي الخشب الذي جلب من لبنان، ولهذا أطلق على هـذا القسم اسم بيت الغــابـة، أو بيت لبنان، أو بالحري بيت غـابة لبنان، ويعتقـد بعضهـم بأنه عـرف بهذا الاسم، لأنه زرع من حـوله، من كل جـانـب أشجـار، وحـدائق للنزهة، وأنها نمت فصـــارت كثيفـــة مثل غـــابة لبنـان، وجـــرى في القسم العلوي خـــزن الأسلحـــة، وذلك بسبب الخشـب، الذي يحول دون لحاق الصـــدأ بها، والذي خـزن بها ليس أسلحة القتال، بـل أيضاً أسلحة النظـر والعرض للأبهة الملكية.

وهناك على كل حـــال في سفـــر الملوك الأول: ٧/ ١—٢، تمييـــز بين «بيت غـــابة لبنان» وبين « بيـت الملك»، علما بأن بعض الشراح يقـــول بأنهما كـانا بيتاً واحـداً، هو البيت نفسـه، وهذا مااعتقـده أنا نفسي، هذا وإن بيت الملك هذا، في هـذا المكان، كما يبـدو يتـوافق بشكـل جيـد مع الكتـابات المقدســة، التي غـالباً مـاقـالت بأن ملوك القدس صعـدوا إلى الهيكل من بيت الملـك، وواضح من إرميــا.... وهذا لايمكن أن يحمل على محمل بأن بيت الملك والقصر على جبل صهيون، حيث سكن داوود وسليمان قبل بناء الهيكل، لأن جبل صهيـون أعلى من الهيكل، والانسان ينزل منه إلى مـوضع الهيكل، وعلى كل حـال يصعد الانسـان دومـاً من الساحـة عبر درجات إلى الهيكل نفسـه، لكن من البيت الذي نحن الآن فيـه، هناك صعود كبير إلى الهيكل، وبناء عليـه وقفنا هناك بدون حركـة لبعض الوقت، وتعجبنا من الجدار الضخم، وتحدث أحـدنا إلى الآخـر حول هذه القضايا.

ويوجـد على قمة هذا الجدار المدمـر حجرة مربعـة كبيرة، أزيحت من مكانها الاعتيادي ولذلك هي قائمـة بشكل شاذ فوق قرنة الجدار، ولأن

هذه الحجـرة الآن هي أعلى شيء في الجدار، وناتئة بشكل غـريب منه، اخترع حولها حكاية أنها الحجرة التي ورد ذكرها في المزمور: ١١٨/ ٢٢، وفي متى: ٢١/ ٤٢ حيث قـال:« الحجـر الـذي رفضـه البناؤون هو قـد صـار رأس الزاوية»، وقال نيقـولا دي ليرا، إنه عندمـا كان الهيكل قيـد البناء، كـانت هناك حجـرة قـدمت مـراراً إلى أيدي المعماريين، لكنهم لم يجدوا مكاناً مناسباً لها لوضعهـا فيه، ولذلك رفضت، ولكن عندمـا كان أحـد الجدران يتـوجب وصله بجـدار آخـر بـوسـاطة حجـر زاوية عند رأسيهما معاً، لم يمكن العثور على حجر أكثـر مواءمة لذلك الغرض من الحجـرة المرفوضـة تلك، والحكاية نفسهـا، حكيت حـول جذع شجـرة الصليب المقــدس، التي رفضت أيضــاً، أثناء القيـام ببناء واحــد من البيوت.

والذي بدا لي، أن هـذه الحجـرة لم تكن— على كـل حـال— حجــر زاوية، ولارأس الـزاوية، لأنه مـن الواضح، أن هـذا الجدار كـــان فيما مضى أعلى بكثير.

ولدى تفحصنا لهذا الجدار من الخارج، بقيادة اليهـودي، تسلقنا فوق الخرائب إلى الجدار نفســه، فــوجــدنا أن بعض الحجــرات المربعــات الكبيرات، قد انتـزعن بقوة شديـدة من الجدار، وعلى هذا هناك ثغرة في الجدار إلى Nethotam ، وبناء عليه حنينا أنفسنا، وذهبنا واحــداً بعد الآخـر، وفي البداية لم يكن بإمكاننا رؤية أي شيء مطلقــاً، وذلك بسبب طبيعــة العين، فـالـذي يدخل إلى الظل من المكان الـذي تعمـه أشعــة الشمس، لايمكنه أن يرى شيئاً، لكن بعـدمـا وقفنا دونها حركـة لبعض الوقت أمكننـا استرداد نظرنا ببعض الدرجــات، ورأينا أبنيــة مقنطرة عظيمة، وكـان يوجد هناك سبعة صفـوف من الأعمدة، تدعم القناطر، والأبنية العلوية التي بنيت فـوقهم في الأيام الخوالي، مع أنه يقوم في هذه الأيام فوقهم بستـان زيتون، عند جهـة الهيكل، ويقول كل من المسلمين

واليهـود، بأن هذه القــاعـات كـانت اسطبل خيــول سليمان، لكن من الأفضل القول بأنه قـد كان هنا الـ Nethota، أي بيت التوابل ومخزن العطور، كما تقدم لنا قول ذلك أعلاه، ذلك أنه أودع هنا التوابل الثمينة جـداً، التي جلبتها ملكـة سبأ، والتي عنها قـرأنا في سفـر الملوك الأول: ١٠/ ١٠، كما علينا أن لانعتقـد بأن سليمان قـد حفـظ الدواب في هذا البيت الجليل جداً، الذي عجبت منه نبيـة سبأ، خاصة عندما رأته قـريباً من الهيكل، ذلك أن وضع الخيـول هناك كان فيه عـدم احترام، ولذلك أمـر ببناء مـدن في أمـاكن أخـرى، وذلك مـن أجل عـرباته، وخيـوله، وخيالته، كما قرأنا في سفر الملوك الأول:٩/ ١٩.

ويوجـد الآن تحت هذه القناطر كثيراً من أكـوام الحجـارة قـد جمعت هناك، وقــد قـال لنا عنهــا اليهـودي الذي جلبنـا إلى ذلك المكان، بأن اليهود قـاموا بتكويم هذه الحجـارة لشغل هذا المكان، ذلك أنهم يأملون أنهم سرعان ماسـوف يتمكنون من سكنى الأرض المقدسة، وبذلك فإن حجـاجهم الذين يأتـون من بلدان بعيـدة، سـوف يستـولون على بعض الأماكن، ففي هذه الأماكن يأملون أنهم سوف يسكنون بعد عودتهم.

ويوجـد في الأعلى في القنطرة، مكان خـرقت فيـه فتحـة كبيرة، منهـا يرمي المسلمـون كناسـة الهيكل والسـاحـة، وكنا في حـالة خـوف عظيم هناك، لأنه لو عثـر المسلمون علينا هناك، لعـاملونا بالفعل بشكل سيء، ولولا أننا كنا خائفين، لتسلقنا فوق الفضلات إلى ساحة الهيكل، وهكذا بعدمـا رأينا جميع المشاهد المتقدم ذكرها، خـرجنا من الفتحة التي دخلنا منها، وقمنا بجولة حـول جبل موريا، الذي هو جبل الهيكل، وهو يمتد من أعلى الرابيـة حتى سور المدينة المقـدسة، وذلك امتـداداً حتى الزاوية التي يتحد فيها السور الشرقي مع السور الجنوبي.

ورأيت في هذا السـور حجارة هي أطول وأكبر مما رأيتـه قط في سور أي مـــــدينة، لكـن هـذه الحجـــــارة لم تكـن جليلـة، كما تحدث

يوسفيوس(الكتاب السادس— الفصل الثامن) وأخبرنا بوجودها في سور القدس، ويطل هذا السور باتجاه وادي شعفاط وجدول قدرون وذلك في مقابل جبل الزيتون، ومبني هناك في السور، على ارتفاع ستة أذرعة من الأرض، حجرة، بدت وكأنها قد كانت جزئاً من عمود رخامي، فبعضها داخل في السور، وبعضها الآخر بارز منه، بشكل أن انساناً واقفاً على ذلك الارتفاع، يمكنه أن يقف على الحجرة، وظهره مواجه للسور، أو يمكنه الجلوس عليها، كما يجلس انسان على ظهر حصان، وساقيه متدليتان نحو اللأسفل.

ولدى المسلمين حكاية حول هذه الحجرة، تقول بأنه في يوم الحساب، عندما يجتمع الناس كلهم في وادي شعفاط، سوف يأتي محمد(ﷺ) ويجلس فوق هذه الحجرة ليحكم بين الناس، ولذلك يحترمون هذه الحجرة، على أساس أنها كرسي الحكم لمحمد(ﷺ)، وقبل سنوات قليلة مضت، قدم نبي مزيف من المسلمين إلى القدس، قدّره الناس جميعاً واحترموه على أنه واحد من أولياء الله الصالحين، ودعا هذا الرجل في أحد الأيام جميع سكان المدينة إلى هذا المكان، قائلاً بأنه سوف يظهر لهم بعض الآيات، وسيتحدث إليهم، ويريهم طريقة الحكم في الدنيا، وذلك وفقاً للطريقة التي سيتعامل بها محمد(ﷺ) مع المسلمين في يوم الحساب الأخير.

وعندما كانوا جميعاً وقوفاً على جانب الرابية، لرؤية وسماع شكل الحساب، صعد ابن الشيطان هذا إلى الحجرة بوساطة سلم، وجلس عليها، جاعلاً ظهره نحو السور، ووجهه نحو الناس الذين وقفوا في الأسفل، وبدأ يتنبأ لهم، وحدث أنه وهو يتحدث إليهم بدأ يتحرك إلى هنا وهناك أكثر فأكثر، وبما أنه لم يلاحظ انحدار الحجرة، فجأة، مال على واحد من جنبيه، وسقط نحو الأسفل، فاندقت عنقه، وتمزق جسده إلى مزق، حيث شعر الناس التافهين بالخزي، وعادوا إلى المدينة، وذهب

كل إنسان إلى بيته، وهكذا أراهم النبي المزيف على الرغم مما نواه، الحقيقة، لكن ليس بكلماته بل بأفعاله، وهنا يتفق المسلمون معنا، بأنه سوف يكون هناك حساب في يوم القيامة، لكن بالنسبة لمكان الحساب، هم على خلاف، ذلك أن المسلمين الذين يسكنون في القدس، وفي اليهودية، وفلسطين، يقولون مثلما نحن نقول، بأن جميع الأمم سوف يجري جمعها في وادي شعفاط، وهم يضعون هناك ثلاثة قضاة هم: الله، والمسيح،، ومحمد(ﷺ)، فالله سوف يجلس فوق أعلى هيكل الرب، ويجلس المسيح على قمة جبل الزيتون، أما محمد(ﷺ) الذي سوف يكون مستشاراً لهما معاً، فسوف يجلس على الحجرة المتقدمة الذكر.

غير أن المسلمين الذين يسكنون في سورية، وفي بلاد الرافدين، وكبدوكية فيقولون بأن الحساب سوف يكون في دمشق، فوق قمم أبراج هناك، ويقول المسلمون العرب بأن ذلك سوف يكون في مكة حيث يوجد ضريح محمد (ﷺ)، أما المسلمون في مصر وليبيا فيقولون بأن ذلك سوف يكون في القاهرة، ويقول آخرون، لابل إن ذلك سوف يكون في القسطنطينية، وهكذا يخترع كل إنسان الذي يرضيه شخصياً، وبذلك يقدمون على حماقات لانهاية لها.

ووقفنا تحت الحجرة المتقدمة الذكر، وضحكنا نحو حماقة.... النبي المزيف، ثم نزلنا من الجدار ووصلنا إلى(مقبرة) اليهود الموجودة على منحدر رابية فوق وادي شعفاط، وسخرنا هنا من اليهودي الذي كان دليلنا، وأخبرناه بأن اليهود كانوا عقلاء بوضعهم مقبرتهم في موضع الحساب، حتى يمكنهم الانبعاث من دون أن يتعبوا من الارتحال إلى هنا، حتى تتم ادانتهم بشكل أبدي.

ونزلنا من هذه المقبرة إلى الطريق العام، الذي عليه صعدنا إلى جبل صهيون حيث أماكننا، وعندما دخلنا إلى موضع إقامة السادة الحجاج، دعاني السادة الحجاج مع اثنين من الآباء الفرنسيسكان، واثنين من

اليهـود، وواحـد مسلم، ومملوك واحـد، لتناول العشـاء معهم، وتناولنا العشـاء بسرور مـع بعضنا مع أننا كنا ذوي عقـائـد مختلفـة وعـادات متنوعـة، وإنه بسبـب التحـادث والاجتماع مع غير المسيحيين، الانسـان مرغم على الحصول على إذن من السيد البـابا عندما يرغب بالقيام بالحج إلى القدس.

وفي اليـوم الخامـس، الذي كـان يوم العيـد المجيـد لأبينا القـديس دومينيك، بطريرك الرهبان المبشرين، وبعد القداس، وكذلك بعد الفراغ من الغداء، جاء Sabathytanco أي كالينوس الرئيس، وأخذ من كل حاج خمس دوقيات، كدفعة على الحسـاب بالنسبة للعقد المبرم، قائلاً إنه ليس لديه مـا يكفي من مـال بين يديه ليبدأ بعمل التحضيرات لأخـذنا عبر الصحراء، وبناء عليه، ولكي لايقول فيها بعد بأننا كنا سبب التأخير الطويل، أعطيناه المال، وأخذ من كـل واحد منا خمس دوقيات، وبعـدما حصل على الذهب، بات أكثر بهجة، ووعـدنا بأنه سوف يستجيب لكل طلب يمكن أن نطلبه منه، إذا كان يمكنه القيام به، ولذلك طلبنا منه أن يتدبر أخذنـا إلى مكان ميلاد مريم العذراء المباركـة، الذي لم نذهب إليه من قبل، فـأجـابنا:« يـاسـادتي الحجـاج، هذه مسألة صعبـة، التي سألتمونيها، لأنكم لايمكنكم الدخول إلى غرفة ميلاد العذراء مريم، إلاّ من خـلال مسجد موقـف لاستخدامـات المسلمين، إليه ليس مسمـوحاً لكم بالدخول، ومادام المسلمون يتولون الحفاظ عليه، لايمكنني التجرؤ على أخـذكم إلى هناك بأي شرط مـن الشروط، ولذلك عليكم الانتظار حتى المسـاء، فـوقتهـا سـوف أرسل ابني Abre إليكم، وهو سـوف يقـودكم من خلال ممرات سرية إلى المكـان، وأنا سوف أتدبر دخـولكم إليـه، وفي الوقت نفسـه سوف أبقـى أنا شخصياً مع أصحـاب السيـادة الحكام، أنتظر فـرصـة لتأخيرهم حتى لايمكنهم رؤيتكم تزورون الذي تنوون زيارته».

وما أن قال هذا حتى تركنا، وعندما جاء المساء، انتظرنا حتى غياب الشمس تقريباً، ظانين بأن الرجل قد خدعنا، لكن فجأة جاء ابنه Abre الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، جاء إلينا على جبل صهيون مع واحد من الخدم، واقتادنا خلال أزقة سرية في القدس، إلى باب إفرايم، الذي هو باب اسطفان، ووصلنا إلى الكنيسة التي هي الآن Mameria، وبعدما جرى فتحها، دخلنا إلى المسجد، وذهبنا من الكنيسة إلى الرواق، ويوجد إلى جانب الكنيسة نافذة فوق الأرض، مثل النوافذ العائدة إلى الغرف التي فيها عمل منسوج، أو مثل نوافذ السقوف التي خلالها يدخل النور والهواء، والطريق من خلال هذه النافذة إلى موضع ميلاد العذراء المباركة، لأن المسلمين قد أغلقوا باب الكهف الذي استخدم ليكون كنيسة، لأنهم لايعبأون مطلقاً حول هذا المكان، وبناء عليه قام واحد من الحجاج بوضع قدميه خلال هذه النافذة، وترك نفسه يسقط إلى القبو، ووقف بعد ذلك تحت النافذة، وعمل بمثابة سلم لكل واحد من الآخرين، لأنه وضع يديه أمام الجدار، وكان على كل من رغب بالنزول، أن يضع أولاً قدميه فوق يدي الرجل، ثم يضع إحدى قدميه فوق رأسه أو كتفيه، ومن فوق كتفيه كان يقفز إلى الأرض، وهكذا نزلنا جميعاً إلى ذلك المكان، فوق الحاج، الذي كان فارساً من أسرة نبيلة، وأشعلنا شموعاً، لأن المكان كان مظلماً، وشرعنا نطوف فيه، ووصلنا إلى كهف، قيل فيه جرى أولاً دفن واكيم وحنة أبوي العذراء المباركة، وذهبنا من هناك إلى بيعة أخرى تحت الأرض كانت أكبر، وكانت فيما مضى مطلية بشكل جميل، ففيها من المعتقد بأن العذراء المباركة قد ولدت، وهنا بدأنا بأصوات مشرقة نغني الترانيم من أجل ولادة العذراء المباركة، وهي الترانيم المحددة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وقبلنا الأرض وفق طرائق الحجاج.

وهذا المكان قائم تحت سدة الكنيسة، وكان فيه الفراش الذي حملت عليه حنة بمريم العذراء المباركة، وذلك مثلما موضع ميلاد المسيح موجود تحت سدة الكنيسة في بيت لحم، وفي هذا دحض لما ورد في القرآن، الذي قال بأن العذراء مريم قد ولدت في مصر، وأنها كانت ابنة مريم، أخت هرون[كذا]، وهو ما كنت قد تحدثت عنه من قبل، وهكذا بعدما فرغنا من رؤية المكان، تمكن واحد من الحجاج بمساعدة الآخرين من الصعود من خلال النافذة إلى الرواق، ومد ذراعيه نحو الأسفل، وشد كل واحد ورفعه إليه، واحداً بعد الآخر، وسرنا حول الرواق، ورأينا القلايات في كل من الأعلى والأسفل، التي عملت بشكل ممتاز، لأن هذا المكان كان في أيام الصليبيين ديراً للراهبات، من طائفة القديس بينت.

ودخلنا إلى الكنيسة، التي هي مسجد الآن، وتفحصناها عن قرب، وقد لاحظنا بأن هذه الكنيسة قد كانت فيما مضى جميلة، ومزينة، لأن الجدران كانت مرسومة، غير أن المسلمين أفسدوا الصور بتغطيتهم بطلاء أبيض، وحدث أن الطلاء الأبيض قد وقع في كثير من الأماكن، وبذلك من الممكن رؤية الرسوم المسيحية ثانية، والذي كان مرسوماً حكاية الحمل بمريم العذراء المباركة، وولادتها، وكيف أن واكيم قد طرد من الهيكل بسبب أن زوجته كانت عاقراً، وكيف أنه أقام بالصحراء مع رعاته، وكيف ظهر الملاك له هناك، وكيف أنه اندفع تحت الباب الذهبي إلى مابين ذراعي زوجته، وكيف حملت حنة بمريم.

وكنت قد قرأت في واحد من كتب الحج، كيف أن المسلمين شرحوا ماجاء بهذه الرسوم، على أنها تشير لمحمدهم(ﷺ)، وأنه جرت العادة أن كانت هناك امرأة عجوز سكنت قرب هذا المسجد الاسلامي، وكانت تخبر الناس، وهي تسكب دموعها بغزارة (٢٣٠—ظ) بأن هذه الصور تحكي حكاية محمد(ﷺ) في الجنة، مضفية معاني جسدية عليهم جميعاً،

وعندما رأينا هذه المشاهد كلها خرجنا من المسجد، وكنا منزعجين جداً، أن نرى كنيسة بهذا الجمال، وديراً بهذه الشهرة، فوق بقعة في غاية القداسة، قد صار ملكاً للمسلمين.

وقائم في مواجهة الكنيسة شجرة كبيرة، وقديمة جداً، قد قيل بأنها زرعت من قبل العذراء مريم المباركة، عندما كانت ماتزال طفلة، تحت رعاية والديها، اللذان من المعتقد أنهما سكنا فوق هذه البقعة، لأنه مع أن واكيم وحنة قد عاشا لسنوات طويلة في الناصرة، إنها عندما اقترب وقت الحمل بالعذراء وولادتها، جرى تحريضهما من قبل الروح القدس إلى الانتقال من الجليل إلى اليهودية ومن ثم إلى القدس، حتى يتمكنا من إنهاء أيامهما هناك في عبادة الرب، على مقربة من هيكل الرب، غير عارفين بالسر الرباني العظيم الذي أبقاهما من دون أولاد، وعندما قدما من الناصرة إلى القدس، اشتريا بيتاً على مقربة من الهيكل، فوق بركة الضأن، وفيه جرى الحمل بمريم العذراء المباركة، وفيه ولدت، فهذا ماذكره يوحنا الدمشقي وشهد به بقوله:« ولدت العذراء مريم في بيت واكيم، الذي اسمه بيت الضأن، لأنه كان على مقربة من بركة الضأن»، ومع مرور الأيام، بنى المسيحيون كنيسة فوق موقع ذلك البيت المقدس، وبهذه الكنيسة جرى الحاق دير للراهبات من طائفة القديس بينت، اللائي كن سيدات ثريات جداً، وبقي الحال هكذا حتى نهاية سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، عندما جرى الاستيلاء على المدينة من قبل المسلمين، وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة عملوا هناك بالدير أعمالاً جديرة بعدم التذكر مطلقاً، هذا وذكر بعضهم بأن ذلك قد حدث في مكان آخر، أي في دير كليرز Clares



وفي اليوم السادس، الذي كان يوم تغيير الرب لشكله، التقينا على جبل صهيون في الصباح، وذهب معنا نصف رهبان جبل صهيون إلى

جبل الزيتون، وكنيسة صعود الرب مع كؤوس القربان وأشياء أخرى محتاج إليها، وغنينا هناك بشكل مهيب قداس تغيير شكل الرب، وكأننا كنا على جبل الطور، وكان هناك عدد كبير من المسيحيين الشرقيين[٢٣١] حضوراً في قداساتنا، لأنهم يعدون يوم تغيير شكل الرب بين أعيادهم الأكثر مهابة، ولهذا السبب يكرسون جميع كنائسهم تقريباً على شرف القديسة صوفيا، أي على تغيير شكل الرب، ومثلما نقوم نحن فنرسم في كنائسنا الصلب ويوم الحساب الأخير، نجد أن الرسوم الرئيسية في الكنائس الشرقية تتعلق بتغيير شكل الرب مع موسى والياس، وثلاثة رسل متمددين على الأرض.

وبعدما فرغنا من قداساتنا، مشينا حول الكنيسة، وتسلقنا نحو قمتها بقدر مااستطعنا لمشاهدة المنطقة من حولها، لأنه منها يستطيع الانسان أن يرى بعيداً حتى البحر الميت وبالطول والعرض الأرض المقدسة، ويقوم في الكنيسة نفسها أعمدة رخامية مصقولة، بينها واحد يحتضنه المسيحيون الشرقيون بأذرعتهم، وهم يضحكون لبعض الوقت، ويحاول كل واحد منهم أن يلمس باصبع يده الأولى اصبع اليد الثانية، ومالم يمتلك الانسان اصبعين طويلين، لايمكنه أن يلامس بين يديه أثناء احتضانه للعمود، ويعتقد الشرقيون بشكل خرافي أن من يستطيع فعل ذلك سوف يكون أكثر حظاً من الآخرين، وأن ذلك علامة على شيء جيد جداً، ولقد وقفت في ذلك المكان لوقت لطويل أراقب فيه حماقاتهم، ولعبنا بعدهم نحن الغربيون اللعبة نفسها على سبيل المزاح، حيث قسنا إطار العمود، وقد كنت قادراً على وصل رأسي اصبعي الطويلين مع عملية ضم قوية وضغط، هذا وسلف لي أن قدمت وصفاً لهذه الكنيسة في ص٦١٣.

وقمنا بعد هذا بجولة حول الجبل المقدس، وزرنا الأماكن المقدسة، ثم دخلنا إلى المدينة المقدسة من باب القديس اسطفان، وصعدنا لنقبل

بيت بيـلايطوس، ولما علمنا بأن صـاحـب البيت ليس في المدينة، قـرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول من قبل ابنتيـه، وزرنا مواضع استشهاد المسيح، ولو كان صاحب البيت موجوداً ماكان ليسمح لنا بأي حال من الأحـوال بالدخول، ومـاكان ليقنع بالسماح لنا لابالالتماسـات أو بالمال، وعلى كل حـال، ظهرت ابنتـاه الجيـدتان لنا، واقتـاداتنا إلى المكان الذي يعتقد بأن الـرب قد جلد فيه، وكـان هذا المكان بيعة مستـديرة مقنطرة، إلى جانبها هناك طريق نحو الجزء الأعلى من البيت، غير أنهم تركوا هذا المكان المقـــدس غير نظيف،و بدون احترام، لأن من المعتقـــد أنه المكان الذي تلقى فيه جميع أوسـاخ البيت، وعلى الرغم من هذه الأحوال نزلنا إلى مـابين الأوساخ، وقـدمنا صلواتنا، وحصلنا على غفـرانات مطلقـة، لكنني لاأعرف فيما إذا كـان الرب قد توج في المكان نفســه الذي صلب فيه، ويبـدو من انجيلي متى ومرقص أنه جلـد في مكان عام في الخارج، غير أنه توّج في القـاعة في الداخل، لكن في انجيل يوحنا:٩، كـان الجلد والتتـويج معـا، ومن الصعب معـرفـة الحقيقـة حـول هذا بسبب هدم البيـوت واعـادة عمارتها، ولذلك مـن المستحيل التعـرف على الأمـاكن، وحول هذا البيت انظر ماتقدم في ص٥٩٩.

ولقـد دخلت إلى هناك مـرتين، ومن المعتقـد أنه شيء عظيم بالنسبـة للحاج أن يكون في المكان المتقـدم ذكره، ليس مرة واحـدة بل ألف مرة إن استطاع، وعندمـا كنا خارجين أعطينا الفتاتين بعـض القطع الفضية، وقد تسلمتا ذلك مع شكر عظيم، وأخبرتانا —من خلال المترجم— أنه مـادام والدهما بعيـــداً [٢٣٢] سـوف تكونان على استعـــداد للسماح لنا بالدخول إلى البيت، فقـد كان أباً قاسيـاً نحو ابنتيه، وكـذلك نحو جميع الشعب المسيحي، الذين كان لايتحمل النظر إليهم طويلاً، ولهذا السبب كان المسيحيون متعاطفين مع ابنتيه، ولأن الرجل كـان قاسياً نحو ابنتيه، كـانتـا متعـاطفتين معنا، وسمحتـا للمسيحيين بالدخـول إلى البيت على

الرغم من عـدم مـوافقة أبيهما، وكـانتـا ابنتين لهما مظهر حسـن، وكانتـا طويلتين، وعندما دخلنـا، وضعتا جانبـا حجابيهما وتحدثتـا إلينا بملامح مبتسمة، الأمر الذي لاتتجرآن على فعله مع المسلمين.

الحج الممتاز للراهب فيلكس فابرى

في الأماكن التالية (جبل صهيون)

في اليـوم السـابع، تلوت قبل إشراق الشمس صلواتي الصبـاحيـة، وكنت واقفـاً فـوق الممشى العلوي لـدير رهبـان جبل صهيـون عندمـا أشرقت الشمـس، ولدى تحديقـي بوادي جهنم تملكنـي شـوق في أن أذهب في ذلك الصباح وأنزل إلى ذلـك الوادي، وأن أتابع السير فيه إلى حد أكون فيه غير قادر على رؤية جبل صهيون، وأن استهدف جب عين روجل، وحجـر الـزاحفـة، وهما قـد ورد ذكـرهما في سفـر الملوك الأول:١/ ٩، وأن أرى مكاني: توف، وتوفل، اللذان ذكرا في سفر إرميا: ٧/ ٣١—٣٢، وخـلال جميع الاصحاح:١٩من سفـر إرميا نفسـه، وهذا المكان هو وادي بنـي هنوم، وهو أيضـاً يعـرف بـاسم وادي هنون، أو وادي يهنون أو جهنم (يشـوع: ١٨و٤، واسـداراس:١)، وذلك ليكون بامكاني متـابعـة السير نزولاً من هناك في الـوادي، حتى أتمكن من رؤية هل جـدول قدرون فيـه ميـاه جـارية، في الأرض المنخفضة، كما يعتقـد كثيرون أن فيه، والحقيقة حول ذلك سوف أعرضها فيما يلي، وكنت آمل بعد هذا بتسلق جبل العدوان، الذي تصل حوافه حتى جيهنا، وقد قرأنا عن هذا الجبل في سفر الملوك الأول:١١/ ٧، ولقـد استهدفت رؤية هذه الأشياء وتفحصها واستخلاص النتائج لنفسي.

ولذلك غـادرت المكان الذي كنت واقفـاً فيـه، لكي أذهب إلى الأب المسؤول، لألتمس منه اعطائي واحـداً من الرهبـان ليكون مـرافقـاً لي، حتى أتمكن بصحبتـه من رؤية الأمـاكن المتقدمـة الذكـر، لكنني لم أتجرأ

على إيقاظ ذلك الرجل المحترم، الذي كان مايزال نائماً، ولذلك شجعت نفسي، وبدأت هذه الرحلة الطويلة وحيداً، لأن الوقت كان مايزال باكراً، وكنت أعرف أن المسلمين لاينهضون من فرشهم قبل إشراق الشمس، ونزلت من جبل صهيون، ودخلت إلى حديقة الملك، الملحقة ببلاط الملك، التي منها هرب الملك صدقيا وجميع رجاله المقاتلين، من وجه الآشوريين، كما قرأنا سفر الملوك الثاني: ٢٥/ ٤، ولقد وجدت في هذه الحديقة أروع أنواع التين الناضج، حيث تناولت طعام افطاري، وتابعت الأكل حتى لم يعد بامكاني الأكل أكثر.

وبعد أمد نزلت من حديقة الملك إلى بركة استحمام سلوان، ثم إلى الصدع في الصخر الذي تنبع منه مياه سلوان، ودخلت هنا إلى الداخل وشربت من نبع المياه المقدسة، وغسلت عينيّ ووجهي، وأنا لم أر من قبل مياه هذا النبع تتدفق بمثل تلك الغزارة التي شهدتها تلك الساعة، لأن ذلك النبع لايتدفق دوماً بالمياه، وليس بالحجم نفسه أيضاً، حسبما ذكرت من قبل في ص ٦٥٤، وبعدما أنعشت نفسي، وحصلت على غفرانات مطلقة(++) عند هذا الماء المقدس، تابعت سيري من مياه هذا النبع، ووصلت بنزولي إلى قعر الوادي، ثم إلى جدول قدرون، وهناك لم أر انسانا، وكانت الشمس قد أخذت تشرق، وأشعتها صارت بادية على قمم الجبال، إنما حيث كنت كانت ماتزال الدنيا شبه مظلمة، وندى الصباح مايزال يتساقط، ونزلت إلى وادي جهنم، وسرت مسرعاً على طول قعر الجدول الشديد الوعورة، وذلك إلى المكان الذي يستدير فيه الوادي، حيث لم يعد بإمكاني رؤية جبل صهيون، أو جبل الهيكل، وعندما غدت هذه الأماكن بعيدة عن ناظري، وقفت دونما حراك، وتفحصت أرض مجرى الجدول، فوجدتها جافة مثل الأماكن الأخرى العالية في القدس، كما أنني لم أستطع أن أشهد بأي شكل من الأشكال، كيف يمكن أن يوجد هناك مجرى ماء تحت الأرض، وذلك في واد

عميق جداً، ومليء بالصخور.

والذي حـركني للقيـام بعمليـة الفحص هذه، هو قـراءتي لوصف للأرض المقدسة، فيـه قرأت بأن جدول قدرون كان نهراً متـدفقاً بالمياه، إنما بسبب الكثير مما تعرضت له المدينة المقـدسة من تهديم، حيث رميت خرائبها وأسـوارها في الوادي، فإن مجرى هذا النهر قد أغلق، لكن نظراً لصحة المثل الذي يقـول: مامن انسان يمكنه ايقاف جـدول صغير، فقد قـالوا بأن النهر نفسـه، الذين يسمـونه جـدولاً، مايزال متملكاً لطبيعتـه ومجراه غير المتـوقف عن التـدفق تحت الخرائب، حسبما تقـدم القـول في ص ٥٨٧، وفي صفحـات أخرى كثيرة تلت بعـد ذلك حتى ص ٦٤٧، غير أنني لاأستطيع الآن أن أرى كيـف يمكن أن يكون هذا صحيحـاً، لأنني كنت بعيـداً جـداً تحت خـرائب القـدس، ولم أستطع رؤية نقطة واحدة من الماء الجاري، علاوة على ذلك، سرت في مناسبة أخرى نزولاً في هذا الوادي نفسـه، وصـولاً حتى البحـر الميت، كما سنرى ذلك في صفحة ٩٤٢ المقبلة كلها، ومع ذلك لم أشاهد أية مياه تجرى هناك.

ومن الممكن، على كل حال، أنه كان هناك فيما مضى نهر، وهذا النهر لم يعـد مـوجـوداً الآن، كما وقع لنوميشـوس Numicius، وهو نهر في منطقة اللورين وهو الذي صار مشهوراً من خلال أغنيات مارو Maro وشعـراء لاتين آخـرين، فقد قـالوا في أشعـارهم بأن انيـاس Aeneas التروجاني Trojan قد وقع فيـه، وأنه من مياهه فقط اعتاد القـدماء على صب التقـدمـات أثناء عبـادة الربة فيستـا Vesta، وفي الواقع هذا النهـر غير مـوجـود في هذه الأيام، فقـد تراجع وأخـذ بالجفـاف على مـراحل، فقـد تحول أولاً إلى نبع، وأخيراً النبع نفسه تعـرض للجفـاف وذلك كما جـاء في رسـالة بوكـاشيـوس« حـول الأنهار»، هذا ولايمكن للانسـان أن يستخلص من أقدم الكتـابات المقدسـة، بأن هذا النهر قـد تدفق وجرى فوق مجراه الجاف، بل الذي توفـر هو أنه في أيام الشتاء قد

جـرت بعـض الميـاه فيــه، ونتجت هذه الميـاه عـن الأمطار وعن ذوبان الثلوج، ويكفي ماقلناه عنِ هذا الموضوع.

ثم استـدرت بعد هذا عـائداً إلى القدس..... ومضيـت أسير مسرعاً فـوق المجـرى الجاف حتى وصلت مكاناً بات بـامكاني منه رؤية المدينة المقـدسة، التي يبعث منظرها الجميل روحـاً جديدة من البهجـة، ويطرد الخوف من نفسي، لأننـي قبل قليل عندمــا كنت في الـوادي المنخفض كنت خـائفاً، لأن وادي جهنم مكان مـرعب، لاسيما في الجزء المنخفض منه، لأنه يفتقر إلى ضياء المدينة المقدسة المشرقة عليه من الأعلى، وعندما كنت على طريقـي في وادي جهنم، وصلت إلى المكان الـذي يلتقي فيــه وادي سلوان مع وادي صهيــون، فهنا قــد قيل انوجـد جب روجل، ويقـوم الآن هناك صهـريج كبير وعميـق، لكن من دون بئر، وكـان فيما مضى إلى جـانـب هذا البئر كهـوف، وكـان هناك مكـان للرعي، حيث اعتـاد فيـه الشبـاب على تجريب قـوتهم وعـرضهـا، وكـان هنا صخـرة زوحلت، أي الصخــرة الزاحفــة، لأن الذي كــان بإمكانه جـرّ تلك الصخـرة، كان رجـلاً قـوياً، وهكذا أنا لم أر هناك لاالبئر ولاالصخـرة، والذي رأيته فقط الصهريج مع كثير من الصخور.

وهنا انشغل أدوناي بإقامة حفلة وتآمر لجعل نفسه ملكاً، وهنا كانت أيضـاً الكهـوف وعبـادة الصنم، وأعمال شريرة كثيرة، كـانت تقترف في هذا الـوادي، وادي عنون أو جهنـم، ويطلق على هـذا الوادي والمكـان اسم «جهنم»، وذلك اشتقـاقاً من عنون، الذي كـان فيما مضى مالكهما، وجــرت تـرجمة كلمــة«عنون» بـأن معناها هو« طـريق الموت» أو« بئر الأسى»، ومعنى هذا أن المجرمين سوف يساقون في يوم الحساب الأخير خــلال ذلك الوادي إلى مكان الموت، حسبما تقـــدم في ص٦٤٧، وفي الحقيقة، تبعث جميع أسماء ذلك الوادي الرعب في العقل، لأن اسمه(١) عنون أي طـريق الموت، و(٢) جهنم، أي وادي الأسـى ، و(٣) هنون،

أي وادي القتل، و(٤)يهنم، أي أعماق الموت، و(٥) توف، أي عقوبة الحمقى، و(٦) توفت، أي عقوبة الحزن البعيدة المدى، و(٧) قدرون، أي الألم بدون فائدة، و(٨) شعله Chela، أي نار الرب، و(٩) كريناروس Chrinarus أي نار الحساب الملتهمة، وبالإضافة إلى هذه الأسماء، أطلق على هذا الوادي اسم وادي القتل(إرميا:١٩)، ووادي الذبح(إرميا:٧).

ومن الممكن من الإصحاحين المتقدم ذكرهما رؤية كم كان هذا الوادي مكروهاً وملعوناً، وكذلك في الاصحاح :٣٢ من سفر إرميا أيضاً، وكذلك ماتقدمت كتابته في ص٦٤٧، ووردت في الكتابات المقدسة اشارات متكررة لأماكن توف المقدسة، في وادي عنون، التي لابد من فهمها أنها عنت أنه في هذا الوادي العميق قامت مذابح عالية للأوثان، وهذا الوادي والجبل قد وصما من قبل يشوع ذلك الملك الأعظم غيرة، الذي ألقى عليه الحرمان، وينال هذا الحرمان الذين يدخلون إليه، وقام بقتل جميع الكهنة في الوادي، كما جاء الخبر في سفر الملوك الثاني:٢٣، لأنه مثلما كان وادي شعفاط مقدساً ومباركاً مع جبله، الذي هو جبل الزيتون، كذلك فإن وادي عنون مدنس وملعون مع جبله، الذي هو جبل العدوان، ولذلك فإنه من هذا الوادي نال اسمه، الذي هو جهنم، ليشير إلى وادي العذاب المستمر في الجحيم.

جبل العدوان للرب والصنم مولوك

بعدما فرغت من مشاهدة الوادي المتقدم الذكر، استدرت بنفسي نحو جانبه الشرقي، عند سفح جبل العدوان، وسرت نحو منحدراته ومن ثم نحو الجبل نفسه، الذي هو أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، الذي يقوم على كتفه، عند منحدراته الجنونيه، ووجدت على القمة هناك بيتاً كبيراً، لكنه كان فارغاً، الأمر الذي كنت نحوه راضياً تماماً، لأنه كان لن يرحب بي كضيف، من قبل مسلمين يسكنون هناك فيه، وكان سليمان

قـد أقـام على هذا الجبل مبنيين مـدنسين هما: هيكل مـولوك والبيت الخاص بمحظيـاتـه، وبذلك أغضب الرب كثيراً، ولذلك عـرف الجبل باسم جبل العدوان، حسبما هو موجود في سفر الملوك الأول:١١/ ٧.

وجـرت عبادة الوثن مـولوك بطقوس قبيحـة جداً، ولذلك حـرمت تحريماً تاماً(اللاويون:٢/ ٢) تقـديم القرابين إليـه والتضحية له، ولم يقتنع سليمان بهذا ولم يرض به، فقـام تحت وطأة تأثير امـرأته، فـأقـام هيكلاً لمولوك على ذلك الجبل، وجلب الناس لعبـادته، ودفع الأمـوال إلى كهنة هذا الوثن ، وتضمنت طقـوس عبـادة هذا الوثن قتل الأطفـال، وكـان مولوك تمثـالاً كبيراً لانسان، معمولاً من النحاس، ومفـرغاً من الداخل، وشمل الافراغ جميع أعضـائه، ووقف هذا الوثن فـوق عمود في وسط الهيكل ماداً يديه وذراعيه، مثل أم حنون، التي تمدّ ذراعيها لأخذ طفلها، لأن ذراعي الوثن كانا معمولين وفق طريقة يمكن لطفل أن يرقد عليهما وكأنه بين ذراعي أمـه، وفي أيام التضحيـة، وعنـدمـا كـان واحـد من الأطفال يقـدم هناك قرباناً، وقتهـا اعتاد الكهنة على وضع فحم يحترق في داخل جسم الوثن، ويجعلونه يتوهج كالنار، ثم كـانوا يأخذون طفلاً ذا صحة جيـدة وبريئاً من أيدي والديه، اللذان كانا قد جلبـاه للتضحية به، ويضعـــونه على ذراعي الـوثن، ولكي لاينـزعج أبوي الطفـل مع الأصدقاء الذين وقفوا هناك، إلى أبعد الحدود بسبب صراخ الطفل، كان الكهنة يقفون متماسكين قرب الوثن، حيث كانوا يصدرون أصواتاً عالية وضجة بالطبول، والكوسات والأبواق، وبذلك لايستطيع أبوي الطفل، الذي كـان يحتضر، سماع صوته، ويتـابعـون العمل بهذه الأدوات، حتى يكون الطفل المحتضن بين ذراعي الوثن قد هلك احتراقاً.

وبعـد احتراق الطفل، يقـوم الكهنة، وجميـع الحضـور أثناء عمليـة التضحية بتقديم التهنئة للوالدين بملامح علاها السرور والبهجة، لأنهما كـانا جديريـن بأخذ ولديهما ليكون بصحبـة الأرباب، ومنذ ذلك اليـوم

كـان الوثنيـون ينظرون نظرة احترام إلى جميع تلك الأسرة، لأنها ارتقت إلى مكانة النبالـة، وكانوا يعتقدون بأن جميع أقـرباء الطفل الذين ضحي به، سوف يكونون سعـداء في جميع الأيام المقبلة، وقد مـورست طقوس مشابهة بين الأمم التي عبدت ساتورن Saturn، ومن المحتمل أن الرب الذي اسمـه عند الاغـريق سـاتورن هو نفسـه الذي كـان اسمـه عند العبريين مـولوك، لأنه كـان هناك تماثيل نحـاسيـة لسـاتورن بأحجـام مدهشـة حيث كانت أيديها ممتدة حتى الأرض حـولها بشكل أن انساناً إذا ماأرغم على الصعود إلى هذه الأوثان فإنه يسقط في حفرة كبيرة مليئة بالنار، وقـد قرأنا عـن هذا في مصنف كاسـا Casa De Ev.spir — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن.

وكثير من الأوثان، أو بالحري شيـاطين على شكل أوثان، لايمكن أن تهدأ إلاّ بموت الأبرياء، وكـانت عادة ممارسة التضحيـة بالأطفال تجري لكثير من الأسبـاب، وذلك حسبما رأينا في مصنـف كـاسـا— الكتـاب الرابع: الفصلين السابـع والثامن، وتوقفت ممارسـة التضحية البشرية في أيام الامبراطور هدريان، وكـانوا قد اعتـادوا على ممارسة هذه الطقـوس الوحشيـــة جـداً على هذا الجبل، وفي هذا الـوادي، ولاشك أنهم بذلك أغضبـوا الـرب كثيراً، وورد ذكـر وثن مـولـوك في إرميـا: ٢٢/ ٢، وفي عاموس:٥/ ٢٥—٢٦، وفي الأعمال:٧/ ٤٣.

عـلاوة على ذلك، قـــد قيل بأن سليمان قـد بنى على هـذا الجبل بيتـاً لمحظيـاته اللائي كـان عـددهن كبيراً جـداً، وحول ذلك نقـرأ في نشيـد الانشـــــاد:« هن ستـــــون ملكـة، وثمانون سريـة، وعـــــذارى بلا عـدد»(الاصحاح السـادس)، وبناء عليـه إذا ماجـرى تطبيق هذا النص على سليمان بشكل حرفي، من دون أي تأويل باطني، لابد أنه قـد احتاج إلى كثير من البيـــوت لمثل هذا العـــدد الكبير من النســـاء، ولذلك بنى قـلاعـاً وقصـوراً للملكات، وبنى هذا البيت للمحظيـات، في حين أمن

اقـامـة العــذراوات في بيـوت والديه، لكن ابنة فـرعـون، التي— من المعتقد— أنه لها أنشد نشيد الانشـاد، والتي عنها قد قال:« حمامتي، غير الأليفـة، جميلة» قـد سكنت معـه فـوق جبل صهيـون، هذا وإن البيت الذي كـان هناك كان عظيـم القداسـة، لأن تابوت عهـد الرب قد أقـام هناك لبعض الوقت، وقـد بنى هنا بيت ميلو، حسبما ورد الخبر في سفـر الملوك الأول: ٩/ ٢٤، وذلك بقصـــد أن يكون بإمكانه أن يكـون دومـاً على مقربة منه.

وبعـدمـــا فـرغت مـن مشـاهدة هذا المكان، وهـذا الجبل، نزلت إلى الوادي بخطوات سريعة، قـاصداً نحو جبل الزيتـون، ووصلت إلى قعر الوادي إلى جـــانب اهرام شعفـاط، وتفحصـت هذا الهرم بعناية كبرى، ودخلت إليه، وتسلقت إلى داخله من خـلال النافذة، وقـد قال بعضهم بأن هذا الهرم، هو العمود الذي بناه أبشـالوم لنفسه، وذلك حسبما قرأنا في سفر صمـوئيل الثاني:١٨/١٨ قـوله:« وكان أبشـالوم قد أخـذ وأقام لنفسـه وهـو حي النصب الذي في وادي الملك[لأنه قـال ليس لي ابن لأجل تذكير اسمي] ودعـا النصب باسمـه، وهو يدعى يد أبشـالوم إلى هذا اليوم»، لكن يبدو أن هذا غير صحيح، لأننا لم نقرأ في أي مكان بأن وادي شعفاط وجدول قدرون قد عرفا باسم وادي الملك، هذا وقد قال مصنف كتـاب Speculum Historiule، بأن هذا الوادي قـائم على بعد غلوتين عن القدس، ثم إن هذا ليس عموداً، قد بني وعمّر، بل هو كما هو مـرئي بناء قـد نحـت من الصخـر الأصم، في حين كـان عمـود أبشـالوم الحجـري من رخـام مصقـــول قـد أقيم ونصب نحـو الأعلى، وعندما فـرغت من رؤية هذه الأشياء، عبرت جـدول قدرون، ومضيت صـاعداً إلى جبـل صهيون، ووصلت وقت الغـداء، وأنا مليء بالعـرق، واحترق من شدة الحرارة، وعندما سمع الأب المسؤول والرهبان بأنني قد زرت جميع هذه الأماكن، دون التعرض للأذى اعترتهم الدهشة.

وفي اليوم الثامن، وقبل انتشار الضوء، نزلت مع بعض الرهبان إلى كهف آلام المسيح، الذي سلف أن تحدثت عنه في ص٦٠١، وهناك عندما رأيت أنه كان اليوم السادس من الاسبوع، أقمنا هناك قداساً عن آلام الرب، وذهبنا بعد ذلك صاعدين إلى الجليل، هذا ويوجد على الجانب الشمالي من جبل الجليل، جبل مرتفع، كان بعيداً جداً، مسافة أربعة غلوات عن القدس، وكان سليمان قد بنى على هذا الجبل هيكلاً لكموش(الملوك الأول:١١/٧)، الذي كان وثن المآبيين، وفي هذا المكان نفسه، جرى في أيام المكابيين، بناء قلعة حصينة، منها تضررت مدينة القدس كثيراً في أيام حكم الاغريق والرومان.

وتابعنا سيرنا من هناك، ونزلنا من ذلك المكان(الجليل)— إنما بالحقيقة، ليس بشكل مباشر— نحو المدينة، بل نحو الشمال، حيث وصلنا إلى واد جميل وخصب، مزروع بالأشجار، من خلاله يمر الطريق الذي يسير الانسان عليه من القدس إلى الناصرة، ووصلنا ونحن سائرون إلى القرية التي بحثت فيها العذراء المباركة ويوسف عن الطفل يسوع بين أقربائهما ومعارفهما، وعندما وجداه، لم يعودا ثانية إلى القدس، وذلك حسبما جاء عند لوقا:١١/ ٤٥، ووصلنا في هذا الوادي إلى مكان مليء بالخرائب القديمة، حيث قامت فيما مضى قرية عناتا، التي منها جاء النبي أرميا، الذي تقدس، عندما كان في رحم أمه، وقد ولد من سلالة الكهنة، وبدأ بالتنبؤ وهو مايزال طفلاً، وتنبأ، وشاهد بعينيه دمار القدس، وذلك كما حدثنا جيروم في توطئته لإرميا، هذا وأطلق جيروم هذا نفسه في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» على هذه القرية اسم عربات Arabath وقال بأنها كانت قرية كهنة، لأن الكهنة امتلكوا قرى ومزارع في محيط القدس، حيث بناء على ذلك كانت جيسماني، وبيت فاجي، ونوب، وعناتا، كانت قرى كهنة، وهناك تولوا علف المواشي المقدمة لأول الانتاج، أو من أجل العشور، وهناك نبوءة خاصة

لكهنة عناتا، يمكن رؤيتها في إرميا:١١/ ٢١ ,٢٣، وبناء عليه رأينا عناتا على شكل خرائب، لذلك صعب علينا تمييزها، وبعد هذا عدنا راجعين إلى القدس، ودخلنا إليها من خلال باب اسطفان، وسرنا صاعدين إلى جبل صهيون، وقمنا ونحن على طريقنا بتقبيل الأماكن المقدسة في أرجاء المدينة.

وفي اليوم التاسع، الذي كان يوم سبت، وأمسيته أمسية عيد القديس لورانس، ذهبت في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وكان برفقتي بعض الرهبان، ودخلنا إلى وادي شعفاط نؤم كنيسة ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، حيث أقمنا قداساتنا، وفي الحقيقة كان الأب المسؤول يرسل كل سبت بعض الرهبان لإقامة قداس هناك، وغالباً ماأعتاد على الذهاب معهم، وبعد الفراغ من القداسات، صعدنا إلى جبل الزيتون، ونزلنا من طرفه الآخر إلى بيت عنيا، حيث شاهدنا الأماكن المقدسة وقبلناها، ومن ثم عدنا إلى جبل صهيون.

وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا جميع اللوردات والحجاج قد اجتمعوا معا في الدير ينتظرونني، من أجل إعطاء جواب لواحد من المماليك، الذي أمر بمثول جميع الحجاج بحضرته، وذلك من أجل مناقشة بعض المسائل معهم، لأنه قد سُمع في بلاط السيد السلطان في القاهرة، بأن بعض المسيحيين الحجاج من الغرب من الأعيان واللوردات النبلاء، هم في القدس، ولهذا أرسل من مصر هذا المملوك، الذي كان ترجمان المسيحيين في القاهرة، ليعرف من نحن، ومن أين قدمنا، وعلاوة على ذلك، إذا ماكنا من فرنسا، كان بين أوامره، حملنا معتقلين إلى القدس، لأي سبب أنا لاأعرفه، لكنه بعدما عرف من Sa-bathytanco ترجماننا، بأننا لم نقدم من فرنسا، قدم معه إلى جبل صهيون، وأمرنا جميعاً بالمثول بحضرته، وحيانا بطريقة صديقة بكل من اللاتينية والايطالية، وقال لنا:« إذا ماتفضلتم، يمكننا أن نسافر غداً،

وتنزلون معي غداً إلى مصر، عبر الطريق السلطاني العام، وفي عشرة أيام سوف تكونون في القاهرة، حيث منها سوف أرسلكم مع حراسة إلى العربية، أي إلى جبل سيناء، وعندما تعودون من هناك، يمكنكم الإقامة في بيتي، بقدر ماترغبون»، وبهذه الكلمات والوعود الجيدة، التي عملها لنا، بات علينا بشكل مؤكد المغادرة معه، مهما كانت أوضاع خططنا وأحوال حقائبنا، وكنا حتى الآن لم نقم بإعداد أي من الأشياء المحتاجة في هذه الرحلة، وقمنا على كل حال بشكره، لعرضه اللطيف، ورجوناه، أننا عندما نصل، بفضل الرب ونعمته إلى المطرية وحديقة البلسم، على طريقنا من جبل سيناء، أن يتلطف ويقودنا بسرعة من هناك إلى القاهرة، وأن يبعث بنا مباشرة عبر النيل من القاهرة إلى الاسكندرية حتى لانضيع السفن الموجودة في الاسكندرية، والذاهبة إلى البندقية.

ووعدنا باخلاص بأنه سوف يفعل هذا كله، الأمر الذي أفرحنا كثيراً، علاوة على ذلك بقي علينا الحديث عن هذا الرجل، وعن مكانته، فلقد كان اسمه Tanquardinus،وقد جاء إلينا بثوب الحمل، لكنه كان في الواقع ذئباً مفترساً، كما سوف نرى فيما بعد، وبناء عليه بعدما عمل هذا الاتفاق معنا، غادر، وذهب عائداً إلى مصر، وبعد الغداء ذهبنا نحن الحجاج مع بعضنا إلى الحمام أو البيت الساخن، حيث استحمينا وغسلنا أنفسنا مع المسلمين، وهذا الحمام الساخن مثل الحمام الموجود في الرملة، الذي سلف الحديث عنه في ص٣٧٦، ودخلنا بعد استحمامنا إلى كنيسة الضريح المقدس.

الدخول الخامس للحجاج إلى كنيسة قيامة ربنا يسوع المسيح وإلى ضريح الرب

في أمسية اليوم العاشر، التي كانت موعد عيد القديس لورانس الشهيد، والأحد الحادي عشر بعد التثليث، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وفق الطريقة التي تقدم ذكرها،

وسهرنا تلك الليلة إلى جانب الضريح المقدس، وقد طفنا حول الأماكن المقدسة، كما فعلنا من قبل، وأقمنا قداسات مابعد منتصف الليل، وغنينا قداساً في ضريح الرب بعد اشراق الشمس، وبعد ذلك أخرجنا المغاربة من الكنيسة، وكان معنا من الرهبان الفرنسيسكان من دير جبل صهيون، بعض الشباب في كنيسة قيامة الرب، وقد رجوت هؤلاء الشباب بالنزول معي إلى وادي شعفاط، لأن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، وكانوا راغبين تماماً بالقيام بذلك، شريطة تقديم الاعتذار عنهم إلى الأب المسؤول لعدم حصولهم على إذن منه، الأمر الذي وعدتهم بفعله، وقد فعلته.

وهكذا سرنا خلال المدينة، ونزلنا إلى شارع الطباخين، حيث اشتريت من الطباخين للرهبان ولنفسي فطائر معمولة بالبيض، وبعض الكعك، وفطائر باللحم، ولحم مشوي، وعناقيد من العنب، وبعض التين، ومضينا مع هذه المؤن ونزلنا إلى الوادي، وعبرنا الجدول إلى مزرعة في جيسماني، وهناك جلسنا في الظل تحت بعض أشجار الزيتون، وتناولنا معا طعام الافطار بسرور، ولم يكن معنا شراب، لذلك مصصنا حبات العنب عوضاً عن الشراب، وكانت حبات العنب على درجة عالية من الحلاوة، وكانت ألوانها سوداء وبيضاء.

وبعدما فرغنا من طعام الافطار، وقبلنا أقرب الأماكن المقدسة، مضينا صاعدين جبل صهيون، وجلسنا لتناول طعام الغداء مع الرهبان، وبعد الغداء جاء السادة النبلاء من الحجاج إلى جبل صهيون، وسألوا الترجمان ورجوه أن يأخذنا إلى بيت لحم، وكانوا قد جمعوا واستأجروا حميراً وسائقين، وقدموا معهم إلينا، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا من القدس مع Sabathytanco المسلم، وعندما وصلنا إلى الرابية، على الطريق إلى جبل جيون Gion ، مقابل جبل صهيون، قابلنا حشد من البداة العرب، كانوا قد سمعوا برحلتنا، ومع أنني لم أعرف من الذي

وشى بنا إليهم، فلقد قاموا بقطع الطريق أمامنا، مالم نقم بدفع خفارة ومالاً لهم، وكانوا قد طلبوا مبلغاً كبيراً من المال، ورفضنا أن ندفع لهم، وبعدما تجادلنا مع بعضنا لبعض الوقت، أرغمونا بالقوة على العودة إلى القدس.

رسالة حول الحج إلى البحر الميت

وبعدما عدنا إلى المدينة المقدسة سألنا الترجمان وكالينوس تزويدنا بحمير وبجواز مرور، حتى نتمكن من النزول إلى البحر الميت لرؤيته، وعندما سمع المسلمان بهذا، ألقيا بكثير من المصاعب الكبيرة في طريق الحجاج، وقدما كثيراً من الأسباب، من أجل اقناعنا للتخلي عن هذا الحج الذي اقترحناه، وكان السبب لاهوتيا بعض الشيء، ذلك أنهما احتجا بأننا قدمنا إلى هنا من بلاد من وراء البحر، حتى نتمكن من رؤية الأماكن المقدسة، التي باركها الرب، والتي قدسها مسيحنا، وليس من أجل رؤية الأماكن غير المقدسة، التي لعنها الرب مثل البحر الميت، الذي، المسلمون أنفسهم، يسمونه الملعون، والذين قالوا عنه بأنه يتوجب كراهيته ومقته من قبل كل مؤمن بالكتابات المقدسة، وأخبرانا بأنه ينبغي أن نكون قانعين برؤيتنا للأردن المبارك.

وكان السبب الثاني لعدم رغبتهم بأخذنا إلى البحر الميت مرتبطاً بالبداة العرب والمدينيين الذين سكنوا في تلك الصحارى، وكانوا يتجولون حول الطريق السلطاني العام من أجل النهب، ومن غير الممكن الدفاع بشكل جيد ضد هجماتهم، مالم يرغموا على الفرار، ويتعرضوا للجراحات بالسيوف والنشاب، لأنهم كانوا غير مسلحين وعراة، هذا ولم يرغب أدلاؤنا بتعريض هؤلاء القوم للأذى من أجل خاطرنا، وقالوا بأنهم يؤثرون أن نتعرض للنهب على أن يتعرضوا للأذى والجراحة، وفي الحقيقة كان هؤلاء البداة جياعاً إلى أبعد الحدود، وكانوا تعساء، إلى حد أنهم كانوا على استعداد لمهاجمة رجال مسلحين،

مع أنهم كانوا غير مسلحين، ولتعريض حياتهم للخطر من أجل الخبز، وكان السبب الثالث الذي قالوه، هو أنه كان هناك حول شاطىء ذلك البحر كثيراً من الحيوانات المؤذية والسامة، من الأنواع الكبيرة والصغيرة، من أمثال: الأسود، والدببة، والخنازير البرية، والأفاعي، والزواحف، وماشابه ذلك.

وكان السبب الرابع، هو أنهم قالوا، بأن الملك السلطان قد حرّم أخذ أية غرباء إلى هذا البحر، وكان ذلك بسبب وجود الأفعى الأعظم سمية، وفي الوقت نفسه الأعظم قدراً ونبالة، وأعني بذلك التر Tyr، وذلك خشية أن يحدث وتمسك من قبل الغرباء، ويجري حملها إلى خارج البلاد، لأن هذه الأفعى غير موجودة في أي بلد من بلدان العالم، إلاّ فقط على شواطىء البحر الميت، ولذلك حظر السلطان سكان تلك المنطقة ومنعهم من امساك هذه الأفاعي، وبيعهم لأي انسان، وجلبهم فقط إليه في مصر، ومن فعل غير ذلك نال عقوبة الاعدام، وحدث على كل حال، أن خرق فقراء الناس هذا الحظر أحياناً وباعوا هذه الأفاعي إلى تجار مسيحيين، في دمشق وبيروت، وكذلك في الاسكندرية والقاهرة، ومن هذه الأفاعي يجري صنع أقوى العقاقير وأغلاها، وهو الترياق، وليس هناك أي ترياق صحيح إلاّ المستخرج من هذه الأفاعي، ومنها نال هذا العقار اسمه، وقد قيل بأن شكل هذه الأفاعي هو كما يلي: طولها حوالي الشبر ونصف الشبر، وغلظها يقارب غلظ اصبع ابهام الانسان، ولونها هو أصفر مع شيء من التمازج بالأحمر، وتولد بالطبيعة عمياء وتبقى كذلك، وهي دوماً عدوانية بشكل مخيف، تنقض بسرعة رهيبة مع فحيح غاضب، ولايعرف دواء ضد عضتها، إلاّ قطع العضو الذي تعرض للعض وتسمم مباشرة، وإلاّ فإن الجسد كله سيصبح بلاشك ملتهباً، ومتورماً، ومتفجراً وتهاجم هذه الأفعى جميع المخلوقات، ولذلك يكون هناك حيوانات كبيرة ميتة عند شاطىء البحر

الميت بسبب تسممها من قبل التر.

وعندما تكون هذه الأفعى غاضبة، تمدّ نحو الأمام لسانها الملتهب، وتستدير بسرعة هائلة، ويغدو جسدها وهي مغضبة كله ملتهباً مثل حديدة محماة، ورأسها الصغير الذي هو بالعادة صغير، يتورم حتى يصبح أكبر من جسدها، ولها على وجهها هلب مثل هلب الخنزير البري، وهي إذا عضت فرساً، يصل السم إلى راكبها أيضاً ويموت، ولولا أن خالق الطبيعة قد حرم هذه المخلوقة من عينيها، مامن انسان كان يمكنه الاقتراب منها، كما كان من غير الممكن امساكها بأية طريقة من الطرق، لأن الأفعى ماكرة جداً.

ويتعامل الأطباء والصيادلة مع هذه الأفعى كما يلي في صناعة الترياق: يأخذون أفعى أمسكت وهي حية، ويضعونها في وعاء واسع وعميق، يمكنها أن تركض فيه نحو الأمام ونحو الخلف بحثاً عن طريق للخروج، لكن لايمكنها فعل ذلك، وفي تلك الأثناء، وهي تدور حول الوعاء، محاولة الخروج، يأخذون عصياً وإبراً، بها يلتقطونها، وبذلك يثيرون غضبها إلى أبعد الحدود، وعندما تشتعل غضباً وتتورم حنقاً، يتجمع السم، الذي كان منتشراً في الأحوال العادية في كل جسدها، في رأسها وذنبها، وعندها يقومون بضربة واحدة بسكين أو شفرة بقطع هذين الجزئين معاً، وإذا مااقتصر القطع إما على الرأس أو الذنب، فإن الجزء المتوسط يكون بلا فائدة، وتعلمت هذه المخلوقة بوساطة الطبيعة الاحتفاظ بسمها، وفقط يمكن بفن عظيم استخراج ذلك منها والتغلب عليها، وتباع هذه السموم بأسعار عظيمة، أكبر من أسعار الذهب والحجارة الكريمة.

وقد أودع السيد السلطان، ملك مصر، في خزائنه، السلعتين الخاصتين التاليتين، اللتان تنتجان في ممالكه، وأعني بذلك: البلسم، وأفعى التر، ولذلك لايسمح للحجاج بالدخول إلى بستان البلسم إلاّ

بحذر كبير، كما سنتحدث فيما بعد، كذلك لايسمح لهم بالتجول حول شـواطىء البحر الميت بسبب التر، وبسبب —حمر اليهـود، الذي هو كذلك لايمكن العثور عليه في أي مكان إلا هناك على شـواطىء البحر الميت.

وكان السبب الخامس لمنعنا هو الرائحة البشعة والشريرة الصادرة من ذلك البحر، حيث أن الانسان غير المعتاد عليها، يصاب بالعدوى، ومن ثم يمرض ويموت.

وكـان السبب السادس الذي قـالوه، هو أنه لم يكن هناك شيئاً جميـلاً ليروه، وأننا لن نشاهد شيئاً مـريحاً، بل سوف نبـذل جهداً كبيراً، وننفق أموالاً بدون فائدة، وسنواجه مشاكل مزعجة كثيرة.

ولدى سماع بعض الحجاج بهذه المثبطات ومثبطات أخـرى، انسحبوا وتراجعـوا قـائلين بـأنهم لن ينزلوا إلى هناك، حتى ولـو دفع لهم، لكن آخرين، على الرغم منهم، كانوا متشوقين للذهاب، وهكذا كنا منقسمين للمـرة الثـانيـة إلى فئتين، مثلما حـدث لنا من قبل بشأن قضيـة الحج إلى الجليل والناصرة، الأمر الذي كنا قد أوضحناه من قبل، هذا وقد طالب الشطر الأكبر من الحجاج باقتيـادهم ونزولهم إلى هناك، ورفضوا التخلي عن الفكرة، حتـى ولو اقتضى الأمـر التماس ذلك مـن السيـد جـانم الحاكم، والطلب منه الحصول على إذن وجـواز مرور، ولدى سماع Sa-bathytanco بهذا، أرسل في اليـوم نفسـه إلى حامـدAmeth ، والي بيت لحم، وكان مغربيـاً وشجاعاً ومخلصاً، وكـان حليفاً للبداة، ولم يكن يخاف منهم، وطلب منـه القـدوم في تلك الليلة مـن بيت لحم إلى جبل صهيون في القدس مع أربعة عشر بغـلاً أو حماراً، وأن يأخذ الحجاج إلى البحـر الميت وأن يعـود بهم، مقابل مبلغ من المال يجري الاتفـاق حـوله معـه، وقمنا نحن من جهتنا بإعـداد طعـام وشراب لمدة يومين وليلة واحدة لنحمله معنا أثناء تلك الرحلة.

الحج إلى البحر الميت

وفي اليوم الحادي عشر، وقبل انتشار الضوء، جاء حامد إلى جبل صهيون مع بغال وحمير، وعبيد، وقرعوا على باب الدير، وسألوا عن الحجاج، لكن مامن أحد منهم كان في الدير إلا أنا وحدي، وهكذا ركضت نازلاً في الظلام من صهيون إلى ميلو، إلى بيت الفحل، الذي أقام فيه السادة الحجاج، وهناك قرعت على الباب بحجرة، وأيقظتهم، والذين رغبوا بالذهاب والمشاركة في الحج، قدموا صاعدين معي، وامتطينا دوابنا، ومضينا نازلين من جبل صهيون إلى وادي سلوان، وعندما وصلنا إلى بركة الاستحمام، نزلنا إلى أعماق توف، وجهنم، وسرنا خلال وادي جهنم المرعب، وكان الوقت مايزال مظلماً، علماً بأن الليالي لم تبد لي مظلمة في هذه المناطق من بلاد ماوراء البحر، مثلما في بلادنا، لأنه في هذه البلاد لاتوجد غيوم، ولاضباب، لحجب أنوار النجوم وأشعتها.

وأشرقت الشمس وفي الوقت نفسه تابعنا تقدمنا نحو الأمام دون توقف، خلال واد ضيق، مع صخور منحدرة مطلة من على الطرفين، ولم نتوقف حتى كانت الشمس في كبد السماء، وكان هذا الوادي وعراً جداً، لأنه كان مليئاً بالصخور وبالحجارة، من عليها انجرفت التربة بسبب اندفاع المياه، في أيام الفيضان، ففي تلك الأوقات تندفع المياه، نازلة هناك بقوة تبلغ حداً أنها تقتلع الصخور الكبيرة من أماكنها، ومن ثم تقذف بها خلال جريانها، والنهاية العلوية لهذا الوادي هي وادي شعفاط، وجدول قدرون، هذا ولم أستطع رؤية أي أثر هناك لاستمرار جريان المياه، من جدول قدرون، كما قلت من قبل وبينت.

وعندما كنا نسير منحدرين، ونحن على ظهور دوابنا، وبعدما قطعنا حوالي الميلين ألمانيين، بدأ الوادي يصبح أكثر انحداراً ووعورة، وعندما ضاق هناك، وصلنا إلى دير القديس سابا، الذي كان راعياً للدير، ولقد

جرى استقبالنا باحترام من قبل الرهبان الاغريق، أو الـ Caloyers، ووجدنا في الدير كثيراً من البداة العرب من أهل الصحراء، ومن الفلاحين، ومن قطاع الطرق، ولدى رؤيتنا لهم استولى علينا رعب شديد، وتوجسنا أن نكون قد تعرضنا للخيانة، وشككنا بدليلنا نفسه، المعلم حامد، في أنه قد تآمر ضدنا، وعندما لاحظ هذا جاء مع مقدم هؤلاء اللصوص من البداة العرب، إلى القاعة التي جلبنا إليها، وتعهدا معا إلينا ووعدانا بأن نكون آمنين في أجسادنا وعلى سلعنا وحاجياتنا، إنما إذا قمنا ، وتفضلنا بتقديم ضريبة أو هدية صغيرة لهما، فوقتها سوف يكونا في خدمتنا، وأنهما سوف ينزلان معنا إلى البحر، ومن ثم يتوليان الدفاع عنا.

وبناء عليه أعطيناهما بعض الدراهم، وبتسلم ذلك كانا راضيين، وكنا نحن مطمئنين، وزالت المخاوف من نفوسنا، وأحضرنا نحن الآن جعبنا مع الأشياء التي تزودنا بها في القدس، وقوارير الخمرة، وأكلنا وشربنا، فضلاً عن هذا أعطينا بعض الحلوى إلى دليلنا وإلى البداة العرب، وأحضر الرهبان ماء بارداً لنغسل أقدامنا جميعاً، وللشرب، وبعد تناولنا للطعام وانعاشنا لأنفسنا ذهبنا إلى الكنيسة، حيث صلينا للرب، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، وعلاوة على ذلك ذهبنا إلى ضريح القديس سابا، وصلينا هناك، والذي اعتقده أن هذا الضريح فارغ، لأن جسد هذا القديس، راقد في البندقية، كما ذكرنا من قبل، وبعدما رأينا هذه المشاهد، تمدد السادة الحجاج على الأرض، وناموا، لكنني شخصياً لم أستطع النوم أو الجلوس بلا حراك بأي شكل من الأشكال، بل قمت بالتجول هناك وفي جميع أجزاء الدير، وفي الأسفل في الوادي وفي الأعلى، وتفحصت بكل دقة الكهوف والأكواخ التي كانت عائدة للرهبان القدماء مع اعجاب عظيم، ومع رعب وخوف من السقوط، عندما تسلقت صعوداً ونزولاً فوق الصخور والجروف،

وخرائب الأبنية القديمة.

علاوة على ذلك تعرضت إلى الخطر التالي أثناء تجولي الافرادي: فقد وصلت إلى ممر ضيق ملاصق لقلاية القديس سابا، حيث يقوم فوق الصخرة جدار على الطرف الأول، لكن لايوجد على الطرف الآخر أي شيء سوى منحدر مفتوح مرعب، أو جرف معلق، وكان هناك خلال هذا الممر مايسمح لانسان واحد بالمرور فقط في وقت واحد، ولاأعني بهذا مرور انسان من هذا الاتجاه وآخر من اتجاه مقابل، بل انسان واحد فقط، عليه أن يكون حذراً خشية السقوط نحو الأسفل، وعندما كنت ماراً خلال هذا المكان، التقيت بمسيحي شرقي، لعله كان خادماً لذلك الدير، ولدى رؤية هذا الرجل لي تقدم نحوي، وبعدما خطا بعض الخطوات نحو الخلف، وعندما رآني خائفاً كثيراً، بدأ بالمزاح معي، وتظاهر بأنه مقبل على اسقاطي بالهوة.

وعندما رجوته بالاشارات بقدر مااستطعت، بأن يتركني أمر بسلام، رفض ذلك، وأشار لي بأنه سوف يلقي بي، ما لم أعطه بعض المال، ولدى سماعي ذلك، فتحت حافظة نقودي وأعطيته مندوساً واحداً، ولدى تسلمه له تركني أمر، ومن تلك الساعة فصاعداً صرت أمقت مرافقة مسيحيين من هذا النوع، أكثر من كراهيتي مرافقة المسلمين أو البداة العرب، وصرت أثق بهم أقل من سواهم، ومع أنه كان ربما لن يرميني من فوق الجرف، حتى لو لم أعطه شيئاً، لقد كان على الرغم من ذلك شريراً ليلعب مع انسان هو لم يره من قبل، في مكان بمثل هذه الخطورة، وأن يأخذ مالي ليتركني بسلام، ولو أن بدوياً قابلني وفعل بي مثل ذلك، لكنت مسروراً تجاه لعبه، ولعددته غير مسيحي جيد، لكنني أعتقد أن هذا التصرف غير لائق بالصدور عن مسيحي نحوي، ولقد حدثت بالقضية حامد، الذي كان المسؤول عنا، فوجه إليه اللوم بمرارة، وكان غاضباً منه كثيراً، وقد أخبرنا بأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين، هم

أدنى الناس الذين يمكن الوثوق بهم مـن قبل أي انسان، وقـد مكثنا في ذلك الدير حوالي الخمس ساعات، حتى خفت حدة حرارة الشمس.

ملاحظة حول دير الراعي القديس سابا

كان دير الراعي القديس سابـا واحداً من أعجب الأشياء التي رأيتها في جميع رحـلاتي، لكنني غير متأكـد فيما إذا كـان هذا هو دير القـديس سابا، الذي قرأنا عنه في«حياة الآباء»، حيث قرأنا بأن القديس سابا كان لديه دير في سورية، وأنه كان أبا ورئيسـاً فوق ثلاثة عشر ألف راهباً، في حين هذا الدير مـوجود في اليهوديـة، علماً بأن اليهودية نفسهـا هي جزء من سورية، ويقـول الرهبان الذين يسكنون في هذا الدير هذه الأيام بأن القـديس سابا كـان راعي هذا الدير، ومـؤسسه، والأب المشرف عليـه، وكـان لديه دومـا في ديره أربعـة عشر ألفـاً مـن الرهبـان، وهذا عندمـا يسمعه الانسان يصعب عليه تصـديقه، ولكنه عندما يشاهد المكان، فإنه يوافق على أنه وإن كان العـدد مبالغاً فيه، فإن حشداً هائـلاً من الرهبان لابد أنه كان يسكن هناك.

وكان هؤلاء الرهبـان، ومازالوا الآن يتبعـون أحكام القديس باسيل، أي هم اغريق، وهم بذلك مثلهم مثل الرهبـان في دير القديس كاترين، تحت جبل سيناء، ونعجب نحن الرهبـان الغربيـون كثيراً من أين يمكن لمثل هذا الحشد من الرهبـان الحصول على الطعـام واللباس، لكن الذي يشهد عادات، وطعام، وثياب الرهبـان المشارقة، لايتعجب نحو ذلك، ذلك أن طعامنا أكثر وفرة وتنوعاً، وملابسنا طبقات كثيرة، وأعلى نفقة، وبيـوتنا وديرتنا متعددة الأنواع، ومعمـولة بأناقة أكبر، وبسخـاء أعظم، لكن ليـس هناك شيئاً من هـذا القبيل في هـذه الأيام بين الـرهبـان الشرقيين، وصـدقاً أعتقـد أن نفقـات دير واحد فيـه عشرين راهبـاً من الرهبان الغـربيين من الطوائف الكبيرة، هو أعظم من نفقـات واحد من هذه الديرة فيـه أكثر من مائـة من الرهبان الشرقيين، فهم ينفقـون قليلاً

على الأبنية، لأن الـذي لديهم مجرد أكواخ معمولـة من النباتات العـامة، فيهـا لايمكن لانسـان أن يقف دون أن يحني ظهـره، وكنائسهم ليست أكثـر سمواً من أكـواخ الرهبـان، فمثل هذه الأكواخ جـدرانهم من هذه النباتات مغطاة بالطين، وهي فقط أعلى من أكـواخ الرهبان، وفيما يتعلق بملابسهم لايـرى الانسان اي شيء عالي النفقـات، حتى في هذه الأيام، علماً بأن الرهبـان الشرقيين الحديثين قد ابتعـدوا كثيراً عن كمال سلفهم، الذين تجولوا وهم يرتـدون جلود الأغنام وجلود الماعـز، وعليهم أردية منسوجة من سعف النخيل، في حين تحمل كثير منهم حرارة النهار وبرد الليل، وهم عراة لسنوات كثيرة، وليس لهم من مسكن سـوى الكهوف في الصخور، كما أنهم لم يقيموا قط في مكان واحـد، بل تجولوا في جوف القفار، ووضعـوا أنفسهم بعيداً عن جميع البشر، غير عـابئين لابطعامهم ولابلبـاسهم، وفي الحقيقـة إن طعـام وشراب جميع الشرقيين، وبشكل خاص الرهبـان قليل جداً، ويجري احتساء الخمـرة كقاعدة، قليـلا جداً من قبل العلمانيين ولاتُشرب قط من قبل الرهبان، وهكذا فإنهم يعيشون بنفقـات صغيرة، في حين على العكس منهم، يعيش الرهبـان الغـربيـون وسط ترف كبير وانفـاق عظيم، ولـذلك حمل عليهم القـديس جيروم وندد بهم بعنف في رسائله، قـائلاً بأنهم يحشـون أنفسهم بالأطعمة حتى يصبحوا مرضى، وبالنسبة لهذا القول، نحـن الرهبان الغربيون نستحقه، وعندمـا سمع واحـد من المقـدسين من بين الرهبـان الغـربيين بقـول القـديس جيروم هذا، رد بأن القـديس جيروم ندد بقـوله هذا ببعض الرهبـان الشرقيين النهمين، وقصـد بأن قـابليـة الطعـام التي امتلكهـا الغـربيـون بشكل طبيعي، أصبحـت نهماً بين الشرقيين، وذلك حسبما يمكننا قـراءة ذلك في Speculum Historiale— الكتـاب الثـامن عشر، الفصـلان العـاشر والثاني عشر، وقـد علمنا أيضـاً بأن بعضـاً من الرهبـان الغـربيين ذهبـوا مـرة إلى قفـار مصر، من أجل أن يتمكنوا من رؤية الرهبـان الشرقيين، وذهب بعضهم إلى قـلاية رجـل مسن، وبعـد

التوسل والتحريض دعيوا إلى الغداء من قبل الرجل المسن، وعندما جلسوا إلى المائدة، وضع أمام خمسة من الرهبان نصف رغيف، وحزمة من الحشائش كانت تشبه النعنع، وهي مليئة بالأوراق وطعمها مثل العسل، وأكل واحد من الرهبان جميع هذه الوجبة، التي أعدت للخمسة جميعاً، ولم يشعر بالشبع أبداً.

وفي الحقيقة إن تكوين أجساد الشرقيين والغربيين مختلف، مشاهدين أنهم يتأثرون بمؤثرات مختلفة من قبل الأجرام السماوية، ولهذا من المؤكد أن أشياء كثيرة هي بالطبيعة ضرورية للغربيين، غير أنها بالنسبة للشرقيين ترف زائد فيه اقتراف للذنب، وينطبق هذا على الذين يمتلكون بيوتاً جيدة، وقصوراً للإقامة، وكذلك ثياباً، وطعاماً، وشراباً، علاوة على هذا اعتاد الرهبان في الأيام الخالية على فلاحة الأرض، وكانت الثمار الناتجة عن ذلك يُعطى شطر منها لكل انسان ليعمل بها حسبما يريد، وكان يتوفر لديهم نتاج كبير في الشرق، فلا يجدون فقراء لإطعامهم به، ولذلك أرغموا على ارسال القمح إلى بلدان فيما وراء البحار، من أجل اطعام الفقراء في الغرب، ومن هذا واضح أن عدداً كبيراً من الرهبان كان يمكنهم الإقامة مع بعضهم بالمئات وبالآلاف في بعض الأوقات، مثلما هو الحال الآن في دير القديس سابا.

وفي عودة إلى موضوعي، إن ترتيب الدير المتقدم الذكر هو كما يلي: هو قد احتل شطراً طويلاً من وادي جهنم، والوادي هناك عميق وضيق، ومحاط على الطرفين بصخور منحدرة، وعلى هذا فإن الوادي يطوقه بجدار يمتد لمسافة طويلة، وكان هذا الفراغ كله فيما مضى ديراً، والصخور على الطرفين هي كهوف، لكن غير منحوتة، بل معمولة ومفرغة بشكل طبيعي لتكون مساكن مناسبة للرهبان الذين يودون تكريس أنفسهم وايقافها على الصلاة وعلى التأمل وهذه الكهوف مسقوفة من الأعلى بوساطة صخور معلقة وبجروف متقدمة، هذا

وتلطف الخالق، فوجه عمل الطبيعة، بأن جعل هذه الكهوف تمتد بشكل طولاني ومنتظم واحدها بعد الآخر، لتكون على شكل قلايات، ويوجد في الأسفل عند سفح الصخور صف من الكهوف، وفي الأعلى هناك صف آخر فوقهم، كما هناك صف ثالث أعلى أيضا فوق هؤلاء، في حين هناك على الحواف مساكن بنيت بالفن الانساني، على شكل أن الطرف الأول من الوادي يعرض أربعة طوابق من القلايات، ويتم الدخول إلى الصف الأول من القلايات أو الكهوف من قعر الوادي لأنه على المستوى نفسه، وهناك طريق يأخذ نحو الطوابق الأعلى، ويوجد في مواجهة القلايات هناك صخرة مطلة وممتدة في واجهة مداخل الكهوف، على شكل أنه هناك قبل مداخل الأبواب، ممر مفتوح، ومثل هذا موجود في الطابق الذي يعلو ذلك، هذا والكهوف في كل طابق مفصوله، مثل القلايات على أحد جوانب دير من الديرة، وهي ليست مصنعة بعمل الانسان وبراعته، بل بنيت هكذا من قبل الطبيعة.

وفي الأماكن التي لم تسمح الطبيعة بها بعمل غرف كاملة، تمت مساعدتها بالعمل الانساني، ولدى توفر كهفين توفرت فتحة جدارية جزئية بينهما، أوقفت هذه الفتحة وأغلقت بجدار، أو إذا توفر كهف كبير، يقوم اثنان أو ثلاثة من السكان بعمل جدران فاصلة فيما بينهم، وفي الوقت نفسه إذا وجد أحيانا كهف ضيق جرى توسيعه بالنجر في الصخر، وكل واحد من الرهبان لم يتمكن من الحصول على كهف خاص به في الوادي نفسه، قام بنجر كهف لنفسه بالجدار هناك، أو في الصخور فوقه في القمة، ولهذا يوجد حتى هذا اليوم في كل من الوادي في الأسفل، وفوقه، كثيراً من الخرائب من الجدران، وكأنما كانت مدينة هناك، وماتزال بعض القلايات المبنية قائمة، وكذلك العديد من الأكواخ التي بنيت بحجارة جافة، فضلاً عن هذا يبدو أنه كان هناك

فيما مضى أبراجاً عالية، وغرفاً بهيـة، وبيوتاً عظيمة، فوق ظهر الصخرة، وفي الصخرة نفسهـا، وفوق الأرض بالأسفل، ومـابرحت كنيسة المكان قائمة دونما أذى، وهي واسعة إلى حد مـا، ومؤسسة فوق صخرة، وهي صخـرة منجـورة من الجزء الأعلى مـن جـانب الـوادي، وهي ليس لها أساسات، بل مفتـوحة من جميع الجوانب، باستثناء المكان التي تخرج فيه من جانب الوادي.

ويوجد تحت الصخرة، حيث تقـوم الكنيسة، فراغ كبير ومظلم، يقود عميقاً إلى داخل الجبل، حيث يتدفق جدول، غير أنه جدول صغير جداً، ومياهه للشرب، وبه يدعم الرهبـان حياتهم، واسمه نبع القـديس سابا، ويعجب الانسـان لدى رؤيتـه الكنيسـة والأبنيـة الأخرى قـائمـة فـوق صخـرة هي معلقـة في الهواء من دون أيـة أسـاسـات، وعلى مقـربة من الكنيسـة هناك قلاية القـديس سـابا المنحوتـة من الصخر، إليهـا يذهب الانسان بوساطة الممر الملتوي، الذي تقدم لي ذكره.

وعلى الجانب الآخـر من الكنيسة، يوجـد أيضاً، فوق هـذه الصخرة، قـلايات الرهبـان، الذين مـايزالـون يسكنون هناك، ويصل عـددهم إلى الستة، وهـم لايستطيعون الاقامـة هناك، لولا أنهم متحالفين مـع البداة العرب، الذين يضمنونهم، ويحمـونهم ضد المسلمين، ولذلك فإن المكان كما هو، هو قلعة مفتوحة للبـداة العرب، ومأوى وملاذ لهم، ولذلك هو ليس خلواً، دوماً، من قطاع الطرق من البداة.

وهناك فوق الوادي حقـولاً واسعة مزروعة، اعتـاد الرهبان في الأيام الخوالي على فـلاحتهـا ليس لأنفسهم فقط، بل كـانوا يجمعـون من هذه الحقــول الزيت والقمح، بوســاطة عمل أيديهم، من أجل الفقـراء في سورية وفلسطين، وطوال الوقت الذي كان فيه هذا الدير وبقية الأرض المقـدسـة في أيدي الصليبيين، فقـد اتبع الـرهبـان النظام نفسـه بالنسبـة للخدمـات الدينية، الذي كان مطبقاً في كنيسـة الضريح المقدس، في كل

من الليل والنهار، فعندما كانت الأجراس تقرع في كنيسة الضريح المقدس وقيامة الرب، كان السادة من الكهنة النظاميين فوق جبل صهيون، يقومون أيضاً بقرع نواقيسهم، وبعدهم كان رهبان جبل الزيتون يتولون القرع في كنائسهم كلها، وعندما كان هذا يسمع في بيت عنيا، كان القرع يجري أيضاً في جميع كنائس ذلك المكان، وكانت أصوات النواقيس تصل بعيداً حتى دير القديس سابا، فقد كان الرهبان هناك يسمعون أصوات القرع من الأماكن من حولهم، ولهذا حافظوا على قاعدة أن صوت القرعة الأولى كان يصدر من كنيسة الضريح المقدس، فيسمع في الساعة نفسها في جميع أرجاء الأرض المقدسة كلها.

غير أن هذه الأشياء اختفت منذ أن أصبح الضريح المقدس في أيدي المسلمين، حيث أن جميع أدوات حمد الرب هي الآن صامتة، وآل أمر دير القديس سابا إلى لاشيء تقريباً، وقد أخبرنا الرهبان الذين يسكنون الآن هناك، وحدثونا كيف أنه كان ديراً عظيماً، وأصبح الآن منعزلاً.

وبعد فقدان الأرض المقدسة للمرة الأخيرة، دافع هؤلاء الرهبان عن أنفسهم ضد حملات المسلمين، وخاضوا حروباً قاسية مع غير المسيحيين، وأرغموهم مراراً على الفرار، وزحف بعد أمد السلطان الملك ضدهم، قادماً من القدس مع جيشه، وطلب منهم أن يصبحوا مسلمين، فبعثوا له برسالة، أنه إذا ماصار مسيحياً، فهم على استعداد لخدمته، إنما إذا لم يفعل ذلك فسوف يدافعون عن أنفسهم حتى الموت، ولدى سماع السلطان بهذا حرك قواته ضدهم، وبعد حرب طويلة، تغلب على الرهبان، واقتحم ديرهم وبعث بهم إلى الجنة بوسائل تعذيب متنوعة، لكنه لم يلمس الكنيسة، مع أنه دمر جميع القلايات والطرق التي تقود إلى الكهوف، وحولها إلى الوضع الانعزالي المحزن التي هي عليه الآن، ومع ذلك أبقى هناك بعض الرهبان الذي أقسموا يمين الولاء له، وبذلك بقي الدير قائماً حتى هذا اليوم.

السفر من دير القديس سابا

وبناء عليه، عندما بدأ حرّ الشمس بالضعف، أخذنا جعبنا، وحميرنا، وسرنا نازلين عبر الممر الخطر تحت الجروف في الوادي، ونحن نقود حميرنا، ومضينا نازلين ونحن على ظهور دوابنا إلى الأجزاء المنخفضة من وادي جهنم، وارتحلنا في وسط قعر الوادي الوعر، ونحن محاصرون من كل جانب بجدران شديدة الانحدار من الصخور، وكان تحت أقدامنا طريق في غاية الوعورة، كله حجارة، وهو غير مطروق من قبل، وتابعنا على هذا المنوال ببطيء وتعب لعدة ساعات، وقد أردت المضي في وادي جهنم حتى البحر الميت، حتى أتمكن من رؤية جدول قدرون وهو يصب في البحر الميت، لكن دليلنا كان لديه رأي آخر، لأننا بعدما قطعنا مسافة طويلة نزولاً، عبرنا إلى واد آخر، كان أكثر سعة، ووادياً جميلاً، وخصباً، لو توفر له من يتولى فلاحته، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وذلك مثلما يمتد وادي جهنم من الشرق إلى الغرب، وهذان الواديان متضادان، ويعاكس أحدهما الآخر، في الوضع، وفي الأحوال، وفي الاسم، ففي الوضع، قد وضح بأن هذا الوادي غير متصل أبداً بالبحر الميت، بل هو يفصل الجبال المقدسة، وفي جميع الأحوال، فإننا بقدر ماأن نجد الأول أجرداً، كثير الأحجار، ومظلماً بعض الشيء، وهكذا دواليك، نجد هذا الثاني، غنيا، معشوشبا، وواسعاً، ومشرقاً، علاوة على ذلك، هما مختلفان بالاسم، لأن الأول اسمه وادي جهنم، ووادي اللعنة، في حين اسم هذا الوادي، وادي البركة،، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني:٢٠/٢٦، وأنه نال اسمه هذا من حمد الرب، الذي قدمه يهوشا فاط —ملك القدس— وشعب اليهودية، هناك، بعد إلحاق الهزيمة بأعدائهم.

ورأينا في هذا الوادي خرائب أبنية قديمة، ولدى متابعتنا سيرنا نحو الأمام، وصلنا إلى أحد الأماكن، الذي فيه مالايحصى عدده من الحفر

والجحور للأفاعي والثعابين، من كل من الصغير والكبير، لكننا لم نر فيها ولاحيوان، لأنهم يخرجون فقط في الليل، وأخبرنا دليلنا حامد أنه يوجد في هذا المكان ثعابين غليظة بقدر ذراع الانسان، وطول كل منها بقدر طول الرمح.

وبعدما سرنا باتجاه الشمال خلال وادي البركة لمدة طويلة، تركنا ذلك الوادي، وتوجهنا نؤم جهة الشرق، وانحدرنا عبر جبال بلا ممرات، وإلى جانب هضاب منحدرة، وجروف، وبذلك صار البحر أمام أعيننا، ورأيناه بشكل كامل، مع أنه كان مايزال بعيداً عنا مسافة طويلة، ولهذا أسرعنا بخطانا، ونزلنا بسرعة أعظم، لأن الشمس كانت قد أشرفت على الغياب، وهكذا وصلنا أخيراً إلى أرض سدوم، وإلى شاطىء البحر الميت، وذلك عند الرأس، الذي يأخذ فيه نهر الأردن بين فكيه.

وبقي الآن دليلنا حامد، والمغاربة، وخدمه، بعيداً جداً عن البحر، لأنهم يمجونه، ويمقتون النزول إلى مياهه الملعونة، لكننا سرنا حتى الماء، حيث أوقفنا حميرنا، وترجلنا، ورأينا من الخرائب، أنه لابد قد كان هناك بيت مربع كبير، بني بعضه فوق اليابسة وبعضه الآخر في البحر، وكانت هناك أحجار كبيرة من تلك الخرائب مرمية على الساحل، غير مغطاة بالماء، مع أنها ممددة في الماء، وسرنا على هذه الأحجار حوالي الاثنتي عشرة خطوة في البحر، ورأينا المياه، ولمسناها، وتذوقناها، وهي المياه التي سمعنا عنها أعاجيب كثيرة، وهذه المياه نقية، لكنها مالحة جداً، وكثيفة، ولهذا أطلق عليه أحياناً في الكتابات المقدسة البحر الأكثر ملوحة، ولذلك عندما يأخذ أي انسان بعضاً من هذا الماء ويضعه في فمه، يصبح بسبب ملوحته العالية جداً، داخل فمه محترقاً، وكأنه صب فيه ماء يغلي، وقد جربت أنا هذا شخصياً، علاوة على ذلك، بما أن هذه المياه كثيفة ومالحة جداً، فإن الذي يضعها في يده، يشعر بوخز في يديه، وكأنها امتلئتا بالذباب والقمل، ويرغم بذلك على حكهم وكأن هناك

عرّ بهما، ويستمر معانيـا من هذا لساعات كثيرة، ثم إنه لايمكن بسهولة مسح هذه المياه من اليـد، بل الحال كأن انسـانـا غمس يديه في الزيت، كـذلك هناك رائحـة نتنة تصـدر من الماء، تثير النفس وتسبب الغثيـان، ولذلك لايمكن للحجـاج الإقامـة هناك طويلاً، والأحجار الراقـدة في المياه مع جزء منها فوق الماء، قد بدت وكأنها كلها مغطاة بالجليد، ولون الشـاطيء كله قـرب الماء أبيض، وكأنه مغطى بثلج جـديـد، مع أنه لايوجد جليد ولاثلج، بل الموجود عبارة عن ملح مر، مذاقه حاد جداً، وأعتقد أن ملعقة واحدة من هذا الملح هي أكثر ملوحة من عشر ملاعق من ملحنا.

وبدت بقية الأرض غير المغطاة أو المبللة بالملح، وهي قريبة من الماء، سوداء، وكأنها قـد احترقت بوساطة نار ملتهمـة، وهي دليل على شرور شعب سدوم، كما سوف نبين بوضوح أكثر فيما بعد.

ويقـول العامـة من الناس، بأن الجدران المدمرة، التي سرنا عليهـا إلى داخل البحـر، هي بقـايا بيت لوط، ابن أخي ابـراهيم، الذي سكن في سدوم، حسبما قرأنا في سفـر التكوين: ١٣، ولدى وقوفنا لبعض الوقت إلى جـانب هذا البحر، قـام أدلاؤنا، وحامـد ورجاله، الذين وقفـوا على أرض مـرتفعة فـوقنا، بالصراخ لنا بأصـوات مـرتفعة حتى نبتعـد، وفي الحقيقـة كنا على عجلة من أمـرنا لكـي نغـادر المكان، لأننـا لم نكن مسرورين بالبقـاء هناك، بل كنا نشعـر بالغثيـان والخوف، وكأننا كنا واقفين في بؤرة أجسـاد ميتة، بسبب الـرائحة الكريهة، أو في مكان، فيـه محاكمة قـاسية لحشد واسع من الناس، قـد حكم عليهم بالموت مع أشد العذاب وأكثـره فظاعة، وقد خشينا مـن غضب الرب القدير، وخفنا أن يشملنا مع المذنبين، بالعقـاب الذي نزل على شعب سـدوم، فضـلاً عن هذا، كـان النهـار قـد شـارف على الانتهـاء، واقترب غيـاب الشمس، ولذلك صعـدنـا مبتعـدين عن البحـر، نحـو أدلائنـا، ودوابنا، وبتنا

مستعدين للمغادرة، لكن قبل أن نغادر هناك شيء مايتوجب قوله حول هذا البحر.

وادي سدوم المشهور حيث البحر الميت الآن

يحدثنا الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن أصل البحر الميت، ذلك أنه لم يكن هنا بحر من بداية الخليقة، كما لم تكن هنا بحيرة أو ماء متجمع بدون حركة، بل جرى نهر الأردن في مجراه، وكان يسقي الوادي وجميع المنطقة حول هذا الوادي كانت مزدهرة وخصبة، مثل حديقة الرب، ومثل أرض مصر، كما قيل في سفر التكوين:١٣، ولهذا أطلق عليه اسم الوادي الشهير(التكوين:١٢)، لأنه كان مليئاً بالأشياء الجيدة، ومثل هذا أطلق عليه اسم وادي الغابة، لأنه امتلأ بالأشجار وبأوراقها بكثافة، لأنه توفرت هناك أشجار فواكه، وبساتين مثل غابة، ومخزن كبير من الفواكه والأخشاب، وعن هذا حُدِّثنا في سفر التكوين:١٤.

وأطلق عليه أيضاً اسم وادي السهل، لأنه امتلك على الطرف الأول من الأردن أشجاراً، وكان هناك على الطرف الآخر سهولاً مزروعة، ولذلك دعي بالاسمين معا: وادي الغابة ووادي السهل، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الاسفلت، أو وادي الزفت، وهذين الاسمين هما الشيء نفسه، لأنه يوجد فيه كثيراً من آبار القار، عنها نقرأ في سفر التكوين:١٠، وهم يستخدمون القار عوضاً عن الملاط، ومنه بنيت جدران قوية جداً، وعثر في رمال ذلك الوادي على أحجار كريمة، مثل الزفير ومايشابهه، وكذلك عثر على الذهب في الأراضي هناك، وذلك حسبما جاء في سفر أيوب: ٣٣، فهناك بدا وكأنه يتحدث عن هذا الوادي، وكان في هذا الوادي الشهير والجليل خمس مدن كبيرة هي: سدوم، وعاموره، ودومه، وصبوييم، وبالع التي هي ساعور، وقد وردت هذه الأسماء في سفر التكوين: ١٤/ ٢، ولهذا دعيت هذه المنطقة

من قبل الاغـريق، بـاسم البنتـابولس، لأن معنى«بنتـا» هو«خمسـة»، ومعنى«بولس» «مـدينة»، وجـاءت هذه التسميـة بسبب وجـود المدن الجليلة الخمس، التي كانت سدوم هي الرئيسية بينهن.

وكـان سكان هذه المدن أشراراً جداً، وقـد أذنبـوا بشكل مريع أمـام الرب (التكوين:١٨)، ومارسـوا حياة مهينة، خـارج حدود العقل، مثل عميـان، وحيـوانات بلا عقل، ولـذلك جـرت ترجمة اسـم سـدوم إلى «عمى»، هذا وكـان في هذه المدن حشداً كبيراً مـن الناس، وكانوا جميعـاً مـذنبين، إلى درجـة أنه لم يوجـد في أي منهن رجلين صـالحين، لأنه لو وجـد مثل هذين، لما دمر الرب تلك البـلاد، كما جاء في سفـر التكوين: ١٨، وكانت الذنوب الـرئيسية لهؤلاء القوم عـددها ستة، حسبما وردت في حزقيـال: ١٦، وكان الذنب الأول هو الكبرياء، الذي هو أصل جميع الشرور، حيث كـانوا يتكبرون في أنفسهم ويحتقـرون الآخـرين، وكـان الذنب الثاني، هو الشبع من الخبز، لأنهم عاشوا باضطراب، وكانوا دوما سكارى، ومليئين من الخبز، وكان الذنب الثالث هو الوفرة، لأنهم أثروا بثروات حصلوا عليها بشكل سيء، وكان الذنب الرابع هو الكسل، لأن أولادهم وبناتهم، وشيـوخهم وشبـابهم كـانوا جميعـاً كسـالى، وصـاروا أغنياء بلا عمل، وبسبب جـودة الأرض، وكان الذنب الخامس هو أنهم لم يمـدوا أيديهم قط للفقـراء والمحتـاجين، لأن قلوبهم كـانت قـاسيـة، وكـانوا لايقدمـون مأوى لأي غـريب، كما قرأنا في سفـر التكوين: ١٩، وأنه لم يكن هناك مكان للغرباء حتى يقيموا به، إلاّ في الشارع العام.

وفي الحقيقة قضـوا في احدى شرائعهم بعـدم اعطاء اي غريب مأوى في بيت من بيـوتهم، لأن البـلاد كـانـت بلاد وفـرة، وقـد حمل كثير من الفقـراء أنفسهم إلى هذا الوادي قـادمين من مناطق غـريبـة، لأن الحيـاة كـانت سهلة، غير أنهم اعتقـدوا أن الفقـراء حمل ثقيل، ولذلك قضـوا بوجـوب طرد الناس الفقـراء والغـرباء، وعلى هذا الأسـاس قتلوا فتـاة

بطريقة شنيعـة، لأنها أبدت مواسـاتها وأعطت خبزاً لواحـد من الفقراء استجداها.

وجـاء بعد هذه الذنوب الخمسـة الذنب السادس، الذي كـان أعظم الشرور مقتاً لسـدوم، وقد صرخت الذنوب الخمسـة إلى السماء، فوصل واحـد منهـا، ولـذلك قـال الـرب في (التكوين:١٨و١٩):« إن صراخ سدوم وعمورة قد كثـر»، وهكذا إلى آخره، ولم يوجد هناك رجل واحد صالح لم يكن قد تلوث بالاثم، غير لوط، وعندما اقتيد خارجاً من قبل الملاك، أمطر الرب ناراً وحجـارة محترقة فـوق تلك البلاد، وقـد احترق كل شيء حتـى جـوف الأرض، وذلك بنـزول تلك النار المرعبـة من السماء، وتحولت المنطقة إلى مكـان أجرد من الملح والرائحـة المقيتة حتى هذا اليوم.

وعندمـا توقفت النار، قـام الأردن والجداول الأخـرى التي تجري في ذلك المكان المحترق فملأت بالطول وبالعرض تلك الحفرة الكبيرة التي خلفتهـا النار عندمـا احـرقت الأرض، وهكذا عملت بحيرة الملح، هذا ومع أن الأرد ن والجداول الأخـرى تجلب ميـاهاً حلوة إلى ذلك المكان، فإنها تصبح على الفور في غاية الملوحة، وأكثر ملوحة من ملوحة ماء أي بحـار أخـرى، لأنها تمتلك سببـاً رباعيـاً لملـوحتهـا، وهو سبب طبيعي، وسبب منطقي، وسبب كاثوليكي، وسبب رباني.

والسبب الأول لملوحـة هذا البحـر، هو سبـب طبيعي، وهو السبب نفسه الذي يجعل البحـار الأخرى مالحة، كما سلـف وبينا من قبل، وقد عـالج هذا الموضـوع أرسطو في مصنفة «الفضـائيـات»، الكتاب الثـاني، وقدم كثيراً من الحجج، وهناك قدم بشكل واضح اشارة إلى هذا البحر، وإلى ملوحته الفائقة.

والسبب الثـاني الذي يظهـر هذا البحـر أعظم ملوحـة من البحـار

الأخرى، هو سبب منطقي قائم على الايمان، وهو ماقد يوافق عليه الانسان أو لايوافق، فنحن قد رأينا بأن النار من السماء قد أحرقت تلك الأرض حتى الأعماق، وقد بقي قعر الهوة يحترق بشكل دائم، مثل حديدة محماة في النار، هذا وإن الماء الذي يصب هناك غير قادر على إطفاء تلك النار، بل تحول الحرارة المياه إلى حد الغليان، وتجعلها سميكة، وتغليها حتى تصير مالحة، ولهذا السبب نجد هذه المياه، أكثر دفئا، وملوحة من أية مياه أخرى، وتتصاعد الأبخرة منها بشكل دائم.

والسبب الثالث مستخرج من الإيمان الكاثوليكي، الذي نعتقد بموجبه أن الحساب الأخير سوف يكون في وادي شعفاط، وأن المدانين سوف يساقون عبر نهر النار نزولاً في وادي جهنم حتى هذا المكان، حيث سيغرقون في أعماق الجحيم، وذلك حسبما بينا في ص٥٨٧، لأن من الواضح أن فم الجحيم موجود هنا، وهذا بالنسبة لنا نحن المسيحيين لأننا نعتقد بأن الجحيم موجودة في وسط الأرض، والمدينة المقدسة قائمة على جبال فوقها في وسط الأرض، وذلك مثلما قالت الأمم وقال الشعراء بأن جزيرة كريت هي وسط العالم، وأن الجحيم موجود تحتها، وبناء عليه فإن الدموع النازلة من الوثن المقام فوق جبل إيدا Ida تجري نحو الجحيم، كما سنتحدث في ص١٧ من القسم الثاني.

ويتعلق السبب الرابع بإظهار الرب عدم رضاه الخاص، وكراهيته، ومقته للاثم اللعين وهو ممارسة السدومية، ولذلك جعل المكان كله يعيش أبدًا وسط المرارة والجدب، ولهذا السبب جاء ذكر هذا المكان في كثير من المواضع في الكتابات المقدسة، فقد أطلق عليه اسم البحر الميت(يشوع:٣) لأن الرب ألقى بالمذنبين هناك ليموتوا موتاً أبديا، وذلك بابتلاعهم بسرعة وبموت مخيف، أو لعله دعي بالميت، لأن ما من شيء يعيش هناك فيه، ولايمكن للأسماك أن تكون هناك فيه، حسبما قرأنا في«فضائيات» أرسطو— الكتاب الثاني—، وفي Speculum

Historiale ، وليس فقط لاتوجد حيــاة فيه، بل كل شيء حي يلقى فيه لايغرق، بل يقذفه ثانيــة، وبذلك فإن الأشياء الحية لايجري ابتلاعها مباشرة.

وقــد برهن على صحـة هذا الامبراطور تيتوس، عندمـا عسكر أمـام أريحا، وكــان بعض جنود جيشه قــد أودعــوا السجن، وتقرر اعــدامهم، فأمر بـربطهم ومن ثم بإلقائهم وهم أحيـاء في هذا البحر، وقــد سبحوا وأيديهم وأقدامهم مربوطة على وجـه الماء وكان من غير الممكن غرقهم، وقــد ذكـر يوسفيــوس هذا في« حـروب اليهــود» — الكتــاب الخامس، الفصل التــاسع، عــلاوة على ذلك قــال مصنف الـ Speculum His-toriale بأن القوارب الفارغة أو المحملة بأشياء غير حية، تغرق هناك مباشرة، لكن القوارب التي فيهــا أناس أو حيوانات حية لاتغرق، ولكن إذا ألقيت وهي مشتعلة، فإنها تستمر بالسباحة طالما النار مستمرة بالاحتراق، وهناك قصص أخرى كثيرة مشابهة قد رويت فيما يتعلق بهذا البحر، وعن هذه الحكايات قال يوسفيوس بأن الحكايات الزائفة متفوقة على الصحيحة فيما يتعلق بالبحر الميت.

علاوة على ذلك جـرى الحديث عن هذا البحر في الكتابات المقـدسة على أنه مـالح جـداً، في سفـر العــدد:٣٤، وفي سفـر يشــوع:١٢، ولهذا السبب جرى الحديث عنه في الكتابات المقدسة على أنه متفوق بملوحته، لأن مامن بحر في الدنيا أكثر ملوحة منه، ولايمكن لماء عذب أن يتملح بملحنا ويبلغ درجة ملوحته ومرارته.

ومثل هذا أطلق عليه اسم بحر الملح في سفر التكوين:١٤، لأن الملح مــوجود هناك بوفـرة، والميــاه التي تنضح من هذا البحـر، ثم توضع في الشمس، تصبح ملحــاً على الفــور، وقــد دعــي في بعض الأحيــان باسم بحر أحواض الملح، لأنه كــان هناك فيما مضى كثيراً من أحواض الملح، ومن الممكن وجــود بعضها الآن، فضــلاً عن هذا هناك جبــال من الملح

إلى جانب هذا البحر، وحجارتها ملحية إذا ماكسرت، ورأينا في بلاد مآب في مواجهتنا جبلاً صخوره بيضاء، وعناصره كلها من الملح، وحجارته المكسرة هي من أفضل الملح، وكذلك الرمل الناجم عنها، وعلى هذا يؤخذ هذا الملح من الأرض، التي تصح تسميتها بملح الأرض، وبها شبه الرب تلاميذه(متى:٥) بقوله:« أنتم ملح الأرض»، وهو في كل مكان يعدّ أفضل الملح، وأعلى ثمنا من الملح المصنوع من الماء، والذي يأتي نتيجة الغليان، مثل ملحنا، أو الملح الذي يصنع بوساطة حرارة الشمس في أحواض الملح، كما رأيته غالباً يعمل على شاطىء بحرنا، وفي الحقيقة هناك أنواع مختلفة من الملح، يمكن العثور عليها في العالم، ففي صقلية هناك ملح يصبح قاسياً عندما تضعه في الماء، ولكنه يذوب عندما يوضع على مقربة من النار.

ويستخرج من تحت الرمال في سيرينيا Cyrqnia — خاصة عندما يكون القمر بدراً ثم عندما يضعف نوره— ملح عطري، هو ثمين جداً، ويوجد في بعض البلاد جبال من الملح القاسي جداً، منه يجري استخراج الملح بالحك بوساطة أدوات حديدية، وقد بنيت جدران عظيمة وبيوت من حجارة ملحية، كما هو الحال في بانونيا Pannonia، ونجد أيضاً ملحاً أسود، وملحاً فضياً، وأصفر، أو ملحاً أحمر، أو ملحاً مشعاً ببياضه.

وكذلك يعرف هذا البحر باسم بحر الاسفلت، فهو كان يعرف قبل خراب المدن المتقدمة الذكر باسم وادي الاسفلت، أو الحمر، لأنه حتى هذه الأيام هناك آباراً من الحمر على شاطئه، قد حفرت وبيع نتاجها، لأن الحمر ملاط قوي جداً من أجل بناء الجدران، وقد بني إلى جانب هذه الآبار هرم طويل، وهناك يوجد الحمر أيضاً، حيث تقذف به الرياح إلى شاطىء البحر، ويتماسك بقوة مع بعضه، ولايمكن اذابته إلاّ بدماء الطمس، ويطلق عليه اسم حمر اليهود، وهو يستخدم كدواء،

وكعـلاج ضـد الرمل والحصـا في المثـانة، ومثل هذا يقـذف هذا البحـر بعض الكتل من الحمر المغطاة بتربة سوداء، وهي جميعهابرهان على النار التي تحترق بداخلهـا، وهي بوضعهـاهكذا رغـوة القـدر الذي يغلي بالأسفل .

وإلى جانب هذه الأسماء، لقد دعي أحيانـا في الكتابات المقدسة باسم بحر القفار، كما جاء في سفر يشوع:٢، لأن جميع الأراضي من حوله هي صحراء، وهي تمدّ لسانها حتى برية فـاران، التي تفصل الأرض المقدسة عن القفـار الواسعـة التي عبرها بنو اسرائيل، واسمـه ايضـاً البحـر الشرقي، قياساً على البحر الكبير، الذي اسمه البحر الغربي، لأن الأرض المقدسة يحددها هذين البحرين، وهي بعمقها محاطة بهما.

ودعي في بعض الأحيان باسم البحر الجديد، لأنه لم يكن موجوداً في بداية الخليقـة، ولكنه عمل في أيـام ابراهيم، أخيراً وبعـد جميع البحـار، لأن البحار الأخرى قـد خلقت قبل هذا البحر بـ ٣,٢٧٢ سنة ولذلك هو أحـدث البحـار وجـديدها، ودعي هذا البحـر في كثير من الأحيـان باسم بحـر سدوم، اشتقاقـاً من اسم الحاضرة سدوم، التـي غمرت بهذا البحر، بعد اقتراف ذنب السدومية، الذي لاقى هنا عقوبته، كما أنه دعي في بعض الأحيان باسم بحـر الشياطين بسبب فتن الشيـاطين وقوتهم في هذا المكان، ولهذا نجـد أن المنطقـة كلهـا حـول هذا البحـر قفـار، لأنها مشغـولة من قبل الشيـاطين، ومن مختلف أعمال الخداع السحـرية، وفي الحقيقـة، هناك— بإذن مـن الرب— أشيـاء كثيرة، قـد عملت هناك بوسـائـط الشيـاطين، من مثل الريـش، عندمـا يرمى في البحـر، يغـرق مباشرة نحو القعـر، في حين يطفو الحديد على الوجه، فهذا مـاقالوا بأنه قد وقع هناك.

ودعي أيضـاً باسم البحـر الملعـون، وقـد صـار كـذلك بسبب لعنة المذنبين، ولايوجد مكـان في الدنيا قد تفجـر غضب الرب فيه بـوضوح

ضد المذنبين مثل هذا المكان، وعرف أيضاً باسم بحر جهنم لأن الطريق من القدس إلى هاهنا، يمرّ عبر وادي جهنم، كما أن جدول جهنم يصب فيه، وذلك كما بينا مراراً من قبل، وأخيراً عرف باسم بحر الجحيم، وذلك بسبب أن المدانين، بعد اقتيادهم خلال الجدول الناري لوادي جهنم يلقون في أعماق هذه الهوة، لأن الجحيم سوف يفغر فاه واسعاً، حتى يأخذ جميع الذين سوف يقول لهم:« ابتعدوا عني، أيها الملعونين» الخ، ودليلنا على ذلك أن الدخان يتصاعد دوماً من هذا البحر، وكأنه مدخنة الجحيم، وكل مكان يصله الدخان يتسمم، ويتحول إلى مكان قاحل على طرفي البحر،وكلماينمو هناك هو بدون فائدة.

وفي الحقيقة رأينا هناك التفاح الذي تحدث عنه يوسفيوس، وكذلك مصنف Speculum Historiale، وينمو هذا التفاح على شجيرات قصيرة، وقد بدت هذه الشجيرات لي بأنها شجيرات عمرها سنة واحدة، لأنها تجف في الشتاء وتنمو ثانية في الصيف وتصير بطول نبات الجريس لدينا، فعن جذعها تتفرع عدة أغصان، تحمل كمية كبيرة من التفاح، ذات الحجم الكبير، مثل حجم مقبض اليد، وهذه التفاحات جميلة جداً أن ننظر إليها، وتثير شهية الذي يتطلع إليها حيث يرغب بأكلها، وبالنسبة للونها، هي خضراء بنفسها، لكن من الجانب الذي تضربه الشمس هي صفراء مشوبة بالحمرة، وهذه التفاحات ناعمة، وكأنها ناضجة للأكل، وعندما يقوم انسان بقطع تفاحة، فإنها تنقسم مفتوحة، وسيجد على الفور في داخلها مادة قذرة لها رائحة مقيتة، تلوث يديه، وتثير المعدة نحو الغثيان، وعندما تصبح هذه التفاحات قاسية، يصبح لونهن رمادياً، وتتحول المادة التي في داخلهن إلى رماد وغبار.

إلى جانب هذا، يقولون بأن هذا البحر يقذف بحصا على درجة عالية من الجمال، وإذا ماالتقطهم انسان، فإن يديه تغدوان قذرتين ولهما رائحة

بشعة لمدة ثلاثة أيـام، ويقال بأنه عميق جداً في الـوسط إلى حد لايمكن الوصـول إلى القعر بـإلقاء دليل بوسـاطة أطول الحبـال، وعـرضة ستـة فراسخ، وهو ممتد من الغرب إلى الشرق، في حين يصل طوله من الشمال إلى الجنوب إلى مسافة تسعة أميال ألمانية، هذا وكنت قد تحدثت عن هذا الموضـوع من قبل، ويتضخم حجـم هذا البحـر أحيـاناً، ويمتلىء بشكل غريب، ومع ذلك لايفيض مطلقاً على أطرافه.

وفي الحقيقة تصب مياه كثيرة، وأنهار وجـداول فيه، مثل نهر الأردن، الذي هو الرئيس بينهم، والذي تتجمع فيه أيام الأمطار والثلوج كميات كبيرة من الميــاه، تتــدفق من جبل لبنان ومـن جبلي جلبـوع وجلعــاد، وبذلك يغدو أكبر بهذه الزيادة، ويصب في البحـر، ووفق الطريقة نفسها تصب الجداول فيـه من كـلا الجانبين، مثل جـداول: قـدرون، ويبـوق، وعــرنون، وكــرت Careth وسيــول أخـــــرى كثيرة، وفيها يتعلق بالتصريف، فإن جميع فضــلات الأرض المقـدسـة تقـريبـاً تحملهـا هذه الجداول إلى البحـر الميت، وهـــــذا البحـر حســـبها كـان دومـاً هو المصب لمنطقتين تحدانه على الطرفين، وذلك مثلما ســوف يتلقى الجحيم جميع فضــلات العـالم، وعلى هذا فإن هذا البحــر هو بـالـــوعة جميع البلاد.

ولهذا فكر بعضهم بأن هـذا البحـر لابد أنـه يمتلك فتحـة في أحـــد الأطراف، منهـــا تجري الميـــاه نحـــو هوة، أو ربما تصـب في الجحيم، لأنه—كما قلنا— مهما كانت كميات المياه التي تصب فيه، فإنها لاتذهب إلى أي مكان آخر، والبحر نفســه، وإن بدا متضخماً في بعض الأحيان، لم يفض مطلقـاً على تخومـه، هذا ويعتقـد بعضهـم بأنه متصل بقناة خفيـة بمياه مـاره، التي جرى الحديث عنها في سفـر الخروج:١٥، حسبما تقدم الكلام حـول ذلك، وهانحن قـــد قـدمنا عـرضـاً حـول البحـر الميت، استقيناه وجمعناه من الأسماء المعطاة له.

قفار القديس جيروم وديره فيها

وبعدما فرغنا من مشاهدة البحر الميت، المدة التي رغبنا فيها، مضينا مبتعدين بسرعة عنه، لأنه الشمس كانت الآن على وشك المغيب، وسرنا باتجاه الشمال إلى ماوراء بداية البحر الميت، غير بعيدين عن المكان الذي يصب نهر الأردن فيه، ووصلنا بعد هذا إلى قفار جرداء تماماً من قفار الأردن، لم يكن فيها شيئاً أخضر، ولاحشائش ولاأعشاب بل الأرض رملية، قد شويت بحرارة الشمس، وهي مليئة بأكوام من الرمال تجمعت بوساطة الرياح، وسرنا خلال هذه الأكوام والروابي الصغيرة، مما جلب الانهاك إلينا وإلى دوابنا، وكنا كأننا نشق طريقنا خلال ثلج عميق وكثيف، ووجدنا في الرمال آثار كثير من الحمير، ولهذا استنفرنا وأخذنا حيطتنا، خشية أن نقع بين بعض فئات البداة العرب، أو أن هؤلاء البداة في المكان الذي نوينا أن نرقد فيه تلك الليلة، ولذلك وقفنا بلا حراك، غير عارفين ماذا نفعل، وكرهنا أن نحمل أنفسنا إلى المنطقة التلية الاسرائيلية، بل رغبنا— كما أظهرنا فيما بعد— بزيارة إحدى البقاع في هذه القفار، التي نحوها رأينا قطيعاً من الحمير متجها إليها.

ولدى رؤية دليلنا حامد لهذا، قفز على الفور من على ظهر حصانه، ومثله فعل خادمه، وتناولا سيفيهما وقوسيهما، ثم ركضا مثل وعلين فوق الرمال نحو القطيع، قاصدين الحصول على بعض الأسلاب إذا تمكنا، لأنه في هذه البلاد مامن انسان معصوم من المهاجمة، بل يطارد القوي الضعيف، وينتزع سلاحه منه وثيابه، إذا ماتمكن من الامساك به، ولذلك يستعدان ضد بعضهما، وهما على مسافة كبيرة تفصل بينهما، وإما أن يهرب فريق منهما، أو أن يصطف كلا الفريقين، ويجهزان أنفسهما ضد بعضهما، للقتال ليس في سبيل حياتهما، بل في سبيل أسلابهما وأسلحتهما.

وبعدما قام حامد ورجاله بمطاردة هذا القطيع لمسافة طويلة، وجدوا أنه لم يكن قطيعاً من الحمير الأليفة بل من الحمير الوحشية، لم يستطيعوا

أبداً الإمساك بها، لأنها كانت حيوانات سريعة جداً، نظراً لكونها حمير وحشية، ولهذا عادوا إلينا خاليي الوفاض.

وبناء عليه تابعنا سيرنا وتقدمنا على طريقنا، ووصلنا في القفار إلى المكان الذي استهدفناه وذلك حيث اعتكف القديس جيروم، المعترف المجيد، لمدة أربع سنوات، قبل أن يذهب إلى بيت لحم، وذلك حسبما قرأنا في اسطورته، ويوجد في هذه الأيام هنا كنيسة جميلة جداً، مع دير ملحق بها، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام المذبح، وحصلنا على غفرانات(++) مطلقة، ثم نهضنا من صلواتنا، وقمنا بمشاهدة الكنيسة والدير، والكنيسة مشعثة من قبل البداة العرب والمسلمين،، ومذابحها محطمة، وأعمالها الخشبية مهددة بالسقوط سريعاً، وكان الدير فارغاً ليس فيه رهبان، والجزء الأعظم منه مهدوم، وفي الغرف التي أقاموا فيها، هناك معالف للدواب، حيث تمتعوا هناك بالظل أثناء حرّ النهار، ولذلك هو نوع من أنواع الخانات الآن.

والذي استطعت استخلاصه من أوصاف الأرض المقدسة، ومن الخرائط التي عليها رسم شكل الأرض المقدسة، أن هذا المكان هو بيت حجلة، حيث بكى بنو اسرائيل على يعقوب أبيهم، الذي جلبوا جسده من مصر، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الأخير من سفر التكوين، وأطلق جيروم على المكان في كتابه « حول المسافات بين الأماكن»، اسم قريات Areaat ، وهي على بعد فرسخ واحد من الأردن، وأنا لاأعتقد أن قفار اعتكاف جيروم كانت هنا، لأنه سكن في إحدى القفار في سورية، ومع ذلك صدوراً عن الاحترام لهذا القديس، فإن المعاصرين يقدمون الاحترام لهذا المكان، على أنه مكان سكنه، وفي الوقت نفسه لم ترد اشارة إلى هذا المكان في كتب الحج القديمة، إلاّ تحت اسم بيت حجلة، وقد تسلقنا فوق الدير، وجلنا حوله مع خوف وخطر، لأن البناء كان يهتز تحت أقدامنا، وكأنه آيل للسقوط.

ورأينا هنا صوراً جميلة لآلام المسيح مرسومة على جدران الكنيسة، وأن بعض قلايات الرهبان ماتزال سليمة، ولاحظنا أنه قبل بضع سنوات كان هنا دير للرهبان، وقال بعضهم بأن هذا الدير قد بني في أيام القديس جيروم، وأنه ظل مسكونا بشكل دائم حتى أيامنا غير السعيدة، أي أنه قبل أن يذهب إلى بيت لحم، كان لديه دير ديني هنا، وأن معجزة الأسد لم تصنع في بيت لحم بل هنا، وهذا هو المكان الذي تحدث فيه القديس جيروم عن نفسه في رسالته إلى يوستوخيوم، بأنه تعرض لإغواءات كثيرة، حيث قال:« كلما كنت في القفار، والمكان الأجرد المنعزل، محترق بحرارة الشمس، التي تقدم مسكنا لقرود شعثاء، اعتدت أن أتصور نفسي في وسط رفاه روما مع حشد من الفتيات الراقصات»، وفي هذا المكان بكى ذلك الرجل المبارك من دون توقف، وأخضع جسده بالصوم وباللطم على صدره ليلاً ونهاراً، وفي غضبه من نفسه، والتزامه الدقيق بالنظام، دخل إلى القفار وتسامر مع الحيوانات المفترسة والعقارب.

وكنا عندما خرجنا من القدس في الصباح، اتفقنا على تمضية الليل في هذا المكان المقدس، إنما بعد تجولنا حول الأبنية والخرائب، لم نجد مكانا يمكننا أن نستريح به، كما كان لايمكننا الإقامة في الحقول خارج الجدران، بسبب عدم نظافة المكان، لأننا رأينا أعداداً لاتحصى من الخفافيش الكبيرة وهي تطير إلى هنا وهناك، لأن الشمس كانت قد غابت وكان الوقت وقت الشفق، وقد أخبرونا بأن هناك كثيراً من الخفافيش من نوع آخر، وهو من جميع الجوانب مثل الحمام، وهذا النوع لايطير إلاّ في الظلام الدامس، ويكمن منتظراً الرجال بشكل خاص، فهذه الخفافيش تنقض بشكل حاد على وجه الانسان، فتمسك أنفه بفمها المفتوح، وتقطع الأنف بطرفة عين من الزمن، وتطير مبتعدة مع صيدها، وكان الرجال من ذوي الأنوف الطويلة عرضة للخطر، أكثر

من سواهم.

وعندما سمعنا هذا، احترزنا من أجل أنفسنا، وغطينا أنوفنا بأيدينا، كما وسمعنا فحيح عدد كبير من الأفاعي، وهن يخرجن من جحورهن للأكل، فضلاً عن هذا كان المكان خارج الأسوار الذي توقفنا فيه لإنزال أثقالنا مليئاً بالحفر التي عملتها الأفاعي والعقارب، وإلى جانب هذا كله، كانت هناك الرائحة المقيتة المعتادة، الصادرة عن البحر الميت، وكانت قريبة منا، وقد بدت لنا أكبر مما نستطيع شمه طوال الليل، وكذلك خفنا من البداة العرب ومن المدينيين، وخشينا من أن يهاجموننا ليلاً ويزعجوننا.

وعاودنا لهذه الأسباب ركوب حميرنا، وأدرنا ظهورنا إلى البحر الميت، وسرنا خلال الظلام نحو المنطقة التلية لإسرائيل، وذلك فوق منبسطات واسعة وباهتة، لم نرغب في الاقامة بها، بل بادرنا مسرعين نحو التلال، وعندما وصلنا إلى سفح الجبال، دخلنا إلى واد ظليل، وصعدنا إلى القمة، ووصلنا إلى مكان آمن تماماً، هو عين الجدي، وكان ذلك قبل منتصف الليل بقليل، ووجدنا هنا مكاناً مناسباً، فأعطينا دوابنا إلى خدمنا، وجلسنا أرضاً، وجلبنا ماكان قد بقي في جعبنا، وتمددنا بأنفسنا، وذلك حيث جلس كل انسان ليأكل، فهناك رقد لينام، ونمنا هناك حتى الصباح بملابسنا، سوى أننا خلعنا واقيات أرجلنا وأحذيتنا.

صعود الحجاج إلى جبال عين الجدي والحادث المضحك الذي وقع للراهب فيلكس فابري

وعند اشراق الشمس في اليوم الثاني عشر، نهضنا من فوق الأرض حيث كنا راقدين، وذلك بعدما نمنا نوماً حلواً وهادئاً، لأننا كنا مرهقين، وكنا جميعاً في مكان آمن ونظيف، وعندما شاهد دليلنا حامد، بأن النهار كان مشرقاً، صرخ لنا بصوت مرتفع، وحثنا بأن نتسلق إلى

الجبـال بسرعـة، قبل أن تصبح الشمس حـــارة، ولذلك أعـددنا أنفسنا بسرعة، وعندما كنا نستعد من أجـل رحلتنا، وقع لي حادث عرضي تافه ولاأهميـة له، ومع ذلك كـان عبثاً مضحكـاً، وقد اخترت أن أضعـه في كتــاب رحـلاتي وجــولاتي، لأنني كما وعــدت في مطلع كتــابي، أثناء الانطلاق برحـلاتي، وقـررت أن أخبركم ليـس فقط عن المسـائل الجادة الوقورة، بل أيضاً عن الأشياء العابثة والتافهة.

فقـد جلست، وبذلت جهداً للبس حـذائي، وقـد كان حـذائي ضيق تماماً، ولذلك كنت أجـد صعوبة لدى خلعـه وكان ذلك لايتم من دون بذل كثير من الجهـد والطاقـة، وكـان حـذائـي مصنوعـا من جلد غـالي الثمن، وأصفـر اللون، وناعماً، ووصل حتى ركبتي، مثل واقيـة، وانتعل الفـرسان الآخـرون أحذية مـن النوع نفسه، واستخـدمنا هذا النوع من الأحذية عـوضاً عن نعل وواقيـة، وهكذا وضعت فردة حـذائي اليمني فوق قـدمي، وأعطيتها شدة قاسيـة مفاجئة، لكن عندما صـارت قدمي فيها شعـرت بوجود شيء تحت النعل رطب ونصف قـاسي، واندهشت تجاه ذلك، وخشيت مـن أن يكون قــد دخل إلى حــذائي عقــرب، أو علجـوم أو أفعى ملتفـة، وازداد هذا خـاصـة عندمـا بدا لي أنني أشعـر بحـركة الحيـوان وهو يلتـوي تحت قـدمي، ومع أنني خشيت أن تكون قـدمي قد تسممت، لم أسحبهـا من الحذاء، لأن البقيـة كانوا قـد امتطوا حميرهم، وكـانوا يصعـدون فـوق الممـر، وقـد خفت من البقـاء خلفهم لوحـدي، وقمت على كل حـال بدفع قـدمي بشدة فـوق حجـرة، حتى أتمكن من قتل المخلوق، وهكذا ركبت بغلي لكن ليس دون الخوف من التسمم، وعندمـا كنا صاعـدين للجبال، وصلنا إلى ممر منحـدر وضيق، توجب علينا أن نصعـد عليـه واحــداً تلو الآخـر بسبب خطر سقـوط الحيوانات، ثم إنه لم يكن بامكاننا السير والتقدم جميعاً واحداً تلو الآخر، بل توجب على الذيـن كـانوا بالأسفل الانتظار حتى يكـون الذي سـار

أولاً قد صعد الطريق كله.

وترجلت في هذا المكان من على بغلي، وجلست أرضـــاً، وخلعت حذائي، الذي خيل إلي أنني سأجد فيه واحداً من الهوام قد سحق، وعندما وضعت يدي فيه، وجدت شيئاً مارطباً، ومن خلال الشم عرفت ماهو، وتبين لي مالم أعرفه لابالنظر ولاباللمس، وأنه لم يكن هناك لاعقرب، ولاعلجوم ، ولاأفعى ، بل غائط بشري، ولدى معرفتي بذلك، لبست حذائي ثانية وأنا شديد الانزعاج، وعاودت امتطاء بغلي، وأنا مرتبك ومتضايق، وسرت خلف الآخرين، وأنا آسف، أتساءل في نفسي، من الذي أبدى نحوي قلة الاحترام هذه ومزح معي هذه المزحة الشنيعة، ومن الذي من بين الفرسان كان قليل الاحترام إلى هذه الدرجة حتى وضع غائطاً في حذاء حاج وكاهن.

وبدأت أتشكك بواحد من أعظم النبلاء، الذي كان لطيفاً وودوداً جداً معي، وظننت أنه بسبب رفعه للكلفة معي أقدم على هذه الفعلة، وأزعجتني هذه المسألة كثيراً، لذلك قررت، وأقسمت في قرارة نفسي، وقطعت على نفسي عهداً بأنني لن أسافر مسافة أخرى مع هذه الجماعة سواء في البرأو في البحر، وتخلت نفسي عن الحج إلى جبل سينا، لكنني لم أخبر أحداً بماوقع لي، بل تمضيت على طريقي صامتاً، وكأنني كنت أصلي، والذي حدث هو أنني أخطأت بحق اللورد الذي شككت فيه، وبجميع رفاقي، ووجدت فاعل هذه الفعلة، وذلك بدون أدنى شك، فعندما قمت بالقدس بخلع حذائي في قلايتي حتى أتمكن من تنظيفه وتنظيف يدي وقدمي، واخراج الغائط الذي كان به، وجدت في داخله خنفسة سوداء كبيرة، ولدى رؤيتها للوهلة الأولى كنت خائفاً، حيث ظننت أنها عقرب، كنت قد سحقته مع الغائط، ولكن عندما رأيتها أنها كانت خنفسة، كنت مسروراً، لأنني عرفت الآن بشكل أكيد، أن مامن أحد وضع الغائط في حذائي غير هذه الخنفسة، وفي الحقيقة الخنافس في

هذه المناطق— بالألمانية Rosskafer— [خنفسة حصان] كبارجداً، ويفقسن من روث الخيول، وهن يطرن ويزحفن حول الطرق، وهن يجمعن مواداً مناسبة، وعندما يفرغن من جمعها يعملن منها كتلة، أو كرة بحجم بيضة، ويدفعن هذه البيضة بأقدامهن الخلفية، ويرحن أقدامهن الأمامية على الأرض، وبذلك يدفعن الكرة خلفهن، ويسرن مثل سرطان إلى أي مكان تقودهن غريزتهن إليه.

وعندما كن يصلن إلى المكان الذي سترقد الكرة فيه، كانت الخنفسة تضع نفسها في الكرة، جاعلة إياها بيتها وطعامها، وعملت هذه الكرات دوما من مواد قذرة، أو من روث بعض الدواب، وغالباً ماوقفت شخصياً دونما حراك على الطريق، حتى أتمكن من مراقبة هذه الخنافس وهن يدفعن على طول الطريق كرات ضعفهن أنفسهن بالحجم، الشيء الذي لم أره قط في بلادنا، مع أن كثيراً منهن نشأن هناك من روث الخيول على الطرقات، وعلى هذا كان الذي حدث في قضيتي أن خنفسة وجدت بعض الروث، فعملته على شكل كرة مستديرة، ودفعتها إلى حذائي، وقصدت أن تكون ضيفي، وغالباً ماقمت بعد ذلك بإخبار السادة اللوردات الحجاج حول ذلك، وكيف أنني انزعجت جداً، وشككت بهم.

وأطلق يوسبيوس في مصنفه Praeparatio Evangelica— الكتاب الثالث، الفصل الثاني، على هذه الخنفسة اسم الجعل، حيث اعتاد المصريون القدماء على القول بأنها مخلوق مقيت بالنسبة لغير المتفقهين باللاهوت، لكن هي بالنسبة للمتفقهين تستحق أعلى احترام على أساس أنها نموذج حي للشمس، وكل فرد منها هو ذكر من حيث الجنس، وهي تضع بيوضها داخل الروث، ثم تعمل هذا الروث على شكل كرة، ثم تحتضن الكرة بين قدميها مثلما تحتضن الشمس السموات، وتنتظر الشهر القمري، ولسوف يجري شرح هذا في القسم

الثاني ص١٣٧ظ.

المناطق التي شاهدناها من جبال عين الجدي

وفي عودة إلى الموضوع الذي ابتعدت عنه، أقول: بعدما أمضينا الليل على سفح جبل عين الجدي— كما قلت من قبل— وعندما أشرقت الشمس، ارتحلنا صعوداً نحو الجزء الأعلى من الجبال، ووصلنا في أعلى القمم إلى مكان، حيث وجدنا أكواماً من الحجارة مكومة، وقد عملت من قبل المسلمين، تكريماً لموسى، لسبب سوف أتولى شرحه بعد قليل، وبناء عليه توقفنا علّنا نستطيع أن نشاهد المنطقة، لأننا كلما كنا في منطقة أعلى، كان يمكننا أن نرى أبعد وأعرض فوق المناطق على كل من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر للأردن، وجميع منطقة سدوم كلها تقريباً، وأرغب في هذا المكان بتقديم وصف مختصر لأجناس الناس، وللمناطق والأماكن التي رأيناها، وكنت قد قدمت لها وصفاً جزئياً، أثناء حديثي عن جبل القرنطل.

وألقينا قبلْ كل شيء بأبصارنا نحو الشرق، فرأينا جبال العربية، وكان الجبل الرئيسي بينها هو جبل تريمونيوس Trimonius، الذي يعرف في أجزائه المنخفضة باسم عبريم، وفي وسطه باسم نيبو Nebo، وعلى حوافه باسم فسغه، وكان ذلك هو الجبل الذي أمر الرب موسى بصعوده، حتى يمكنه من هناك رؤية الأرض المقدسة، التي إليها لايمكنه الدخول، كما جاء الخبر في سفر التثنية:٣٤.

ويوجد تحت هذا الجبل واد عميق وكبير، يطلق عليه اسم عربات مآب Galmoab، كما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التثنية، ويقول بعضهم بأنه عندما كان موسى على قمة جبل فسغة أمكنه وهو ينظر نحو الأرض المقدسة أن يرى جميع أسرار قداسات المسيح، وتجسده، وولادته، وحياته، وآلامه، وموته، وعندما كان منشغلاً بهذه التأملات

الحلوة جداً مات على الجبل، ودفنه الرب، وأخفاه في الوادي، خشية من الناس، الذين كانوا يميلون إلى الوثنية، أن يقوموا بتقديس جسده إذا أمكنهم العثور عليه، ولذلك حاول الشيطان، الذي رغب في جلب الوثنية، أن يريهم موسى المقدس، لكن ميكائيل أوقفه ومنعه من فعل ذلك، كما قرأنا في رسالة يود Jude العامة:٩.

غير أن جيروم في تعليقاته على عاموس، بدا وكأنه يرى بأن موسى قد رفع بشكل إعجازي إلى السماء مثلما وقع لإينوخ ولإيليا، لأنه قال:« لقد بنى مصعده، وصعد مع إيليا، ومع موسى، الذي لايمكن العثور على قبره، لأنه صعد إلى السماء»، وفي هذا الوادي، الذي قيل فيه دفن الرب موسى، قام النبي بإخفاء النار المقدسة، وتابوه الرب، ومذبح تقديمات الحرق، وخيمة العهد، وذلك حسبما جاء في سفر المكابيين الثاني:٥—٦.

ورأينا وادي عربات مآب المقدس هذا، واقع على مسافة بعيدة، وذلك على الجانب الأقصى للبحر الميت، ورأينا فسغة، والقمة العالية لجبال عبريم، ويوجد من قمة هذا الجبل مشهد يمتد حتى أرض مدين، ومن الممكن من هذه القمة أن يرى الانسان أيضاً سيناء وحوريب، ورأينا أيضاً منطقة مآب السهلية، وفوقها الجبل الذي من عليه حاول النبي بلعام أن يلعن بني اسرائيل، وكان بلعام قد اكتراه ملك مآب، وقد قال جيروم في كتابه«حول المسافات بين الأماكن»، بأن اسم ذلك المكان كان أغريسبكيولا Agrispecula ، وكان بلعام قد تولى مباركة الناس الذين في السهل تحت، عوضاً عن لعنهم، وذلك كما قرأنا في سفر العدد:٢٣.

وقمنا الآن بتحويل أبصارنا عن الشرق إلى الجنوب، إلى ماوراء البحر الميت، حيث رأينا بلاد قفار البتراء، لكن البتراء في القفار نفسها لم نستطع رؤيتها، وكانت هذه البتراء في القفار، في الأيام الخالية، قلعة في

غاية الحصانة في بلاد مآب، التي فيها ولدت راعوث، المآبية الفاضلة، والتي عنها قيل في الاصحاح الثالث من سفر راعوث:« إن جميع أبواب شعبي تعلم أنك امرأة فاضلة»، وكانت راعوث هذه زوجة بوعز، ومنها قُدّر في سلسلة النسب وجوب ولادة المسيح، ولهذا دعا النبي إشعيا في الاصحاح السادس عشر نفسه بأن يرسل المسيح من البتراء في القفار إلى القدس وقال:« أرسلوا الحمل، يارب، ياحاكم الأرض، من بتراء القفار إلى جبل ابنة صهيون، أي إلى القدس»، فهنا سأل النبي من أجل استمرار النسب من خلال السيدة التي ولدت في البتراء في الصحراء، ولهذا ورد في سفر نسب المسيح اسم راعوث بشكل واضح، وقال جيروم في رسالته إلى بولينوس:« حققت راعوث المآبية نبوءة إشعيا، في قوله: أرسلوا الحمل» الخ، وقال نفسه في رسالته إلى باولا:« راعوث الغريبة، التي من نسلها ولد المسيح»، وتحدث أيضاً في رسالته إلى روفوس عن راعوث، بأنها« أخذت من الأمم لتكون حصتهم في المسيح»، هذا ويمكن من دون تقدير لهذا المعنى الخفي، يمكننا أن نقول بأن النبي قد رأى مدينة القدس في مضائق عظيمة، وأنها في قبضة الأمم، فسأل من أجل ارسال حاكم لها من بتراء القفار، لأن البتراء كانت قلعة حصينة جداً، لايمكن الاستيلاء عليها، وكانت أمما كثيرة خاضعة لسيدها، وعلى هذا سأل أن يرسل صاحب البتراء في الفيافي للدفاع عن ابنة صهيون، التي هي القدس، لأنه عندما سيرسل مامن انسان سوف يحاول إلحاق أي أذى بالقدس.

وقام بلدوين الثاني، الملك اللاتيني للقدس بتحصين هذه القلعة(الكرك) بقوة بلغت حداً أن العالم كله لم يكن قادراً على الاستيلاء عليها، فقد بنى ثلاثة أسوار من حولها، ففي إطار السور الأول، كانت هناك صخرة مرتفعة جداً، ذات شكل مستدير، قامت على حافتها أبنية طويلة تشرف بعيداً على البلاد، وكان في الأسفل، عند سفح هذه

الصخرة ثلاثة ينابيع تتدفق بمياه صحية عذبة، تزودت القلعة منها بوفرة، ومنها أيضاً كانت تتم سقاية جميع الأرض الواقعة دون القلعة، وكان يوجد في داخل السور الثاني كروم جميلة، من ثمارها كانت تصنع كميات كبيرة من الخمرة، وكان في إطار السور الثالث حقول وبساتين، استخدمت لانتاج كميات عظيمة من القمح، والزيت، والأشياء الأخرى المحتاجة.

ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على هذه القلعة الجليلة، لولا أنه تمت خيانتها وسلمت إليهم من قبل مسيحي مزيف، وعندما جرى الاستيلاء عليها، وضع فيها سلطان ذلك الوقت أسن أولاده، حتى يكون سيد تلك القلعة مع قفار البتراء، فضلاً عن هذا أودع فيها جميع ثرواته، عادّاً إياها أكثر الأماكن أماناً لديه، وهي في هذه الأيام مستودع خزانة السلطان ملك مصر.

وتدعى هذه القلعة من قبل اللاتين باسم بتراء القفار، ومن قبل المسلمين باسم الكرك، ومن قبل الاغريق الشوبك Schabat، وعندما حدقنا بها بشكل كامل ركعنا باتجاه ذلك المكان، وحمدنا الرب الذي بعث إلينا من البتراء في القفار المسيح من خلال راعوث، المسيح الذي هو سيد الدنيا، وصلينا للرب من أجل أن تعود هذه القلعة إلى أيدي المسيحيين، وأن لاتبقى القدس مدة أطول بالأسر.

وهناك في هذه المنطقة نفسها مدينة اسمها أريوبولس، وهي تعرف أيضاً باسم البتراءأو البتريا، وكانت هذه فيما مضى المدينة الرئيسية في جميع العربية.

وليس بعيداً عن هناك توجد أيضاً مدينة أخرى حصينة الدفاعات جداً، اسمها ربه، فأمام هذه المدينة سقط أوريا الحثي بتدبير داوود، وعندما كانت على وشك السقوط، جاء داوود واستولى عليها، وانتزع

التاج من على رأس ملكـون، ملك ربه، وكان فيه جـواهر ثمينة، ورطل من الذهب Talent، وقد أذابه داوود، وعمل منه تاجـاً لنفسه، ووضع في وسطه الحجـارة الكريمـة مـن الجزع الذي لامثيل له، ووضعـه على رأســـه، وقـــد وردت أخبـــار هـذا كله في سفـــر صمـــــوئيل الثاني:١٢/ ٣٠—٣١، وسفر أخبار الأيام الأول:٢٠/ ٢.

وبعد المناطق المتقـدمة الذكـر على شاطىء البحـر الميت، توجد أرض أدوم، التي فيهـا يـوجـد الطريق مـن أرض اسرائيل إلى أرض مـآب وعمون، وتمضي من حـول البحر الميت، وهي قفـار جرداء لامـاء فيها، وفيهـا كاد أن يهلك فيها مضى ثلاثة ملـوك مع جيوشهم بسبب الحاجـة إلى الماء، لكن الرب أعطاهـم الماء بمعجـزة،حسبما جـاء الخبر في سفـر الملوك الثـاني:٣، وعندمـا حصلوا على الماء، ووصلوا إلى بلاد مـآب، دمروها بشكل في غاية الوحشية، وذلك حسبما ورد في الاصحاح نفسه.

وصرفنا أعيننا مجدداً ، وحـولناها عن هذه الأمـاكن، فـرأينا على هذا الجانب من الأردن والبحـر الميت المكان الذي اسمـه بيت حجلة، حيث أقـام بنو اسرائيل مناحـة عظيمـة على جســد البطريرك يعقـوب، أباهم المتـوفى، الذي كانوا قـد جلبوه من مصر ليـدفنوه في حبرون، في الكهف المزدوج، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحـــاح الأخير مـن سفـــر التكوين، وعـــرفت بيت حجلة بـاسم قـريات لـدى جيروم« حـــول المسافـات بين الأماكن»، وهـي تبعد مسافـة فرسخ واحـد عن الأردن، وكان هناك قبل وقتنا بقليل دير للرهبان الاغريق، علاوة على ذلك رأينا في تلك البلاد مدينة أغريبا Agrippa، التي أطلقوا عليها في Historia Ecclesiastica— الكتـاب الثـاني، الفصل الرابع اسم بيـــلا(فحل)، وكانت الكنيســة المقدسـة قد انتقلت إلى هذه المدينة من القدس، حيث تلقت انذاراً من الروح القـــدس، لأن تهرب بذاتها قبل حصـار القـدس من قبل تيتوس وفاسبسيان، وذلك خشية أن تشارك في المأساة الكبيرة.

وعلى مقـربة من هذا المكـان، عبر الأردن ، هناك بيت عنيـا أخـرى، فيهـا قـام يوحنا بالتعميـد أولاً، وفيهـا أقـام الرب يسـوع بعض الوقت عندما هرب من اليهـودية، وذلك حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا:٤، وذكر بعضهم أن اسم المدينة التي إليها هرب الرب افرايم، وإليها التجأ مع تلاميذه، فهذا ماورد في انجيل يوحنا:١١، وكـانت قريبة من القفار، عبر الأردن، وبشكل عام، هرب الذين وقعـوا في مشاكل من اليهودية، إلى عبر الأردن، مثلما حـدث مع داوود، فعندما حـدثت له مشـاكل مع شـاؤول، أحضر والده وأمـه إلى ملك مـآب، حسبما ورد الخبر في سفـر صموئيل الأول:٢٢، هذا وقـال القديس جيروم المبارك في كتـابه« حول المسافات بين الأماكن» بأن المدينة التـي اسمها إفرايم، والتي إليها هرب الرب يسـوع للالتجاء، كـانت في ديار سبط يهوذا، ولم يكن لسبط يهوذا حصة عبر الأردن، وقال خريسوستوم بأن إفرايم هي إفراتا، وإفراتا هي بيت لحم، وواضح هنا أن البيرتوس مـوافق على هذا، في تعليقـاته على يوحنا، لأنه قال بأن الرب قـد جاء إلى افرايم لأنه امتلك هناك اصـدقاء ومعـارف، لكن هذا أيضـاً لايتـوافق مـع النص، الذي قـال بأن افـرايم كانت على مقـربة من القفار، في حين ليست بيت لحم قريبـة من القفار، مالم يختر الانسـان القول بأن المقصـود هو الأماكن الصحـراوية لسدوم، التـي تمتـــد حتـى جبـل بيت لحم، وأنها هـي التـي قصـــدهـا الانجيلي(يوحنا:١١)، ورأينا أمـاكن أخـرى كثيرة عبر الأردن، في بلاد جلعاد، وعبر البحر الميت، في أرض عمون ومـآب، وبعد رؤيتهم حولنا أنفسنا للتحديق بالأماكن التي كانت أقرب إلينا.

الأماكن حول البحر الميت من جهته الغربية وأكثر من ذلك حوله نفسه

وبعدما فرغنا من رؤية الأمـاكن الواقعة على الجانب الآخر من البحر الميت، ومن الأردن، ثبتنا أنظارنا على البحر نفسه، وتعجبنا نحو الدخان

هناك، لأنه مثلما حـدث مع ابراهيم بعدمـا صعد على الجبل في الصبـاح الباكـر، ونظر نحو سدوم، وعمـوره، ونحو جميع أرض السهل، وتطلع وإذا فجأة قد تصـاعد دخـان المنطقة مثل دخـان أتون، حسبما جاء الخبر في سفـر التكوين:١٩، حـدث مثل هـذا معنا نحن، فلدى تطلعنا نحـو تلك المنطقة، رأينا غيمة صـاعدة، لكن ليس من النار، بل من الماء، مثل الدخـان الصـاعد من أتون، وجميـع الأماكن التي بللهـا ذلك الضبـاب وتلك الغيمـة قـد تسممت، وتحولت إلى قـاحلة وبلا فـائـدة، بالطول وبالعرض حـول حدود ذلك البحر، وذلك كعلامـة دائمة على الغضب الرباني الدائم، ضد أهل سدوم الذين كانوا أكثر الناس شروراً.

★★ ★★ ★★

وبعدما نظرنا إلى البحر الميت، رأينا على الشاطىء هناك، على الطرف القـريب، وذلك باتجاه النهـاية الجنوبية، المكان الـذي اعتاد أن يقف فيـه تمثال الملـح الذي تحولت إليه ميـلاسيدا، زوجة لوط، لأنها نظـرت نحو الخلف، على الرغـم من أن الملاك حظر عليهـا فعل ذلـك، وكـان هذا وقت احتراق أرض أولئك القوم الأشرار، وكـان هذا التمثال يقف فيما بين صوغر والبحر، وكان هذا التمثال حجرياً من الرخام الأبيض، وقد قيل بأنه مايزال قـائماً هناك، لكنه الآن مغطى بالبحر، وعندما كـان قائماً على الشاطـىء اعتادت الحيوانات على أن تحتشـد حوله، وتقـوم بلحس الملح من عليه.

وإلى جـانب هذا التمثـال، يوجد في تلك المنطقـة كثيراً من الصخـور الرمليـة والحجـارة، وقـد ورد الحديث عن تمثـال ميـلاسيـدا في سفـر التكوين:١٩، وقال يوسفيوس بأنه قد رآه، ونحن في الحقيقة رأينا المكان الذي كـان فيـه، في منتصف الطريق فيما بين البحر وبين جبـل صوغـر، لكن التمثـال نفسـه لم نستطع رؤيته، ثم إننا لم نكـن واقفين على مسافـة قريبة كافيـة، حتى نميز بين الصخور حجم إنسان، ومع ذلك رأيناه من

خلال عين الايمان الثابت، لأننا نؤمن بالكتابات المقدسة التي تحدثت عنه، ولقد نظرنا نحو المكان باهتمام كبير، وتعجبنا نحو معجزة هذا التمثال المدهش والمثير للاستغراب.



ورأينا فوق مكان هذا التمثال المتقدم ذكره، صخرة كانت بوضعها كما هي مشرفة على البحر، فعلى هذه الصخرة قام فيما مضى مدينة صوغر، التي كانت احدى المدن الخمسة للسدوميين، وقد عرفت هذه المدينة باسم آخر هو بالع، وذلك حسبما ورد في سفر التكوين:١٤، وإلى هذه المدينة كان لوط قد صعد، عندما كانت المنطقة تحت تحترق، ومن أجله استثنيت من الاحتراق، وكان عندما رأى المنطقة كلها تحترق ولحقها الدمار، صار خائفاً، وهرب مباشرة إلى قمم الجبال، وحدث على كل حال أنه عندما ابتعد عن صوغر، تهدمت بوساطة هزة أرضية، وسقطت مع جميع الذين سكنوا فيها، واحترقت مع سدوم.

وفوق صوغر هناك جبل مرتفع، إليه صعد لوط مع ابنتيه، خشية الاحتراق بالنار.... وهنا حملت ابنته الكبرى بولد، كان اسمه مآب، وحملت ابنته الصغرى بولد أطلق عليه اسم عمون، ومن ابنتي لوط هاتين انحدر شعبان عظيمان، عنهما نقرأ في سفر التكوين، وغالبا ماورد الحديث عنهما في أسفار الكتابات المقدسة، وكان هذا الجبل إلى جانبنا، وبسرور حدثت السادة الحجاج بحكاية لوط وابنتيه، وكان على جانبنا الآخر جبال القرنطل وقفار أدوميم، وقد تقدم لنا وصفهما من قبل.

وبعد مشاهدتنا للأماكن المتقدمة الذكر، ألقينا بأبصارنا على المكان الذي وقفنا فيه، حيث رأينا كوماً كثيرة من الحجارة، جمعت من قبل المسلمين، كما سلف لي الحديث من قبل، وقام المسلمون بتكويم هذه الحجارة تشريفاً لموسى، لأنه من هذا المكان يستطيع الانسان أن يرى

بوضوح جبال عبريم، وقمة جبل فسغة، التي منها رأى موسى ميراث الرب، كما سلف لنا وتحدثنا من قبل، ولهذا يقوم المسلمون، عندما يقدمون إلى هذا المكان بعمل كوم من الحجارة، ويصلون وهم يتطلعون نحو الجبل، على ركبهم المنحنية، ومثل هذا يفعل المسيحيون لأنهم عندما يرون من مكان بعيد أي مكان يمكن الحصول عليه على غفرانات، ينصبون أيضاً صلبانا، وكوماً من الحجارة، وليس بعيداً، عن هذه الأكوام رأينا هرما عاليا قد بني حديثاً، تحته يقول المسلمون بشكل زائف بأن موسى قد دفن، وهذا معارض لشريعة الكتاب المقدس حسبما ورد في الاصحاح الأخير من سفر العدد.

وهكذا يفعلون بالنسبة إلى جميع القضايا الأخرى، فهم يتبعون التوراه عندما يرغبون، لكن عندما لايرغبون بذلك، يعارضونها بكل عناد، على الرغم من صدقها.

وكان اسم الجبل الذي وقفنا عليه، جبل عين الجدي، وكذلك نجد أن اسم الجبال المتصلة به في سفر التكوين:١٤، وفي سفر أخبار الأيام الثاني:٢٠، هو «حصون تامار»، كما كانت فيما مضى بلاد العموريين، وقال القديس جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، بأن عين الجدي موجودة في ديار سبط يهوذا، وذلك في القفار الموجودة في الوادي فوق البحر الميت، وقال بأنها كانت في أيامها هناك بلدة كبيرة جداً، وإلى موضع عين الجدي هذا كان داوود قد هرب من وجه شاؤول، لكي يكون هناك آمنا، في حصن منيع، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٤.

وفي الحقيقة هذه الجبال عالية ووعرة، يتخللها عدد كبير من الكهوف، ومليئة بالجروف، وكان بين هذه الكهوف، كهفاً عميقاً، وكبيراً ومظلماً، وكان موجوداً في واد كثير الأشجار، وذلك على جانب صخرة عالية جداً، وكان له مدخل عريض، يشرف على صخور

منحدرة كثيراً، ومن المناسب تسمية هذا الكهف باسم مدرسة رحمات داوود، لأنه في هذا الكهف التجأ داوود ورجاله المسلحون، وأخفوا أنفسهم في أقصى أماكنه الداخلية، وذلك عندما سمعوا بأن الملك شاؤول كان يزحف مع ثلاثة آلاف رجل فوق هذه الصخور المنحدرة جداً، التي يمكن عبورهافقط من قبل الوعول أو تيوس الجبل، وقد دفعته الغيرة إلى هذه الأماكن التي لايمكن الوصول إليها، بسبب أنه لم يكن بامكانه تحمل غناء الناس، الأغاني التي اعتادوا على غنائها بشكل جماعي، وفيها أعطي المدح إلى داوود أثناء الغناء أكثر مما أعطي له في قولهم:« قتل شاؤول آلافه، لكن داوود قتل عشرات الآلاف»، وهكذا جاء شاؤول نازلاً مع رجاله إلى كهف داوود، والذي حدث هناك يمكن القراءة عنه في سفر صموئيل الأول:٢٤.

★★ ★★ ★★

كرم عين الجدي

علاوة على ذلك، قام فوق هذه الجبال هناك فيما مضى كرم عين الجدي الواسع الشهرة، حيث نما هناك البلسم الذي لايقدر بثمن، وقد زرع هذا الكرم في موضع عين الجدي من قبل الملك سليمان، وقال مصنف Speculum Historiale على لسان يوسفيوس بأن ملكة سبأ، التي قدمت إلى القدس من أطراف الأرض من أجل الاستماع إلى حكمة سليمان، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الأول:١٠، جلبت معها هدايا ثمينة كثيرة، كان من بينها جذور البلسم بمثابة هدية لايقدر ثمنها، وقد زرع الملك هذه الجذور على جبل عين الجدي، وقد نمت على شكل كرم هناك[٢٤٧]، وقد ورد ذكر هذا الكرم في نشيد انشاد سليمان حيث قال« محبوبي مثل عنقود كافور في كروم عين الجدي»، وهذا الكرم موجود الآن في مصر، ولسوف أذكر في المستقبل من الذي اقتلعه ونقله، وفضائل البلسم والكافور، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم إلى

الأرض المقدسـة، بأن بعض الحجـاج قاموا بـالتجول فوق هـذه الجبال، وهم يبحثون بعناية، وأنهم وجدوا في أحد الأماكن غرسات من البلسم إنما دون أغصان، ونما فيما مضى على هذه الجبال كـروم عنب ممتازة، من خمرتها، يعتقـد أن ابنتي لـوط قـد أسكرتا ابيهما، حسبما قـرأنا في سفـر التكوين:١٩، ولو أن هذه الجبـال امتلكـت في هذه الأيام أية مـزارعين، لأنتجت ثمار ثمينة بوفرة.

عودة إلى القدس

وعندمـا فرغنا من رؤية المناظر المتقـدمـة الذكر، تحولنا مبتعـدين عن الشرق، وذهبنا صـاعـدين التلال نحـو القـدس، وفي واحـد من الطرق المقعـرة، بدأ البغل الذي امتطيتـه يعـدو مسرعـاً— لسبب لم أعـرفـه— محاولاً سبق الآخـرين، وعندمـا حـاولت كبحة بـوساطة المقـود، رمـاني أرضاً، وعـانيت من وقعة ثقيلة، وعندما رأى دليلنا حامـد هذا قفز من فوق ظهـر حصانه، والتقطني ورفعني من حيـث كنت متمدداً، وضرب على أطرافي، وحـرك مفـاصلي، ثم أمر واحـداً من خـدمـه بجلب بغلي، الذي كان يعـدو فاراً هناك، وفي الحقيقـة أبدى هذا المغربي غير المسيحي نحوي كثيراً من اللطف أثناء اضطرابي، بقدر يعادل أعظم مايستطيع أن يفعله مسيحي رقيق القلب، وبعـدمـا انتعشت كثيراً، رفعـوني إلى ظهـر البغل، لأننـي لم أستطع أن أعين نفسي بذراعي، هـذا ولم ينكسر أي من أطرافي الأمـر الـذي أدهش حـامـد وأبهجـه، لأنني سقطت— والبغل يعدو— بشـدة كبيرة على الصخور، ودعـوت إلى الرب أن يضفي رحمته على ذلك المسلم، مثلما أضفى رحمته عليّ، وبناء عليه أسرعت أنا وحامد وراء رفاقي، الذين كـانوا قد قطعـوا مسافة طويلـة أمامنا، ومثلهم سرنا صـاعدين في وادي جهنم، وعندمـا كنا مـانزال في قلب الوادي، ونظرنا نحـو الأعلى، أمكننا أن نرى مدينة القـدس المقدسـة، وهي تلمع عاليـاً، وتأثـرنا بهذا المشهـــد مثلما حـــدث لنا من قبـل، وعندمـــا وصلنا إلى

المدينةالمقــدسـة، حــدثنا إخـوانـا، الذين مكثـوا خلفنـا عن كل الذي شاهدناه، وعن كل الذي وقع لنا ونحن على الطريق.

قلق الحجاج من أجل الانطلاق إلى جبل سيناء

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان يـوم عيد القديس هبولايت Hip-polyteورفاقـه، بعد سماعنا قـداساً على جبـل سيناء في الصباح البـاكر، ذهب السـادة الحجاج إلى مكانهم، وأخذنـا نتشاور حول مغـادرتنا التي كنا متشوقين إليها، وبدا لنا أن كالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، كان يؤخر مغـادرتنا وسفرنا من القـدس، وأن أي تأخير أطول سوف يكون مؤذياً لنا، ولم يكن ذلك— في الحقيقـة— لأننا كنا قد مللنا من الإقـامة في المدينة المقـدسة، التي أقمنا بها ونحن راغبين كثيراً، وكنا سعـداء، بل الذي كنا نخشاه هو أن نضيع مواعيد سفن التجار في الاسكندرية، التي أعددنا أنفسنا للابحار على متـونها إلى إيطاليا، ولكي لانرغم على امضاء الشتـاء في الاسكندرية، الأمر الذي سيكـون مؤذيا لنا إلى أبعـد الحدود، ولذلك ذهبنا كلنا إلى بيت السيـد جـانم، حاكـم القدس، حيث وجـدنا معه السيد فكاردينوس Vacardinus وأدخلنا إلى حضرته، وبعدما سمعـا ماقلناه، أمـرا باستدعـاء ترجماننا Sabbathytanco ، وأمراه بالانطلاق بنا بكل سرعة، وبعـد نقاش فيما بينهم، أخبرونا أنه لابد من إقامتنا في القدس مدة عشرة أيام أخـرى، بعدها سوف نبدأ من دون أي تأخير سفــرنا في القفــار، وقـالـوا لنا:« أعـدوا أنفسكـم في هذه الأيام وجهـزوها بجميع الأشيـاء المحتـاجـة للـرحلة من بقسماط وتين يابس، وخمرة، وهكذا دواليـك»، وبهذه الكلمات سمحـــوا لنا بـالمغـــادرة إلى أماكننا.

وشرعنا في ذلك اليـــوم نفسـه باعـداد أنفسنا، ودفع كـل واحـد منا دوقيتين إلى غـــــازيلوس حتـى يعطينـا إذنا لشراء خمرة مـن كل مـن المسيحيين واليهـود، وكـان غـازيلوس مسيحيـاً مـن ذوي الزنار، وهو

يشغل وظيفة تابعة للسلطان، وكانت المسألة التي هي في إطار سلطته: أن لايسمح لمسيحي بشراء خمرة، من دون أن يدفع ضريبة له، وإذا ماجرى خرق هذا القانون، وعرف هو ذلك، كان يقوم باقتحام الأماكن التي إليها جلبت الخمرة التي شريت، ويصادرها شخصياً، أو يقوم بكسر القوارير، ويترك الخمرة تجري فوق الأرض، ومن هذا اليوم حتى يوم مغادرتنا، عانينا من اضطرابات كثيرة وعملنا جاهدين لتجهيز أنفسنا بكل ماكنا بحاجة إليه للسفر خلال القفار، وحملنا معنا جميع الأشياء التي جهزناها إلى جبل صهيون، إلى دير الرهبان هناك، ووضعناها في بيعة القديس فرانسيس، تحت الكنيسة، وخلال بضعة أيام ملأنا البيعة كلياً بالبقسماط، وبالحقائب، وبالقوارير الزجاجية، والقدور، وعملنا كومة كبيرة، بين فئاتنا الثلاثة، وفي ذلك اليوم نفسه، ذهبت عند المساء أنا واثنين من الفرسان إلى وادي شعفاط، للقيام ببعض الأعمال، وعندما أنهيناها، زرنا الأماكن المقدسة على جبل الزيتون، وعندما كنا على القمة هناك، في كنيسة صعود الرب، غابت الشمس، وبات من غير الممكن لنا دخول المدينة، إذا أمسكنا الظلام، ولذلك سرنا خلال شوارع المدينة بخوف عظيم، فضلاً عن هذا أضعنا طريقنا، وذهبنا إلى هنا وهناك حتى وصلنا أخيراً إلى شارع كنا نعرفه، ووصلنا إلى أماكن سكنانا بسلام.

كيف جرى الاحتفال بعيد صعود العذراء في القدس

وفي اليوم الرابع عشر، الذي كان عشية عيد الصعود، صعود مريم العذراء الأعظم مباركة، وبعد مضي نصف النهار، بدأنا بالاستعداد للاحتفال بعيد اليوم التالي كما يلي: فقد دخلنا غرفة ذخائر الرهبان، وأخرجنا منها قطعة عريضة من قماش الكتان، وحملناها إلى المكان الذي حملت منه العذراء المباركة، ورفعت، هذا وكنا قد وصفنا هذا المكان من قبل، ومددنا قطعة القماش هذه فوق المكان على شكل خيمة، مع أعمدة

وحبال، وعلقنا زرابي حولها عوضاً عن الجدران، وبذلك عملنا بيعة جميلة، وغطينا المذبح الموجود في ذلك المكان بقطع أقمشة ثمينة، وزيناه بصور وتماثيل، وأوعية قرابين مقدسة، وشمعدانات فيها شمع، علاوة على ذلك جلبنا إلى هناك غصنا من الزيتون فيه أوراق، وسعف نخيل، ونشرنا حول المكان أعشاباً وزهوراً، وبذلك صنعنا كهفاً مقدساً جميلاً.

وعند حلول المساء، ارتدى الأب المسؤول ثوباً ثميناً، ووشاحين، وحامل صليب، وحامل بخور، وكان القندلفتات جميعاً في أرديتهم المقدسة، وقد احتلوا أماكنهم في كنيسة الرهبان، وعندما بات الجميع جاهزين، سرنا بوقار عظيم، ومشينا بمسيرة منتظمة من كنيسة جبل صهيون، إلى موضع انتقال العذراء المقدسة، ونحن نغني ترنيمة«Et ibo mihi ad montem myrrhae »الخ، وبعد الفراغ من هذه الترنيمة، غنينا أغاني العشاء وترانيم العيد بأصوات مرتفعة، في البيعة التي عملناها، ولم نتعرض للازعاج بأي شكل من الأشكال من قبل المسلمين، بل الذي حدث أنهم عندما سمعوا غناءنا، جاءوا إلى المكان، ووقفوا فاغرين أفواههم.

وفي الوقت نفسه تجمع عدد كبير من المسيحيين الشرقيين مع بعضهم، وقاموا بعد الفراغ من قداسنا، فدخلوا إلى البيعة مع كهنتهم، وشرعوا بأعمالهم التعبدية، وأقاموا في تلك الليلة قداسات هناك وفقاً لطقوسهم، هذا وقد دخلنا إلى الدير وعملنا وجبة بسيطة، بشكل تناسب الذين كانوا صياماً، وبعدما تناولنا العشاء نزلنا جميعاً من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، ومضينا إلى كنيسة ضريح العذراء المباركة، واقتدنا معنا حماراً محملاً، حمل زينتنا وأشياء أخرى محتاجة من أجل تزيين المكان، ومن أجل إقامة القداسات، وعندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مليئة بالمسيحيين الشرقيين من كل من الرجال والنساء، ولذلك ابتعدنا عنهم إلى زاويتنا الخاصة، حيث كان المذبح اللاتيني،

وأبعدنا مـن هناك المسيحيين الشرقيين الآخرين، الذين قـدموا إلى هناك قبلنا، وأشعلنا مصـابيح، لأن ذلك المكان يفتقـر إلى الاضـاءة الطبيعيـة، ويمكن أن يضاء فقط بالمصابيح.

وعلقنا زربيـة حول مـوضعنا، وزينا المذبح، وأشعلنا عـدداً كبيراً من الشمـوع، وغنينـا قـداسـا خـاصـاً بشكل جماعي، ولدى وصـولنا إلى «Salve Regina»، مشينا من مـوضعنا في مسيرة عظيمـة، ودرنا خلال ضريح مريم العذراء الأعظم مبـاركة، ومن ثم عدنا إلى موضعنا، وبعـــد« Salve » كرسنا أنفسنا للسهر خلال الليل عند ضريح العـذراء المجيـدة، والذين لم يكـن بامكانهم السهـر جلسـوا سـاندين رؤوسهم إلى الجدار، لكننا نلنا راحة قليلة لأن المسيحيين الآخرين كانوا ينبحون في أماكنهم المتعددة أثناء تأديتهم لقداساتهم طوال الليل، ومامن مكان كان مـزينا بشكل جميل أكثر من مكاننـا، كما لم يكن أي غناء أكثر وقـاراً من غنائنا، لأن المسيحيين الشرقيين يحتفلون قليـلاً في قداسـاتهم، ويبـدون وكأنهم يولولون ولايغنـون، ومن أجل وصف لهذه الكنيسـة، وشكلها وترتيبـات أماكنها المقـدسة، إنظر مـاتقدم في ص٥٨٩، وهكذا مضت تلك الليلة.

عيد الصعود المجيد لمريم العذراء المباركة

عند منتصف الليل، في اليـوم الخامس عشر، شرعنا بقـداس مـا بعـد منتصف الليل، وبعـدما غنينا بـوقار هذا القـداس، احتفلنا بإقـامة عـدة قداسات خـاصة في ضريح العذراء المباركـة، وكان ذلك بقدر المستطاع، عندمـا تمكنـا من الحصـول على مكان هناك، لكن الـذين لم يجدوا مكاناً هناك، أقاموا القداس عند مـذبح اللاتين، وعندما اقترب حلول الفجر، غنينا قداساً في مكاننا بأصوات مرتفعـة، ولقد غنينا بأصوات مرتفعة إلى حد أن نباح المسيحيين الشرقيين الآخرين لم يعـد مسموعاً، وعند الفراغ من هذه القداسـات، رفعنا جميع الزينة وبعثنا بها قبلنا إلى جبل صهيون،

في حين قمنا نحن بزيارة الأماكن المقدسة على جبل الزيتون، حيث حصلنا على غفرانات، وذهبنا بعد هذا إلى جبل صهيون، وتناولنا طعام الغداء هناك، وبعد الغداء تمددنا للاستراحة بسبب السهر الذي قمنا به.

الحج الانفرادي للراهب فيلكس فابري إلى بيت لحم وإلى بعض الأماكن الأخرى

وسألت في بعد ظهر يوم صعود العذراء الأب المسؤول لمنحي إذنا للذهاب إلى بيت لحم، وأن يبعث معي واحداً يرافقني على الطريق، لأنني امتلكت رغبة لأن أكون وحيداً في بيت لحم بعيداً عن حشد الحجاج، وأعطاني الأب المسؤول راهبين جيدين ليرافقاني، وتركني أذهب، وبناء عليه انطلقنا معاً من القدس بشكل سري، وبدون علم أحد، وذلك خشية أن يكون معنا المزيد من المرافقين، وارتحلنا رحلة طيبة على الطريق الذي كنت قد تحدثت عنه منذ ص٦٦٨، وهكذا وصلنا إلى قبراتا حيث يوجد قبر راحيل، وإلى جانبه رأينا قرية بازق، التي نقرأ عنها في سفر القضاة:١، حيث قتل بنو اسرائيل عشرة آلاف رجل، ووجدوا هناك أدوني بازق، ملك القدس، فقطعوا يديه وقدميه، مثلما كان هو قد فعل شخصياً بسبعين ملكاً زحفوا تحت مائدته، وكانوا يلتقطون طعامهم بأفواههم، وقد رغبت بدخول هذه القرية، وأن أرى المكان، لأنني وبقدر مااستطعت لم أمر بمكان معروف بالنسبة لي من خلال الكتابات المقدسة القانونية، من دون أن أزوره، وبناء عليه انعطفنا نحو اليمين خروجاً على الطريق العام، إلى قرية بازق، ومررنا من خلالها، وهي كبيرة، وغير مسكونة من قبل المسلمين، بل من قبل المسيحيين الشرقيين فقط، ولم يتملكها المسلمون قط، وحدث على كل حال في هذه الأيام أن قام واحد من أهل هذه القرية بالاعلان عن تخلية عن الديانة المسيحية، وختانه واعتناقه للاسلام، وهو ساكن هناك في هذه الأيام ذئباً بين شياه، ويصنع في هذه القرية خمرة رائعة ومتفوقة في

قوتها، وهي عندما تشربها صرفة، مع أنها لاتؤذي الرأس، تجدها تمتلك قوة تحرق الجوف والأمعاء، ولذلك يتوجب على الانسان مزجها بكثير من الماء، وأنا لاأتذكر أنني شربت خمرة أفضل منها.

وتابعنا سفرنا من بازق، فوصلنا إلى بيت لحم، حيث جرى الترحيب بنا بلطف من قبل الأب المسؤول والرهبان، وعملنا عشاءً جيداً، وبعد العشاء أخذت إلى قلاية للاستراحة لكن وأنا أقوم بالاستراحة هناك، هرب النوم من عينيّ، وتمددت فوق فراشي لبعض الوقت وأنا مستيقظ تماماً، ثم لمللي من الرقاد، نهضت، وودت أنني لو كنت في الكهف المقدس لميلاد المسيح، لكنني لم امتلك أملاً بالتمكن من الدخول قبل منتصف الليل، لعلمي بأن جميع الأبواب كانت مغلقة، ومع ذلك خرجت بهدوء من قلايتي، ودخلت إلى بيعة القديس نيقولا، التي كان الرهبان فيها يتلون صلواتهم الساعية، وفي هذه البيعة كان هناك باب سري خاص من خلال ممر ضيق إلى الكهف المقدس، وهو باب يسعى الرهبان غاية جهدهم لإبقائه سرياً، خوفاً منهم من المسلمين والمسيحيين الشرقيين الذين ماكانوا ليسمحون بذلك، كما تقدم لي وتحدثت عن ذلك، ومضيت من خلال هذا الباب دونما أي أمل، لكنني وجدته مفتوحاً، ودخلت بسرور عظيم، وأخذت طريقي خلال ممر منجور في الصخر، ووجدت الباب في النهاية الأخرى أيضاً مفتوحاً، من خلاله عبرت إلى الكهف الأعظم قداسة، الذي وجدته مضاء بعدد كبير من المصابيح، ووجدت البابين اللذين يمر الانسان من خلالهما ويذهب إلى الكنيسة مغلقين بشدة، ولدى ايجادي نفسي وحيداً في الكهف المقدس، قلت وأنا مسرور: «مبارك هو الرب، ومباركة هي جميع المعيقات لنومي واستراحتي، حيث بذلك أمكنني البقاء في هذه العزلة التعبدية الأعظم سروراً إلى جانب مهد المسيح الجميل»، ولذلك أخذت نفسي للقيام بسهر مقدس، وأمضيت الساعات وفق أحسن ماستطعت وماعرفت،

لأن هذا المكان في الحقيقة في غاية العذوبة، ويدفع نحو التقوى، كما قلت من قبل، ومن السهل والممتع البقاء بدون نوم إلى جانبه.

زيارات إلى الأماكن التالية التي كقاعدة لايؤخذ الحجاج إليها

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس عشر، احتفلنا بقداس في الكهف الأعظم قداسة، وبعد القداس صعدنا إلى موضع الرعاة، الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وغنينا هناك Gloria In excelsis مع الملائكة، وبعد هذا صعدنا ثانية إلى بلدة بيت لحم، فتفحصناها عن قرب، ثم ذهبنا إلى الدير لتناول الغداء مع الرهبان، وقبل أن نتناول طعامنا ذهبنا إلى مدفن الدير، حيث كانت هناك قبور الرجال الثلاثة الذين قاموا مع يوسبيوس وعادوا من الموت، حسبما جاء في رسالة سيرل أسقف القدس إلى أوغسطين، وبعد الغداء قلنا وداعا إلى الأب المسؤول، وذهبنا إلى بيت في بلدة بيت لحم، عائد لواحد مسيحي إغريقي، كان معروفا إلى واحد من الراهبين اللذين كانا برفقتي، وعندما سمع هذا الرجل عن المكان الذي نود زيارته، أعطانا أربعة حمير، ثلاثة لنا أنفسنا، وواحد لابنه، الذي أرسله معنا ليكون خادمنا، وليعتني بالدواب، وركبنا الآن ومضينا نازلين من جبل بيت لحم، باتجاه الجنوب، على طول مجرى الماء الذي يحمل الماء إلى القدس، ووصلنا إلى قرية اسمها بيت عير Bethyr، التي على مقربة منها ريف جميل، أنا لم أر شبيها له في جميع الأرض المقدسة، لأن الوادي كله القائم تحت القرية كان مليئاً بكثافة بأشجار الفواكه، مع أشجار من مختلف الأنواع مثل غابة، وهم يعتقدون بأن هذه الحدائق قد غرست من قبل سليمان، وأنه هنا كانت حديقة البهجة، التي عنها قال في سفر الجامعة:٢/ ٥—٦:«عملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع ثمر»، وإلى هذه الحديقة اعتاد سليمان أن يسوق عربته الذهبية، مرافقاً بشباب مسلحين، وذلك كلما أراد أن يخلد إلى

السرور، وذلك حسبما حدثنا يوسفيوس في مصنفه « التواريخ القديمة لليهود»— الكتاب الثامن— الفصل الثالث، وغالباً ماقام بدعوة طائره مع أغاني حب قائلاً:« قد دخلت جنتي ياأختي وياعروسي»، (نشيد الانشاد:٥/ ١)، فضلاً عن ذلك لقد رغب بريح مناسبة (نشيد الانشاد:٤/ ١٦) بقوله:« استيقظي ياريح الشمال، وتعالي ياريح الجنوب، هبي على جنتي فتقطر أطيابها»، وقد اعتاد سليمان على امضاء كثير من وقته في هذه الحديقة، إلى حد أنهم عندما كانوا لايعرفون أين كان، اعتادوا على أن يبحثوا عنه فيجدونه في الحديقة، وبناء عليه عندما سألت بنات القدس العروس « إلى أين توجه حبيبك» أجابتهن« حبيبي نزل إلى جنته إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنات ويجمع السوسن»(نشيد الانشاد:٦)، لأنه زرع في تلك الحديقة حشائش حملت توابل وثماراً جيدة، مثل الكافور، والزعفران، والناردين، والوج، والبلسم، والقرفة، مع جميع أخشاب لبنان، والمرّ، والألوة، وجميع أنواع التوابل الرئيسية حسبما قرأنا في نشيد الانشاد:٤، وكانت هناك الأعناب، وأشجار الجوز، وفي هذه الأيام لم يعد هناك توابل، والذي بقي أشجار تحمل البرتقال، والرمان، والتين، والزيتون، والتوت، والجوز، والتفاح، مثل حديقة البهجة، التي يبدو أنها تتوافق مع بيت الشعر في نشيد الانشاد:٤/ ٣:«أغراسك فردوس رمان مع أثمار نفيسة فاغية وناردين».

برك الملك سليمان

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الحدائق البهيجة، صعدنا منهن وسرنا على طول شاطىء جدول صغير، من مياهه تسقى هذه الحدائق، بطريقة أن مجرى الماء الذي به تجري المياه إلى القدس كان على يميننا، وكانت القناة التي تجري بها المياه التي تسقي الحديقة، على يسارنا، وهكذا سرنا فيما بينهما، ووصلنا إلى ثلاث برك كبيرة، قائمات احداهن تحت الأخرى، وهذه البرك، التي—كما قالوا— تحدث عنهن سليمان في الجامعة

بقوله:«عملت لنفسي برك مياه لتسقى بها المغارس المنبتة الشجر»، وهذه المغارس هي التي قد أعطت أشجار الحديقة المتقدمة الذكر، التي إليها تساق المياه خلال قناة من البرك الثلاثة.

وهذه البرك كبيرة جداً، وقد عملت نتيجة جهود عمل عظيمة بوساطة أدوات حديدية حادة، التي بها حفرت أقسى الصخور والحجارة ونجرت بالطريقة الطولانية والعرضانية في وسط الوادي، الذي تطل عليه من على الجانبين جبال عالية ووعرة، وهذه البرك معمولة وفق طريقة أن المياه الجارية العذبة تصب في البركة الأولى التي هي الأعلى، وتملأها، والماء بعد هذا يجري إلى الثانية، القائمة تحتها، وبعد هذا تجري المياه من هذه البركة الثانية إلى البركة الثالثة، ومن هذه البركة تجري المياه خلال مجرى ماء إلى حديقة البهجة، ويوجد من هذه البركة مجرى ماء آخر ينقل الماء حتى القدس، حتى جانب الهيكل، حيث تتدفق كما سلف وتحدثت من قبل، هذا وتجري المياه، التي تسيل وراء الحدائق في الوادي، حيث تقوم المدينة، إلى سدوم، وخلال قفار تقوع، التي يحدها من الجانب الجنوبي قفار مُآن Maon.

وهنا يوجد جبل الكرمل، الذي كان ملكاً لنابالNabal، الذي إليه أرسل داوود— عندما كان فاراً من وجه شاؤول— يطلب منه خبزاً وماء، غير أنه رفض مع اهانة، ولذلك غضب داوود، وزحف ضده وضد جميع أهل بيته، ولولا أن تدخلت أبيجايل، زوجة نابال، وتوسطت من أجله، لقام بتقطيعهم جميعاً، كما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٥، ورأينا فوق هذه البرك من الجهة المقابلة أكثر من ستمائة مسلم يحفرون ويعملون، لجلب مياه جديدة إلى البرك القديمة ومن ثم إلى القدس، لأنه تمّ العثور على الماء بين الجبال العائدة للقفار، وذلك ليس بعيداً عن حبرون، على مسافة بعيدة عن هذه البرك، ويبذل السلطان جهده لنقل هذه المياه إلى القدس، مقابل نفقات كبيرة وتعب

عظيم، وهذا كله ضمن عمل حكيم واختراعات كثيرة ذكية وبارعة، حيث تجري قيادة مجرى الماء خلال ممرات محفورة في الجبال، بواسطة القطع في الصخر وتنظيف الحجارة، لمسافة ثمانية أميال ألمانية، عبر منحدرات عملت بقياسات وفق تقسيمات صحيحة، فضلاً عن هذا إنه يقوم الآن بتنظيف مجاري المياه القديمة، ويعمل كثيراً من الصهاريج من أجل خزن مياه الأمطار، ولم يترك وسيلة لم يجربها لتأمين الماء لمدينة القدس المقدسة، وهو بذلك لم يوفر نفقة، ولم يدخر جهداً.

وهنا يستحق السلطان الملك مديحاً كثيراً، لأن سليمان عندما كان في الالهيات:٤٨/ ١٧ يمتدح الأعمال الجبارة للرجال المشهورين، امتدح الملك حزقيال، لأنه جلب الماء إلى وسط مدينة القدس، لأنه حفر الصخر الأصم بالحديد، وعمل آباراً للمياه، ولعمله هذا تلقى الملك حزقيال هذا نفسه المديح في سفر الملوك الثاني:٢٠/ ٢٠، وفي سفر أخبار الأيام الثاني:٣٢/ ٣٠.

ومع ذلك لم يكن عمل حزقيال مثل عمل السلطان قايتباي، الذي لم يكتف بالحفر بالصخر حتى يتمكن من جلب المياه من نبع جيحون الأعلى إلى المدينة، بل هو يقوم الآن بشق الجبال من مسافة بعيدة، حتى يتمكن من جرّ المياه إلى هناك، هذا وسلف لنا الحديث عن هذا السلطان من قبل، ويتساءل المسلمون والمسيحيون واليهود، ماالذي يريد السلطان أن يعمله من القدس، حتى أقدم على صرف الكثير، وعمل الكثير ليزودها بالماء، ويعتقد المسلمون أنه ينوي أن ينقل مقر الحكومة من بابليون مصر إلى القدس، ويأمل اليهود أنه عندما يعاد بناء القدس سوف يعطيها لهم، أما موقف المسيحيين، فهو أنه ربما هو مقبل على استئناف الايمان بالمسيحية، الذي كان قد تخلى عنه، وأنه سوف يعيد إليهم مدينة القدس، وكنيسة الضريح المقدس، لعل الرب القدير يضع ذلك في قلبه، وأن يجعله يفعل ذلك، الأمر الذي ينبغي عدم التوقف

عن الدعاء إلى الرب من أجله .

إنما إذا ماااختار البقاء على غدره وردته، يتوجب مع ذلك على المسيحيين الصلاة للرب من أجله ولطول حياته، مادام صاحب الضريح المقدس، وملك الأرض المقدسة، ويتعامل بلطف ورحمة مع الحجاج المسيحيين، فمثل هذا عمل بطارقة العصور القديمة عندما كانوا في السبي البابلي، فقد صلوا وقدموا الأضاحي من أجل حياة الملك نبوخذنصر، وذلك على الرغم من أنه جلبهم إلى السبي، وأحرق الهيكل، وهدم القدس، وهذا واضح في سفر باروخ:١.

ومثل هذا أمرنا الرسول(١— ثيمو:٢) بإقامة الصلوات والابتهالات في الكنائس من أجل ملوك الأمم، ومن أجل جميع الذين في السلطة، حتى يتمكن المؤمنون من العيش بحياة هادئة وآمنة في ظلهم، ومثل هذا أمروا في اسدراس الأول:٦/ ٣١ بالقيام بالصلوات وبتقديم القرابين من أجل حياة الملك داريوس وأولاده.

وهذا العمل الذي يقوم به السلطان الآن، كان قد شرع به من قبل بيلايطوس، حاكم اليهودية، وكان قد أنفق جميع أموال القربان، أي أموال الخزينة المقدسة العائدة للهيكل، في سبيل جلب الماء من مسافة ألفي فرلنغ، وعندما ثار اليهود ضد هذا العمل بسبب تبديد أموال الخزانة غضب بيلايطوس، فقتل حشداً كبيراً من اليهود، واستمر في عمله، لكن مع ذلك لم يهدأ اليهود، فتخلى خوفاً من الامبراطور، وحول هذا الموضوع يمكننا أن نعود إلى يوسفيوس« التاريخ القديم»(٨/ ٨ وإلى «حرب اليهود»(٢/ ٣).

وعندما صعدنا حتى البركة الوسطى، رأينا إلى جانبها سرادقات وخيماً، فيها سكن البناءون والمحاسبون المسؤولون عن الأعمال، والمراقبون، والمعلمون الذين يرتبون كيف ينبغي حفر المجاري المائية

خلال الجبال، وكان حول هذه السرادقات أعداد كبيرة من المغاربة والمسلمين كانوا يركضون نحو الأمام ونحو الخلف، يلعب أحدهم مع الآخر، وخفنا من هؤلاء خوفاً شديداً خشية الزحف ضدنا وإزعاجنا، وكان هناك خوف خاص عليّ، لأنني كنت الحاج الوحيد الحامل لعلامة الصليب، ولاأحمل جواز سفر، والذي حدث هو أنه مامن أحد قدم للاختلاط بنا، بل صعدنا بسلام على طول حدود البرك الثلاث، وبعد مضي بعض الوقت ودعنا البرك الثلاث، واستدرنا نحو اليمين، وتسلقنا سفح رابية، ووصلنا إلى منطقة منبسطة مليئة بالحقول، حيث كان قمح تلك السنة قد جرى حصاده.

وكان بين تخوم هذا السهل بدوياً يتجول، وهو مسلح بسيف ورمح، وقد واجهنا، ووقف في وجهنا في الممر، مانعاً إيانا من المرور مالم ندفع له الخفارة التي يستحقها، لأن البداة يقولون بأن جميع المسافرين مدانين لهم، ويتوجب أن يدفعوا الخفارات إليهم، وقال له واحد من الراهبين اللذان كانا معي، وخاطبه باللسان العربي بأننا كنا رجالاً فقراء، وليس علينا أن ندفع أي شيء إلى أي انسان، لكن البدوي قال وهو يشير إليّ باصبعه:« أنتما يمكن أن تكونا رجلين فقيرين، لكن هذا الرجل مع الصليب هو حاج، وغريب في البلاد، ويتوجب عليه أن يدفع جزية إلي»، وركض نحوي وهو يقول هذا، وانتزع مقود حماري، قاصداً ارغامي على الدفع، لكن ذلك الراهب تجادل معه بشدة، وهدده أنه إذا لم يدعني أمضي، سوف ينزل إلى الوادي إلى السادة الذين كانوا مسؤولين عن الأعمال، ويشتكي لهم، وعندما سمع البدوي هذا، تركني أذهب، وابتعد عنا هارباً.

ورأينا الآن كنيسة في وسط هذا السهل، نحوها أسرعنا، وكانت هذه كنيسة القديس جرجس الشهيد، ودخلنا إليها، وتلونا صلواتنا فيها، وحصلنا على غفرانات (+) لمدة سبع سنوات، وكان إلى جانب هذه

الكنيسة فيما مضى ديراً جميلاً وكبيراً للرهبان الاغريق، ولكنه الآن مهدم، والذي بقي هناك زريبة صغيرة، قائمة في مواجهة الكنيسة، يسكن فيها اثنان من الرهبان الاغريق، وفي هذا المكان جرى اعتقال القديس جرجس الشهيد، ووضع في الأغلال بسبب الايمان بالمسيح، ذلك أنه قدم من كبدوكيا إلى سورية، حيث قتل التنين قرب بيروت، وارتحل من ذلك المكان إلى اليهودية هنا، حيث جرى اعتقاله، ومن ثم جرى نقله إلى اللد حيث استشهد، كما سلف لنا الحديث عن ذلك في ص٣٦٨.

ويوجد على مقربة من الكنيسة مكان وعر، حيث هناك صخرة قاسية جداً وعريضة، أرانا فيها هذان الراهبان علامات حوافر فرس، وكأن الصخرة كانت قديما ناعمة وقد تلقت علامات فرس عابر فوقها، وقد قالا بأن هذه العلامات قد انطبعت بشكل اعجازي على الصخرة من قبل فرس القديس جرجس، وبعدما رأينا هذه العلامات عدنا ثانية إلى الكنيسة، وجلسنا في الظل، وجلب لنا هذان الراهبان سلسلة، أعلنا أنه بهذه السلسلة جرى غلّ القديس جرجس، وقبلنا هذه السلسلة، ووضعناها حول أعناقنا من أجل التقوى، ويحترم المسلمون أيضاً هذه السلسلة، مثلما يحترمون أيضاً علامات حوافر الفرس على الصخرة، ويسترد أحياناً بعض المسلمين المرضى صحتهم بلمس هذه السلسلة، وفي الحقيقة لدى جميع الشرقيين احترام خاص للقديس جرجس، وهم يحترمونه أكثر من القديسين الآخرين، ويمكن للانسان أن يقول بأن جميع كنائس المنشقين مكرسة له، وجلب لنا الراهبان بقسماطاً، وماء، وملحاً، وصنعنا وجبة معهم، وقد أعطيانا بدون مقابل، كل ماكانا قادرين عليه، مع أنهما كانا منشقين، وبناء عليه أكلنا وشربنا في تلك الكنيسة، وانتعشنا بشكل جيد، وقد مكثنا هناك لمدة تقارب الساعتين وتفحصنا بدقة خرائب الدير.

الماء الذي جرى تعميد الخصي به

وغادرنا بعد هذا، هذا المكان، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى طرف رابية، منها يتدفق الماء العذب من عدة أماكن، وهذا أمر غير اعتيادي في البلدان الشرقية، ورأينا فوقنا في الأعالي بقايا قلعة مهدمة، كانت تعرف في الأيام الخوالي باسم بيت سورا، وكانت قلعة حصينة جداً، عنها كنت قد تحدثت من قبل، وتابعنا من هناك سيرنا نحو واد عظيم الخصوبة ليس بعيداً عن بيت زكريا، الذي كنا أيضاً قد تحدثنا عنه من قبل، ورأينا في هذا الوادي كثيراً من البيوت وبساتين مزروعة بأشجار التين، وبالكروم، والزيتون، وأخيراً وصلنا إلى ضفة جدول ماء عذب، ينبع من الرابية، ويجري بشدة نازلاً إلى الوادي على طول الطريق، وبناء عليه صعدنا على الطريق إلى المكان الذي ينبع منه، حيث وجدنا بقايا كثيرة لكنيسة مهدمة، كانت قائمة هناك في أيام المسيحيين، لأن هذا هو المكان الذي عمّد فيه فيليب الخصي الحبشي العائد للملكة كنداكة، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل:٨، وكانت كنداكة ملكة الحبشة، وهي مملكة حكمت دوماً من قبل نساء، وأطلق على جميع ملكاتها اسم كنداكة، وذلك مثلما أطلق على جميع ملوك مصر اسم فرعون، ومثلما أطلق على جميع أباطرة روما اسم قيصر، ويقول بعضهم بأنها كانت ملكة كل من مصر والعربية، لأنه عندما سقطت اسرة الفراعنة في مصر، خلفتها أسرة كنداكة، وذلك حسبما قرأنا في كتاب بوكاكوس Boccacus حول النساء الشهيرات»، الفصل:٤١، وكانت هذه الملكة امرأة تقية، وقد أرسلت خصيها الحبشي، الذي كان مسؤولاً عن خزائنها، مع هدايا كثيرة، وتقديمات إلى الهيكل في القدس وذلك حتى يتمكن من الصلاة هناك وتقديم الهدايا.

وبعدما فعل هذا، عاد فركب عربته، حتى يتمكن من العودة إلى بلاده، وكان متشوقاً كثيراً حول الأشياء اللاهوتية، إلى حد أنه عندما

كان يجلس في العربة كان يقرأ حول الأنبياء وجاء فيليب إليه بناء على أمر من الروح القدس، وعلمه وعمّده في هذا المكان، وبناء عليه جثونا هنا على ركبنا وتفوهنا بصلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وجلسنا بعد ذلك إلى جانب النبع، وأحضرنا من مزاودنا الطعام الذي كنا قد شريناه من القدس، وأكلنا خبزاً، وشربنا من الماء، الذي كان صافياً، وبارداً، ومنعشاً، وصحياً، وهذا النبع مشهور جداً حتى أن الأغنياء وأعيان الناس يأتون إلى هنا من القدس، من أجل المتعة والترويح عن النفس.

وعندما كنا جالسين على هذه الصورة إلى جانب النبع، مرّ بنا عدد كبير من المسلمين، بسبب الطريق العام الذي يقود إلى غزة، أي إلى أفريقيا، حسبما جاء في الشرح حول الممرات، وأيضاً من قبل كاتب الـ Speculum Historiale، وعلى كل حال لم يلحق بنا أي أذى من قبل أي انسان، وأعطينا الذين وقفوا إلى جانب النبع وشربوا بعضاً من خبزنا، وقد جلس كل مسلم معنا، وجاء أخيرا واحد مع سلة مليئة بأحسن العنب وأكثره حلاوة، وله أرينا مزاودنا وقد امتلأت بالخبز، وقد سره كثيراً التبادل معنا، وهكذا أكلنا وشربنا في ذلك المكان معهم حتى اقتراب موعد غياب الشمس.

وعن هذا المكان قال بيد في تعليقاته على أعمال الرسل:« بيت سارو، أو بيت سورا في ديار يهوذا، على الطريق من إيلياء إلى حبرون— أي من القدس إلى حبرون— وذلك على بعد عشرين ميلاً، حيث على مقربة منها هناك نبع عند سفح الجبل، وهو يتدفق منه نفسه، ثم تبتلعه الأرض نفسها التي ينبع منها، ففي هذه المياه عمّد فيليب الخصي».

وبعدما أنعشنا أنفسنا بشكل جيد في هذا المكان، امتطينا دوابنا، وجرينا مسرعين نحو القدس، ذلك أننا كنا نأمل أن يسمح لنا في تلك الليلة نفسها بالدخول إلى ضريح الرب، ولولا أنه توفر لدينا هذا

الأمل، لبقينا مع الرهبان في بيت لحم لعدة أيام، أو كنا أمضينا الليل في صحراء القديس يوحنا المعمدان، التي تقدم لنا ذكرها في ص٧٧٠، وهو أمر كنا نحب كثيراً أن نفعله، لأنه بدا أمراً عظيم السرور جداً، رؤية الكهوف التي سكن بها يوحنا وهو طفل صغير، والإقامة بها، لكن شوقنا للدخول إلى الضريح المقدس كان أقوى لدينا، وتخلينا أثناء سفرنا عن زيارتنا لقفار القديس يوحنا، وإلى بيت زكريا، وإلى كنيسة الصليب المقدس، وإلى بيت سمعان، وهي أماكن تقدم لنا الحديث عنها جميعاً، وأسرعنا باتجاه القدس.

ولدى اقترابنا من الكروم الموجودة على جبل جيحون، وعندما صارت المدينة المقدسة أمام أعيننا، فجأة، تجمعت بعض النساء اللائي عملن في الكروم، ووقفن مع بعضهن في الطريق مع حجارة، ليمنعننا من المرور، مالم ندفع خفارة لهن، وقمنا بسؤالهن عما إذا كن بدويات أم مسلمات، وعندما أجبننا بأنهن مسلمات، شققنا طريقنا بالقوة بينهن، وأخبرناهن باستخفاف بأن الخفارة حق للبداة وليس للمسلمين، وبغضب شديد رمين بالحجارة خلفنا، وتولين شتمنا.

وعندما صرنا ملاصقين للمدينة، التقانا هناك واحد من كبار سادة المسلمين، كان معه عدد كبير من الأتباع، وجماعة كبيرة من الرجال المسلحين على الخيول وعلى البغال، وأخبرنا الذين مشوا أمام هذا الحشد، بأن أميراً كان قادماً خلفهم، ولدى سماعنا بهذا قفزنا على الفور عن ظهور حميرنا ووقفنا على جانب الطريق حتى عبروا جميعاً، وفي الحقيقة، لو أننا لم نترجل من على ظهور دوابنا لألقونا أرضاً بغضب وإهانة، لأن عادة هذه البلاد تقضي بوجوب افساح الطريق من قبل الفقراء، والفلاحين، والحجاج، والناس البسطاء، إلى النبلاء، والرجال الأغنياء، عندما يقابلونهم، لذلك فور رؤية الانسان البسيط أو الغريب رجلاً نبيلاً مقبلاً نحوه، عليه الترجل من على دابته، حتى يمر ذلك

السيد، وحاشيته، وإذا لم يترجل، يقوم خدم ذلك السيد برميه على وجهه.

وإذا ماتواجه رجلان غنيان، يقوم الأقل ثروة، وهو يريد أن يختلف عن الآخرين، ليس بالترجل، بل ينسحب إلى جانب الطريق مع دوابه، حتى يعبر الآخر، لكن إذا ماتواجه واحد من أعيان أهل المدينة مع نبيل مسلح، أي على سبيل المثال إذا ماتواجه مسلم مع مملوك، فوقتها يكون التشريف الذي يريه الرجل الغني للنبيل، أن ينسحب إلى جانب الطريق، ويرفع قدميه من الركابات، ويتركهما متدليتان، وإذا لم يفعل ذلك، فإن الرجل المسلح يقوم برميه من على ظهر حصانه.

وبناء عليه، قمنا بعد عبور ذلك السيد، فعاودنا امتطاء ظهور حميرنا، ودخلنا إلى المدينة المقدسة، إلى جبل صهيون، وعندما وصلنا إلى هناك علمنا بأن الحجاج لن يسمح لهم بالدخول إلى كنيسة الضريح المقدس، وأسفنا إننا لم نبق في بيت لحم ليومين أو ثلاثة أيام.

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان الأحد الثاني عشر بعد التثليث، في اليوم الثامن بعد عيد صعود العذراء، توفرت لدي رغبة بإقامة قداس في الموضع الذي توفيت فيه مريم العذراء الأعظم مباركة، وحملت إلى هناك جميع الأشياء المحتاجة، وزينت مذبحاً مع راهب يقوم بمساعدتي، وحدث وأنا واقف عند المذبح في الهواء الطلق، أن تساقطت كميات كبيرة من الندى، بللت الـ Corporale، وقطعة الكتان الممتازة المنشورة فوق المذبح، وبللت أيضاً الأعمدة، والكتاب، وعملت عجينة القربان مائعة مثل فطيرة غير مخبوزة، ولذلك لم يكن بإمكاني بأية وسيلة رفعها، ووقعت بإرباك عظيم في ذلك القداس، ونادراً ماتمطر في هذه البلاد، خاصة في أيام الصيف، حيث تبقى السماء صافية، ولكن دوماً عند اشراق الشمس تتساقط كميات كبيرة من الندى من السموات، بها تبقى خضروات الأرض حية، وبعد الغداء اجتمع الحجاج مع بعضهم

للتشاور حول رحلتنا خلال القفار.

وفي اليوم الثامن عشر، نزلت قبل شروق الشمس إلى نبع سلوان، لكن لدى سماعي بعض الأصوات العالية فيه، وقد صدرت عن القصارين أو الدباغين من المسلمين الذي كانوا هناك، ابتعدت عن النبع المقدس، ولم امتلك الجرأة للذهاب إلى هناك، ومع ذلك غسلت وجهي وعيني في الجدول الذي كان يجري منه، ومن هناك نزلت إلى وسط بركة قدرون، حيث سرت فوق أرضها الجافة والوعرة حتى كنيسة ضريح وصعود مريم العذراء المباركة، التي وجدتها مفتوحة، وقد سررت تجاه ذلك، ونزلت بوساطة الدرجات إلى الكنيسة، فوجدتها مليئة بمسيحيين روم أرتوذكس، كانوا يقيمون قداساً بمناسبة ذلك اليوم، وكانوا ينشدون مديح مريم المقدسة، ووقفت لبعض الوقت عند قداسهم، أرقب طقوسهم وعاداتهم.

ثم صعدت من هناك ثانية وغادرت الكنيسة، ودخلت إلى كهف آلام ربنا يسوع المسيح حيث وجدت فرقة من الأرمن، تقيم قداسا هناك، وتمدح الرب بغنائها الفوضوي، ومكثت مع الأرمن لبعض الوقت، وعجبت نحو طريقتهم في أداء القداسات الربانية، وبعدما خرجت من الكهف، صعدت إلى الجليل، وسرت من هناك على طول حافة جبل الزيتون، فوصلت إلى كنيسة صعود الرب، التي دخلت إليها، فوجدت فيها فرقة من اليعاقبة يقومون بمدح الرب مع موسيقى كانت غريبة بالنسبة إليّ، علاوة على ذلك قدم مثلهم إلى هناك سود أو هنود لإقامة قداساتهم هناك، وكان هناك نوبيون ينتظرون للغرض نفسه، وفي الحقيقة كان جبل الزيتون كله مكتظا في ذلك اليوم بالمسيحيين الشرقيين، لكن ماهو السبب الذي جعل المسيحيين الشرقيين، يجتمعون في ذلك اليوم؟ أنا لاأعرفه، وتجولت هناك وكنت المسيحي اللاتيني الوحيد بين هؤلاء الشرقيين، فلم أتعرض للأذى من أي واحد منهم، كما لم يبعدني أحد

عن قداساتهم بل إنهم عجبوا لوجودي، ونظروا إليّ باستغراب، وإلى ثيابي، وطرائقي، وهؤلاء المسيحيين الشرقيين المتقدم ذكرهم، بشكل عام سود، ويختلفون عنا باللون، واللباس، واللغة، والطقوس، والعادات.

ونزلت من موضع صعود الرب إلى جيسماني، وبحثت بعناية وفتشت عن الصخرة التي تحمل علامات جسد المسيح، وهي الصخرة التي تلقت هذه العلامات عندما اعتقل المسيح هناك، لكن لم أستطع العثور عليها بأية وسيلة من الوسائل، ومن أجل وصف هذه الصخرة انظر ماتقدم في ص ٦٠١، ومضيت بعد هذا عائداً إلى جبل صهيون، لتناول الغداء.

وفي اليوم التاسع عشر حصلت على إذن من الأب المسؤول لزيارة قلعة عمواس، ورجوته أن يرسل معي من يراه، حتى يكون رفيقي على الطريق، وكان الأب المسؤول كارها لأن يتركني أذهب، وأعلن بأن الطريق كان خطراً، لكن بسبب إلحاحي أعطاني الإذن، وأمر اثنين من الرهبان ومسلما واحداً بمرافقتي، وخرجنا من القدس معاً، وسرنا على الطريق الذي سار عليه الرسولان كليوباس ولوقا في يوم قيامة الرب، وذلك عندما ظهر الرب يسوع لهما على شكل مسافر، واحترق قلباهما في داخلهما وهو يتحدث إليهما، حسبما قرأنا في إنجيل لوقا:٢٤، ووصلنا على كل حال، بسلام إلى عمواس، وهناك قبلنا البقاع التي إليها اشتقنا، وكنت قد تحدثت عن ذلك في ص٣٩٠، وشاهدنا خرائب هذه البلدة بخوف، لأنه بما أنها على الطريق الذي يقود من القدس إلى البحر، إنها نادراً ماخلت من قطاع الطرق، الذين يضربون العابرين، وقال القديس جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، بأنها كانت فيما مضى بلدة جميلة، الأمر الذي تبرهن عليه خرائبها.

ومن هناك ذهبنا إلى جبل شيلوه، الذي كنت قد تحدثت عنه في ص٣٨٩، حيث رغبنا في رؤية الأماكن المقدسة وزيارتها، ولكن قبل أن

نصل إلى هناك، قـام المسلمـون الذين يمتلكون بيـوتا فـوق القمـة بمواجهتنا، وطردونا بالحجارة، وعندما نزلنا وأصبحنا في الوادي، ذهبنا إلى سفح جبل آخر، وتسلقنا إلى قمته، واسم هذا الجبل، جبل الشهداء، لأن أسـداً قـد دفن هناك جثث ثـلاثين ألف شهيـد، كـان كسرى ملك الفـرس قـد قتلهم، مـن أجل إيمانهم بالمسيح، وذلك حسبما قـرأنا في« التاريخ اللاهوتي»، وبعـدما فرغنا من رؤية هذه الأشيـاء، عدنا راجعين إلى القدس بسلام من خلال وادي البطم Terebinth ، وهكذا مضى ذلك النهار.

وفي اليوم العشرين، في الصباح الباكر، جاء أربعة من رهبان الدير إلى قلايتـي، وسألوني الذهاب معهم إلى بيت عنيا، وهكذا انطلقنا، وعندمـا كنا في وادي شعفـاط رأينا سادتي اللـوردات والحجاج الآخـرين نازلين من جبل صهيـون، حـاملين معهم كـل مـاهو محتـاج لإقـامـة قـداس، وعندما وصلوا إلينا، قـالوا بأنهم أيضاً يرغبـون بالذهاب إلي بيت عنيا، وهكذا مضينا مع بعضنا صـاعـدين جبل الزيتـون، ونازلين من جـانبـه الآخر إلى بيت عنيا، وأقمنا هناك قداساً في كنيسة القديس لعازر، وذلك فـوق قبر ذلك القـديس، إنما مع خـوف عظيـم، لأن أطفـال المسلمين وقفـوا من حولنا، ولم نخف من هؤلاء، وأبعـدناهم عن القداس، وقـد بقيـوا ينظرون نحو أيدي، وأوجـه، وأعين الكهنة، الذين كانوا يتـولون تكريس العناصر، وقـد خفنا أن يحدث لواحد منهم، ماوقـع لواحد من الرهبان الفرنسيسكان عندما كـان يقوم بقداس في بيت لحم، لأنه عندما كان مشغـولاً بأعمال القداس، وكان قـد فرغ بوساطة صلواته المقـدسة، من تحويل الخبـز إلى جسـد، والخمـرة إلى دم، فجأة ركـض واحـد من الشبـاب المسلمين نحـو المذبح، واختطف كـأس القـربان مع الخمـرة المكرسـة وشربها، وبعـد هذا ركض راجعاً نحـو جماعتـه، وهو يضحك بصوت مرتفع:

أيها الجاهل الملعـــون، أيها الأعمى المظلم، أيها الأحمق بـلاعقل، أيها التـافه الطائش، كم هو مـؤلم ومـزعجاً وعـدوانيـاً الذي أقدمت عليـه! والذي حدث أنه بحماية الرب، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل لنا في هذا المكان، لأننا أنهينا قـداسـاتنا كلهـا بسـلام، وبعـدمـا زرنا الأمـاكن المقدسة في بيت عنيا وفوق جبل الزيتون، عدنا إلى القدس.

وفي اليـوم الحادي والعشرين، في الصبـاح البـاكـر، مضيت نازلاً إلى كنيسـة قيامـة الرب، وتفـوهت بقـداسي أمام البـاب، عـلاوة على ذلك نظرت إلى آبدةالرب من خـلال الفتحة بـالباب، وجـاء في تلك السـاعـة نفسهـا مسلحون مغـاربة، بالقسي والرمـاح، وكانوا جـالبين معهم، مع كثير من الضجة رجلين، كـانوا قد اعتقلوهما، وقـد ألقوا بهما في السجن الذي قام أمـام باب كنيسة الضريح المقـدس، وكنت قد تحدثت عن هذا السجن من قبل في ص٤٧٤.

ولذلك وقفت أمـام البـاب مـع خـوف عظيم، فقـد كنت أخشى أن يصرفوا غضبهم ضدي أيضـاً ووقفت منتظراً، وأنا ممسك بالباب، حتى انصرفوا من السجن، ذلك أنه لم يكن بامكاني الخروج من السـاحة، من دون المرور على مقربة منهم، ولقد مكثت هناك لمدة تزيد على الساعتين، ثم صعدت إلى جبل صهيون، من أجل الصلاة.

وبعد الغداء، اجتمعنا نحن الحجاج جميعاً على جبل صهيون، ووزعنا الأشيـاء التي اشتريناها إلى حزم ذوات وزن واحـد، وبعدمـا فعلنا هذا، نزلت معهم، وعندمـا وصلنـا إلى برج داوود، الذي كنت قـد أشرت له من قبل في ص٤٤٥، وقفنا دونها حراك، ونظرنا إلى القلعـة، وعندما رآنا ابن حاكم القلعة واقفين هناك، عمل شارة بيده، بأننا إذا مارغبنا يمكننا اللحـاق به،، ورؤية البرج من الداخل، وبناء عليه لحقنا بذلك الشـاب، وعبرنا فوق الجسر المقام على الخندق، الذي يمكن رفعه وانزاله، واقتادنا من خـلال بابين حديـديين إلى ساحـة القلعة، حيـث كانت هناك نسـاء

يخيطن(٢٥٣) وحالما رأيننا، غطين وجوهن، وأخفين أنفسهن، واقتادنا الشاب إلى أعلى الأسوار والأبراج، وإلى جميع الغرف المنتشرة هناك، ودهشنا تجاه سماكة الأسوار، وعدد الأبراج حول إطار دائرة الأسوار.

وبني هذا المكان وفق طريقة بناء القلاع الألمانية الحصينة، مع أسوار، وشرافات وطلاقات كثيرة من أجل اطلاق الآلات الحربية من خلالها، وهي قائمة فوق صخرة مشرفة على الجهة الغربية من جبل صهيون، ولها على جانبها الجنوبي واد عميق، هو الذي يفصل جبل صهيون عن جبل جيحون، وهو يمتد من جدول قدرون إلى حقل القصار، ولها على جانبها الغربي أيضاً واد، كان فيما مضى هوة عميقة، لكنه الآن قد امتلأ تقريباً، وكان لها فيما مضى خندق عميق كان معمولاً من حولها، لكن بما أن هذا الخندق لم ينظف أبداً، هو الآن ممتلىء، وقد زرع الحاكم الآن بستان مطبخ هناك في الجهة الشرقية، لكن على الرغم من هذا كله لايوجد مكان قوي وجيد التحصين مثل هذه القلعة في القدس.

لكن هل هذه القلعة هي التي ورد اسمها في الكتابات المقدسة باسم حصن صهيون، أو حصن مدينة داوود، الاختصاصيون غير متفقين على هذا، وكل الذي نعرفه هو أن داوود حصن جبل صهيون الذي ورد الحديث عنه أحياناً أيضاً باسم حصن داوود، كما ورد في سفر صموئيل الثاني:٥، هذا وقد قمت بعد تدقيق خاص، فسجلت ثلاثة أماكن قامت فيها فيما مضى أبراج وأسوار قوية فوق جبل صهيون، والأول بينها موجود على الجانب الشرقي، حيث يقوم الآن دير الرهبان، ومما لاشك فيه أنه كان هنا هيكل داوود، حيث وضع فيه تابوه الرب، وهنا كان مسكنه، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول:١٧، وكان المكان الثاني على الجانب الغربي من جبل صهيون، حيث قامت هذه القلعة التي عنها نتكلم الآن، والمكان الثالث لم يكن على جبل صهيون، بل في مواجهة هذه القلعة وذلك باتجاه الغرب، فوق مدينة القدس، قرب باب

التجار في حقل القصار، ويوجد في هذا المكان خرائب كبيرة، يقولون بأنها بقايا برج داوود، ولو أن هناك حصناً في هذه الأيام، لكان من الممكن حماية المدينة بوساطته، والذي اعتقده أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، قبل أيام الامبراطور إليوس هدريانوس، الذي وسع المدينة، وأنه بعد توسيع المدينة جرى بناء حصن هناك، وقد جرى تدميره منذ وقت طويل مضى وهكذا بعدما رأينا هذه القلعة، عدنا راجعين إلى موضعنا.

وذهبت عند غروب الشمس مع بعض الرهبان، إلى سدة الكنيسة على جبل صهيون، وهو ما كنت قد تحدثت عنه في ص٤١٠، وسجلت بأن ارتفاع جبل صهيون، كان أعلى من جميع الجبال من حوله، لأن جبال العربية عبر الأردن، والبحر الميت، والتي هي عالية جداً، قد بدت منخفضة بالنسبة لجبل صهيون، فالشمس تشرق على رأس جبل صهيون قبل البقية، وتسحب أشعتها من عليه بعد البقية، وهذا غالباً مارأيته، وفي الحقيقة إن الانحدار من جبل صهيون نحو الشرق هو انحدار مستمر، وهو يساوي خمسة أميال ألمانية إلى البحر الميت، ومثل هذا باتجاه الغرب، الأرض منحدرة ونازلة لأميال كثيرة حتى منطقة فلسطين، وهكذا فإن جبل صهيون له التفوق على جميع الجبال، كما تحدثنا من قبل في ص٤٥٧.

جمع الحصا والأشواك في الأماكن المقدسة صدوراً عن التقوى

واستيقظت في اليوم الثاني والعشرين قبل اشراق الشمس، وبعدما قلت صلواتي لما بعد منتصف الليل، تسللت من الدير وحيداً، وتجولت حول الأماكن المقدسة على جبل صهيون، وفي وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، والتقطت في كل واحد من هذه الأماكن بعض الحصا، وعلمتهم، ووضعتهم في حقيبة حملتها معي لأجل هذه الغاية، علاوة على ذلك جمعت بعض الأشواك التي تنمو على التخوم على جانب جبل الزيتون وجبل صهيون، وعملت حزماً منهم، وعلى الطريق نسجت منهم تاجاً، وذلك من الأشواك التي أعتقد بأن الرب يسوع قد توج بها، (انظر ص٤٧٥) وأمضيت ذلك اليوم كله في جمع الحصا، وقطع أغصان الأشواك، واشتريت سلة مستطيلة، وضعت فيها أغصان الشوك هذه، والحصا التي التقطتها من الأماكن المقدسة، وجلبت الجميع معي إلى الوطن، أي إلى أولم.

ولايظن أحد أنه عمل بلا فائدة، أو تصرف طفولي صدر عني، باحضار حصا إلى بلادنا معي من الأماكن المقدسة، لأنني قرأت بأن رجالاً مقدسين من العصور القديمة فعلوا مثل هذا، ففي سفر الملوك الثاني:٥/ ١٧، قرأنا بأن نعمان السوري، سأل النبي اليشع أن يدعه ينقل من الأرض المقدسة، بقدر مايستطيع بغلان حمله، وأن يجلب ذلك إلى أرضه، حتى يتمكن من أن يبني هناك مذبحاً من الحجارة، عليه يقوم بالتضحية لرب السماء، وإذا كان— بناء عليه— عدّ هذه البلاد ثمينة جداً بسبب الهيكل الذي بني هناك، وبسبب الأنبياء الذين سكنوا، وبسبب المعجزات التي عملت هناك، كم أكثر ينبغي أن تكون ثمينة بالنسبة لنا، وذلك بسبب هذه الأشياء التي قيلت من قبل، وأيضاً بسبب طبعات أقدام المسيح، الثمينة جداً، وكذلك طبعات أقدام مريم العذراء المباركة، وكذلك بسبب مايتعلق بالرسل وبالشهداء، وبسبب دم المسيح

الذي لايقــدر بثمن، الذي هدر هناك فيهـا، وبسبب صليبه وضريحه، ولأنه قدسها بروعة قيامته المجيدة، وبنار روح قدسه.

وبناء عليــه لايجوز مطلقـاً، ولابشكل من الأشكال تستحـق قطع وشظايا من الحجـارة جلبت من تلك الأرض الرائعـة، أن يستخف بها، أو أن ترمى، بل تستحق أن تجمع بتقـوى عظيمة، وأن توضع بين الآثار المقدسة الرئيسية للكنائس، وليست فقط التربة نفسها، والحصا أو شظايا الحجـارة، بل أيضاً الحبـوب، والمسابح، والخواتم، والتماثيل في المسـابح، التي لمست الأمـاكن المقـدسـة، هي مقدسـة من النوع نفســه، وصـارت لذلك أكثــر تبجيـلا ومكانة، وذلـك حسبما بينت من قبل في ص١٩٨، ولايقتصر فعل هذا علينا نحن المسيحيين الغـربيين بل، يقوم المسيحيـون الشرقيون من أقصى بقاع الشرق، بجمع هذه الحصا في الأرض المقدسة ويحملونها معهم وكـأنهم ذاهبــون إلى أبواب الجنـة، على أنها من أعظم الآثار المقدسة مكانة .

ولقـد سمعت وقرأت مـاهو أعجب من هذا، من ذلك أن مسيحيين شرقيين يقـومـون بالحج إلى رومـا، لقطع شظـايا من كنيستي القـديس بطرس والقـديس بولص، ويحملونهم معهم— ليكونوا آثاراً مقدسـة— حتى المحيط الشرقي، ويقـوم بعضهم بعبـور الألب، ويبحـرون بالراين حتى كولون لكـي يتمكنوا من رؤية كنيسة وأضرحة الملـوك الثلاثة، من أهل بلادهم، ويتـدبرون إعطائهم شظايا من هذه الكنيسة والأضرحـة، أو يحصلون عليهم بأنفسهم، إن استطاعـوا، وهذه الشظايا، يضعونها في ذهب أو فضـة، بين الأحجار الثمينة، وذلـك بعد عـودتهم إلى بلادهم، ويلبسـونها خواتم أو معلقـات، على أصـابعهم، أو حـول رقابهم، وأمـا بالنسبـة للخواتم أو المجـوهرات التي لمست الأضرحـة، فإنهم يحتفظون بهم مع عناية كبيرة، بمثابة آثار مقـدسة ثمينة، ويقدمون احتراماً عجيباً إلى الحجـاج الذين تجولوا وطافــوا من الشرق إلى كـولون، وذلك لدى

عودتهم، وينظرون إليهم على أنهم أعظم الفرسان شجاعة.

ولايمكن أن يكون هنـاك شك في أن الشرقيين لو استطاعــوا تحمل برد بلادنا، مثلما يمكننـا تحمل حـرّ الشرق، فإن كـولوننـا لن تكون قط خـاليـة مـن حجـاج شرقيين، لأننـا نرى حجم الحشــود التي يأتي بها الهنغـاريون إلى كولون، عنـدما يجري عـرض الآثار المقـدسة في كـولون وآخن، عـلاوة على ذلك لقد حـدث في بعض الأحيان أن فيـه حجاجـاً من بلدان الملوك الثلاثة كـانوا يقدمون حاشـدين إلى القدس في الوقت الذي يزورها حجـاجنا من الغـرب، وعندها كـانوا يسألون من خـلال المترجم عما إذا كـان يوجـد أي رجل من بلاد كـولون، وإذا مـاوجـدوا واحدا،كانوا يشترون منه جميع الأشياء التي يمكنهم الحصول عليها منه، وبشكل خـاص الأشيــاء التي صنعت في مـدينة كــولون، وذلك مثل: حــافظات النقـود، والأشرطة والأربطـة والقبعـات، والأحــذية، وأية مـلابس حتى القمصـان، وكـانوا يدفعـون لهذه الأشياء ثمناً مضـاعفـاً، ويحملونهم معهم إلى الشرق بمثابة آثار مقدسة.

وإذا مـااختار أي انسـان بيعهم أية جـواهر أو خواتم لمست أجسـاد الملوك الثلاثة المقـدسين، كان سيتلقى ضعف أسعـارهـم، وإذا كان لدى أي انســان شظايا من الكنيســة أو مـن أضرحـة الملوك الثـلاثة، واختـار بيعهم، فإنه كـان سيتلقى مقايضــة لهم مايتلقـاه مقابل أحجـار كريمـة، وذهب، وفضـة، عـلاوة على ذلك، كـانوا يسألون بالحاح حجـاجنا من خـلال المترجم، عـن أوضـاع بلاد كـولون، وحجـم المدينة، والكنيســة الكاتدرائيــة، وأضرحــة الملوك الثــلاثة، ويكتبــون بتقــوى ويدونون ماسمعوه جواباً، كلمة كلمة، في كتب مذكراتهم، وذلك مثلما نفعل نحن في كتـابة أحوال الأرض المقـدسة، وأوضـاع القدس، وكنيســة الضريح المقدس.

وغالبا مايشكل عـدد كبير من الشرقيين جماعات وفرق للقيام بالحج

إلى الغرب، إنما ماأن يصلوا إلى بلادنا حتى يغمى عليهم ويموتون، لكن إذا مانجح بعضهم بالحج إلى الغرب وعادوا ثانية إلى بلادهم، فإنهم ينظرون إليهم نظرة احترام عالية، وإذا كان— على هذا— الشرقيون يقدمون مثل هذا الاحترام إلى بلاد الملوك الثلاثة، حيث أوابدهم موجودة، فأي عجب إذا أظهرنا نحن الغربيون الاحترام إلى أرض ضريح الرب ملك جميع الملوك؟

وهكذا أمضيت هذا اليوم مع كثير من التعرق والتعب، ألتقط الحجارة الصغيرة من الأماكن المقدسة، واشتريت في ذلك اليوم نفسه ثلاث قطع أقمشة ثمينة لغرفة المقدسات، من أجل تغطية كأس القربان، أثناء حملها من قبل الشماس الأدنى، وعندما يحمل القاعدة عالياً، وكانت القطعة الأولى من هذه الأقمشة بيضاء، والثانية زرقاء، والثالثة صفراء، وقد حملت هذه الأقمشة إلى جميع الأماكن المقدسة، وغالباً مانشرتهم فوق ضريح الرب، وفوق صخرة الصليب، وفوق ضريح العذراء المباركة، وفوق مزود الرب، وفي الأماكن الأخرى، من أجل أنهم بلمس هذه الأماكن المقدسة، يمكن أنفسهم أن يصبحوا مقدسين، وبالتالي أعلى ثمناً.

الحج العام والأخير حول الأماكن المقدسة

في الصباح الباكر من اليوم الثالث والعشرين، وقبل اشراق الشمس، التقى جميع الحجاج، بناء على اتفاق، في ساحة كنيسة الضريح المقدس للقيام بحج واحد وأخير حول جميع الأماكن المقدسة في القدس وأحوازها، وبناء عليه، زرنا بعد بذل جهد كبير، المدينة المقدسة، والأماكن المقدسة في وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، وكان ذلك قبل الغداء، وقمنا بعد الغداء بالطواف حول الأماكن المقدسة في وادي سلوان، وجبل جيحون، وجبل صهيون، في الأعلى وفي الأسفل، وعندما كانت الدنيا مظلمة، أخذنا إلى كنيسة الضريح المقدس، حيث

عملنا المسيرة المعتادة إلى الأماكن المقدسة، وسهرنا تلك الليلة إلى جانب آبدة الرب.

الدخول السادس والأخير والسهر في الضريح المقدس في Anastasis أي كنيسة قيامه الرب

في مساء اليوم الرابع والعشرين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة قيامة الرب، وجاء ذلك بناء على طلب من الحجاج، وزرنا خلال تلك الليلة الأماكن المقدسة، بخشوع أكبر، ومرات أكثر مما عملناه قط من قبل، لاقتراب موعد مغادرتنا، وفراقنا لهم، وعند اقتراب حلول الفجر، كان اليوم هو الأحد الثالث عشر بعد التثليث، وعيد القديس بارثلميوالرسول، وقد غنينا قداساً في ضريح الرب، وقد عينت لغناء القداس، ولذلك وقفت مرتديا ثيابي المقدسة في الكهف الداخلي للضريح المقدس، إلى جانب القبر الأعظم قداسة، الذي عمل وجهز ليكون بمثابة مذبح، وقد غنيت بصوت مرتفع وبهيج، في حين وقف أعضاء الدير والحجاج في الخارج ورددوا معي، وكان بهيجاً وممتعاً جداً أنني غنيت هذا القداس، وبدا لي أن صوتي كان أوضح وأعلى مما كانه قط من قبل، وقد تجليت كثيراً، وأقول جاداً ،إنه بالنسبة لهذا القداس، وبقدر ماأعتقد، إنه منذ سنوات طوال، وربما لم يحدث، أي أنه لم يتمكن قط واحد من الرهبان المبشرين من غناء قداس في ضريح الرب، باستثنائي أنا وحدي، ولقد ابتهجت في هذا اليوم لحصولي على مثل هذه النعمة العظيمة التي حفظت بشكل خاص لي، وإنني أصلي أن تجعلني مقبولاً لديه، وهو الذي قام من الموت في هذا المكان.

ولدى الفراغ من القداس، سعينا إلى هنا وإلى هناك وطفنا حول الأماكن المقدسة في هيكل الرب، وقلنا لهم وداعاً مع الدموع، لأنه كان من الصعب بالنسبة لنا مغادرة هذه الأماكن الحلوة والمحبوبة جداً لدينا،

بسبب المسرات الكثيرة التي تلقيناها في هذه الأماكن المقدسة، من خلال تقبيلها، ولدى فراغنا من تقبيل الأماكن المقدسة، أخذنا ننتظر قدوم السادة المغاربة، ومن ثم اخراجنا من الكنيسة، مثلما فعلوا دوماً من قبل، لكنهم تأخروا لبعض الوقت، وقد تعجبنا تجاه ذلك، وتساءلنا لماذا لم يتم اخراجنا، وخشينا أن يكونوا قد قصدوا الاحتفاظ بنا سجناء هناك، وأنهم قد تدبروا تهمة ملفقه ماضدنا، وقدم في الوقت نفسه عبيد الرئيس كالينوس ووصلوا إلى باب الكنيسة، وأخبرونا من خلال فتحة الباب هناك بأن المعلم كالينوس، أي ترجماننا كان جاهزا، وأنه كان منتظراً مع الحمير والجمال لإخراجنا بسبب سجننا الطويل الأمد، وفي حوالي منتصف النهار، جاء السادة المغاربة الذين احتفظوا بمفاتيح ضريح الرب، وتركونا نخرج، وذهبنا مباشرة إلى أماكننا، وتغدينا بسرعة، واستعدينا للمغادرة، وفق الطريقة المشروحة بعد تاريخ الهيكلين وتاريخ مدينة القدس.

هنا نهاية الحج كله إلى القدس.

مع أنه مما تقدم وقيل، من الممكن جمع رواية متفرقة عن مدينة القدس، مع ذلك سوف أقوم في هذا المكان بشكل خاص بوصفها، ووصف أوضاعها الحالية، دون أن اتحدث عما كانته في الأيام الخالية، بل سأتحدث عن وضعها الحالي، وكثير من الأوصاف لهذه المدينة يمكن الوقوف عليها،وهي تتحدث عن أوضاعها القديمة، من ذلك مصنف يوسفيوس «حرب اليهود »—الكتاب السادس، الفصل الثامن، يضاف إلى ذلك لدى مصنف Speculum Historiale— الكتاب: ٢٦، الفصل:١٠٣، وأيضاً لدى المعلم أنطونيوس، في تواريخه— القسم الثاني— المجلد:١٦، الفصلان:١٣و٦، وكذلك في ذيل التواريخ— الكتاب الثامن، ص١٥، ولدى الراهب بوركارد، الذي كان من طائفة القديس دومينيك، في كتابه الصغير الذي وصف فيه الأرض المقدسة،

وقدم به رواية صحيحة.

وقام بعض من كل من القدماء ومن المعاصرين برسمها على الورق، وهكذا صار من الممكن رؤية مظهر هذه المدينة المرغوبة كتابة ورسماً، وبناء عليه، سوف أبذل أنا شخصياً جهدي لتقديم رواية عنها، فإذا نسيتك ياقدس، لتنس يدي اليمنى براعتها، وليلتصق لساني في سقف حلقي، إذا لم أتذكرك، ومن أجل أن أكون قادراً على فعل هذا بوضوح أكثر أضفت إلى روايتي عن المدينة المقدسة، رواية عن هيكل الرب، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان ، وكذلك عن هيكل كنيسة الضريح المقدس، الذي يسمونه القيامة، لأنه من دون وصف هذين الهيكلين، من غير الممكن عرض أوضاع المدينة المقدسة، مشاهداً أن جميع أبنيتها القائمة، وجميع أبنيتها المهدمة، وكل قداستها وكل شرورها، تعتمد عليهما، علاوة على ذلك يحتل هذان الهيكلان مع ساحتيهما شطراً كبيراً من المدينة، ولذلك لابد من أن يكون لهما نصيبهما في أعمال الوصف.

وصف مدينة القدس المقدسة في وضعها المعاصر، وهذا هو الفصل السادس والأخير من الشطر الأول

من كتاب الجولات والرحلات

[٢٥٥] بدأ وجود مدينة القدس الحاضرة الأعظم جلالاً وقدما في سنة ٢٢٤٢، من خلق العالم، أي٢,٩٥٧ سنة قبل تجسيد الكلمة، وقد بنيت إثر طوفان نوح مباشرة، من قبل ابنه الكبير سام، وعاش سام هذا تبعاً لروايات الحكماء حتى أيام ابراهيم، وكان هو مليكصادق ملك سالم، وذلك حسبما جاء الخبر في رسالة جيروم إلى ايفاجيروس -Eva grius، وكذلك حسب رواية مصنف الـ Speculum Historiale، ورواية يوسفيوس في الكتاب الأول ص١٧٨.

فبعد الطوفان، جاء بتوجيه من الرب إلى هذا المكان، وبنى الهيكل هناك، الذي أطلق عليه اسم «سالم» ومعنى هذه التسمية وترجمتها «عدل» أو« سلام» أو «استنفاد الكمال»، أو« ذاك الذي يبعد الموت»، لأن ملكيصادق كان أول كاهن، وكاهن أعلى للرب العلي الأعلى، وكان يقدم الخبز والخمرة في الهيكل الذي بناه على جبل أكرا(الجمجمة)، ومنه رأى إبراهيم، البطريرك العظيم القداسة، أنه جدير أن يتلقى مباركة منه، حسبما قرأنا في سفر التكوين:١٤، وكنت قد تحدثت عن هذا الكاهن من قبل في ص٥١٥، ولتعرف كم كان عظيماً، اقرأ الرسالة إلى العبرانيين:٧.

وقام هذا الرجل بتكريس وتقديس هذا للرب، ولذلك كانت هذه المدينة مقدسة منذ أيامه حتى هذا اليوم، ولم يسمح الرب قط للمذنبين بالإقامة فيها طويلاً بسلام، كما هو واضح للانسان الذي يقرأ التاريخ التوراتي كله، والتواريخ، والأخبار.

غير أن العقل يحاجج أنه حتى في أيام أبونا الأول آدم، كان هناك

نوعاً من أنواع الخلوات فوق موضع الجمجمة على جبل المدينة المقدسة، بسبب أن آدم قد كشف له عن مخلص الجنس البشري، وطريقة الخلاص ووقته، وإليه كُشف أيضاً عن مكان الخلاص، وبما أنه— وقتذاك— لم يكن بإمكانه رؤية المخلص في أيام حياته، كما لم يكن باستطاعته البقاء حياً حتى أيام المسيح، قام بتشريف مكان الخلاص بشكل رائع، وغالباً مازاره وصلى فيه، هو وأولاده، وأخيراً عندما رأى أن موعد موته بات وشيكاً، انتقل من الخليل، حيث كان يسكن، وصعد إلى موضع الجمجمة، وسدد دين الموت، لأنه عرف بأن المسيح، الذي هو آدم الثاني، سوف يذهب في هذا المكان بالموت الذي جلبه إلى العالم، وحمل أولاده جسده إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وذلك باستثناء رأسه، الذي بقي في موضع الجمجمة، ولذلك عامل أولاده ذلك المكان باحترام.

ويمكننا أن نعتقد أيضاً أن سام بن نوح، امتلك هيكلاً هنا بعد الطوفان، ومع ذلك كان هنا خلوة أو مصلى قبل الطوفان، وهنا أيضاً قدم ابراهيم كبشاً ضحية عوضاً عن ابنه، وقد حدثتنا عن هذا ، الأخبار العبرية، وكذلك أمبروز وخريسوستوم، وجيروم، والاخباريون ومع ان التعليقات على متى:٢٧، قد قالت بأن الذين يؤكدون بأن آدم قد دفن في الجمجمة لم يقولوا الصدق، إن هذا لايتعارض مع ماقلناه، لأننا نقرّ بأن جسده قد دفن في الخليل، حسبما جاء الخبر في يشوع:١٤، لكن رأسه بقي على جبل الجمجمة، فقد قرر الرب هذا، وعندما كان آدم يموت، رجا أولاده أن يفعلوا ذلك، وأستخلص من هذا كله أنه حتى الطوفان قد كان هناك على الأقل خلوة أو مصلى، وهيكل فوق موقع مدينة القدس، من دون وجود سكان بشريين، ولم ينظر إلى موضع الجمجمة على أنه مقدس بشكل خاص حتى أيام الرومان، الذين لكراهيتهم لليهود جعلوا منه موضعاً لتعذيب المجرمين ولإعدامهم، إنما

بصلب المسيح ردت جميع القداسة إلى المكان، ولسوف يبقى هكذا إلى الأبد، ومن أجل هذا المكان نفسه انظر ص٤٨٨ , ٥٤٠.

★★ ★★ ★★

وتبعاً لاختلاف الأشخاص والأزمان، تلقت هذه المدينة أسماء مختلفة، فقد دعيت باسم «سالم» في سفر التكوين:١٤/ ١٨، ودعيت أحيانا من قبل الشعراء باسم«سوليما»، وجاء اسمها« يبوس» في يشوع:١٥/ ٨، وأورشليم، في سفر القضاة:١٩/ ١٠، وباسم «هيروسوليما»في متى:٢، وفي لوقا، وباسم« بيدر أرنان» في سفر أخبار الأيام الأول:٢١/ ١٨، وكذلك ورد اسمها لدى جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، وباسم« أريئيل» في سفر إشعيا:٢٩،و« ابنة صهيون»، في سفر زكريا:١١/ ٩، و« المدينة الدموية» في سفر حزقيال:٢٢/ ٢، و« المطلوبة المدينة غير المهجورة» في اشعيا:٦٢/ ١٢، و« مدينة قوية» في سفر إشعيا:٢٦/ ١، و« مدينة الرب» في المزمور:٧٦،و« كرسي الرب» في إرميا:٣/ ١٧، و« السيدة في البلدان» في مراثي ارميا:١/ ١، و« العظيمة بين الأمم» في مراثي ارميا:١/ ١، و«وادي الرؤيا» في اشعيا:٢٢/ ١، وحول هذا النص انظر شروح دي ليرا، و« سدوم» في رؤيا يوحنا:٢، و« البرج» في متى:٢١/ ٣٣، و« إيلياء» نسبة إلى الامبراطور إيليوس هدريانوس، علاوة على ذلك غالباً مادعاها جيروم— ومن الممكن للانسان أن يقول دوماً— باسم هاليا Halia، وفي هذه الأيام يدعوها الاغريق باسم هاليا، وكابيتوليا، وذلك مثلما فعل بطليموس، ومثل هذا دعيت من قبل يوسبيوس باسم« الجريزا» Algariza أي« الجبل العالي جداً» ويطلق عليها المسلمون اسم الأقصى، لكن اللاتين يسمونها إما أورشليم أو ييروسوليما -Jer usolyma أو المدينة المقدسة، أو يطلقون على المدينة كلها اسم جزء منها، وبذلك يسمونها « الضريح المقدس».

وكـانت هذه المدينة دومـا أدنـى من أكبر المدن، وأكبر من أصغـرها، وهي في هذه الأيام بمثل هذا الحجم حيث لم تتـوسع إلى الحجم الكبير، ولم تتقلص فتصبـح صغيرة، ذلك أنها ليسـت أصغــر من مــدينتنا أوغــزبورغ Augsburg في ســوابيــا، وكنت قـد تحدثــت عن هذا الموضـوع من قبل، وطول أسـوارهـا التي تحيط بها الآن هي نفسهـا كما تركهـا الامبراطور ايليوس هدريانوس، وهذا مـاسوف نبرهن عليـه فيما بعد، علما بأننا كنا قد تحدثنا عن حجمها من قبل.

وكـان هناك في العصـور القـديمـة أبواباً كثيرة تقـود إلى هذه المدينة، والذي يمكننا استخلاصـه من الكتابات المقدسة أنه قـد كان هناك ثمانية أبواب رئيسيـة، وإذا قرأنا أنه هناك أكثـر من ذلك، فمرد ذلك إمـا لأن البـاب الواحـد له أكثـر من اسم، أو لوجـود أبواب فـرعيـة صغيرة إلى جانب الأبواب الرئيسية، التي إليهـا انتمت أسماء هذه الأبواب الفرعية، ولم أستطع في العصر الحديث الوقوف على أكثر من خمسة أبواب، فباتجاه الشرق هناك البــاب الذهبي، وهو مغلق الآن، وكنا قــد تحدثنا عنه من قبل، ويوجـد بين الشرق والجنوب باب الدمن(القاذورات)، وهو أيضـاً تقـدم وصفه من قبـل، ويوجد في الجهـة الجنوبيـة باب النبع، الذي من خـلاله يذهب الانسـان إلى نبع سلوان، ويوجـد في الجهة الغـربيـة باب التجـار، أو باب السمك، وكنا أيضـاً قـد تحدثنا عنه من قبل، وهناك في الشمال باب إفـرايم، الذي يسمى أيضـاً باب القـديس اسطفـان، وهناك مســافــة كبيرة بين باب السمك، وباب القــديس اسطفــان، لأن باب السمك قـائم قرب الزاوية حيث يتصل الســور الجنوبي بالسور الغـربي، وليس هناك على طول الســور الغربي بـاب آخر حتى يصل الانســان إلى باب القديس اسطفان القائم في السور الشمالي، قرب الزاوية التي يتصل بها بالســور الشرقي، وكـان القـديس يوحنا قـد رأى في سفـر الرؤيا— الاصحـاح:٢١، اثنـي عشر بابا في القـدس السماويـة وهو رقم لم تمتلكه

هذه المدينة قط.

وكـان فيما مضـى على طول إطار الأسـوار والشرافـات، أبراج، من الممكن لنا تعقب خرائبها، وكان المسلمـون قد رموا هذه الأبراج أرضاً، وبنوا أبراجاً أخرى داخل المدينة، على مقـربة من المساجد، لاستخدامهم في شعـائـرهم، ذلك أنهم لايهتمـون كثيراً، ولايتعبـون أنفسهم بشأن تحصين المدن، لكنهم يراقبون بدقـة الدخول إلى البـلاد، وكان فيما مضى قيـاس السـور والشرافـات ثـلاثة وثلاثين غلوة، وذلك يشمل كـامل الاستـدارة، فهـذا ماحـدثنا به يوسفيـوس في الكتـاب الخامس، الفصل الثامن، وكانت الأسوار في الماضي القديم قوية، ومزدوجة، كما سلف لنا وبينا ذلك، وللمـدينة خنادق مـن جـانبي الغـرب والشمال، وهناك من الجهة الشرقية وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب وادي صهيون.

وفي الداخل، هذه المدينة تلية، وغير مستـوية، لأنها بنيت فوق أماكن عالية، وجبل صهيون هو الأعلى من البقية، ويقوم على السفوح الشمالية لجبل صهيون جزء كبير من المدينة، ويقوم على كتف جبل صهيون جبل الجمجمـة، وهو الذي يدعم كنيسـة الضريح المقدس مع جـزء كبير من المدينة، وهناك أيضـاً جبل مـوريا، الـذي فـوقـه يقف هيكل الرب، مع الجزء الأساسي من المدينة، وعلى هذا يصعد الانسان وينزل في كل مكان خـلال المدينة، وهذه الجبال لاتمتـد إلى قمم عـالية، بل هي نفسهـا قمم عريضة وواسعـة للرابية الرئيسية التي تقوم عليهـا المدينة، وهذا ماجعل المدينة غير مستوية، وهذه الرابيـة كلها قد ورد ذكرها في المزمـور الثامن والعشرين قـوله:« وأدخلهم في تخوم قـدسـه هذا الجبل الذي اقتنتـه يمينه»، ومثلما مـدينة بازل تليـة، كـذلك هذه المدينـة، ففي بازل تماثل هضبـة القـديس ليـونارد، جبل صهيون في القـدس، وهضبـة القـديس بطرس تماثل جبل الجمجمة، وهضبة القديس مارتن جبل موريا، وهناك على كل حال فوارق كبيرة بالشكل والتركيب بين هضبة وأخرى.

وكما قلنا من قبل، ان شطراً كبيرا من المدينـة مشغـول من قبل هذين المعبدين المشهورين اللذان غالبـا مايرد ذكرهما، وهما هيكل الرب، الذي يسمـونه هيكل سليمان، وهيكل الضريح المقـدس، وذلك مع سـاحتيهما الواسعتين، والأبنيـة المتصلة بهما، وبالاضافـة إلى هذين، هناك مـوزع في المدينة كثير من البيع للهراقطة، وعدد كبير من مساجد المسلمين، وكنس اليهود، ومعـابد السامـرة، والشوارع الـرئيسية مغطاة بسقـوف معقودة، ويقف تحت هذه السقـوف المعقـودة حـوانيت التجـار من على الجانبين، ومطابخ الطباخين، ويقطن في الشوارع الأخرى الأناس العاملين.

وكقاعـدة بيوت المدينة مبنيـة بجدران حجريـة، مع أن أكواخ الناس الفقـراء معمـولة من الطين، ولقـد رأيت هناك في المدينة بعض البيـوت الكبيرة الجيـدة، لكن الجزء الأكبر من المدينة مشعـث، والبيـوت قـائمـة مخربة مـن دون أي سكان، ولهذا السبـب لاتحمل جثـث الجمال الميتـــة والخيـول، والحمير، والكلاب ومـاشـابه ذلك إلى خـارج الأسـوار، بل تلقى في الأمـاكن المهملة في داخل الأسوار، بين البيـوت المهدمـة، ومع ذلك يوجـد في الأمـاكن والأجـزاء المسكونة أعـداد كبيرة من الناس اجتمعت من كل أمـة تحت قبة السماء، كما جـاء في أعمال الرسل:٢/ ٥، وفي الحقيقة هناك أكثر من خمسمائـة يهودي، وأكثر من ألف مسيحي من كل طائفة وبلد، إنما أقلهم جميعا هم من أتباع الطقوس اللاتينية.

وليس فيهـا ماء، إلاّ مـايسقط من السماء، أو مـايجلبونه إليهـا بشكل فني، خلال مجاري مائية، كما سلف لي وتحدثت، ويوجد في المدينة أماكن كثيرة لخزن الماء، في برك، وخـزانات وصهـاريج، وأعـداد كبيرة، من الصهـاريج والأقنية، ولذلك هناك في المدينة مـايكفيها من ميـاه، وملك مصر، الذي هو السلطان، هو السيـد هناك، وقد عين ولاة لحكم شعب البلاد، وتراجمة لحكـم الغرباء والحجاج من كـل من المسيحيين واليهود، وعين مماليك لحكم رجال الحرب، وهكذا نجده يحكم الناس بقوة مدنية

هي سلطة مطلقة.

والذي يقرأ الكتابات المقدسة، وكتب التاريخ يعرف أن هذه المدينة قد تعرضت منذ بدايتها حتى الآن لكثير من المصائب، وغالباً ماأحرقت، واستولت أمة عليها وطردت منها أمة أخرى، وكثيراً ماتعرضت للدمار، وشملها الدمار حتى أساساتها، فقد تعرضت للتشعيث من قبل نبوخذ نصر، ملك البابليين، وبعد ذلك من قبل أسوبيوس Asobeus ملك المصريين، ثم من قبل أنطيخوس، وبعده من قبل بومبي، وبعد هؤلاء استولى على البلدة هيرود الكبير، وسوسيوس Sosius، إنما من دون أن يؤذياها.

وبعد ذلك، أي بعد آلام الرب، دمرها تيتوس دماراً تاماً، وسواها بالأرض، وحطم أساساتها، ومع ذلك ترك بعض الأبراج القوية قائمة وكذلك السور الغربي، حتى ترى الأجيال التالية، كم كانت المدينة حصينة، ومع ذلك استولى عليها الرومان الشجعان، وقد ترك هذه الأماكن الحصينة لتستخدم كقلعة للذين قرر تركهم هناك، كحامية للبلاد.

وبهذا التهديم كان شقاء المدينة مع أبنائها هائلاً إلى درجة أن مامن انسان يقرأ الرواية التي قدمها يوسفيوس، دون أن يبكي ويحزن، وكان سبب هذه الفاجعة العظيمة هو وحشية المراقب العام فلورس Florus، الذي أنزلِ باليهود في القدس مصائب وعذبهم بلا حدود، حتى وصل بهم الغضب إلى التجمع للعصيان ضد الرومان، وخرجوا بثورة وقتلوا كثيراً من الرومان، وطردوا كستيوس Cestius، حاكم سورية، خارج البلاد، وكان اليهود أنفسهم في داخل المدينة عدة أحزاب، فقد كانوا منقسمين إلى ثلاث فئات، وقبل أن يقدم الرومان قتل أحدهم الآخر في المدينة بشكل وحشي، وافتعلوا الحرائق، وتصارع أحدهم مع الآخر نهاراً وليلاً، صراعاً لايمكن ايقافه، وكان السبب الحاسم لهذه

المشـاكل كلهـا هو اعـدام يوحنا المعمـدان، وصلب المسيح الناصري، ومقتل جيمس الرسـول، وهذه أمـور عـرضهـا مطولاً وبشكل مـؤلم في كتابه حول« حرب اليهود».

وبعـد تهديم المدينـة الذي وقع في السنةالثـانيـة والأربعين بعـد آلام الرب، أصبح المكان وكراً للصـوص وللقتلة لسنين طويلة، وذلك حتى أيام الامبراطور اليـوس هدريانوس، الـذي سمع عن الفـوضى في ذلك المكان، فقـدم إليـه في سنة ١٢٤م فهـدم الجزء الذي أعيـدت عمارته من المدينة، وطرد وقتل مقترفي الآثام، ثم كـان أن استقـر رأيه على وجـوب قيـام مدينـة هناك، فعاد مجددا سنة ١٣٩م، وأعـاد بناء المدينة ووسعهـا، وجعل في داخل الأسوار أماكن آلام الرب وقيـامته، الأمر الذي سوف نتولى شرحـه فيما بعد بوضوح أكبر، وعمل مدينة جـديدة، سماها ايلياء، اشتقاقاً من اسمه.

وبعد اعـادة البناء هذه، لم نقرأ بأنها دمـرت دماراً كليـا، بل تعرضت لدمـار جزئي، واقتيـد سكانها إلى السبي، كما أنها لم تنقل قط من مكانها، فهذا واضح مما أعلنه غريغوري في عظتـه حول نص« بكى يسوع عندما رأى المدينة»، لكن المدينة توسعـت، كما سنتحـدث عن ذلك الآن، وكما سلف وتحدثنا عن ذلك من قبل.

والآن مع أن هذه المدينة قـد تأثـرت بكثيرٍ من الفـواجع التي لامثيل لها، لم يجر نسيان بدايتها ولا أوضاعها، مطلقاً بل هي باقية بشكلٍ دائم، بمثـابة شاهـد أبدي بين أمم الأرض، وهي بذلك تختلف اختـلافاً كليـاً عن أحوال أعظم المدن شهرة في العالم، من أمثال: روما وطروادة، ذلك أنه مـامن انسان يمكنه أن يعـرف بشكل مـؤكد من الذي كـان المؤسس لرومـا، بسبب عـدم الوفـاق بين الذين عـالجوا موضـوع أصلهـا، وكما حدثنا كاتب«عجائب الدنيـا» فقد قال سالوست Sallustبأنها قد بنيت من قبل تروجـان Trojans وقـال يوسبيـوس بـأنها قـد بنيت من قبل

رومولوس، وقال كتّاب آخـرون بأنها قد بنيت من قبل آخرين ، في حين يمكننا البرهنة على مـؤسس القـدس المقـدسـة وتاريخ تأسيسهـا من الكتابـات المقدسة، كما تقـدم القول، ومع الاقـرار بأن رومولوس قـاتل أبيه قد أسس روما بالسلب والنهب، كما تحدث أوسيوس عنه، فقد جاء تأسيسهـا بعـد زمن طويل مـن تأسيس القـدس، في أيام حـزقيـا، ملك اليهودية، أي بعد ألفين ومـائتين وثلاثين سنة من تأسيس مدينةالقدس، وسبعمائـة واحدى خمسين سنة قبل ميـلاد المسيح، وذلك في سنة ٤٤٨٤ من خلق الدنيا، وإنه لأمر مثير للدهشة أن يكون أصل مدينة بمثل هذه الشهـرة غير واضح، وألمح جيروم في رسـالتـه إلى بـولينوس إلى هذا بقوله:« جلـب هذا العصر أمراً عجيباً، و لم يسمع انسـان فيما مضى من أيام، أن يبحث أناس قـد دخلوا إلى مثـل هذه المدينة العظيمـة عن شيء ماهو ليس موجود فيها»، وكـانت طروادة، تبعا لهومر(الالياذة: ٤/ ٤٤) أعظم المدن تحت الشمس، وتحت قبـة السماء المليئة بالنجـوم، ومع ذلك دمـرت بشكل جعلت أوفيـد Ovid يقول:« حقول قمح تتماوج الآن حيث قـامت طروادة فيما مضى»، وأكثـر مـن هذا هو أن مـامن انسـان يمكنه أن يقول أين قامت طروادة، فطروادة العظيمة التي كانت حاضرة آسيـا كلهـا، قد تهدمت كليـا، وأصبحت نسيـاً منسياً حتى أنه من غير الممكن رؤية جسدها أو أثرها، فضلاً عن هذا، فإنهم يقولون بأن المكان الموجـود إلى جـانب البـوسفـور، حيـث من المفترض لدى بعضهم أن طروادة قد قامت فيه، هو من جميع الجوانب ضيق جداً لاستيعاب مدينة مشهـورة، لكن هذا ليس هو الحال بالنسبـة لقـدسنا، التي تأسست قبل طروادة بأربعمائـة وثلاث وثمانين سنة، وهي مـدينة مشهـورة حتى هذه الأيام، وكـانت طروادة قـد تأسست في أيام أجـوث Ajoth(إهود Ehud؟) القـاضي في بني اسرائيل(الملوك:٣)، ويقـول بعضهم بأنها قـد بنيت إلى جانب البـوسفور، ويقول بعضهـم في الدردنيل من قبل واحد اسمه تروس Tros وقد دمـرت في سنة مائتين وخمس عشرة سنـة بعد

تأسيسها، وذلك في الأيام التي كان فيها عبدون قاضي اسرائيل، وبشأن هذا القاضي، انظر سفر القضاة:١٢، وأيضاً من أجل الاطلاع على بيان عن طروادة انظر القسم الثاني ص١٧٤.

ووضح لدينا الآن مما قيل بأن القدس هي واحدة من أعظم المدن قدماً في العالم، ذلك أنها أقدم من تريفس Treves بألف سنة وثماني سنوات، ومن طروادة بألف سنة وأربعمائة وثلاث وثمانين سنة، وهي قائمة مستمرة حتى هذا اليوم، لأن الرب قد اختارها، ولهذا قيل في المزمور:« لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكنا له، هذه هي راحتي إلى الأبد ههنا أسكن لأني اشتهيتها»(المزامير:١٣٢/ ١٣—١٤)، وكذلك في سفر أخبار الأيام الثاني:٦/ ٥قوله:« منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط اسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولااخترت رجلاً ليس رئيسا لشعبي اسرائيل. بل اخترت أورشليم ليكون اسمي فيها».

ولكن قد يقول انسان ما:« إنني أقر بأن القدس قد جرى اختيارها، وكانت مدينة مقدسة قبل موت الرب، لكن بعد اقتراف مثل هذه الجريمة العظمى فيها، لم تعد تستحق تسميتها مقدسة، بل بالحري مدنسة، وغير نظيفة»، وقد أجاب على هذا جيروم في رسالته إلى هاديبيوس Haedibius حول موضوع صراخ الرب على الصليب، حيث قال:« ينبغي أن لايظنن انسان أنه أمر غريب بعد موت المخلص، دعوة القدس باسم المدينةالمقدسة، لأنه حتى وقت خرابها، اعتاد الرسل دوما على دخول الهيكل وإقامة القداسات الشرعية من أجل اليهود المؤمنين، فقد أحب القدس كثيراً، وبكى عليها وناح، وعندما كان معلقاً على الصليب قال:اغفر لي ياأبي»، هذا وعلاوة على ذلك تناول جيروم هذه المسألة في رسالته إلى باولا، ويوستوخيوم في رسالته إلى مرسيلا، ولقد بحث جيروم في هذه المسألة مطولاً، وقال الشيء الكثير في إطراء

الأرض المقدسة ومدينة القدس.

★★ ★★ ★★

هيكل الرب الذي يدعى باسم هيكل سليمان، والأقصى وبيت إيل

صارت مدينة القدس مدينة مجيدة ومقدسة بهيكليها، حيث إليهما، تدين إلى حد بعيد، بحجمها، لأنه لو جرى نقل الهيكلين والبيع المتصلة بها والمساجد، لكان المتبقي منها قرية بائسة، ومن الممكن مشاهدة هذا الشيء في مدننا أيضاً، فلو أنه جرى نقل الكنائس، والديرة، والبيع، مع جميع الأبنية المتعلقة بها، من كولون، لبقي منها بلدة صغيرة فقط، ومثل هذا يتعلق بالبندقية، فلو جرى نقل الديرة، والكنائس، لكان المتبقي ليس أكثر من بلدة.

وبما أنني سأحدثكم الآن عن هيكل القدس، لابد من أن أحدثكم أولاً عن الهيكل الأقدم، فنحن نعرف من الكتابات المقدسة، أنه عندما وعد الرب باعطاء أرض كنعان إلى آبائنا، ألمح إليهم أنه هناك في تلك البلاد مكان هو سوف يختاره ليكون هيكلا، وليكون من أجل الأضاحي، وهو سوف يبنيه لهم في الوقت الذي سوف يختاره، وعلى هذا نقرأ في(سفر التثنية:١٢)قوله:« عندما ستصلون إلى الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لاتفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم

وعشـــوركـم، ورفــائع أيـديكم ونذوركم ونـوافلكم وأبكار بقـــركم وغنمكم، وتأكلون هنـاك أمـام الرب إلهكم» ولم يعلـن الرب عن مكان هذا الموضع حتى أيام الملـك داوود، الذي أراه الملاك أرض بيـدر أرونا اليبوسي على جبل مـوريا وكان أرونا هذا من الأمم، وكان يبـوسيا، كما أنه كــان غنيـا امتلك شطراً كبيراً مـن المدينة، وهكذا اشترى داوود منه أرض البيدر، التي أريت له، وهناك أقـام مذبحا، بناء على أمـر من أحد الملائكة، وكلف ابنه سليمان ببناء هيكل في ذلك المكان نفسه، ومن أجل هذا الموضـوع، انظر سفــر صمـوئيل الثـاني:٢٤، وسفــر أخبـار الأيام الأول:٢١، وبشكل خاص سفر أخبار الأيام الثاني:٣.

★★ ★★ ★★

وبناء عليـه بدأ سليمان في السنة الرابعـة مـن ملكه ببناء ذلك الهيكل، الذي كـان مشهوراً في جميـع أنحاء الدنيـا، وانتهى في السنة الثـامنة، كما جـاء في أخبار الأيام الثـاني:٢، فقد بني هذا الهيكل في سنة ٤١٦٩ بعـد خلق الدنيـا، و١٠٣٣ قبل ميـــلاد المسيح، و١٤٨٠ سنة بعـد مجيء بني اسرائيل من مصر، وكـان طول الهيكل ستين ذراعـاً هندسيـا، وعرضـه عشرين، وارتفاعـه ستمائة وعشرين، وأمـر بتذهيب داخله كله بصفـائح الذهب، وبتبليطه برخام ثمين، فضلاً عن هذا، كان هناك مذبحاً نحاسيا طوله عشرين ذراعاً، وانظر حول وصـف جميل لهذا الهيكل لدى كوسا، حول ★ ★ ★(١) الكتاب التاسع— الاصحاح الرابع.

١— كذا بالأصل، وقيمة المعلومات المقدمة أنها تعبر عن العقلية الأوربية الدينية التي آمنت آنذاك بالاسطورة، ذلك أن الحفريات الأثرية والدراسـات الموثقة نفت بناء— أووجود— هيكل أول أو غير ذلك من الهياكل، وأن تكون القدس قـد عرفت ملكاً اسمه سليمان، وعلينا أن نميز بين النبي سليمان الذي لانعــرف متى ولا أين عـاش، وبين الملك الـوهمي المخترع الذي اسمـه سليمان ووردت أخباره في أسفار العهد القديم.

وصنعت الأواني التي احتيجت من أجل الطقوس في الهيكل، كلها من أفضل أنواع الذهب، عـلاوة على ذلك، جلب سليمان ووضع في الهيكل كثيراً من الذهب والفضـة، كان داوود قد كرسها له، وبعد الانتهاء من كل شيء كما ينبغي كرس الهيكل إلى الرب بطقوس فخمة، وجلب إليه تابوه عهد الرب، الذي كان فيه لوحي العهد فقط، ووعاء المن، وعصا هرون، ولم يسمح منذ ذلك الحين بتقديم قرابين في أي مكان إلاّ في هذا الهيكل، ومع ذلك بقي الناس بعد ذلك لوقت طويل معتادين على تقديم قرابينهم فوق الأماكن العالية، وهو ذنب غالبا ماأقدم ملوك القدس على لومهم عليه، أي أنه طالما الهيكل موجود هم لم يقلعوا عن استخدام الأماكن العالية.

وحدث أنه بعد مرور أربعمائة واثنتين وأربعين سنة على بناء الهيكل، رأى النبي إرميا أن النهاية قد اقتربت، وباتت وشيكة، فأخرج من الهيكل تابوه العهـد، وحمله عبر الأردن إلى الوادي الموجـود تحت جبل عبريم، الذي عـرف باسم عـربات مـآب، كما سلف وذكـرنا ذلك، وبدعائه هناك تسبب باخفائه في الصخر، حيث كتب باصبعه على الصخر، وطبع هناك اسم الرب بأربعة حروف، وعمل ختماً مثل الختم الذي يطبع بالحديد، واسم الرب هذا مخفي بشكل محكم بغيمة، بحيث لايستطيع انسان من الخارج العثور على المكان، كما لن يتمكن أي انسان من قراءة ذلك الاسم حتى هذا اليوم، ولن يتمكن أحد من فعل ذلك حتى نهاية الحيـاة، ولن يستطيع أي انسـان اخـراج التـابوه من هناك، باستثناء موسى فقط وهرون، وورد خبر هذا في سفر المكابيين الثاني:٢، وفي الـ Speculum Historiale، قبل نهاية حكاية توبت، وبعد أخذ التابوه الذي كان مجد الهيكل، وابعاده، جاء نبوخذ نصر واستولى على القدس، وأحرقها مع صدقيا الملك، وأحرق أيضاً هيكل ربنا، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٤، واقتاد السكان أسرى وأخذهم إلى بابل،

وبقي بعـد ذلك مـوضـع المدينة والهيكل مهجـوراً لمدة سبعين سنة، أي حتى أيام داريـوس، ملك الفـرس، الذي سمح لليهــود بـإعــادة بناء هيكلهم، وهو عمل انتهى في أيام حكم قـورش، أي بعد ست وأربعين سنة، كما قــرأنا في يـوحنا:٢/ ٢٠، لكن هذا الهيكل لم يكـن مثل الهيكل الأول في العظمـة والفخـامـة، ولذلك بكى اليهــود الذين رأو الهيكل الأول، حسبما قرأنا في عزرا:٣/ ١٢، والآن، إن هذه القواعد قد أرسيت في أيام الأميرين: زربابل وشـالتئيل، خمسمائـة سنة وخمس وعشرين سنة قبل ميلاد المسيح.

وتعرض الهيكل— على كل حال— مراراً للنهب وانتهاك الحرمة من قبل الأمم، وتعرض شطر من أخشـابه للحريق، ومع ذلك بقي متماسكاً حتى هذا العصر الذهبي لربنا يسوع المسيح الذي وعظ فيه بشكل رائع، وعمل فيه معجـزات، حسبما حدثنا التاريـخ المقدس للانجيل، وواضح من انجيل مــرقص:١٣/ ١—٢، الخ، بـأن هذا الهيكل كـــان بناء فخماً منتصباً فوق صخور ضخمة، وقد بقي قائماً لمدة اثنتين وأربعين سنة بعد آلام المسيح.

وحسبت السنوات، منذ السنة الثانية لحكم قورش— ملك فارس— حينما أرسيت أسـاسات الهيكل حتى تخريبـه من قبل تيتوس بخمسمائـة وتسعين سنة، وحسبت السنـوات منذ تأسيس الهيكـل أيام سليمان حتى تهديمه من قبل تيتوس بألف ومائة سنة وسنتين.

وبالنسبة لتفاصيل حساب هذه السنوات، كان هناك أولا: من آدم إلى الطوفـــان ألفي سنة ومئتين واثنتين وأربعين سنـة، ومن الطوفـــان إلى ابراهيم كـان تسعمائـة سنة واثنتين وأربعين سنـة، وكـان من ابراهيم إلى موسى، الذي أخرج بني اسرائيل مـن مصر، خمسمائة سنة، ومن موسى، والبناء الأول للهيكل خمسمائـة سنة واثنتي عشرة سنة، ومن داريوس إلى أيام وعظ المسيـح في الهيكل في السنة الخامســة عشرة من حكم القيصر

تابيروس، خمسمائة سنة وثمان وأربعين، ومجموع هذه السنوات حتى تاريخ وعظ المسيح خمسة آلاف سنة ومائتين وثماني عشرة سنة.

وقال اسدوروس Isidorus : عندما انتهت المملكة والكهانة اليهودية، ولد المسيح في بيت لحم، في السنة الثانية والأربعين من حكم القيصر أغسطس، الذي على هذا كان قد بقي من حكمه خمس عشرة سنة إذا كان قد حكم سبعاً وخمسين سنة، وحكم من بعده تابيروس لمدة اثنتين وعشرين سنة، وفي سنة حكمه الخامسة عشرة جرى تعميد المسيح حيث كان في الثلاثين من عمره، وجرى صلب المسيح في السنة التاسعة عشرة من حكم تابيروس، وقال أمبروزيسوس Am-brosius :«كان من خلق العالم إلى تأسيس القدس أربعة آلاف سنة وأربعمائة وثماني وأربعين سنة، ومن تأسيس روما إلى ميلاد المسيح سبعمائة وخمس عشرة سنة».

وعندما حاصر تيتوس القدس، أحرق أولاً الهيكل، وبعد ذلك المدينة كلها، وهدم جدران الهيكل حتى أساساتهم، وأمر بقطع الجبل الذي وقف عليه، وأمر بالركام فرمي في وادي قدرون، وطم الخنادق التي كانت هناك، وسواها مع الأرض، وذلك حسبما قرأنا في «حرب اليهود»— الكتاب السابع، الفصل:١٦، وفي أماكن أخرى كثيرة منه.

وقال يوسفيوس بأنه بعملية الدمار الكلي هذه للمدينة هلك مائة ألف وعشرة آلاف يهودي بالجوع وبالسيف، وأن مائة ألف أخرى من الأسرى قد بيعت بشكل علني واسترقت لأن المدينة كانت مليئة باليهود الذين تجمعوا هناك للاحتفال بعيد الفصح، وما من مسيحي كان حاضراً أثناء هذه الفواجع، كما قرأنا في مصنف يوسيبيوس القيساري«التاريخ اللاهوتي»— الكتاب الثالث، الفصل الرابع حتى نهايته، وكانت الكنيسة التي اجتمعت مع بعضها في القدس قد تخبأت بفعل صوت الرب الذي طلب منها مغادرة تلك المدينة، والانتقال إلى

بلدة اسمها فحل، التي تقدم ذكرها معنا، والواقعة خلف الأردن، وكانت الغاية من ذلك، أن يكون الرجال المستقيمين والمقدسين الذين انتقلوا من القدس إلى هناك، قادرين على مشاهدة الانتقام الرباني كاملاً، وهو الذي أنزل على كل من الذين دنسوا حرمة المدينة وعلى غير الأتقياء من الناس، وذلك بطردهم من بلادهم وبتدميرها.

وعندما غادر الرومان مدينة القدس، بعدما سووها مع الأرض، عاد اليهود الذين كانوا متخفين في المخابىء إليها، وبنوا أكواخاً، وأقاموا مصلى منخفض في المكان الذي قام عليه الهيكل فيما مضى، وعادت الكنيسة إلى هناك أيضاً من فحل، لتقوم بعبادة الرب هناك، لكن اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطمت بما فيه الكفاية، أثاروا الاضطرابات، وآذوا بشكل يومي الأناس المؤمنين وأفراد الأمم، الذين كانوا يسكنون هناك، لأنهم كانوا متوحشين إلى أقصى الدرجات، وقتلة، سفكوا دماء جديدة فوق القدس، التي كانت الآن مسواة بالأرض، وملطخة بالدماء.

وبقي المكان بهذه الحالة البائسة لحوالي ست وسبعين سنة، أي إلى أن صار ايليوس هادريانوس امبراطوراً في سنة ١١٩، لتجسيد ربنا، حيث سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرك ثانية، فعبر البحار بسرعة، وقدم إلى هناك، فوجد هناك كثيراً من الناس من كل من المسيحيين واليهود، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر، بسبب الخلاف بين دياناتيهم،وكان هناك بالوقت نفسه أناس من الأمم ووثنيين يكرهون الديانتين معاً وبناء عليه وضع في المكان الذي بنى فيه اليهود مصلاهم، وذلك حيث أقام تابوه الرب فيما مضى تمثالاً لشخصه، حتى يجعل المكان ممقوتاً من قبل اليهود، ونصب في الوقت نفسه في موضع صخرة الجمجمة، حيث وقعت حادثة الصليب، تمثالاً لفينوس، وفي كهف ضريح الرب تمثال جوبيتر، حتى يجعل هذين المكانين مكروهين

من قبل المسيحيين.

أما بالنسبة للقتلة واللصوص الذين وجدهم، فقد عرضهم جميعاً على السيف، وطردهم وباع كثيراً منهم رقيقاً، واقتحم الحصون والأسوار التي تركت واقفة منذ أيام تهديم المدينة، وهدم كل شيء، ثم غادر، مخلفاً وراءه هناك والياً للمقاطعة، وعندما أدار هؤلاء القوم ظهورهم يتجولون في المنطقة، حتى يتمكنوا من العودة إلى القدس مع جيشهم، وقتها جمع اليهود أنفسهم واحتشدوا في المكان الذي قامت فيه القدس، وتشاوروا فيما بينهم، فدمروا عمود القيصر الذي حمل تمثاله، وهدموا الهيكل، وعندما علم الامبراطور بهذا كان مغضباً، فوضع جانباً جميع أعماله الأخرى، وعاد إلى القدس مسرعاً، فقتل اليهود الذين وجدهم هناك، وباع كثيراً منهم عبيداً، وطردهم جميعاً إلى خارج حدود الأرض المقدسة، ومنع بموجب قرار حظر دخول أي يهودي إلى تلك البلاد، وعندما رأى أن المكان مناسباً لإقامة مدينة، صار أكثر لطفاً في عواطفه، وعطوفاً نحو المسيحيين، لكنه ظل أكثر قسوة وحدة ضد اليهود، وقام بتنظيف الموقع، وأمر بالأسوار المخربة في الجهة الغربية فرميت بالخندق، وسوى الأرض، وأدخل موضع الصلب وصخرة الضريح المقدس داخل الأسوار التي بناها حول المدينة، وأمر بإعادة بناء هيكل فينوس وجوبيتر هناك، وأقام فوق باب السمك، أو باب التجار خنزيراً منحوتاً من الرخام، من أجل ازعاج اليهود، حتى لايحاول أحد منهم الدخول من هناك.

وبقيت المدينة على هذا الوضع لحوالي مائة وثمانين سنة، وبما أن موضع هيكل الرب تحول إلى موضع مكروه وغريب، بالنسبة للذين لايعبدون الأوثان، بسبب وجود تمثال قيصر، وكذلك كان الوضع بالنسبة لمكان صلب الرب، وقيامته، وقد نسيت هذه الأماكن إلى أبعد الحدود، إنما في سنة ٣٨ (كذا) عندما عمل قسطنطين الكبير نفسه

امبراطوراً، وأصبح مسيحيا، وجدت أمه هيلانه الصليب، وهدمت الأصنام، وبنت هيكلاً فوق الأماكن المقدسة.

وتحسنت الآن أوضاع المسيحيين، في حين ازدادت أوضاع اليهود سوءاً كل يوم، وبناء عليه عبد المسيحيون الرب في القدس بسلام كبير لمدة ستين سنة، ففي سنة ٣٦٣، اضطربت أوضاع المؤمنين، حيث كان يوليان قد وصل إلى العرش، فقد كان مرتداً عن الايمان الصحيح، وعن الإيمان بالديانة، وعندماسمع أنه يوجد في القدس كنيسة فخمة وتجمع كبير للمسيحيين، ذهب إلى هناك، وانتهز فرصة مناسبة لاظهار كراهيته للمسيحيين، فقد ألقى القبض على القديس سيراك Cyriack، أسقف مدينة القدس المقدسة، وهو الذي كان قد عثر على الصليب المقدس، وقام بصلبه لأنه عمل موعظة حول مجد الصليب، وعندما سمع اليهود بهذا، قدموا محتشدين فرحين مسرورين، فحصلوا على حظوة القيصر، بوساطة كثير من الهدايا، وجعلوا المسيحيين موضع كراهية أكبر في بلاطه، وبعدما فكر كيف يمكنه ايذاء المسيحيين، قرر الرفع من شأن اليهود، فاستدعى إلى حضرته القياديين والأعيان بين اليهود، وسألهم لماذا لايقدمون قرابين لربهم، لمعرفته أن شريعتهم تأمرهم أن يفعلوا ذلك، فخيل إليهم أنهم قد وجدوا الوقت المناسب فأجابوه قائلين:«نحن لانستطيع تقديم أضحية وفقاً لشريعتنا إلاّ في هيكل القدس، وليس هنا وهناك، ولذلك نرجو منكم ومن مراحمكم منحنا إذنا ببناء هيكل في المكان الصحيح، وهناك سوف نقدم أضحية من أجل سلامتك وسلامة الامبراطورية».

وعندما حصل اليهود على الاذن ببناء الهيكل، هاجوا إلى حد الجنون، ونشروا في كل مكان بأن جوليان— ذلك المرتد الشرير— كان النبي الذي وعدوا به في شريعتهم، ولذلك تقاطر اليهود من جميع الأماكن والبلدان، وشرعوا بالعمل فوق المكان الذي أحرق عليه الهيكل،

ومنحهم الامبراطور موظفاً من بلاطه ليتولى مراقبة انجاز البناء، وقد منح مالاً خاصاً وعاماً من أجل البناء، وجرت متابعة العمل بكل نشاط، وبدأ اليهود في الوقت نفسه بإهانة قومنا وكأن أيام مملكتهم قد عادت مجدداً، وقد هددوا المسيحيين بقسوة، وتعاملوا بوحشية معهم، وكانوا جميعاً قد امتلأوا بالعجرفة والتكبر.

وكانت الكنيسة تدار في ذلك الوقت من قبل الأسقف سيرل، وكان رجلاً مقدساً، وحدث أنهم عندما كشفوا عن الأساسات، أن أحضروا إلى هناك، حجارة كبيرة، وكلساً، وملاطاً، وخشباً، وباتوا لايحتاجون شيئاً لكي يقوموا في اليوم التالي برمي الأساسات القديمة، وارساء أساسات جديدة، غير أن الأسقف سيرل، قد أعلن، بعد تقدير دقيق للأمور، من خلال ماقرأه في نبوءات دانيال، حول هذه الأيام، أو من خلال ماتنبأ الرب به في الانجيل، أعلن بكل تأكيد، أنه من غير الممكن أن يتمكن اليهود من إرساء حجر فوق أخرى في ذلك المكان، وبات الجميع قلقاً حول التوقعات، وكان الضعفاء من المسيحيين مرعوبين، وكان الأقوياء منهم ليس لديهم من شك بأن اليهود سوف ينفذون خططهم، وفجأة حدثت معجزة، ففي الليلة التي بقيت على الشروع بالعمل، وقعت زلزلة عظيمة، ولم يقتصر أثرها على بعثرة حجارة الأساسات بالقرب والبعد، بل سويت جميع الأبنية التي كانت مقامة هناك، مع الأرض، ولحق الخراب بالبيوت التي سكنها اليهود مع العمال، وسحق الذين كانوا فيها وماتوا.

وعند حلول الفجر كان من المعتقد أنهم نجوا من هذه الكارثة لكن الذي حدث كان غير ذلك، لذلك جاء بقية الناس يركضون للبحث عن الذين سحقوا، وكانت البيوت قد غرقت في الأجزاء السفلى من الهيكل، كما كانت هناك أروقة معمدة، وكلها سقطت، وهناك كانوا قد احتفظوا بالأدوات الحديدية، والأشياء الأخرى المحتاجة للعمل، كما أنه

فجأة انبعثت من هذا المكان كرة من النار، وشرعت تسعى نزولاً في الشارع، وهي تحرق وتقتل اليهود الذين التقت بهم، وكانت تتحرك نحو الأمام ونحو الخلف، وكررت فعل هذا، مرة ثم مرة أخرى في جميع أرجاء المدينة، خلال ذلك اليوم كله، وأوقفت بلهيبها الانتقامي المحاولات الطائشة التي قام بها العنيدون من الناس، ثم إنه بسبب الخوف الهائل ولإرتجاف جميع الذين كانوا حضوراً ،فقد أرغموا بوساطة رعبهم على الاعتراف بأن المسيح هو الرب الحقيقي الوحيد، ولكي لايظهروا أنهم غير صادقين، ظهر في الليلة التالية على ملابس جميع اليهود، وبوضوح تام، علامة الصليب، حتى أن غير المؤمنين حاولوا غسل هذه العلامة وإزالتها، لكنهم لم ينجحوا بأية طريقة من الطرق، وبهذا صار اليهود وغير اليهود خائفين، ولذلك غادروا المكان، وتخلوا عن العمل الذي شرعوا به، وذهبوا عائدين إلى أوطانهم وهم مربكين تماما، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يتجرأ اليهود على محاولة إقامة أي بناء ،فوق موقع الهيكل، ولهذا بقي الموقع من دون هيكل لوقت طويل.

أما بالنسبة لمسألة متى بني هذا الهيكل ومن قبل من فإن كثيراً من الناس يتساءلون، والمقصود هو الهيكل المقام الآن فوق أرض بيدر أرونا المقدسة، وقال كاتب Speculum Historiale لدى حديثه عن إعادة بناء الهيكل بعد احتراقه:«مامن انسان يعرف من الذي بنى هيكل الرب، الذي اسمه الآن بيت إيل»، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل هيلانه، بعد العثور على الصليب، بنته مع كنيسة الضريح المقدس، ويقول بعضهم الآخر بأنه بني من قبل هرقل عندما أعاد الصليب وهو منتصر من بلاد فارس، ويقول آخرون بأنه بني من قبل جستنيان، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل ملك مصر تشريفاً للأقصى Halachibis، أي الرب العلي الأعلى(كذا) وهذا هو الصحيح، ودليلي على ذلك أنني

وجـدت في «تاريخ أنطونيـوس»(الفلورنسي ١٣٨٩—١٤٥٩) القسم الثـاني— العنوان:١٣، الفصل ٤، الفقـرة:٤، أنه في سنة ٦١٩ لتجسيـد الرب، وبعد مائتين وثلاث وأربعين سنة بعـد يوليان، جلب الامبراطور هرقل حكمـه إلى نهاية سيئة، وذلك بعـدمـا حكم الامبراطورية وأدارها بشكل مـزدهر لسنوات طـوال، فقـد انغمس بهرطقـة الإرادة الواحـدة، وبعـد وفاة زوجتـه دنس نفسه بالزواج من ذوي القـربى، ولذلك دخل عمـر خليفـة محمـد ﷺ إلى سـورية وفلسطين مع قـوات لاتحصى من العرب، وانتـزع كل شيء من أيدي المسيحيين، وفي سنين الفوضى هذه، استولى المسلمـون على مدينة القدس المقـدسة، وجعل السكان المسيحيين فيهـا رعية له، وفي أثناء إقـامة عمـر في القدس صـار صفرونيـوس على معرفة به، وتطورت العلاقـات إلى حد أن عمر دخل إلى كنيسة الضريح المقدس معه لرؤية زينتها، وعندما كان عمر يتحدث مع الأسقف، سأله عمر عن المكان الذي قام فيه فيما مضى الهيكل، الذي دمّر مع المدينة من قبل تيتوس أمير الـرومان، واقتاده الأسقف إلى أرض بيـدر أرونا، الذي كان مغطى وقتهـا ببيوت عـادية، وحدد له مكان هيكل الرب بـوساطة بعض آثار البناء القديم التي كانت باقية.

وأعطى عمـر أوامر بوجـوب تنظيف مـوضع أرض البيدر، ورصـد مبلغـاً مـن المال لنفقـات ذلك، ووضع عمالاً لإعــادة بناء الهيكل، لكن عندمـا أرسيت الأسـاسـات غطست على الفـور واختفت عن النظر، ولم يكن بالإمكان رفع الجدران، وعندمـا كان عمـر يتعجب من هذا ويفكر به، أخبره أحد المتنبئين، أنه مادام أحـد الصلبان قد بقي مرفوعـاً وعاليا فـوق جبل الزيتون في مـواجهـة الهيكل، فإن البناء لن يتماسك، لكن إذا ماأزيح ذلك الصليب وأزيل، يمكن للهيكل أن يقـوم، وكان المسيحيون قد نصبوا صليباً عالياً على جبل الزيتـون فوق في مواجهة المدينة، وغالباً ماكـانوا يصلون تحته، وكـانت صلواتهم بقوة فضائـل الصليب فعالة إلى

حد أن المسلمين لم يكونوا قادرين على بناء الهيكل بقوة غدرهم، إلاّ عندما أزيل الصليب وتوقفت الصلوات.

ولو كان المسيحيون شجعاناً بما فيه الكفاية لحفظ ذلك الصليب، لما استطاع المسلمون قط بناء الهيكل، لأنني أعتقد أن الصليب قد أقيم من قبل القديسين كعلامة على حماية مدينة القدس، وخشية إقامة هيكل لعبادة غريبة فيها، ويمكنني أن أعلن بجرأة، لوأن هذا الهيكل لم يعمر، لما فقد المسيحيون قط القدس وكنيستهم، والمسلمون مغرمون جداً بهذا الهيكل الذي هو ملكهم، ولذلك طالما هو قائم لن يتملك المسيحيون أي سلام في القدس، ولذلك يبدو أن من الأفضل تدميره، وإزالته من أساساته. بدلاً من تكريسه لاسم المسيح، كما حدث مراراً، وورد وصف الصليب المتقدم الذكر....والرواية عن الهيكل تتبع.

وهكذا أنهى عمر بناء هذا الهيكل في مدة ليست طويلة، وأضفى عليه ممتلكات كثيرة، ومازال واقفاً منذ أكثر من ثمانمائة سنة، ولم يخرب من قبل أحد، وكان أولاً مصلى للمسلمين، وفيما بعد عندما استولى الصليبيون على البلاد، كرسوا الهيكل للمسيح، وكان الأفضل هو أن يقوموا بطحنه إلى مسحوق ناعم وإزالته كليا، مشاهدين أنه المعبد الذي سبب فقدان مدينة القدس وخسارتها، ومجدداً عندما استرد المسلمون المدينة، أعادوا الهيكل لاستخدامات عباداتهم، وعلى هذا تنقلت ملكية الهيكل من وقت لآخر من أيدي فئة إلى أيدي فئة أخرى، وهو في هذه الأيام يحتل لدى المسلمين مكانة عالية من الاحترام، كما سوف نرى، وعلى هذا بني هذا الهيكل من قبل المسلمين، ومع ذلك غالباً ماقرأت في كتب حجاج صغيرة بأنه قد بني من قبل هيلانة المباركة، إنما عندما أنظر عن قرب إلى الهيكل[٢٦٠] أرى ان هذا غير صحيح، لأنه قد بني كليا وفق طرائق المسلمين، وليس له شكل كنيسة مسيحية، لأن بابه الرئيسي يفتح من الشرق، وهو شيء لم أره قط في كنائس المسيح.

فيما يلي الوصف المعاصر لهيكل الرب

إن هيكل الرب الذي بني من قبل عمر ملك مصر، على أرض بيدر أرونا اليبوسي، وذلك حيث كان سليمان قد بنى بيت الرب، هو بناء ليس مساوياً لأشهر منشئات سليمان القديمة، ويطلق المسلمون عليه اسم الأقصى، في حين يسميه المسيحيون المتعلمون بيت ايل، بينما اسمه لدى المسيحيين غير المتعلمين هيكل سليمان، وهو بناء فخم، نفقات انشائه عالية، وكبير ومستدير، على شكل برج عظيم وواسع، ويوجد في داخل الجزء الدائري جدار آخر بني فوق الأرض، وهو جدار يحيط بالهيكل كله، ويوجد بينه وبين الهيكل ساحة واسعة، ويدعم هذا الجدار من الجانب الأول سقف مقنطر معقود، يغطي الدائرة كلها، ومن الجانب الآخر يستند السقف المقنطر على جدار الهيكل نفسه، أو بالحري على رواق من الأعمدة، الذي منه ينتصب الجزء الأعلى من الهيكل، لأن في داخله هناك دائرة من الأعمدة الرخامية، تمتد القناطر فوق رؤوسها حول الدائرة كلها، وقد بني فوق القناطر جدار مرتفع حول الدائرة كلها، ويوجد في داخل الجدار الخارجي الذي يحيط بالأعمدة، بمثل ارتفاع الأعمدة نفسها وانطلاقا منها— كما قلت— قناطر معقودة فوق الأعمدة، ويوجد حول اطار الجدار الخارجي نوافذ مستطيلة كبيرة مزججة، مثل النوافذ التي في الكنائس، والمسافة مابين نافذة وأخرى هي كبيرة بقدر النافذة نفسها.

والفراغ في الخارج مزين بأعمال الفسيفساء، بطريقة باهظة النفقات، ولهذا يشع حقل كل صورة من الصور بالذهب، في حين تتألف الصورة نفسها من رسوم أشجار النخيل، وأشجار الزيتون، أو صور الكروبيين، ذلك أنهم لايسمحون بصور أخرى أو منحوتات في مساجدهم، والجزء الأعلى من الهيكل، الصاعد من الأعمدة، الواقفة في الداخل، قد بني عالياً حتى انه مشرع في الهواء، وهو منبثق من الممشى المتقدم الذكر،

الذي هو عـريض ومحيط، ويوجد في القسم الأعلى نوافـذ متواليـة كلها مستديرة، وكل واحـدة منها تلامس الأخـرى، لكن هذه النوافذ أقصر وأصغـر من النوافـذ الموجـودة في الصف الأدنى، وله فـوق أعـلاه سقف(جملون) مقنطر معقود مغطى بـالرصاص، وهو الذي كان مـذهباً فيما مضى، وهو مايمكن مشاهدته بوضوح في الوقت الحالي.

ويقـوم منتصبـاً فـوق أعلى السقف هلال كبير بقـرنين عـاليين جـداً، وذلك حسبما يضع المسلمون فوق جميع مسـاجدهم، ذلك أنهم يضعون على أعلى مكان في مسـاجـدهم أهلة على ظهورها مثـل قوارب، وأحـد التفسيرات، هو أن المسلمين حـــاولوا أن يسيروا في طريـق وسط، وأن لايظهـروا مثـل المسيحيين أو اليهـود، ومع ذلـك أن يكون لهم بعض الارتباط بها ما، ولايضع اليهود شيئاً خـاصاً فوق كنسهم، ولم نقرأ بأن هيكل سليمان قد كان له أي شيء في أعـلاه، ولكن المسيحيين نصبوا من البـداية صلبـاً مع ديكة منتصبـة فــوق كنائسهم، وقـام المسلمـون حتى يتميزوا عن كل من المسيحيين واليهـود برمي الصلبان جـانبا واحتفظوا بالـديكة في أعلى أبنيتهـم من دون صلبــــان، غير أنهم مع ذلـك، مع الاحتفـاظ بالـديكة ظهـروا أنهم يقلدون المسيحيين، ولذلـك استبـدلوا الديك بهلال مستنـد على ظهـره، وهو تغيير سهـل، لأن الديك برأســه وذيله المنتصب له شكل هلال مستند على ظهـره، ولذلك حيثما وجدت ديكة فوق المساجد، يقولون بأنها أهلة.

وفعلوا مثل هذا في جميع شعـائـرهم، حيث عملوا بعض التغييرات ، حتى لايكونوا مشابهين لنا، وهناك سبب آخـر متعلق بمحمدﷺ....... على أساس أن القمـر يؤثر بالناس أكثر من جميع النجـوم الأخرى، وبما أن طبيعتـه رطبــة، ولذلك فإن المد والجزر في البحـر يتحـركـــان وفقـاً لتحركات القمر، هذا وهناك أسباب أخرى، من الممكن استخراجها من شرائع محمدﷺ، من ذلك على سبيل المثـال، لقد أعطاهم الله القمر على

ظهره كعلامة، **لأن** شريعتهم فارغة في أجزائها العلوية، مثلما القمر وهو على ظهره، **فارغ** في الأجزاء العلوية وبـدون فائدة، وهكذا دواليك، فهو يبتعـد عن الشمس، **ودائماً** فـارغ، ومظلـم، وخـاوي، وهو يبعـد أشعـة الشمس عنـا، لأنه يقف بيننـا وبين الشمس، وهو الأكثـــر تجوالاً بين الكواكب، ففـي وئـام أوضـــاع السماء هو مشهــور بأنـه الأعمق، وهو يتجول ويتخذ طريقاً غير مؤكداً بين النجوم الجوالة، وفلكه هو الأصغر بين الجميع، وهو يحب الحيـوانات الليليـة المفترسـة، وجميع هذه النقـاط تتـوافق مع شريعة محمـدﷺ التي لاعقل في أجزائهـا العلوية، بل تبقى مظلمة لأنها أبعـدت عن ضوء المسيح، ومع ذلـك لها ضوء على الجانب الآخر، ففي كثير مـن الجوانب هناك في شريعة القرآن كثيراً مـن جوانب الصدق الرائعة، وخاصة فيما يتعلق بمـريم العذراء المباركة، فهم يدعون المسيح باسم« روح الله»، الـذي معناه« كلمـة الله»، و« نفس الله» أو« روح الله»، وهي كلمات عندمـا تترجم بتقـوى، نجـدها مليئة بقـداسـة رهيبة.

★★ ★★ ★★

ويوجد فوق السقف المعقود(الجلمون) الذي يمتد حول الهيكل كله، وتحت الصف الأعلى من النوافذ، هناك ممشـى حول الدائرة كلهـا، عليه يقف خـدمهم العـاملون في المسجـد،. وهـم الذين يتـولون الدعـوة إلى الصـلاة طوال سـاعـات النهـار والليل، ويعلقـون مصـابيح مضـاءة في ساعات محددة، ولقد رأيت هذه الأشياء كلهـا بوضوح وتمييز من خارج الهيكل، عندما نظرت إليه من خلال مسجد السلطان الجديد.

وصحن الهيكل، وجميع المنطقـة المفتـوحـة مـن حـوله، مبلطة برخـام أبيض مصقـول، وهو نظيف إلى حـد أنه عندما يقـف إنسان فـوق جبل الزيتـون وينظر نحو الهيكل، يبـدو له وكأنه قائم في بركـة من الماء النقي جداً، وفي النهـاية الجنوبية من الساحـة، عند نهاية البلاط، هناك حـديقة

بديعة من أشجار الزيتون، قد زرعت لتزويد مصابيح الهيكل بالزيت، حيث هناك أكثر من سبعمائة مصباح معلقة في الهيكل، ورأيت جميع هذه الأشياء بعيني من الخارج، لكنني لم أر شكله من الداخل، علماً بأنني كنت قادراً على أن أخمن مع شيء كبير من الصحة، من الشكل الخارجي للهيكل، ومن المساجد الأخرى التي دخلت إليها، فهو لايوجد في داخله قدس أقداس لحفظ آثارهم المقدسة، أو من الممكن أن يوضع فيها القربان أو الآثار المقدسة، لأنه ليس لديهم لاقربان ولاآثار مقدسة، هذا وكنت قد قرأت في أحد التواريخ أن قدمي وذراعي محمدﷺ محفوظين هناك ..... ولايوجد مذبح في هذا الهيكل المدنس، ولاتماثيل سواء مرسومة أو محفورة منحوتة، ولاكراسي خشب، ولامقاعد، أو مساند، بل الأرض كلها مغطاة برخام مصقول منوع، فهذا الذي يمكن رؤيته في كل مكان، والجدران مزينة من الداخل بأعمال الفسيفساء مثلما هم من الخارج، وعلى هذا ليس هناك شيئاً قائماً في مواجهة جدران هذا الهيكل في محيطه كله، ولايوجد شيء في داخله، سوى المصابيح المضاءة، المعلقة من القناطر في الأعلى، هذا ويقول بعضهم أنه يوجد في وسط الهيكل هناك صخرة منبعثة من الأرض، وهذه الصخرة مطوقة من جميع جوانبها بشباك حديدية، وأن مامن مسلم أو غير مسلم يتجرأ على الاقتراب منها، هذا ويقدم المسلمون من بلدان نائية للزيارة، وهم يرغبون بخشوع برؤية تلك الصخرة، وبسبب هذه الصخرة تراهم في كلامهم العام يطلقون على هذا الهيكل اسم« الصخرة المقدسة».

وهم يقولون بأن أشياء كثيرة عظيمة قد عملت فوق هذه الصخرة، ففي المقام الأول فوقها قدم ملكيصادق خبزاً وخمرة(التكوين:١٤)، وهناك نام البطريرك يعقوب، وهذه الصخرة تحت رأسه، ومن عليها رأى في منامه السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون عليه، وفي الصباح دهنها بالزيت(التكوين:٢٨)، علاوة على

ذلك، على هذه الصخرة رأى داوود الملاك واقفاً مع سيفه المشهور، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢١، هذا وعندما كان الكهنة قد اعتادوا على وضع تقديمات الحرق فوق تلك الصخرة، كانت النار المقدسة تنزل على الفور وتلتهم ماكان قد وضع هناك، ويقولون أيضاً أنه عندما رأى النبي إرميا بأن دمار المدينة والهيكل بات وشيكاً، أخفى تابوه الرب في هذه الصخرة، فهي قد انفتحت بشكل اعجازي، وأخذت التابوه، وبناء عليه هم يعتقدون بأن التابوه مخبأ داخل الصخرة، وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح في اليوم الأربعين، عندما أخذه سمعان بين ذراعيه(لوقا:٢)، وعندما كان يسوع في الثانية عشرة من عمره جلس على هذه الصخرة في وسط اللاهوتيين(لوقا:٢)، وعندما كان في الثلاثين من عمره غالباً ماتولى الوعظ وهو جالس فوق تلك الصخرة، فهذا مايقوله المسلمون حول تلك الصخرة، هذا وإن بعض الأشياء التي تقدم لي قولها من قبل لاتتوافق تماما مع أقوالهم هذه، من ذلك على سبيل المثال مايتعلق بملكيصادق، وحول يعقوب، وبشأن حادثة إرميا.

وقداسة هذا المكان— ولاأقول: هذا الهيكل— قد تبرهن عليها في كثير من نصوص الكتابات المقدسة، فهذا هو المكان الذي اختاره الرب وآثره على جميع الأماكن الأخرى، الأمر الذي كنا قد بيناه من قبل، وهنا ظهر مجد الرب في دخان كثيف، وملأت السحابة البيت إلى حد أن الكهنة لم يكونوا قادرين على الإقامة في الهيكل(الملوك الأول:٨/ ١٠—١١)، وعندما أراد عزيا أن يقدم بخوراً هناك، ولأنه لم يكن كاهناً أصيب بالجذام(أخبار الأيام الثاني:٢٦/ ١٩)، وعندما بُعث هيلودوروس لسلب الهيكل جرى ضربه بشكل فظيع(المكابيون الثاني:٣/ ٢٦)، وعندما مدّ نيكانور بطيش يده نحو الهيكل، فقد يديه ورأسه(المكابيون الأول:٧، المكابيون الثاني:١٤)، وعندما بادر الملك

أنطيخـــوس مسرعـــاً لنهـب هذا الهيكل مـــات ميتـــة شنيعـــة في الجبـال(المكابيـون الثـاني:٩)، والأمبراطور بومبي الذي كـان حتى ذلك الحين منتصراً، بعـد أن دنس هذا المكان، ووضع خيـوله فيـه، لم يمتلك حظاً جيـداً ثانية، وفي هذا المكان أطعمـت العذراء المبـاركة، وهنا ظهـر جبرائيل— ملاك الرب— إلى زكريا، وهنا أورقت عصا يوسف.

ومن الهيكل الذي بني فوق هذا المكان، قام الرب يسـوع عدة مرات بطـرد الـذين بـاعـــــوا والذيـن اشتروا، وهنـا كتـب على الأرض باصبعه(يوحنا:٨)، ووعظ في هذا المكان كثيراً وعمل معجزات عظيمة، وبعـد ماجـرى تدمير الهيكل، لم يكن اليهـود قـادرين على بناء أي شيء هناك وهذا مـاكنـا قـد تحدثنا عنه من قبـل، كما أن المسلمين لم يكونوا قـادرين على بناء مسجد على هذه البقعـة حتى دمـروا الصليب، كما قلنا من قبل، وعندمـا بني المسجـد أخيراً وضح أن الرب كـان غـاضبـاً أن تجري العبادات المحمـدية فوق هذا المكان العظيم القـداسة، ولهذا جلب شعب الغرب إلى هذا المكان، وكان غاضباً على المسلمين.

وكـرس المسيحيون مسجـد محمـدﷺ وحولوه إلى كنيسـة، وعن هذا الهيكل تحدث برنارد في قـداسـه إلى فـرسـان الـداوية(الفصل الخامس) قائـلاً:« يوجد هيكل في القدس، فيه يسكن الفـرسان مع بعضهم، وهو ليس مساوياً للهيكل القديم ولابفخامة هيكل سليمان، ولكنه ليس أدنى أبهة، لأن جميع فخامة الهيكل الأول كانت تعتمدعلى الأشياء الفانية مثل الذهب والفضـة، والحجـارة المنحـوتة، ومختلف أنواع الأخشـاب، لكن جميع جمال ومجد هذا الهيكل، وجميع زينتـه مـوجودة في الحماسـة التقـوية والغيرة على الدين، والمحـادثات الخاشعـة بين الذين يسكنون فيـه، فقـد كـان الأول متميـزا لألوانه المتنوعـة، وأمـا الثـاني فـلأنه محترم لفضـائل متنوعـة ولأفعال مقـدسـة. وفي الحقيقة القـداسـة هي التي جعلت بيت الرب، الذي لايسر كثيراً بالرخـام المصقـول كما يسر بثقـافـة الأخـلاق

السامية، وبحب العقول النقية أكثر من الجدران المذهبة، ومظهر هذا الهيكل مشرق مسرور بالأسلحة، وليس بمجوهرات تيجان الذهب القديمة، والجدران مغطاة هناك بترسة معلقة عليها عوضا عن حاملات الشموع، والمباخر، والأباريق، والبيت كله مطوق بالأعنة والرماح، ذلك أن فرسان المسيح يتحرقون بالحماسة نفسها، تجاه بيت الرب، التي تحرق بها الرب عندما طرد مع الضرب الذين باعوا فيه واشتروا، وقد رأى أنه أمر غير تقي ولايمكن احتماله أن تتلوث الأماكن المقدسة من قبل الكفار، ومثله بالسوء تلويثه من قبل التجار.

وهم يسكنون في البيت المقدس مع خيولهم وأسلحتهم، من أجل أن يبعدوا عنه وعن الأماكن الأخرى المقدسة جميع الدنس وكل طغيان الكفار، ولكي يشغلوا أنفسهم في الليل والنهار في أعمال مفيدة، أثناء تنافس أحدهم مع الآخر، من أجل تشريف هيكل الرب مع أعمال تعبدية قلبية دائمة، ودوما يقدمون النذور والتعهدات هناك، وليس أجساد الحيوات كما كان في القديم، بل قرابين صحيحة، وسلام، ومحبة أخوية، وخضوع تقوي، وفقر تطوعي».

هذا مافعله الرجال في القدس في أيام القديس برنارد، وقد تحرك العالم أجمع نحو التقوى يحذون حذوهم، لكن عندما شاخ حماس فرسان هذا الهيكل، لم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن الناس الحمقى، الذين كانوا قد طردوا، من العودة ثانية، فتمكنوا من طرد فاتري العزيمة والشهوانيين من أتباع الصليب، وهم مجللين بالعار، وللمرة الثانية خرقوا حرمة هيكل المسيح المقدس باتخاذهم مسجداً منه.

وهكذا،ياللأسف آل الهيكل إلى المسلمين الذين يعرفون قداسة المكان، والأعمال العظيمة التي عملت هناك، فهم يعاملون الهيكل باحترام عظيم، وبسرور عظيم يقومون بحفظه نظيفاً، ومنظماً بكل وسائل العناية، حيث يغسلونه يومياً من الداخل ومن الخارج، وهو كله

مصقــول بشكــل فخم، ولذلك إنــه لمدهش أن تنظر إليـــه، ولايدخل المسلمـــون إلى هذا الهيكل إلاّ بعــد أن يكـونوا قــد طهــروا أنفسهم، بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقـار ولياقة، ليس بشكل حـاشد، بل يمشي كل انسـان لوحـده، وكأنه سيــد عظيم، ولايتكلم أحـدهم مع الآخـر، ولايجلبـون الأطفــال أو الكلاب معهم، وبذلك لاينزعـج إنسـان أثناء صلاته.

وللنساء باب خاص بهن، منه يدخلـن إلى الهيكل وإلى الساحة هناك، ولهن جناحهن الخاص في الهيكل، فيـه يصلين منعــزلات عن الرجـال، ومعهن النساء الـلائي حسب عادة النساء يمكثـن في بيوتهن، ولايسمح لهن مطلقاً بالاقتراب من الهيكـل، ويخلع الرجال أحذيتهم قبـل الدخول إلى الساحة، ويركعون مراراً ويبدون الاحترام والتقوى قبل الساحة أمام الهيكل، وبذلك يدخلون إليه بوقار.

وعندمـا يكون الملك السلطان في القـدس، ويرغب بدخـول الهيكل، يقومون بغسل البلاط والجدران العائدة للهيكل بماء الورد قبل وصوله، لاظهار التشريف لعظمة الهيكل والملك.

ومكانه هـذا الهيكل عــاليـة جـداً بين المسلمين، وطالما هـو بأيديهم لايهتمون كثيراً فيما إذا امتلك المسيحيـون بقية المدينة، ولهذا عندمـا كان شعبنا يحاصر دميـاط في سنة ١٢١٩، لتجسيـد ربنا، ودميـاط مـدينة في مصر، وعندمـا رأى السلطان أن الموقـع سـوف يجري الاستيـلاء عليـه، أرسل سفارة مهيبة إلى معسكرنا، يلتمس السـلام، ويرجو رفع الحصار، وأخـذ القدس وتملكهـا كلهـا بشكل دائم، باستثـاء هيكل الرب، الذي قصد الاحتفاظ به لنفسه، وبالاضافة إلى هذا عرض بأن يتولى إعادة بناء أسوار القدس على نفقته الخاصـة، وهي الأسوار التي كان المعظم عيسى ملك دمشق قـد دمرها، وذلك بـاستثناء هيكل الرب في القدس، وكـان الفـرنسيون والألمان على استعـداد ورضـا بالقبول بهذا العـرض، لكن لم

يوافق عليه بيلاغوس، الذي كان الكاردينال والنائب البابوي، ولاالايطاليون، ولاالمسيحيون الشرقيون، ولذلك لم يستقبلوا رسل السلطان، والذي حدث أنهم وإن استولوا على دمياط بعد عدة أيام، لقد فقدوها مجدداً، وفقدوا جميع الأماكن في الشرق وفي الأرض المقدسة، إلى حد أنهم لم يعودوا يمتلكون حجراً واحداً في القدس، ونزل هذا بهم، بالقضاء العادل للرب، كعقوبة على شرور الايطاليين، وشرههم، لأن دمياط كانت موائمة لأعمالهم التجارية، ويفضلونها على القدس وعلى الأرض المقدسة، وخيل إليهم أنهم سوف يستولون عليهم جميعاً، وفي الحقيقة كان المسلمون راضين بالتخلي عن اليهودية كلها، وعن فلسطين، وعن الجليل، للمسيحيين، لو أنهم سمحوا لهم بالاحتفاظ بالهيكل في القدس، لكن برفضهم الموافقة على ذلك، خسرنا كل شيء، وهم حتى هذا اليوم يمتلكون الأرض المقدسة، والمدينة المقدسة، والهيكل، وهم لايسمحون لأي انسان، ليس من أتباع شريعة محمدﷺ بالدخول إلى الهيكل، وكل يهودي أو مسيحي يدخل إلى هناك، ويكتشف، إما يرغمونه على التخلي عن إيمانه، أو يقتلونه مع التعذيب، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الحظر، غامر عدد من المسيحيين، وتمكنوا بمختلف السبل والطرق من الدخول إلى هناك، لأن أوفيد قال:

«لأننا نتشوق إلى المحظور علينا

نتوق إلى الذي ليس لدى الكثيرين»

ويتخيل المسيحيون، أن الهيكل لابد أن يكون شيئاً رائعاً أن تنظر إليه من الداخل، مشاهدين أنه معمول بشكل رفيع، وجميل جداً من الخارج، وإنه لأمر مفاجىء أنه لايمتلك زينة من الداخل، وليس فيه مذابح، ولاصور، ولاتماثيل، بل هو صالة كبيرة مشرقة مبلطة ومكسوة برخام من مختلف الألوان، ومضاءة في الليل بعدد كبير من المصابيح المعلقة من السقف المقنطر، لأنهم يقولون بأن هناك سبعمائة مصباح مشتعلة بشكل

دائم فيه، ولايوجد في هذا الهيكل كله لاشيء سوى على الجانب الشمالي هناك مايشبه ضريح محمدﷺ، وهو ضريح مرتفع معمول من الرخام يمثل ضريح محمدﷺ في مكة (المدينة) الذي يحترمونه إلى أعلى الدرجات، حتى أنهم يتعبدون به مثلما يتعبدون في جميع الكنائس، وحول ضريح محمدﷺ هذا، انظر ص٤٠ من القسم الثاني، ولسوف تجد كثيراً حول مكة في ص٦٢.

وعلى هذا لايوجد في هذا الهيكل زينة فخمة، للنظر إليها ومشاهدتها، كما لايوجد فيه قداسات أو قرابين يقوم بتنظيمها الكهنة أو رجال الدين، وحول هذا الموضوع، إنظر القسم الثاني ص٩٤ وص١٠٠، ولايوجد لدى المسلمين خلاص ولااعفاء من الذنوب، ولاطهارة أو تحقق بالنسبة للذنوب، ومثل هذا ليس في الهيكل قداسات، ولارسامة كهنة، ولازينة، ولاكهانة، ولاقداسات أو قرابين، ومع ذلك فإنه على الرغم من فراغ الهيكل فإن الحجاج المسيحيين— كما تقدم وأخبرتكم — يتحرقون رغبة لرؤية داخل هذا الهيكل، وبعضهم يخاطر أحيانا بمواجهة الموت ليقوم بذلك.

وهنا بات كما يبدو المكان المناسب لمعالجة السؤال الذي أثير من قبل أنطونيوس في الجزء الثالث من تاريخه— العنوان:٢٤، الفصل:٩، الفقرة:١٧:« هل يعدّ المسيحي مقترفاً للذنب بالدخول إلى مساجد المسلمين»؟ ويبدو أنه لايعدّ مذنباً،لأن معابدهم قد أمر بأن تكون مغلقة(في وجه المسيحيين) وممنوعة، يعاقب فاعل ذلك بفقدان حياته وممتلكاته(انظر كوسا:« حول الكفار والمسلمين ومعابدهم»— الكتاب الأول والثاني)، وبسبب أنه بالنسبة لمنع الدخول، هم تماماً مثل اليهود....، وعلى هذا أجاب بأنه يمكن للمسيحي أن يدخل معبداً أو مسجداً للمسلمين لأربعة أسباب، هي: إما لحمد الرب أو للتبشيربانجيل المسيح، ولرؤية الهيكل، ولتقديم بعض الاهانة للهيكل،

أو ليرى ويقـــدّر كيف يمكــن صيـــانة الهيكل، هــذا ولايجوز لمسيحي الدخول إلى كنيســة مدنسة، أو مسجد ليصلي للرب، أو ليحمـده، خشية أن يظهــر أنه يشـارك في آثـام هؤلاء الناس، مشــاهدين أن المسلمين لم يقـوموا قط بمـدح الرب من دون تجديف خـؤون بحق المخلص، وثناء عظيم على النبي محمدﷺ، وعن مثل هذه الأماديح ينبغي على المسيحي، بكل وسيلة من الوسائل أن يقف نائيـاً، وعلى هذا، وخشية أن يظهر أنه من تلاميذ محمدﷺ عليـه أن يتجنب الأماكن التي خصصت لمدحه، مع أن هذه الأمـاكن أمــاكن مقـدسـة، كما لايمكنه هنـاك أن يمـدح الرب بالطريقة المناسبـة، لأن أعمال الناس تعتمد كثيراً على ظروف المكان التي فيها تنفذ، ومنع الرسول(كورنثا الأولى:٨/ ١٠) المؤمنين من الجلوس إلى مائـدة في مكان يقدم فيه لحم للأكل مما قـدم للأوثان، خشية من أنه إذا مـا رآه أخـوه، أن يضل، معتقـداً أنـه يعمل ذلك صـدوراً عن الاحترام للوثن، ومثل هـذا من المحظور على المسيحيين الجثـو للصـــلاة في مكان تجري فيه عبادة الأوثان، وإذا فعل ذلك، يكون قد اقترف إثماً عظيماً، مع أنه لم يقصد عبادة الوثن.

وبناء عليه، عندما أقام الامبراطور ايليوس هدريانوس هيكل فينوس وتمثـال جـوبيتر، هجر المسيحيـون ذلك المكان الأعظم قـداسـة، بسبب ذلك الهيكل المدنس، وعـدّوا أي انسـان دخل إليه وثنيـا، حتى لو كـان ذلك مـن أجل عبـــادة المكـان المقـــدس، ومثـل هذا كنائس الهراقطة والمنشقين، هي ممنوعـــة على المسيحيين، الـذين لايجوز لهم الصـــلاة بها، خشيـة اسهـامهم في الانشقاق، وأكثـر من هذا— بناء عليـه— هيـاكل الأوثان، وكنس اليهـود، ومسـاجــد المسلمين، ينبغي عـدم زيارتها بأي شكل من الأشكال، ولالسبب من الأسباب.

وعلى هذا سـوف يأثم الناس إثما عظيماً ضـد العقيـدة، إذا مـاقـامـوا بعبادة الرب الحقيقي في هيكل الأوثان، وسيكون أي انسان مثل هذا آثما

إثماً عظيماً— إن لم يكن أكثـر— إذا مــادخل إلى حـرم للمسلمين أو مسجـد، ليتفـوه بصلواته، لأنه، وإن كـان المسلمون المحمـديون ليسـوا وثنيين، إنهم أســـوأ مـن الوثنيين الحقيقيين، كما بـرهنا على ذلـك في الصفحـة:٩٨ من القسم الثاني، وإذا كـان الرب(متى:٦) قد منع شعبـه من الصــلاة عند زوايا الطـرقـات، حتى لايشـاهدوا مـن قبل الناس، ويعـدّوا مقـدسين، إنه أكثـر من هـذا محرم الوقـوف في هيكل اسـلامي والصـلاة فيـه، خشية أن يـروا من قبل الناس، ويظن أنهم أناس أشرار، أو مشركين، وبنـاء على ذلـك، إنـه لمن الـواضـح أنـه لايجوز لمسيحـي الدخـول إلى مسجــد لعبـادة المسيح فيـه، لأن ذلـك لن يكون من دون ذنب.

ثانيـا: هل يمكنه الدخـول إلى المسجد للتبشير بالايمان الحقيقي فيـه؟ يبـدو أن هـذا لايجوز، لأن الذي يدخل هكذا يعـرض نفســه إلى خطر الموت، على أسـاس أنه تماشيـاً مع شريعـة القــرآن، ينبغي قتل مثل هذا الانسان مبـاشرة، وبذلك يقتل نفسه بدون ثمار، ومن الممكـن، من جهة أخرى، لكثير من الناس، ممتلئين بالحماس لـلإيمان، أن يدخلوا إلى معابد المسلمين ويبشروا فيهـــا مـع ثمار، دون أن يقتلوا، من ذلـك على سبيل المثـال فنسنتــوس Vincentius المقــدس، الذي كـان من طائفـــة الدومينيكان، الذي تمكن من تحويل آلاف كثيرة من المسلمين إلى الايمان الحقيقي، وبناء عليه إنه لايمكن اعتماد، أنـك إذا ماقلت أو فعلت الذي يسبب لك القتل من قبل الآخـرين، تكون بذلك مجرمـاً بقتلك نفسك، لأن القـديسين أنفسهم، اعتنقوا الايمان الكاثوليكـي، حتى عندما كـانوا عـارفين بدون شك، أنهم بهذا الاعتناق، سوف يجري اعـدامهم من قبل الطغاة، ونحن الآن نتعبدهم كشهداء للرب.

ونقــرأ فعل مثل هذا عن الـراهب ليفينوس Levinus الذي كان من طائفة القديس دومينيك، ذلك أنه عندمـا رأى المسلمين قد اجتمعوا

مع بعضهم في واحد من مساجدهم، دخل إليه، وبما أنه كان ممتلئا بالحماس من أجل إنقاذ أرواحهم، صرخ بجرأة واستمرار بأن صلواتهم كانت عابثة، وأنهم مالم يؤمنوا بالمسيح، لسوف يذهبون إلى عذاب أبدي، وأن شرائع محمدﷺ كانت غير صحيحة، ومخادعة، وخيالية وزائفة، وعندما كان يعظ على هذه الصورة، وقع المسلمون عليه، وقتلوه.

وعدّ هذا الراهب بين القديسين، من قبل أنطونيوس في الصفحة المتقدمة نفسها، لأنه بدا بأنه قد ذهب إلى هناك، ليس بدوافع أوهامه الذاتية، بل توجه تحت قيادة الروح القدس، وإذا ماوجدوا أي انسان أثير بحماس طائش أو بغضب، للدخول والصراخ ضدهم، ومن ثم قتل، وقتها يحكم عليه بأنه فضولي، وليس شهيداً، وهذا ما عمل لبعض المسيحيين الإغريق، فقد دخل اثنان منهم— كانا في القدس قبل بضع سنوات إلى الهيكل وهما في حالة غضب شديد، وهناك اختطفا كتبهم، ومزقوها إلى قطع، وداسا عليها بأقدامهما، وهما يقولان بأنها جميعا مخترعة وزائفة، وأمسك المسلمون على الفور هذين الرجلين، وأعدموهما بعد تعريضهما إلى عذاب شديد، بتمزيقهما إلى مزق.

ثالثاً: هل يمكن لمسيحي أن يدخل مسجداً، ويكون غير مذنب، بعد اقدامه فيه على توجيه الإهانات وقيامه بحركات ساخرة منه، أو بتدمير الكتب، أو النوافذ، أو المصابيح، أو بعد إدخاله إليه الطين أو القاذورات؟ يبدو لي— مع كل الاحترام للذين هم أقدر مني على الحكم— إنه لايمكن أن يكون إلا مذنباً بسبب أن مثل هذه الإهانات وأعمال السخرية، لاتبدو بأنها ناتجة عن الاحسان، بل بالحري عن الغضب، والكراهية، أو الضغينة، أو عن الكبرياء، وبمثل هذه الأعمال لايجري تمجيد الرب، بل التجديف ضد المسيح، وإثارة الغضب بين المسلمين، من دون أي ضمان لحياتهم، وهكذا فإن الذين يفعلون مثل

هذه الأعمال يغامرون بحياتهم من دون ثمار.

وفي الحقيقة يعتقد الناس البسطاء أنهم يتعبدون الرب عند قيامهم ببعض أعمال السخرية في مساجد المسلمين، أو في كنس اليهود، لكن ليس في ذلك عبادة للرب، لأن أمنا الكنيسة تتساهل تجاه الكنس اليهودية، ولاتقوم بتدميرها مع أنها يمكنها ذلك، وبناء عليه ينبغي على أبناء الكنيسة عدم تدنيس الذي تتحمله أمهم، وتنطبق الحجج نفسها على المساجد، وبناء عليه، اقترف احد الفرسان وكان رفيقاً لي اثناء حجي، خطأ، وكان ذلك عندما كنا في منطقة فلسطين نمضي ليلة في نزل، كان بجواره مسجد، وكان الوضع أنه بإمكاننا النزول من السقف المقبب للبيت الذي كنا مقيمين فيه، إلى السقف المقبب المجاور والعائد للمسجد، وكان في قمة سقف هذا المسجد فتحه، كان بإمكاننا من خلالها النظر إلى المسجد، الأمر الذي فعلناه، وقام الفارس المتقدم الذكر أثناء الليل، وتسلق إلى السقف المقبب للمسجد، ولوثه من خلال الفتحة، الأمر الذي جعلنا نضحك كثيراً، لأننا جميعا دهشنا لدى رؤيتنا له، لكنني لم أر أية فضيلة بالذي فعله، كما أنه مامن فائدة كانت ستنجم عن ذلك، بل الكثير من الشرور، لأنه لو عرف المسلمون بذلك، لما كنا غادرنا البلاد أحياء.

ومع أن الرب لايعبد بشكل صحيح بالمساجد، هي بالأصل بنيت تشريفاً للرب الحقيقي، من الممكن تكريسها، وتحويلها إلى كنائس مسيحية، كما حدث كثيراً لدى استيلاء المسيحيين على أية بلدة، وانتزاعها من أيدي المسلمين أو الأتراك، وهم مثل ذلك يعملون بالطريقة نفسها، مساجد من كنائسنا، وبناء عليه، إنه بسبب هذا التملك، وليس بسبب اي احترام لشؤونهم التعبدية، على الانسان الاحتفاظ ببعض الاحترام لهياكل الأمم، عارفين بأن الرسل أنفسهم لم يدمروا الهياكل، بل أزاحوا الأوثان منهم، وحولوهم إلى كنائس

مسيحية، وغـالباً ماقـرأنا أنه حتى الذين لوثوا هياكل الأوثان، تعـرضوا للعقـــوبـة، كما هو واضح مـن حكايـة ميـــدوســـا Medusa ابنة فـوركـــوس Phorcus ، التي كانت امرأة فائقة الجمال، وكان من بين محاسنها شعرها الذي لم يكن مجرد أصفر، بل ذهبياً.

وانجــذب بلمعـانه نبتـــون Neptune ، فاضطجع معها في هيكل مينيرفـــا، ومن ذلك ولد الحصـــان بيغـاســـوس Pegasus ، وباتت مينيرفـا مغضبة تجاه هذا، وقـررت أن لاتمر الإهانة التي تعـرضت لها في هيكلها من دون انتقام، فحـولت شعر ميدوسا إلى ثعبـان، وهكذا بعدما كانت جميلة، غدت مخلوقاً مرعباً Monster.

وصار الذي نزل ببومبي، وماأصابه من سوء طالع بعد ماربط خيوله في الهيكل في القـدس يعـرفـه كل انسـان، إلاّ الذين لم يقـرأوا قط شيئاً، وكنت قـــد مــــررت بـذكـــر المآسي التـي جلبهـــا على نفسيهما نيكانوروأنطيخـوس، بسلبهما الهيـــاكل وبجلدهما هيلودوروس -Helio .dorus

رابعـاً: ويبقى إن علينا وجوب أن نرى هل يمكن لمسيحي الدخـول إلى مسجـد دونما ذنب، وذلك ليس للصـلاة، وليس لتخريب أي جـزء منه، وليس لتقـديم أي إهانة إليه، ولاللعـب أية خداعـات به، بل فقط لرؤية المسجـد، والشعـائـر به، وأعتقد أنه إذا أمكنه الدخـول دونما خطر ودون أن يلاحظ، هـو بذلك لايكون مقترفــاً لذنب عظيـم، ومع ذلك سـوف يبدو محبـاً للبحث إن لم نقل فضـولياً فقط، وليست التقـوى هي التي أحضرته إلى هناك، وإذا كـان المسجد قـائماً في أي موضع مقـدس، ويمكن لمسيحي أن يدخل إليـــه بشكل سري ودون أن يلاحظ، وبدون أي خطر، يمكنه وقت ذاك الدخـول بجـدارة، وتقبيل الأرض، وتلاوة صلواته، مثلما فعلنا في المسجـــد القـائم فـوق ضريح داوود، الذي من أجله انظـر ص٤١٣، وكنا راغبين بفعل الشيء نفســـه في المسجـــد في

حبرون، الذي هو قـائم فـوق الكهف المزدوج، كما سوف نتحـدث عن ذلك في القسم الثاني— الصفحة الثامنة.

لكن إذا كان الدخول لايمكن الحصـول عليه دون مخاطرة، أو مقابل أجـر كبير، فـإن الذي يدخل مثل هذا المكـان يعمل بشكل غير حكيم، وإنني أعرف فـارساً مازال حيـاً، كانت قد اقتـادته رغبته لرؤية الهيكل، ولذلك تحدثت مع أحـد المماليك، وعملت معه صفقـة في أن يضع عليه ملابس مسلـم وأن يأخذه إلى داخله، وهكذا أخذ هـذا المملوك العجوز رفيقنا وهو لابس لثياب انسان شرقي، حتى سـاحة الهيكل، لكن عندما باتا هناك، وأراد الدخـول إلى الهيكل، استبدّ رعب شديـد بالفارس، إلى حـد أنه لم يعـد بامكانه الوقـوف لأنه كـان يرتجف، ولم يتجـرأ على الدخـول، بل أدار ظهـره وعـاد إلينا، وهو مسرور لأنه تخلى عن فكرته، وفي الحقيقة ليس عجباً أنه ارتعب وخاف على حياته، لأنه لم يكن متأكداً بأن دليله كان صادقاً.

ومع أنني شخصيـاً مغـرم بـرؤية الأشيـاء الغـريبـة والمناظر غير الاعتيادية، لم أحاول قط الدخول إلى الهيكل، بـل كنت قانعاً بالنظر إليه عن بعـد، وهنا اعترف بأنني غـالباً مـاكنت منزعجـاً وشعـرت بالأسى عندمـا قارنت نظـافة الهيكل، وجماله، وترتيبـه الممتـاز مع كنائسنا، التي هي— وياللعـار— مثل اسطبـلات دواب الـرهبـان، وكنائسنا هي دائماً قـذرة مع الناس يمشون خـلالها، وكأنهم يمشون في داخل خـان، وهي ملوثة بالقاذورات الأمر الذي يربكنا كثيراً، ويزعجنا وهو يسبب كراهية القداسـات ونقدها، وإنه لمزعـج جداً ومهين أن ترى في القـدس كنيسة قيامة المسيح، وهي قائمة بدون زينة تقريباً مثل خان طلي بالدخان، وأن ترى مسجـد محمـدﷺ مـرتبـاً ونظيفـاً، مثل قصر الملك(تلاهذا مقـارنة مقذعة بين النبي محمـدﷺ والسيد المسيح، وشملت بضعة أسطر، قمت بحـذفهـا، وانتهـت هذه المقـارنة بقـوله:) ومـع ذلك فإن هيكل المسيح

ملعون، ومرزول، وممقوت، بينما هيكل محمدﷺ مبجل، وجميل، وممجد.

لكن مــاهو وجـه الغــرابة أن يحدث هذا في القـدس، بين المغــاربة والمسلمين، وهو يحدث بين المسيحيين والكاثوليك؟ انظروا أرجوكم إلى أعظم الكنـائس في العــالم أجمع — أي كنيســة القـــديس يـوحنا في اللاتيران— التي هـي رأس جميع الكنائس في داخل مــدينة رومــا وفي جميع أرجاء العالم، كما تبرهن من قبل الفارز Alvarez في مصنفة« بكاء على الكنيسـة» الكتاب الثـاني، الفصل الثـاني، الخ، والذي يظهـر في أية حـال هي فيما يتعلق بكل من الزينة والنظافـة، وإنني أصلي إلى الرب أن تنجـو من الخراب، وهناك تقـوم كنيسـة المخلص، وقـدس أقـداسنا مع كنزها الذي لامثيل له، من الآثار المقدسـة، ومع ذلك يبدو المكان وكأنه مهجور، ومنعـزل، ومن الصعب أن يجد الانسان فيـه الاشياء المحتـاجة من أجل قـداس قـربان، فسـاحتهـا قـذرة، والبيع المتصلة بها مـدنسـة، ومـذابحها ملوثة، وأمـاكنها مـدمـرة، والرهبان الذين عبـدوا فيما مضى الرب هناك، قد جـرى طردهم، ووضع آخرون في محلهم، وكل شيء في ظل حكم هؤلاء آيل إلى الدمـار، وهناك أجزاء كثيرة قد لحقهـا الدمار، ليس بسبـــب وجـــود الـترك والمســـلمين، بل بســـبب غيــاب المسيحيين.

ومثل هذا أيضاً كنيسة القـديس بطرس، هي تحتاج كثيراً إلى كل شيء مناسب لمثلها ككنيسة كبيرة، وإذا كانت مثـل هذه الأشياء قد حدثت في الكنيستين الرئيسيتين في العالم، وفي المدينة التي هي عاصمة الكاثوليكية، ومركز الإيمان، فكيف لاتحدث في كنائس أخرى في أرجاء ذلك الكون؟ حيث الكنائس قذرة، يساء استخدامها، وهي مهملة في المباني، والأواني، والكتب، وبالملابس، وبأغطيـة المذابح، وبالسـاحـات، وبأراضي الدفن، وبالأبنيـة الخارجيـة، وإنه لأمــر مخز أن تفكر حـولها، ومهين أن تقـول ذلك، وليست القضيـة قضيـة كنيسـة واحـدة بـل جميع الكنائس، حيث

المذابح، وأغطية المذابح، وأغطية الآثار المقدسة، وأغطية القربان، وغطاء كأس القربان، والثياب الكهنوتية، والأكتافيات، كلها قذرة إلى درجة أن كاهن الكنيسة لقرفه، لايسمح بوضعهم فوق منضدته، لابل أكثر من ذلك، أنه لايمكنه أن يتحمل أن تكون سراويله بهذه الدرجة من القذارة والاهمال، فالثياب الكهنوتية ملوثة مثل السخام، والأكتافيات قذرات من التعرق، وكل شيء محتاج إليه من أجل القداس متعفن بالقذارة المتناهية، إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحمل وجودهم في موضع سكنه.

أيها الأخ الانسان، حبذا لو رأيت في القدس مدى الاحترام المقدم لهيكل محمدﷺ، وكم ممتع الاقتراب منه، وكنت قد حدثتك من قبل وشرحت لك كم هي نظيفة وهادئة ساحته، وكم هو مشرق ومنظم كل شيء فيه، وبينت لك مدى الخشوع الذي يظهره المتعبدون لدى الدخول إليه، وكذلك عن الوقار العظيم الذي يلزمون به أنفسهم أثناء الصلاة، وأيضاً عن تواضع النساء هناك، حيث وجوههن مغطاة بشكل دائم، وكيف أن الرجال يصلون بصمت بعزلة عنهن، ولو أنك رأيت ذلك لصدمت بشكل عميق، ولغضبت غضباً عظيماً من الاهمال ومن عدم الاحترام الذي يبديه المؤمنون في كنائسنا.

ومع ذلك، لربما يمكن تأويل عدم الاحترام هذا، بشعور طيب، على أساس أننا نمتلك القداسات الحقيقية، التي تكمن قوتها الحقيقية في نيل الرحمة للميت، وفي شفاء النفوس، ولذلك نولي قليلاً من الاهتمام للزينة الخارجية لمعابدنا بينما لايسعى غيرنا وراء النقاء الداخلي للقلب، بل يسعون أكثر خلف النظافة الخارجية، لكن إذا سمح المسيحيون ببقاء هذه القذارة من خلال عدم الاحترام والاهمال، فهذه إهانة هائلة، حسبما برهن هوغو Hugo، الذي وضع ابداء عدم الاحترام نحو المذبح بين« ذنوب الدير» الاثني عشر.

هيكل مريم العذراء المباركة فوق أرض بيدر أومان

وعلى الجهـة الجنوبيـة من بيت إيل، والهيكل الذي يسمـونه هيكل سليمان، وفي أرض بيدر أرونا اليبوسي نفسها، هناك هيكل كبير، وكنيسة جميلة جداً، بنيت من جيمع الجوانب وفق طريقة كنائسنا، وهي أكبر من هيكل سليمان بسبب طول صحنهـا، وهي مسقـوفـة بالرصـاص، وهي تضـاء بالنهار بعـدد كبير من النوافذ المنتشرة حـولها، لكن في الليل فإنها تضاء بثمانمائـة مصباح مشتعل بها، بسبب أنها مسجد فائق القـداسة عند المسلمين، وأنا غير قادر تماماً على العثور على أية رواية، كتبها أي انسان، حـول من الذي بنى هـذا الهيكل، ومتى بني، هذا وليـس لدي شك في ذهني بأن المسيحيين قد بنوه بعد استرداد المدينـة المقدسة، في أيام الملوك اللاتين، لأن نمـوذج البنـاء وسماته تظهـر أنه بنـي من قبل مسيحيين، ومثلما يبرهن شكل مـايسمى هيكل سليمان أنه قد بني من المسلمين، مـا من مسيحي عاقل يمكنه أن يصدق الذي اعتادوا على اخبار الحجاج به، من أن ذلك الهيكل نفسـه قد بني من قبل هيـلانه كما أوضحنا من قبل، كـذلك هذا.الهيكل الذي أنا أتحدث عنه، لم يعمّـر من قبل أي قـوم غير المسيحيين، لأنهم عندمـا استولوا على الأرض المقـدسـة، رغبوا بوجـود كنيسـة باسم العـذراء المبـاركـة، قـرب هيكـل الرب، وهكذا بنوا هذه الكنيسـة تشريفـاً لها، وكـرسّـوها لها، صـدوراً عن احترام تطهيرها في الهيكل، ولذلك يدعـو بعضهم هذه الكنيسـة باسم كنيسة تطهير مـريم، ويدعـوها آخـرون باسم هيكل سمعـان، ويميـز آخـرون فيما بين هيكل سليمان وهيكل الرب، ويقـولون بأن هذا هو هيكل الرب، والآخـر هو هيكل سليمان، ويدعـوه آخـرون باسم رواق سليمان، في حين يدعـوه آخـرون باسـم هيكل زكـريا، وهذه التسميـة أقـرب إلى الصحـة، لأن العذراء المبـاركة عندما كانت طفلة قـدمت هناك إلى زكريا، والد يوحنا المعمدان.

واعتـــاد الداوية على اقـامــة قـداســاتهم في هذه الكنيســة، لكن جعل المسلمون منها مسجداً، وأبعدت عن استخدامات الديانة المسيحية، مثلما حدث لهيكل سليمان، ويوجد تحت هذه الكنيسة بناء تحت الأرض سقفه مقنطر وهو متميز وواسع، يمكن فيه ربط ستمائة فرس بدون مصاعب، وكنت قـد حـدثتكم من قبل بأنني دخلت شخصيـاً إلى هذا البناء، وأن هناك مسجــد آخر قيـد البناء قـــرب هذين الهيكلين، وذلك بأمـــر من السلطان وهو مسجد كبير، وعالي النفقات، قائم خارج الساحة، وأرض بيدر أرونا، ويوجد فيه ثمانية وثمانين مصباحاً مشتعلاً، وكنت قد تحدثت عنه من قبل.

أول كنيسة مسيحية في القدس، المعتقد أنها كانت على جبل صهيون قبل بناء هيكل ضريح الرب، وهي التي فيها بدأت معجزة نار الفصح

الوصف الكلي لمدينة القدس المقدسة مرتبط جميعه تقريباً بهذين الهيكلين، أي هيكل بيت إيل، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان، والقيامة، التي هي كنيسة قيامة الرب، وإلى هذين الهيكلين يعود الفضل بكل شيء جيد يعزى إلى المدينة، كما شهد على ذلك خريسوستوم عندما قال بأن كل شيء جيد، وكل شيء شرير انصب على الناس من هيكل الرب، وذلك حسبما جاء في مصنفه « بكاء على الكنيسة»— الكتاب الأول، المادة ٦١٦، لأن دمار مدينة القدس حدث كثيراً من المرات، وكذلك إعادة عمارتها حدثت مرات كثيرة، ومجدها وتمجيدها، وعارها وانحدارها، جاء من هياكلها في أيام كل من العهدين القديم والجديد.

ولن يعبأ المسيحيون إلاّ قليلاً في هذه الأيام، حول مباشرة المسلمين الحكم في القدس، شريطة أن نمنح حرية الدخول والخروج من هيكلنا، هيكل ضريح الرب،وذلك بدون خوف، وبدون ازعاج، ومغالاة بالمدفوعات، وكذلك لن يهتم المسلمون لو أننا كنا سادة المدينة المقدسة، إذا ماابتعدنا عن هيكلهم وتخلينا لهم عنه، ولكن بما أن المسيحيين والمسلمين لايمكنهم الاتفاق حول هذه المسألة، عانت القدس غير السعيدة، وهي تعاني الآن، ولسوف تعاني فيما بعد من الحصارات ومن التدمير، ومن الرعب أكثر من سواها من مدن العالم الأخرى، وعلى هذا يمكن القول:« الغيرة على بيتك قد أكلتني»، وفي الحقيقة الغيرة على هذين الهيكلين، قد أكلت القدس وقد التهمتها، وقد سحقتها.

ولنعد إلى الخلف بعيداً مع المسألة هذه، فالرومان ماكانوا ليحولوا المدينة إلى أشلاء بشكل وحشي هائل ودموي، لولا أن اليهود قد قاتلوا

بالدفاع عن هيكلهم بغيرة وعناد منقطع النظير، ولذلك أغضبوا الجيش الروماني، وحرضوه وأوصلوه إلى كراهية مدمرة ضد المدينة المقدسة والهيكل، وعندما جرى تدمير المدينة والهيكل من قبل الرومان، من المعتقد أنه جرى الاحتفاظ بمدينة داوود على جبل صهيون لتكون قلعة وحصناً.

وفي مدينة داوود هذه نفسها، امتلك المؤمنون كنيسة، كانت قد بنيت في أيام الرسل في موضع عليّة عشاء الرب، حيث أقاموا قداساً هناك، وعملوا اجتماعاً وانتخاباً، ونشروا أحكاما تتعلق بقضايا الايمان، وكان هذا قبل افتراقهم عن بعضهم، وهنا من المعتقد أن مريم العذراء الأعظم مباركة كان مسكنها، وفي هذه الكنيسة شغل القديس اسطفان منصب الشماس، وفيها دفن بعد استشهاده، وهذه الكنيسة فوق جبل صهيون لم تهدم تماماً في أيام تيتوس أو ايليوس هدريانوس، ولا في أيام المسلمين، بل بقيت من أيام الرسل حتى هذه الأيام، إنما باستثناء سنوات قليلة فقط، عندما كان غضب الرومان حامياً ضد اليهود، وذلك لدى استيلائهم على القدس، ففي ذلك الوقت جرى انذار المؤمنين مقدماً من قبل الروح القدس، فغادروا القدس، خشية المشاركة في فناء اليهود، إنما ماأن غادر الرومان حتى عادوا وصعدوا إلى الرابيةوإلى كنيسة صهيون، هذا ومن المعتقد أن النار المعجزة المتميزة لعيد الفصح، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل، قد بدأت في هذه الكنيسة، كنيسة جبل صهيون، لكن في أي وقت، هذا مالم أقرأ عنه في أي مكان، سوى أنه في سنة ١٩٢ لتجسيد الرب، وقبل قسطنطين وهيلانه، وقبل اكتشاف الصليب المقدس، عندما كان نرسيس أسقف القدس، ذاهباً لإقامة قداس في أمسية الفصح، أخبر من قبل خدمه أنه لايوجد زيت لافي الجرة، ولا في المصابيح، وعندما سمع الرجل المقدس والمؤمن بهذا، ولأنه كان ممتلئاً بالايمان أمر خدمه أن ينضحوا ماء

ويجلبوه إليه.

وعندمــا جلب الماء إليــه، صلى وبارك الماء، وأمــر تلاميــذه بصبه بالمصابيـح، ثم حدث أنه بقـوة مدهشة لم يسمع بمثلهـا في أي جيل من الأجيـال، تحول الماء إلى زيت، وصارت له دسـامـة الزيت، واشتعل من السماء، وجعلت شعلة السماء المصـابيح أكثـر اضـاءة واشعـاعـاً مما هو معتـاد، وعملت هذه المعجـزة في أيام الكفـار، في ظل حكم الامبراطور فكتـــور، والامبراطور سيفيروس، اللـذان حكما قبل قسطنطين بمائتين واحـدى عشرة سنـة، ووجـد في القـــدس بعـد نرسيس عــدد كبير من الاساقفـة القديسين، ولم تكن حشـود المسيحيين بلا كنيسة قط، هذا ولم تكن كنيسـة الضريح المقـدس قـد بنيـت بعـد، وبناء عليـه جـرت جميع القداسـات ونفذت بمهابة على جبل صهيـون، حتى بناء كنيسة الضريح المقدس، التي عن بداياتها سوف أحدثكم الآن[٢٦٤ظ].

بداية هيكل ضريح الرب

كـان مكان صلب يسوع ودفنه خـارج باب مدينةالقـدس، كما برهن على ذلك انجيل يـوحنا:١٨، والرســالـة إلى العبرانيين:١٣، وعــدّ هذا المكان مشهـوراً منذ بداية خلـق الجنس البشري، ولقـد قـالوا أيضـاً بأن آدم، أبونا الأول، قد دفن فيه، وأنِ جســد هذا البطريرك قد نقل كله من هناك، وذلك باستثناء رأسه، وكان نقله إلى الكهف المزدوج، الموجود في حبرون، وهناك دفن، ولهذا السبب تطورت عـادة بين الرسـامين، برسم رأس آدم تحت قـدمي المصلوب، ولهذا السبب أيضاً اعتـاد أبناء آدم لمدة طويلة على معاملة هذا المكان بـاحترام، ومن المحتمل أن يكونوا قد بنوا مصلى هناك تشريفـاً لأبويهم، وأن هذا المصلى قــد عـاش حتى طوفـان نوح، فبعـد الطوفان، سكن سـام بن نوح، الذي هو ملكيصادق، فـوق جبل أكرا(الجمجمة) والتقى بابراهيم وهو يحمل خبزاً وخمرة، وباركه.

وفيما بعـد، كـان ابراهيـم على وشك التضحيـة بـابنه اسحق في هذا المكان نفســه، وذلك بناء على أمــر من اللـه، وهنا نُصب أفعــوان من البرونز، كان الناس يقدمون له الأضـاحي، وفي الحقيقة كان الرئيس بين الأماكن المرتفعـة التي أزالها فيها بعد حزقيـا(الملوك الثاني:١٨/ ٤)، ولهذا يبـدي اليهـود احترامـاً خـاصـاً لهذا المكان، عـلاوة على ذلك، اعتـادت الأمم، وكـذلك الفـلاسفـة على زيارة هذا المكان، بسبب وسط الدنيـا، الذي برهنوا أنه هنـا، كما تحدثت عن ذلك في ص٤٩٧، وجـرى وصف هذا المكان وشكله في ص٤٩٧ نفسهــا وكـذلك في ص٤٨٨، واستمـر هذا المكان يحظى بالتشريف حتى أيام أمم الاغريق، الذين قـاموا بسبب كـراهيتهم لليهـود بتهـديم ذلـك المصلى وتشتيت بقـاياه، وعينوا المكان ليكون الموضع الـذي يجري فيــه اعــدام مقترفي الشرور، وبذلك تحول المكان المقدس لدى اليهـود، إلى موضع ممقـوت لديهم، هذا ومن المعتقد أن الرب يسوع، غالباً مـاقام، اثناء حياته بزيارة هذا الموضع على الجبل، مع مكان دفنه، مــوضحـاً بذلك قــداسـة ذلك المكـان، الذي تكرست قداستـه بموته، وبدفنه، وبقيـامته المجيـدة جداً، فلقد كـرس هذا المكان وجعله مقدساً لجميع الدنيا.

وبعد صعـود الرب اعتادت مريم العذراء الأعظم قـداسة، والرسل، وبقيــة المؤمنين على زيارة المكان يوميــا، وتقبيل طبعـات اقــدام الرب يســوع، كما سلف وذكـرنا في ص٦٤٣، ويـذكـر بعضهم أن القــديس جيمس الأصغـر، الذي رسمـه الـرسل، أول أسقف للقـدس، قـد اتخذ كرسيه، ومقـر اقامته في مكان قيامة ربه، وأقـام هناك القداسات وأعمال التعبـد الدينية، فضـلاً عن هذا، كـان هو مصنف بنود العقيـدة، أي أنه أعلن بأن الرب«قد تألم أيام بنتوس بيلايطوس، وصلب، ومات، ودفن»

وبعـد استشهاد القـديس جيمس، وفي السنةالثانيـة والأربعين، أوــ كما يقول بعضهم ــ في السنة الخامسة والأربعين بعد آلام الرب، سببت

ذنوب اليهود تعرض القدس إلى دمار كلي، وذلك باستثناء مدينة داوود، والسور الغربي المواجه لصخرة الجمجمة، وحديقة ضريح الرب، حيث سمحوا ببقاء هذه الأماكن من أجل امتلاك حراس تلك البلاد مكاناً حصيناً، وبعد ذهاب الرومان، رجع المسيحيون— كما قلنا من قبل— إلى القدس، واعتادوا على زيارة موضع الجلجة مع جميع الخشوع الذي اعتادوا عليه، ومع ذلك لم يعمروا هناك أية كنيسة أو هيكل، بسبب خوفهم من الحرس الروماني، ولعدم رغبتهم في تغيير شكل المكان عما كان عليه في أيام صلب المسيح، وقيامته، وهو شكل كره القديس جيمس أيضاً تغييره، لأن تذكر ماكان قد حدث يمكن أن يكون أكثر تأثيراً، وأنا كان بودي عدم بناء أية كنيسة هناك، فوقتها كان بالامكان فهم معاني الأناجيل بشكل أوضح، وذلك لدى حديثهم عن آلام الرب وقيامته، وأعتقد بشكل مؤكد أن المسيحيين ماكانوا ليقدموا على تغيير شكل المكان، لولا أن الامبراطور هدريان فعل ذلك.

وقدم هذا القيصر إلى القدس في سنة ١١٩، وفي ذلك الوقت كانت قد أعيدت عمارتها بشكل ما من قبل المسيحيين واليهود، وقام للمرة الثانية بقتل اليهود، وباعهم رقيقاً، وأخرجهم مطرودين من البلاد، وبنى مدينة القدس الجديدة، حيث هدم المدينة القديمة ووسعها، وطمّ الخنادق بين المدينة وبين مكان آلام المسيح وحديقة الضريح، ورفع هذه الخنادق إلى مستوى بقية الأرض، وبنى سوراً حول المدينة، أدخل في إطاره هذا المكان، لأنه سمع بأن المكان كان مقدساً، وكان مبجلاً من قبل المسيحيين.

ونظرا لكونه كافراً ووثنياً، فقد رغب بتشريف آلهته هناك، وقد بنى هيكلاً عظيماً ضم كل من صخرة الجمجمة، وكهف ضريح الرب، ونصب على صخرة الجمجمة— حيث أقيم فيها مضى الصليب المقدس— نصب فينوس العاهرة بلاحياء، ووضع في كهف ضريح

الرب تمثال جوبيتر الشرير جداً، وهكذا صار المكان الذي كان المسيحيون يزورونه من قبل بشكل متواصل مكروها جداً من قبلهم، وبقي المكان في هذه الحالة الشريرة لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى أيام قسطنطين الكبير، والقديسة هيلانة، وقد عرفنا هذا من رسالة القديس جيروم إلى بولينوس، وهي التي افتتحها بكلمتي Bonus home، وهذه الرسالة موجودة في الكتاب الثالث، في صفحة:٢١٠.

وفي سنة ٣١٣ لتجسيد الرب، تحول قسطنطين وهيلانة إلى عقيدتنا، وبعدما صارت هيلانة عابدة للصليب، جاءت إلى القدس، وهنا وجدت موضع موت الرب وقيامته في هيكل مدنس وغير نظيف إلى أبعد الحدود، وبما أنها كانت ممتلئة بالحماس للرب، ألقت أرضاً بالأوثان، ودمرت الهيكل، ولحق الدمار حتى أساساته نفسها، ونظفت صخرة الجمجمة وحجرة ضريح الرب، وأمرت رجالاً بالحفر عميقاً بالأرض، وقد بذلوا كثيراً من الجهد في تعزيل الأرض ورمي التربة، وذلك في المكان الذي وجدت فيه الخشبة الثمينة للصليب المقدس، مع الرموز الأخرى لآلام المسيح، كما سلف وتحدثت في ص٤٨٢و٤٨٨، وعندما أعلمت بذلك ابنها قسطنطين، أرسل لها على الفور مبلغاً من المال لتغطي به نفقاتها، وأصدر أوامر إلى مكسيموس Maximius، الذي كان آنذاك أسقف القدس، بأن يبني كنيسة فخمة في ذلك المكان المقدس، تبعاً لأوامر أمه هيلانة، وهكذا بدأ العمل في هذا المشروع العظيم، وبعد ذلك انتهى بسرعة، وبني هيكلاً عظيماً مع تزيينات باهظة النفقات، إلى حد أن العالم أجمع لم يكن به مثله، واعتقد كثيرون بأن هذا الهيكل كان أعلى بنفقاته من الهيكل السالف الذي دمره تيتوس والذي قام فوق أرض بيدر أرونا.

وفي ذلك الوقت لم يكن فوق ارض البيدر هذه هيكلاً، ولا حتى مصلى، بل بعض المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أي

تشريف، ونقل الآن مقر الأسقف من صهيون إلى الهيكل الجديد، وقطن رجال الدين والبلاط كله هناك، علاوة على ذلك، جرى هناك تجديد المعجزة التي تحدثت عنها في الورقة المتقدمة، والمتعلقة بالنار المقدسة للفصح، فعندما يجري اطفاء الأنوار جميعا، في الأمسية المقدسة لعيد الفصح، في جميع أرجاء الكنيسة، أثناء انشغال رجال الدين والناس بالصلاة، يحدث فجأة، نزول شعلة من السماء تقوم باشعال شموع الفصح، وجميع الشموع والمصابيح، وتحدث هذه المعجزة كل سنة في هذه الكنيسة عشية عيد الفصح، وطوال ظهور هذه المعجزة لاتتلقى الكنيسة أي أذى على أيدي غير المسيحيين.

وكانت العادة آنذاك، أنه عندما يحل السبت المقدس، يجري اطفاء كل نار في جميع أرجاء القدس، ولايتجرأ انسان على اشعال أية نار بأية واسطة من الوسائط، إلاّ من النار التي تقدمها الكنيسة، وبناء عليه يبقى الناس جميعاً، في كل من الكنيسة وفي بيوتهم بصلوات مستمرة من أجل النار السماوية، التي ينظرون إليها على أنها العلامة الأكثر تأكيداً على رضى الرب عليهم، وعندما تنزل النار من السماء، كانوا يقومون جميعاً باشعال مصابيحهم، وبحمل النار إلى الكنائس الأخرى قريباً وبعيداً، وإلى هذه الأيام يجري حمل الزيت المكرس هناك، وجلبه أيضاً إلى البيوت الخاصة للناس، حيث اعتادوا على ابقائه مشتعلاً طوال السنة.

★★ ★★ ★★

وحدث في سنة ٣٢٣ لتجسيد ربنا، بعد وفاة مكسيموس، أسقف القدس، أن بدأ الآريوسيون بالحملة على كنيسة الضريح المقدس تحت سلطتهم، وقد عزلوا كونراد أسقف القدس الكاثوليكي والمعين بشكل شرعي، وعينوا رئيس شمامسة فيها، وبدلوا النظام المحدد من قبل كنيسة روما، وتحكموا لسنوات كثيرة بالكنيسة المقدسة في الجلجلة، التي دنسوها بهرطقتهم، وفي تلك الآونة، أثناء استيلاء الهراطقة الآريوسيين

على كنيسة الضريح المقدس، جرى عقد مجمع نيقيا، وقدم بعد هذا قسطنطين إلى القدس، واستمع إلى الآريوسيين إلى حد أنه اقتنع من قبلهم بالنزول إلى الأردن، وتلقي تعميد ثاني على أيدي الآريوسيين، وكأن تعميد القديس سلفستر له كان بلا تأثير، وقد وجدت هذا مدوناً في كتاب تاريخ حول قسطنطين، والذي اعتقده ان الحكاية كلها قد اخترعت من قبل الآريوسيين، من أجل أن يمتنوا حزبهم باهانة مثل هذا الامبراطور العظيم.

هذا ومن الممكن، انه نزل مع رجال الدين والشعب إلى الاردن، واغتسل فيه صدوراً عن التقوى، مثلما يفعل الحجاج دوماً، وبذلك أعطى إلى الآريوسيين فرصة للقول بأن الامبراطور قد تعمد للمرة الثانية، وطوال المدة التي سيطر فيها الآريوسيين على الكنيسة، توقفت النار من السماء عن النزول في عشية عيد الفصح، مثلما اعتادت على النزول في ظل سيطرة الكاثوليك، وفي الحقيقة لقد تبرهن بتجارب صحيحة، أنه في كل مرة يكون هناك انشقاق وانقسام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، في ذلك الوقت بالذات يجري دوماً انتزاع الضريح المقدس من الكاثوليك، ويعطى إلى الهراطقة، والمنشقين، أو المسلمين، وأنا اعتقد بشكل أكيد، أن الكنيسة الغربية لوكانت متحدة مع نفسها، لأمكننا من دون سيف ومن دون حرب تملك ضريح الرب.

وفي الوقت الذي كان فيه الآريوسيون يتحكمون بالكنيسة، طردوا الكاثوليك منها، ومن كل جهة، ولم يسمحوا للحجاج بالدخول إلى ضريح الرب، ولذلك وقعت أعمال القتل يومياً، وكانت هناك مشاجرات مرعبة بين الآريوسيين والكاثوليك، وأقول إنه في ذلك الحين اتحد المسلمون، وانقضوا على نوعي المسيحيين وطردوهم من الكنيسة، وشتتوا جميع هؤلاء المتخاصمين، سواء أكانوا هراطقة أم كاثوليك،وأبعدوهم عن القدس،و..... دمروا كنيسة الضريح القدس،

غير أنها لم تبق معزولة لمدة طويلة، لأن جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، مع جميع المؤمنين الآخرين، تجمعوا في سنة ٣٧١ لتجسيد الرب، وذهبوا إلى القدس، وطردوا المسلمين والآريوسيين، وأعادوا عمارة مبنى كنيسة الضريح المقدس، وأرجعوها إلى الإيمان الحقيقي للكنيسة الكاثوليكية، وتصاحب هذا مع كثير من التعب، لأن الآريوسيين كانوا قد أصبحوا قوة هائلة في جميع أرجاء العالم، وكانوا يتمتعون بالحظوة لدى الأساقفة، ورجال الدين، والملوك والأمراء، وقامت هذه الهرطقة اللعينة وصدرت عن آريوس، الذي كان قس الاسكندرية، وكان بالاسكندرية، احمقاً إلى حد محاولة زرع الخلاف في الايمان القويم، كما حاول أيضاً أن يفصل الابن عن الجوهر الدائم، والذي لايتغير للأب، وذلك حسبما حدثنا غراشيان Gratian في لاهوتيته الرابعة والعشرين— الفصل الأول.

وبعد تنظيف الكنيسة في القدس من تلك الهرطقة، سيطرت القداسة بشكل رائع بين كل من رجال الدين والعلمانيين، في جميع أنحاء العالم، حتى أيام الامبراطور هرقل.

وفي الحقيقة ازدهر بين ايام الامبراطور قسطنطين، الذي حكم في سنة ٣١٣، وهرقل الذي حكم في سنة ٦١١، رجال نالوا شهرة عظيمة وكانوا متنورين، ومعهم تراجعت الهرطقة الآريوسية كثيراً، وهي الهرطقة الخطيرة التي كان آريوس رئيسها، وكان هذا العصر مقدساً وخطيراً، فلقد كان مقدساً، بسبب القديسين الذين عاشوا في تلك الآونة، ودون الحديث عن الجميع، لقد كان هناك بين هذين الامبراطورين، قد ازدهر، أربعة حكماء مشهورين في الكنيسة، هم: أمبرويز، وأوغسطين، وجيروم، وغريغوري، وفي الوقت نفسه كان من بين القديسين، نيقولا، وأنطوني الكبير، وزينو أسقف فيرونا، وبولص، أول النساك، وبولنيوس أوف تريفس Treves ، ويوسيبيوس،

وهيــلاري، وأثناسيـوس، ومكاريوس، ومــريم المصرية، وكــان هناك وقتذاك كثيراً من النساك في قفـار مصر، والعربية، وفلسطين وليبيا، وفي كل سنة تـدفقت حشـود مـن الأتقيـاء المسيحيين مع بعضهـم من جميع أجزاء العالم إلى فلسطين، لإقامة عيد الفصح الكبير، وجاء كثيرون ليس فقط من أجل يسوع، بل لكي يتمكنوا من رؤية معجزة النار السماوية في أمسيـة الفصح، والمعجزة على جبل الزيتـون في يوم عيد الصعـود، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل في ص٤٩٠، و٥٩٥.

ولم تتـوقف القـدرة الالهيـة، في ذلك الوقت أيضـاً عـن تمجيـد هذا المكان، بوسـاطة كثير من العلامات، وهكذا رأى في سنة ٦٢٠ لتجسيد الرب، راهب اسمــه برنارد، هو ليـس برنارد أوف كليرفـو، بل رجل مقدس آخر، رأى النار المتقـدمة الذكر نازلة من السماء إلى هيكل ضريح الرب، وقـد كتب كثيراً حـولها في كتـاب حجـه، وفي ذلك الوقت قُـدر المسيحيين كثيراً بسبب نار الفصح، وفي ذلك الوقت أيضاً، جرى عرض الصليب المقدس والآثار المقدسة الأخـرى، التي وضعتها هناك القديسة هيلانة، وهكـذا نقرأ، بأن القديسـة مريم المصرية، عنـدما كانت مـاتزال مذنبـة، قدمت إلى القـدس مع آخرين كثر لـرؤية الصليب المقدس، غير أنه لم يسمح لها بالدخول لـرؤيته قبل أن تعهدت بتقـويم حياتها، حسبما ورد في اسطورتها.

وبين الامبراطورين المتقــدمي الـذكـر، أي قسطنطين وهـرقل، تسلم يوليان المرتد زمام السلطة في سنة ٣٦٣، وكـان هذا الرجل يغار من مجد المسيح والمسيحيين، ولذلك حشـد جميع اليهـود مع بعضهم، وبعث بهم إلى القـدس على نفقتـه، من أجل أن يتمكنوا من بناء هيكل فـوق أرض بيـدر أرونـا، لخفض وايذاء مجد هيكل ضريح الرب، الذي كـان آنذاك ممجـداً في جميع أنحـاء العـالم، وكنا قـد تحدثنـا من قبل عن الاضطراب الذي أرغمهم على التخلي عن العمل.

وبعدما طردت الهرطقة الآريوسية من كنيسة القدس، وعندما كانت كتلة الناس المؤمنين تتقاطر كلها على شكل حشود إلى ضريح الرب، وعندما كان السلام مع القداسة مزدهران، وفي الوقت الذي كان فيه جيروم المبارك ساكناً في بيت لحم، انبعث شر آخر في الكنيسة في القدس، وهو الانشقاق حول السلطان القضائي، لأنه عندما جاء ايبيفانوس Epiphanius أسقف سالاميس Salamis في قبرص، إلى القدس، وكان يناظر في هيكل الضريح المقدس ضد هرطقة أورجين Orgen ، منعه يوحنا أسقف القدس ومعه اكليروسه كلهم، فلقد منع بغضب الرجل المقدس، وأمره أن يلزم الصمت حول هذا الموضوع، وفيما بعد عندما رجع إلى مكانه، أمر يوحنا بعدم عدّ الذين رسمهم ايبيفانوس كهنة، وحرم كنسياً جميع الرجال المقدسين للفئة الأخرى، وعلى هذا كان الذي حدث الآن هو أن الهراطقة سمح لهم بالدخول إلى ضريح الرب وبتقبيل الصليب المقدس، ونقرأ عن هذه المسألة في كتاب جيروم الذي وجه إلى بمّاخوس Pammachus ضد يوحنا، أسقف القدس المنشق، وبعد مضي سنوات طوال، عندما جلس القديس غريغوري على عرش بطرس، في سنة ٥٨٤ لتجسيد ربنا، تم العثور على رداء ربنا الذي لامثيل له، في صندوق رخامي في مصفت Masphat قرب القدس، وقد جلب مع البكاء والصوم إلى القدس من قبل القديس غريغوري، أسقف أنطاكية، وهونوريوس أسقف القدس، ويوحنا أسقف القسطنطينية ووضع في كنيسة الجلجلة، من أجل بهجة الناس وتقواهم.

وفي سنة ٦٠٩، قام في الشرق، كسرى ذلك المتوحش المتميز، والذي كان ملك فارس، فقد حشد جيشاً من الكفار، وشعث واستباح مصر، وسورية، وفلسطين، وناهض الحكم الروماني في كل مكان وبكل السبل، وبعدما استولى على كثير من المدن، دخل إلى اليهودية وحاصر

مـدينة القـدس المقـدسة، التي كـانت مليئة بمسيحيين أتقيـاء، واستـولى عليها، وقتل فيهـا ثلاثين ألفاً من الناس، الذين أمر بأجسـادهم فرميت خـارج المدينة، في جـدول قـدرون، لكن الرب بعث أسـداً كبيراً، جـاء وحمل أجساد المسيحيين، ودفنهـم فوق جبل الشهـداء، قرب القدس، كما قرأنا في«التاريخ اللاهوتي» وكما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

وقـد اعتقل بعضـاً من الأعيـان، وجعلهـم أسرى لديه، وكـان بينهم زكريا، أسقف القـدس، الذي أودعه السجن، وبعد تهديمـه سور المدينة المقدسـة، دخل إلى هيكل الضريح المقدس، عازمـاً على نهبه، ثم تدميره، لكنه بعـدما استولى على الصليب المقـدس، الذي وضعته هيـلانه هناك، وكـــان مغلفـاً بأغلفـــة من ذهب، وأراد أن يمـدّ يده مـن أجل تدمير الهيكل،أشعت القــدرة الربانيـــة من ضريح الرب، بشكل أنه ورجـــاله ارتجفوا رعبـاً، وتوقفوا عـن أعمال التدمير التي كـانوا قد شرعـوا فيها، وعاد مع أسلابه، ومع الصليـب المقدس، ومع الأسرى إلى بلاد فارس، ونهب بعـد هـذا كنائس الشرق، وأرسل ابنه إلى الأجـزاء الشماليـــة من سورية، بقصد قهـر الشعوب في تلك المناطق، ونهب كنائسهم، وقد عبر كثيراً من البلدان، ووقف أخيراً عنـد الدانوب، حيث كــان الامبراطور هرقل قد زحف ضده وهزمه، حسبما أُخبرنا في عظة يوم تمجيد الصليب المقدس(١٤— ايلول).

وعندمـا هزم، قُتل أبـوه، وجـرى استرداد الممالك الضـائعـة، وأرجع هرقل إلى القـدس الصليب المقـدس، والأسقف زكـريا، وجميع الأسرى والأسلاب، وقام بترميم الأجزاء المهـدمة من الهيكل والمدينة، وأعاد إلى المسيحيين رسوم كنـائسهم وفقاً للاستخـدامات اللاهوتيـة، وفي الحقيقة كانـت المدينة المقدسة قـد بقيت مقفرة وتعيسـة لمدة عشر سنوات، لكن هرقل استردهـا، وعـــاد إلى القسطنطينـية، حيث أخـــذ يمارس حيـــاة شريرة.

وفي هذا الوقت انضم إلى محمدﷺ.....(١) عدد كبير من المناطق والممالك المسيحية ولدى رؤية هرقل لهذا الوضع، خاف من دخوله ﷺ إلى القدس، وتدميره لهيكل ضريح الرب، واظهاره عدم الاحترام نحو الصليب المقدس، ولذلك حال بين محمدﷺ وبين ذلك فأخذ الصليب المقدس وكل شيء آخر غالي وثمين، وأخرجه من الهيكل ونقله إلى القسطنطينية، لأنه يئس من قدرته على مواجهة محمدﷺ، وحدث نقل الصليب المقدس في سنة ٦٢٣ لتجسيد الرب.

وبعد وفاة محمدﷺ استولى عمر بن الخطاب، الخليفة الثالث(اقرأ: الثاني) على مدينة القدس في سنة ٦٣٤، وبنى هناك مسجداً كبيراً للمسلمين ولأتباع محمدﷺ فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى هيكل سليمان، وهو أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان عندما استولى على المدينة، قد نوى أن يعمل مسجداً من هيكل الضريح المقدس وأن يعدّه من أجل الشعائر الاسلامية، لكنه عندما دخل إلى الهيكل ارتعب بالقدرة الإلهية إلى حد أنه تراجع عن نيته، وتعامل بشكل لطيف مع المسيحيين، بسبب تقوى صفرونيوس الأسقف المسيحي، الذي اعتمد بكياسة على رأيه بشأن بنا الهيكل الجديد.

وواضح مما قيل بأن هيكل ضريح الرب، كان قائماً قبل ثلاثمائة وأربع سنوات قبل الهيكل الذي يسمونه هيكل سليمان، وأذن عمر للمسيحيين بعبادة الرب في هيكلهم، وأجبر المسلمين على مدح محمدﷺ في هيكل آخر، لأن غير المسيحيين لم يكونوا قد اعتادوا بعد على شعائر محمدﷺ، ولذلك كانوا يساقون بالقوة، ومع مرور الأيام تفجر خصام في القدس بين المسلمين والمسيحيين، وفرض المسلمون على المسيحيين كثيراً من المكوس، وغالباً ماجرى تحريرهم منها والتفريج عنهم من قبل

١— جرى حذف عدد من الأسطر لما تضمنته من شتائم مقذعة بحق النبي ﷺ، يضاف إلى ذلك أن التواريخ التي قدمها فابري غير دقيقة.

الأباطرة، من ذلك على سبيل المثال أنه في سنة ٦٧٠، قام قسطنطين الثالث— على الرغم من أنه كان رجلاً سيئاً— بتحرير المدينة المقدسة والضريح المقدس، سبع مرات من ظلم المسلمين، وبعده عمل قسطنطين الرابع شروراً كثيرة للمسلمين في كل من القدس وأماكن أخرى، وحيثما كانوا يقاتلون ضد المسيحيين، ومع ذلك استمر المسلمون يحكمون القدس، ولم يتمكن أباطرتنا من تحرير المدينة وتخليصها من تحت نير الاغريق(الروم الأرتوذكس). وفي سنة ٨٠٣ لتجسيد ربنا، في أيام حكم شارلمان، الامبراطور العظيم، كان المسيحيون في القدس وفي جميع الشرق في وضع مرهق تحت سلطة المسلمين، وقاموا وهم في أوضاعهم التعيسة بالتوسل من أجل المساعدة من قسطنطين— السادس بهذا الاسم— امبراطور القسطنطينية، ومن أمه إيرين، لكن بما أن قدرة الإغريق وقوتهم كانت قد تراجعت كثيراً، لم يكن باستطاعته هذا الامبراطور تقديم المساعدة لهؤلاء اليائسين، بوساطة قواته الخاصة.

وقام في ذلك الحين ليو، الذي كان البابا الثالث بهذا الاسم، صدوراً على الفضائل العظيمة لشارل الكبير، ملك الفرنجة، فمجده بترقيته إلى مرتبة امبراطور الرومان، وهو لقب كان قبل حوالي خمسمائة سنة مضت قد زال من قبل قسطنطين الكبير، وفي أيام شارلمان كان تقريباً قد أصبح منسيا من خلال الأيام، وقد أعاد الآن امبراطورية الغرب إليه.

وتبنى شارل،. الذي لقبه أغسطس، الاسم الامبراطوري، وفخاره، وحكم لمدة أربع عشرة سنة، وقد عمل أعمالاً مجيدة في جميع أنحاء العالم، وجلب المجد والفخار لشعبه الألماني، ولهذا كان شارل تيوتونيا، حسبما مبرهن بشكل واضح بالاعلان في......المراسيم، حيث جاء سياق النص كما يلي:« نقل الكرسي الرسولي الامبراطورية الرومانية من الاغريق إلى الألمان، في شخص شارل المجيد»، وجاء في أبّا Appa ٢: الشيء نفسه، فضلاً عن هذا نقرأ في كتب التاريخ أنه عندما تعرضت

الكنيســة الرومـانيــة للتسلط الهنغــاري، طلب البـابـا المسـاعــدة من امبراطوري القسطنطينيـة:قسطنطين، وابنه ليـو، ولأنهما لم يتوليـا الدفـاع عن الكنيسـة الرومـانيـة، نقل حكم الامبراطورية الرومـانيـة إلى شـارل الكبير، ابن بيبن، الذي هو نفسـه وضعه في مكـان لويس ملك فرنسـا، الذي خلعه.

وحدث نقل الامبراطورية مـن الاغريق إلى الالمان في سنة ٧٧٦، وفي أيام حكم شارل سمعـت شهرته في القدس، ولذلك بعـث إليه بطريرك القـدس بمفاتيح الضريح المقـدس ومـوضع الجمجمة، ومفـاتيح أبواب المدينة، وجبل صهيون، وأعـلاماً للمبـاركة، وكعلامـة على الخضوع كما يمكن الاطـلاع على ذلك في تاريـخ أنطونيـــوس— القسم الثـــاني، العنوان:١٤،الفصل:٤،الفقرة:٢.

وليس بعد مـدة طويلة من هذا قام غير المسيحيون بثـورة ضد يوحنا بطريرك القـدس، وطردوه مع جميع اكليروسه إلى خـارج المدينة، وذهب إلى القسطنطينيـة، وطلب المسـاعـدة من الامبراطور قسطنطين، وعندمـا كـان الامبراطور مشغولاً حـول هذه المسألة، رأى في منامـه رؤيا، تعلم خلالها، بأنـه ليس هو، بل شارل الكبير، هو الذي سـوف يحرر القدس، ويعيد ضريح الرب إلى المسيحيين.

وبناء عليــه ارسل امبراطـور القسطنطينيـــة، على أيدي رجـــال دين الضريح المقدس، إلى شارل الكبير المفاتيح، ورسالة أوضح فيها الشدائد والمصاعب التي آل إليها وضع الضريح المقدس والمسيحيين، وعندما قرأ شـارل هذه الرسـالـة، بكى وعلى الفـور حشـد حشـداً كبيراً من الألمان والفرنجة، وجلبهم عبر البحر، وأنقذ المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وأعـاد الضريح المقدس، إلى المسيحيين، وبذلك أقـام سلامـاً كامـلاً بين المسيحيين والمسلمين، وهو أمر لم نسمع به من قبل.

وهو لم يقم بقتل المسلمين، ولابطردهم من القدس، بل جعلهم يتفقون مع المسيحيين على شروط محددة، ولقد قيل بأنه توفر هناك وئام عظيم فيما بينهم لسنوات طوال، إلى حد لو أن دابة أي مسافر هلكت على الطريق، كانوا يضعون الحمل على جانب الطريق، ويذهبون إلى القرية الأقرب للحصول على دابة أخرى، وذلك من دون البضائع التي خلفوها ورائهم، دون المعاناة من أية خسائر، أو سرقة، أو سلب، وهكذا بعدما أعيد السلام، واسترد النظام إلى الكنيسة، عاد شارل المشهور جداً إلى بلاده، وعلى طريقه زار القسطنطينية، حيث استقبل استقبالاً فخماً.

وتعويضاً على جهوده منحوه أعطيات ثمينة جداً، وذهباً، وفضة، وأحجاراً كريمة، وأشياء أخرى غالية، وقد رفض أخذها قائلاً إنه سيكون أمراً مؤذياً بالنسبة له أن يأخذ ايجاراً على عمله الذي عمله لمحبة الرب فقط، وعندما ترجوه بأن يأخذ هدية ما، طلب أن يعطى آثاراً مقدسة، ولهذا فتحوا كنوزهم، وأعطوه بعض الشوك من تاج الرب، وواحداً من مسامير الصليب المقدس، وقطعة كبيرة من الصليب نفسه، ومنديل الرب، وقميص العذراء المباركة وأقمشة القماط التي لف بها الطفل يسوع، وقطعة من مزود الرب، وسنان الرمح الذي طعن به جنب الرب، وذراع القديس سمعان، وأشياء أخرى كثيرة، تسلمها ذلك الرجل اللامع مع خشوع عظيم، وقد وقعت معجزات كثيرة في هذه المناسبة، كما جاء الخبر في Speculum Historiale— الكتاب:٢٥، الفصل:٥، وقد جلبهم معه إلى بلاده ألمانيا، وإلى مدينة إكس لاشابيل، حيث وضعهم في كنيسة العذراء التي بناها، وهذه الأشياء محفوظة باجلال حتى هذا اليوم، ويجري عرضها كل سبع سنوات، حيث تجتمع في تلك الآونة حشود لاتحصى من المؤمنين، ولاسيما الهنغار الذين يأتون من بلادهم في جماعات كبيرة ويجتمعون في

إكس، وأنا شخصيا رأيت هذه الآثار في سنة ١٤٦٨.

واحتفظ شارلمان ببعض الآثار في بلاطه، وجعلهم ملكاً لبلاط الامبراطور، ولذلك وضعهم مع الذخائر الثمينة جداً العائدة للامبراطورية في محل خاص في البلاط، وهم محفوظون في هذه الأيام في سيغودنوم Segodunum، أي نوريمبيرغ nuremberg، حيث يجري عرضهم في يوم الجمعة بعد Quasimodo، ووقتها يجتمع حشد كبير من الناس لرؤيتهم.

وإذا مازار أي أمير نوريمبيرغ في وقت غير الوقت المحدد، فإنهم يجلبونهم ويعرضونهم عليه، وبناء عليه، في سنة ١٤٦٨، في يوم الأحد الذي اسمه Cantate ، عندما اجتمع رهبان منطقتنا هناك في مؤتمر ديني، عرضوا هذه الآثار علينا، وسمحوا لنا بحملهم وبتقبيلهم، وكان بينهم سنان رمح الرب، الأعظم قداسة، وقد سمح أهل نوريمبيرغ لكل واحد من الرهبان بلمسه بيديه، وكان ذلك صدوراً عن احترام خاص شعروا به نحو الطائفة، ورأينا هناك، ووضعنا على رؤوسنا التاج الذهبي لشارل الكبير، الثمين جداً، وكان كله مرصعاً بالجواهر، ورأينا الصولجان الذهبي، والتفاحة الذهبية، والركابين الذهبيين، وبقية الشعارات الامبراطورية، وكلها كانت قد جلبت إلى نوريمبيرغ من فرانكفورت في ذلك الأسبوع نفسه، وذلك حيث جرى انتخاب مكسميليان، المجيد والمنتصر، دوق النمسا، وابن فردريك الثالث الكبير، فقد انتخب ملكاً للرومان، وقد لبس هذه العلامات المقدسة.

وعلى هذا كانت جولاتي ورحلاتي واسعة، جعلتني أتجول في جميع أرجاء الدنيا، ولسوف أعود الآن إلى القدس، التي بقيت بعد مغادرة شارل الكبير لها بسلام لبعض السنين، وكان الغربيون مسموح لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أي معيقات، ولم يزعج المسلمون الذي امتلكوا مملكة القدس، الحجاج الذين ارتحلوا إلى هناك، لأن شارل لم

يعـد المملكة إلى المسيحيين، ولم يجعلها خـاضعـة له، بل قام فقط بإعـادة السلام بين المسيحيين والمسلمين، وهو سلام— على كل حال— لم يعش طويلاً، إنما طوال المدة التي عـاشهـا السـلام، زار الغـربيـون الأمـاكن المقـدسـة يوميـاً، في حشـود كبيرة، ونـامـوا في الليل في كنيسـة الضريح المقـــدس، لأنه لم يكن هنـاك مكان لسكنى اللاتين في المدينـة، ولم يكن هناك بعد دور ضيـافة، ولم تكن هناك أية كنيسـة لاتينية، بل تولى الروم الأرثوذكس ممارسة القداسـات في كنيسة الضريح المقدس، وفي الكنائس الأخرى.

وحدث في هذه الأيام أن جلب التجار من أبوليا سلعاً جديدة غريبة، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفـة في الشرق، وقد جلبوا هذه السلع إلى الاسكندرية، للحصـول على الربـح ببيعهـا هناك، ومن المعتقـد أن هذه السلع، كـانت البندق، كما سـوف نوضـح ذلك في ص١٢٧ من القسم الثاني، وجلبت هذه السلع بمثابة أشياء ثمينة جداً إلى ملك مصر، الذي امتلك السلطة أيضاً على العربيـة، وفلسطين، واليهودية، وانجذب الملك بهذه السلع الجديدة، ووعـد التجـار مقـابلهم بأنـه سـوف يمنحهم أي طلب يسألونه إياه، وهكذا سألـوه وحصلوا على إذن ببناء مكان لإقامـة الحجاج اللاتين، في أي مكان من القدس، يمكنهم اختياره.

وبناء عليـه بنو ديراً تشريفاً للعـذراء مـريم أمام باب كنيسـة الضريح المقدس، وأقـاموا هناك راعي الدير، ورهبـان لاتين، وبما أن اللاتين هم الذين فعلوا هذا، أطلقـوا على المكان نفسه اسم القـديسه مـريم للاتين، وبقيت هذه الكنيسـة مقدسـة، على بعـد رمية حجـر من ضريح الرب، وكـان راعي الدير والرهبان رجـالاً ذوي تقـوى عظيمة، وقـد استقبلوا الحجــاج من وراء البحـر بكـل اللطف الممكن، وعــاملوهم بكثير من التـواضع، ومع استمـرار تدفـق حشـود الحجـاج إلى هناك من الرجـال والنساء، جـرى استقبال الرجـال في بيت الضيافة في الـدير، لكن النساء

أقمن خارج أسواره، بأفضل ماستطاعوه، وقد تعرضن في بعض الأحيان للمضايقات من قبل المسلمين، وعانين من خسائر بسبب ذلك، ولذلك قام الرهبان بعد الدعاء لمريم معينة الحجاج أن تساعدهم، فبنوا إلى جانب ديرهم، في مواجهة جدار كنيسة الضريح المقدس، ديراً آخر للنساء، على جهة اليسار للانسان الداخل إلى الكنيسة، وأطلقوا عليه اسم دير مريم المجدلية، حيث جرى استقبال النساء الحاجات وجرت معاملتهن بشكل جيد، وهكذا تحسنت أوضاع الحجاج الغربيين في القدس، في أيام المسلمين، الذين بالاضافة لإثقالهم بكثير من الأعباء، ماكانوا ليسمحوا لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أن يدفعوا لهم، ومن ثم الدخول بسلام، مثلما يفعلون هذه الأيام.

وهكذا فعل المسيحيون، وتدبروا أمورهم، لمدة تزيد على مائة سنة، أي من أيام شارل حتى أيام هنري الأول، الذي في أيامه، في سنة ١٠١٥، قام رجل مذنب، وأداة للشيطان، ومعذب لشعب المسيح، ومدمر للضريح المقدس اسمه الخليفة(الحاكم)ملك مصر الذي قام في نوبة جنون، فأزال من على وجه الأرض السلام والوئام الذي عمله شارل الكبير بين المسيحيين والمسلمين، وكان هذا الرجل قد ولد من أم مسيحية، وعندما صار ملك المسلمين، وخشية أن يعتقد أنه مقاد من قبل أمه، بدأ بممارسة أعمال وحشية ضد المسيحيين، فقد أرغم المسيحيين على التخلي عن عقيدتهم، وفرض ضرائب ثقيلة جداً عليهم، وضايقهم بكثير من الطرق الأخرى، وما من شيء أثاره ليكون متوحشاً ضد المسيحيين، وبحدة متناهية، مثل نقده بأنه شخصياً كان من دم مسيحي، الأمر الذي كان يشعر بالخجل الكبير منه، ولذلك ثار ضدهم بوحشية منفردة، من أجل أنه بفعله ذلك، يمكن أن يبرهن أنه ليس فيه نقطة دم مسيحي، ولايمكن أن يتأثر بالحب نحو المسيحيين والميل إليهم.

وكـان بين أعماله الشريرة الأخـرى التي اقترفهـا مـايلي: دخل المدينة المقـدسة مع حشـد كبير، ورمى أيضـاً تاج المسيحيين إلى الأرض، حيث أمـر بهدم كنيسـة الضريح المقـدس، التي بنيت بشكل فخـم من قبل قسطنطين الأول والكبير، وتدميرها دماراً كليـاً، وفي الوقت نفسه شعث الكنائس واستباحها على جبل صهيـون وبيت لحم، وحولهن إلى عبادات ديانة محمـدﷺ وعندما عملت هذه الأفاعيـل، أصبحت أوضاع المؤمنين في القـدس أكثـر سـوءاً، من الحزن العظيـم الذي شعـروه بسبب تدمير الكنيسـة، عـلاوة على ذلك منع المسيحيين من إقـامـة قـداسـاتهم، أو الاجتماع مع بعضهم من أجل العبـادات الربانيـة، وبذلك عـاشـوا في أوضاع ضيق شديد جـداً، بسبب ازعاجاتهم اليوميـة، وكانوا غارقين في أعماق الأسى بسبب دمار الضريح المقدس والكنيسة هناك.

وواضح من هـذا أن كنيسـة الضريح المقـدس التي بنيت مـن قبل هيـلانة، بقيت قائمـة لمدة سبعمائـة سنة، حيث في نهايتهـا دمرت دمـاراً كـامـلاً، وحـدث أنه في سنة ١٠٤٩، لتجسيـد الرب أن جـاءت الرحمة الربانيـة، فجلبت قليـلاً من الطمـأنينة للمسيحيين المدمـرين، ففي ذلك الوقت أزيل الطاغية المتقدم ذكره من هذا العالم، مخلفاً وريثاً كان أحسن منه شخصيـاً، وانتهت هذه الاضطرابات كلهـا، فما أن أصبح الظاهر، الذي كان أكبر أولاده، ملكاً، حتى عمل معاهدة واتفاق مع الامبراطور قسطنطين، وقـد تصرف بلطف نحو المسيحيين، وكـانت عـواطفه طيبـة نحوهم.

وفي هذه الآونة رأى البابا المقدس ليو التاسع— وكان ألماني المولد— رؤيا أثناء نومـه، قام بعـدها بتحريض الامبراطور قسطنطين على اعـادة بناء ضريح الرب في القدس، الذي جـرى تدميره قبل سبع وثلاثين سنة من قبـل البرابرة، وبناء عليـــه، أعطى الظـاهر المسلم، بنـاء على طلب الامبراطور قسطنطين، الإذن للمسيحيين بإعادة بناء هيكل ضريح الرب

المقدس.

وبناء عليه ذهب المسيحيون إلى هناك بسرور عظيم، وشرعوا ببناء كنيسة جديدة فوق ضريح الرب، وفق نموذج الكنيسة القديمة، وبالنسبة لنفقات إعادة البناء، تحمل الامبراطور قسطنطين معظمها، وهكذا فإن كنيسة الضريح المقدس القائمة الآن، قد بنيت في السنة المتقدمة الذكر، أي قبل خمس وعشرين سنة، من استرداد الأرض المقدسة، وهو الاسترداد الذي تولى تنفيذه غودفري، كما سوف نبين فيما بعد.

وبالنسبة لليهود ولبني اسرائيل، لقد كان لديهم هيكلين، واحد جاء بعد الآخر، هما هيكل سليمان، وهيكل عذرا أو زيرو بابل، ومثلهم امتلك المسيحيون هيكلين هما: هيكل هيلانة، والهيكل القائم في هذه الأيام، فقد عاش الأول سبعمائة سنة، وعاش الثاني أربعمائة وخمسين سنة، على أساس أننا الآن في سنة ١٤٨٨، وبعدما أعيد بناء الكنيسة، صار المسيحيون عندما يريدون زيارتها حسب طريقة ديانتهم، لايسمح المسلمون لهم بالسير حول الأماكن المقدسة بسلام، بل كانوا يفرضون عليهم ضرائب مالية، أويزعجونهم بالكلمات، وقد توفرت كراهية كبيرة وحقد شديد فيما بين الفئتين، لأن المسلمين الذي امتلكوا وقتها السلطة على تلك البلاد حملوا حقداً كبيراً ضد المسيحيين الغرباء، ولذلك استثير العالم المسيحي كله بسبب شكاوى الحجاج، وأصبح حانقاً ضد المسلمين، وبإخلاص رغب في إزالة تسلطهم، لأنهم عانوا طويلاً من آلام ظلمهم.

فمنذ أيام عمر الأمير المسلم الذي اعتلى العرش في مصر (كذا) في أيام الامبراطور هرقل حتى أيام غودفري، الملك اللاتيني الأول للقدس، والذي عاش في أيام (الامبراطور) هنري الثالث، ظلت المدينة المقدسة خاضعة إلى سلطة المسلمين، أي لمدة تقارب الأربعمائة والتسعين سنة،

وصحيح أن الأباطرة هرقل، وقسطنطين الثالث، وشارل الكبير قد حرروا المدينة المقدسة، بعض الشيء ومعها الضريح المقدس، لكنهم لم يحرروها كلها، وظل المسلمون يمتلكون السلطة على المسيحيين، وهي سلطة حولها الأباطرة المتقدمي الذكر أقل إرهاقاً، لكنهم لم يتمكنوا من ازالتها مطلقاً، لأنهم تدبروا إقامة سلام بين الشعبين بمواثيق، ولذلك كان تحريرهم للأرض المقدسة ناقصاً، ومثل هذا الوضع كان من غير الممكن ديمومته، وخاصة بين أناس لايمكن حملهم على الاتفاق في الدين، كما هو الحال بين المسيحيين والمسلمين، الذين توجد بينهما عداوة طبيعية، مع الكراهية التي نمت بين عرقين مختلفين من حيث الجنس، ومن حيث طريقة الحياة، والعادات، والديانة.

فصل يعالج التحرير الكامل للقدس وللضريح المقدس من قبل الأمم الغربية

حدث الانقاذ والتحرير الكامل لضريح الرب، ولمدينة القدس، ولكل الأرض المقدسة، في الوقت الذي كان فيه الامبراطور هنري، الثالث الذي حمل هذا الاسم، والذي كان بافارياً والبابا أوربان، الذي كان الثاني بهذا الاسم، وفي الحقيقة غالباً ماقام سلف هؤلاء الأمراء بالتشاور حول هذه القضية، في اجتماعاتهم المهيبة، وفي مجالسهم التشريعية، واجتماعات الأمراء الأخرى والأساقفة، وقد بدأوا حتى بالعمل، غير أنهم لم يتوصلوا إلى أية نتائج طيبة.

وبناء عليه، حدث في أيام الامبراطور هنري الثاني، والبابا فكتور الثاني، وجرى عقد مؤتمر ألماني في تور، التي هي مدينة مشهورة في فرنسا، وكان ذلك في سنة ١٠٥٥ لتجسيد ربنا.

وتقرر وقتها وجوب تحرير الأرض المقدسة، وفي ذلك الوقت كان أوتو Othus، كونت أنجليرا Angleria، وأمير ميلان، متميزاً بحكمته الكبيرة، ومعلوماته الواسعة في ادارة القضايا العامة، إلى درجة أنه كان رجلاً له قيمة عظيمة من أجل السلم والحرب، وهذا الرجل الذي كانت شجاعته معروفة لدى جميع الذين التقوا في هذا المجمع في تور، جرى اختياره ليكون قائد الحشد، الذي كان سيقاتل ضد الأتراك والمسلمين، من أجل تحرير الضريح المقدس للرب في القدس، وقد وافق على طلب البابا والملوك الآخرين، بدون تردد، وسار منطلقاً يريد القدس مع البقية.

وقد أمضى الشتاء مع المسيحيين الآخرين في حصار المدينة، وأنزل بالمسلمين كثيراً من الجراحات والأذى، وضيق الخناق على المدينة المقدسة كثيراً، ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، وعندما كان محاصراً

لها، كان هناك أمير عربي مسلم من وراء الأردن اسمه Volucer، وكان يتصـور نفسه رجـلاً جـريئاً، وقد تحدى أوتو— من خـلال الترجمان— لمبارزته شخصيـاً، وقد تقبل أوتو هذا الاقتراح بكـل سرور، وبناء عليه جـاء الرجلان بعـد ستة أيام، وهما مسلحـان على ظهري فـرسيهما، من أجل القتال، وحمل أوتو على ترسه سبعة أكاليل، لأنه كان قد هزم سبعة مقاتلين شجعان جداً، وذلك بضربة واحدة بسيفه.

وحمل Volux (كـذا) سـلاحاً مختلفـاً، فقـد كـان في خـوذته أفعى برونزية ملتفة بشكل رائع حولها، وفي فم الأفعى طفل من قماش، مبتلع حتى أضلاعه، لكـن رأسه وكتفيه كانا في الخارج، وقد بـدا فمه المفتوح كأنه يدعـو إلى المسـاعـدة، وأخـذ الرجـلان مكانهما، وهما يحمـلان هذه الشارات، في حقل القصـار، أمام مدينة القدس المقـدسة، وفي أول حملة ألقى أوتو Volux من على ظهـر حصانـه، وعلى الفور تناول عمـوده ورفعه، وبضربة حطم جمجمته، ونثر دماغـه فوق الأرض، وبعدما مات أخذ أوتو خوذته، وحملها معه مع أسلابه الأخرى، وهكذا رفع الحصار، ومن ثم عاد إلى أور با لأن جيشه كان صغيراً.

وعندمـا وصل إلى ميلان، منح شعـار سلاحه إلى المسيـح والكنيسة، وأخذ الأفعى كـدليل أبدي على نجاحه، وكرمـز شخصي، ولهذا نجد في هذه الأيام أن دوقات ميـلان وبقية أسرة الفيزكـونت وهـم يحملون هذا الرمز، يختمون نقودهم بصـورة الأفعى، وهذه النقود قيد التداول الآن، ولها قيمتها وسمعتهـا في جميع ألمانيا، وتجلب أرباحـاً كثيرة لدولة ميلان، واسم قطـع نقـــــودها الكبيرة Blaffardi، والأدنى Spagurlines، والنقود الوسط Trigeras.

وبناء عليه عاد القائد أوتو المتقدم الذكر إلى الوطن ثانية، وأخبر البابا وجميع أمـراء الغرب، أن القـدس والأرض المقـدسة لايمكن الاستيـلاء عليها، إلاّ بوسـاطة جيش كبير جداً، وفي غاية القـوة، وأن يجري ارساله

عبر البحر.

وأعقب هذا، أنه في سنة ١٠٦٣، اجتمع حشـــد كبير من الألمان، للحج إلى ضريح الـرب في الأرض المقـدســة، وانطلق عبر البر نحــو القدس: سيفرد Siphred(سيغفردSiegfred ؟) رئيس أساقفة مينز، ووليم أسقف تريفس، وغونثر Gunther أسقف بامبيرغ وأوتو أسقف راتسبـــون Ratisbon مع كثير من النبلاء والأتباع، وكان بنيتهم عبور بحر يوكسين Euxine، وعندما وصلوا إلى بلغاريا تعرضوا لأذى كبيراً من قبل الشعوب الشمالية، ومع ذلك وصلوا وسط بلايا كبيرة إلى آسيا، ثم وصلوا إلى تخوم سورية، وعندما سمع حاكم تلك المنطقة بوصــول المسيحيين، جمع جيشــاً من الأتراك، وزحف ضـد أســاقفنا وشعبنا، ونظراً للتغلب عليهم بالتفوق العـددي، فقد التجأوا إلى قلعة قـديمة، حيث سـدوا الثغـرات في السور القـديم، وجعلوا منهـا حصناً أقاموا به.

وحاول الاتراك الاستيـلاء على ذلك الحصن بالقوة، فلم يتمكنوا من فعل ذلك، ومع ذلك تابعوا مهـاجمة المكان لمدة يومين ليلاً ونهارا بشكل متواصل، وفي اليوم الثـالث، عندما جرى الاعلان عن هـدنة لمدة ساعة حتى يستردوا قـواهم، سأل رجـالنا الأتراك أن يبعثـوا ولاتهم وقـادتهم للتناقش حـول شروط سلام، وهكذا قـدم ستة من كبار أعيـان الأتراك إلى شعبنا، وفتح شعبنا لهم الباب، وتناقشـوا معهم لمدة طويلة، فوجدوا الأتراك ذوي آراء معاكسـة تماماً، لأن أساقفتنا عـرضوا عليهم إعطائهم كل مـاكان لـديهم، ووعدوهم كثيراً من الزيادات، إذا مـاكـان بامكانهم العـودة إلى بلادهم بحياتهم فقط، ومع ذلـك لم يبد الأتراك نحـوهم أية رحمة، وماكان يرضيهم إلاّ الموت أو استرقاق السادة الأساقفة.

وعندما رأى قومنا حالة الضيق والشدة التي هم فيها، أرسلوا بشكل سري بعض الخدم الذين عـرفوا المنطقـة، ليركضوا بكل سرعـة إلى عند

أمير الرملة وحـاكمهـا، ولوعـده بمبلغ كبير من المال، يدفع على الفـور ليعطى له لقلع الأتراك، وبعـدما أرسل جماعتنا هؤلاء الرسل، التمسـوا من البرابرة منحهـم شروط استسـلام، ومنحـوهـم مـالاً، لكن هؤلاء اهتموا فقط بالقبض على أشخاصهم، ومن ثم اعدامهم أو جعلهم أدنى الرقيق، ولم يحصلوا منهم على جـواب غير هذا، وعندما صـار رجالنا في حـالة مـن اليأس، انقضـوا على المسلمين الذين دخلـوا إلى قلعتهم، ووضعوهم في الحديد.

وعندمـا علـم جيشهم بهذا، حـاول خـرق الأسـوار، وهاجمهـا بالمقـذوفات، وبالنشـاب وبالآلات الحربية، لكن رجـالنا وضعوا أعيـان رجـالهم وقـادتهم وهم بالأغـلال فـوق الأجـزاء الأعظم خطورة من السـور، وبذلك أخمدوا هجومهـم وكبحوه، ودعـوا إلى الرب بصلوات متـواليـة، وفجأة جـاءهم العـون ووصل إليهم، حيث كـان أمير الرملة المسلم، قد حشـد جيشاً من المسلمين ووصل إلى المكان، وطرد الأتراك، وأرغمهم على رفع الحصار، وحمل رجـالنا من حصنهم، وطاردوا العدو المنهـزم، وسلبوا رجـاله، وأسروا كثيرين، قـاموا بتعليقهم على المشـانق، وبعد ذلك أعدموا القادة المأسورين مع عذاب مخيف.

وجـاءت عملية الانقـاذ للأسـاقفة في عشيـة يوم الفصح، أي في ليلة أحد الفصح، وكانوا عندما انطلقوا من ألمانيا، قد قرروا إمضاء أيام آلام الرب، والصعـود، إلى الأمـاكن المقدسـة في القـدس، لكن هذا الحصـار أعـاقهم، هذا وقد حمل ذلك المسلم هؤلاء الحجـاج سالمين إلى القـدس، وبعدمـا أجازوه عـاد ثانية إلى مـوطنه، وعندما عـاد الأساقفـة الحجاج الألمان إلى ألمانيا، عادوا عبر البحـر، وتخلوا عن الارتحال عبر البر، خشية أن يقعوا ثانيـة فريسة للأتراك، لأن الأتـراك كانوا قد استـولوا على آسيا الصغـرى وجميع تلك المنطقـة، وصـولاً حتى سـورية، وغـالبـاً مـاكـان الأتراك والعـرب المسلمين على خـلاف، وأتصـور أنهم كـذلك في هذه

الأيام أيضاً.

وفي سنة ١٠٧٠ قـرر ثيودورك، رئيس أسـاقفة تريفس القيـام برحلة إلى القـدس عبر البحر، غير أن سفينتـه غـرقت في البحـر في العاصفـة، وهلك هو وجميع أتباعه.

ولم يعد العرب المسلمون والأتراك بعـد هذا يكتفون بمهاجمة القدس والأرض المقدسـة بحدة أكثـر من ذي قبل، بل شرعوا يندفعـون في كل مكان في العـالم المسيحي، وغدت امبراطورية القسطنطينيـة ضعيفة جـداً بسبب الأتراك، وبصعوبة بالغة كان بامكانها الاحتفاظ بتراقيا، وغلاطيا، وبنطش، وسيسـالي Thessaly ، ومقدونية وآخيا، ومن هذه المناطق اعتـاد الأتراك والعـرب على اقتطاع بعض الأجـزاء، ونغصـوا حيـاة المسيحيين الذين سكنوا فيهم، وأسيئت بشكل خـاص معاملة المسيحيين في القــدس والأرض المقــدســة، لأنه في سنـة ١٠٨٢، انقض الـ Bo-reades أو الأتراك على فلسطين بجيش مسلح، ودمـــروا البـــلاد بالسيف والنار، ونهبـوا في الوقـت نفسـه مـدينة القـدس، وقتلوا بشكل تعيس المسيحيين الذين وجدوهم هناك، ودنسـوا الضريح المقدس بكثير من التجاوزات والانتهاكات.

وأرسل في الوقت نفسه امبراطور القسطنطينية، رسلاً إلى الامبراطور الرومـاني هنري الثـالث، وإلى أمـراء الغـرب، شـارحـاً لهم مـاحـدث، وملتمسـاً منهم القـدوم لانقـاذ الأرض المقـدسـة، وفي أيام ولاية البـابا أوربان الثـاني والامبراطور هنري الثـالث، كـان هناك ناسك في فـرنسـا اسمـه بطرس، وكان رجـلاً عظيم الحكمـة، ولامثيل له بالقداسـة، ومما لاشك فيـه تحرك هذا الرجل بـوسـاطة الروح القـدس، حيث تخلى عن خلوته الهادئة، وحمل نفسـه إلى القيام بجـولات مقدسـة، وقد انطلق مع كثير من الحجـاج الآخـرين، وعبر البحـر، ووصل إلى ضريح الرب، في الأرض المقـدسة، حيـث قبل الأماكن المقـدسـة، فشعـر بقوة، وبتقـوى

متوهجة، وعندما رأى هذه الأماكن الأعظم قداسة تعامل بقدر عظيم من السوء من قبل المسلمين، وسمعان المبجل، بطريرك المكان واكليروسه يرفض ويقاوم، والمسيحيين الآخرين مظلومين، وأسيئت معاملة الحجاج كثيراً، وقد أحزنه وآلمه، وشعر قلبه بالمرارة تجاه مثل هذا الظلم، وكان قد حدث له أنه في مساء عيد الفصح، عندما دخل إلى كنيسة الضريح المقدس، ليبقى ساهراً في تلك الليلة الأعظم قداسة، وقد سحب نفسه إلى زاوية داخلية في الكنيسة، حتى يتمكن من صرف نفسه بهدوء أكثر وانتباه أعظم نحو حمد الرب وشكره، وهناك صلى بعقل واعي، وروح مضطربة، ومع دموع كثيرة قائلاً:« إلى متى يارب ستبقى أماكنك المقدسة مداسة تحت الأقدام، وحجاجك مضحكة ويستخف بهم وتساء معاملتهم؟ استمع يارب، وافعل هذا الشيء وهو تحرير الأرض التي أعطيتها إلى آبائي، وهذه المدينة التي مجدتها بعقيدتك ومعجزات، والتي قدستها بدمك الثمين وصليبك، والتي جعلتها بقيامتك المجيدة وحولتها الأعظم شهرة في جميع أرجاء العالم»، وكان هذا الرجل المقدس يقول هذا وأمثاله من الصلوات، وقصد أن يريح أطرافه المتعبة لبعض الوقت، فجلس على البلاط، وأمال رأسه على الجدار، وبذلك بدأ ينام بجسده، مع أن عقله بقي مستيقظاً بصلاة مؤلمة إلى الرب، وفجأة رأى الرب يسوع خارجاً بشكل رائع من ضريحه، وقال له، وهو ينظر إليه:« انهض يابطرس، وأسرع إلى روما، وقل لأوربان، بابا روما، يقول لك الرب مايلي: مثلما جلبت في الماضي نوراً إلى الغرب من الشرق، مثل هذا، من الغرب سوف أجلب نوراً إلى الشرق، وإلى مدينة القدس، وذلك بسبب اسمي العظيم، ولسوف أعطي ضريحي المقدس إلى القادمين من الغرب، حتى يقوموا بعبادتي، واظهاري إلى غير المؤمنين، ولكي يقوموا باحترام الأماكن المقدسة، وهي أماكن انقاذ بني البشر»، وبعدما قال هذه الكلمات، انتهت الرؤيا، وقام بطرس الذي لم يكن لديه شك حول صدق الذي سمعه، بالعودة

إلى روما، وبجرأة ذهب إلى البابا أوربان الثاني(١)، وأخبره ببساطة بالرسالة التي كلف بحملها.

وفتح الرب عقل البابا، فأدرك بأن هذا الشيء كان من عند الرب، فقام على الفور بتوجيه الدعوة إلى عقد مجمع عام في كليرمونت في أوفرين Auvergne ، وكان ذلك في سنة ١٠٩٤ لتجسيد الرب، وقد أقنع المجمع بارسال جيش لمحاربة المسلمين، من أجل استرداد القدس، وعين ثلاثمائة ألف رجل مع الصليب، وتولى تكريس حشد حملة الصليب إلى مريم العذراء الأعظم مباركة، وأمر بوجوب تلاوة صلوات مريم العذراء المباركة، الساعية، يوميا، من قبل الكهنة، من أجل أن تصبح حامية لجيشها، وإلى بطرك الناسك أعطى مراسيم بابوية، وبعث به إلى ملوك وأمراء الغرب، حتى يسرعوا إلى انقاذ الأرض المقدسة، وفقاً لأوامر الرب، التي كشفها إلى بطرس.

وبناء عليه انطلق بطرس إلى الملوك والأمراء، والأعيان، وحكام المناطق، وقد استقبل من قبلهم جميعاً مثل ملاك الرب، وأصغوا إليه بعناية كبيرة جداً وعلى الفور أخذ جميع الناس بالاستعداد، طاعة منهم لأوامر الرب وأوامر البابا، وفي الحقيقة، كانت تلك مهمة عظيمة ألقاها على عواتقهم، بوجوب اصغائهم إلى رجل فقير، من أصل وضيع، وكان أيضاً رجلاً ليس معروفاً ومجهولاً، وذلك من دون رؤية، أو اظهار، أية معجزة، أوسماع أي خطاب وعظ فصيح، وكان أن صدقوا كلماته الواضحة، وقد لبى البابا، والكرادلة المثقفين، والاكليروس، ورجال الطوائف الدينية، مادعاهم إليه وأطاعوه، وصدقه ووثق به، الامبراطور سيد الدنيا، مع الملوك، والحكام، والكونتات، وجاء ذلك دون تقديم

١— الحكايات حول بطرس الناسك مخترعة، وهنا يقدم لنا فابري احدى هذه المخترعات ولنتذكر هنا أن أوربان الثاني لم يكن وقتها مقيماً في روما بل في فرنسا، وكان يشغل عرش البابوية في روما، بابا آخر عينه الامبراطور.

أي برهان، أو شاهد يشهد على صحة ماأتى به.

وفي الحقيقة كان الناس ذوي عقول أفضل، واستيعاباً أحسن، من بني اسرائيل، الذين بعد رؤيتهم لمعجزات رائعة ولم يُسمع بمثلها، لم يكن إلاّ بصعوبة بالغة جعلهم يصدقون موسى، ولدى انتشار هذه الحكاية في أرجاء أوربا، تدفق جميع الناس مع بعضهم، مدفوعين برغبة جامحة، وجاءوا من اسبانيا، ومن بروفنس، وأكوتين، وبريتاني، وسكوتلندا، وألمانيا، ومن ألمانيا، أو بلاد التيوتون من الشمال والغرب، ومن شواطىء البحر الشمالي، والبحر المتوسط، ومن أكثر الممالك قوة، ومن لومباردي، وايطاليا، وأبوليا، ودالماشيا، وهنغاريا، وايلّيريا، ومن جميع جزر المحيط، والبحر المتوسط، وبحر بنطش، ومن بلاد اليونان الأوربية، القائمة على جانبنا من البوسفور، والمتضمنة،: تراقيا، ومقدونيـة، وايبيروس، وآخيا، والبلونيز، وهي بلاد كانت في ذلك الوقت كلها مسيحية، لأنها الآن خاضعة للأتراك، وذلك حتى حدود ايلّيريا، وهنغاريا، وبانونيا، ودالماشيا، فلقد تدفق الناس من جميع هذه البلدان، وتجمعوا مع بعضهم مثل أسود منقضة على فريستها، ولم يكن هناك في جميع المناطق التي يضمها الغرب، بيت واحد وقف دونما نشاط، بل جاء من ذلك البيت الأول أب، ومن البيت الثاني ابن، ومن البيت الثالث الأسرة كلها، وكان الجميع شارعين بالاستعداد من أجل رحلتهم، وكانوا يقومون بالوداع مع الآهات والتنهدات، حيث كانوا يقولون«وداعاً» للمرة الأخيرة.

وفي الحقيقة صار الدواء أعظم من الداء، لأن بعضهم قد اقتنع برغبة الذهاب إلى القدس حتى ينسوا واجبهم في الوطن، وقطع كثير من النساك، ورهبان الديرة، والفتيات، والأزواج المرتبطين بروابط الزواج، وكثير من الراهبات، قطعوا عهود طاعتهم من دون إذن أو إجازة، وانطلقوا من ديرتهم، واختلطوا بصفوف الناس المسلحين، وعندما

طلبـوا وضع علامـة الصليب عليهم، وأخبروا من قبل الأساقفـة الذين منحوا هذه العلامة، أنها بلا فـائدة لهم، وأشير عليهم بالعودة إلى الوطن ثانيـة، أظهـر بعضهم عـلامـات مسـامير الصليب وقـد انطبعت بشكل اعجـازي على أجسـادهم، وقـام آخـرون، حتى من الفتيـات والنسـاء العجـائـز، بالتفـاخر بأنهن يحملـن هذه العلامـات، وقـام آخـرون بكّي أنفسهم بشكل متوحش بحديد محمى، حتى يرسموا على أنفسهم علامة الصليب، وكانت حمى الحماس بين جميع طبقات المسيحيين مدهشة.

وجـرى تعيين قـادة ومقـدمين على الجميع، وعلى الفئات المسلحـة المنفـردة، من قبل أمـرائهـم وأسـاقفتهم، كما جـرى بوسـاطة السلطة الرسـوليـة تعيين ذلك النبيل والمقـاتل الذي لانظير له، الذي اسمـه غودفري، كـونت غالآشيا Gallacia (كذا) ودوق اللورين، وتسميته مقـدماً، وقـائـداً عـاماً للجيش كله، وحـاكما لجميع الفئات فيـه، وتولى هو— مثل يهوذا مكابي ثاني— مع اخوانه، والرفـاق النبلاء إثارة الحرب وشنها في سبيل الرب، وكـان في جيشه عدداً كبيراً من المقـاتلين الفائقي الشجاعة، والبارونات، والكونتات، والفرسان، وكان قد تولى المسؤولية الروحية همر(أدهمر) الذي كان مثـلاً أعلى، وكان أسقفا لبادوا Padua، وركض بطرس المتقـدم الذكـر إلى الأمـام وإلى الخلف في جميع البلدان، وجمع جيشـاً عظيما وقـوياً، حـوى حـوالي الأربعين ألفـاً من الـرجـال المسلحين، يتولى هو قيادتهم، ومثله فعل الرجال العظماء الآخرون، الذين نظر إليهم الناس نظرة احترام، فحشـدوا رجالاً حـولهم، وجرى اعـداد هذه الحملة خـلال سنوات ثلاث، وذلك قبل أن تقلع الحشـود وتأخـذ طريقها.

وفي الحقيقـة اجتمع واحتشـد: ملوك، و ودوقـات، وكـونتـات، وبارونات، وفرسـان، وعساكر، ورجـال أقوياء، وحكام، وولاة مناطق، ونبلاء، وعـوام، وأغنياء وفقراء، وأهل مـدن وسكان أرياف، ومواطنين

وأقنان، وأحرار وعبيد، وعلمانيون ولاهوتيون، وكهنة ورهبان، وأساقفة ورعـاة ديرة، وكـرادلة، ورجال ونسـاء من الطوائف الدينيـة، وشبـاب وشيوخ، ونسـاء وفتيات، وأرامل وزوجـات، وعظم حجم حشد الرب إلى حد عظيم العـدد حتى أن وليم(الصوري) قـال:« لم يُر قط مثل هذه الأمم مجتمعـة ومتفقة على هدف واحـد، وكان عـدد الناس فوق مـاهو متصور، ذلك أن بعض الذين قاموا باحصـاء الأعداد، قالوا بوجود ستة ملايين من الرجـال قد حملوا شارة الصليب، فهـؤلاء أعدوا أنفسهم من أجل الرب».

وكـان بين هـؤلاء— كما قلت— القـائـد الـذي لانظير له، الذي هو غودفري، فهو كان الأعظم مكانة، حيث كان قائد جميع الحشود، وتحت قيادته جرى تعيين عدة قادة لكل فئة من الفئات، وعندما بات كل شيء معـدّاً على هذه الصـــورة، في سنة ١٠٩٧، لتجسيـد الرب، بـدأ الحشـد بالزحف من أمـــاكن تجمعـاته، وبما أنه لاالأرض ولا البحـر كـان من الممكن لهما استيعاب هذه الأعـداد دفعة واحـدة، فقد إنقسم الجميع إلى حشـود، والحشود إلى فيـالق، والفيـالق إلى جيوش، والجيـوش إلى ألوية اقتيد كل منهـا من قبل قائد، وتحت هؤلاء القادة كـان هناك قادة مئات وقـادة عشرات، وهكذا توجهوا نحـو البحـر في مجموعـات منفصلة إلى موانىء متعـددة، وفي الوقت نفسه ذهب آخرون كثـر على الخيول وعلى الأقدام من خلال هنغاريا إلى دالماشيا، ومن ثم دخلوا إلى بلاد الاغريق، ومضى بعضهم حول بحر يوكسين وبحر آزوف(Maeotic Marsh)، ووصلوا من خـلال بلاد خلقيدونيـا إلى كبدوكيـة، وعلى هذا أرغم هذا الحشد الكبير على البحث عن أطول الطرق هناك.

أمـا بالنسبـة للمخـاطر التي ألمت بشعب الرب خـلال الحاجـة إلى الضروريات، ومن الشتـات وعـدم الاستقـرار، ومن الصراعـات بينهم أنفسهم، ومن الطاعـــون، ومن هجمات الأعـداء، فهــذا كله يحتـاج إلى

وقت طويل للحديث عنه، والذي يريد أن يقرأ حول ذلك، عليه أن يعود إلى فنسنتوس أوف بوفيا Vincentius of beauvais في مصنفه Speculum Historiale — الكتاب:٣١، الفصل:٤٢، ولدى عدد كبير آخر من الكتّاب.

والذي عانى منه المسيحيون على أيدي الأعداء والكفار من الممكن تحمله، لكن الشرور التي أنزلوها بأنفسهم، والمعيقات التي واجهوها من الهنغار والاغريق، والمذابح التي اقترفها هؤلاء بين رجالهم المسلحين، أعظم ايذاء من أن تحتمل، ولسوف أكتفي بذكر قضية واحدة بين عدد كبير من القضايا، فقد كان هناك كاهن ألماني اسمه غونديكالكوس Gondecalcus، وكان شجاعاً ورجلاً جريئاً، وكانت ميوله الطبيعية نحو القتال، أعظم منها نحو تلاوة القداس، وحشد هذا الرجل جيشاً مؤلفاً من خمسين ألفاً من الرجال المسلحين وذلك من عامة الناس في ألمانيا، وعندما وصلوا إلى هنغاريا، ونهبوا بعض القرى هناك، لتزويد أنفسهم بالذي كانوا محتاجين إليه، انقض ملك هنغاريا عليهم، وأوقع فيهم مذبحة غير انسانية تماماً، حيث لم يميز بين البريء والمجرم، وبذلك مزق ذلك الجيش حتى مامن أحد فيه شارك في الصليبية كما كان ناوياً، بل الذين نجوا من سيف الهنغار عادوا آسفين إلى وطنهم في ألمانيا.

أما بالنسبة للأذى والمضار التي أنزلها بشعب الرب امبراطور القسطنطينية، فكتاب كبير من الصعب أن يكفي للحديث عنها جميعاً، والشيء نفسه الذي نزل بالمسيحيين في هذه الحملة، يشابهه ما نزل بالرومان عندما انطلقوا للقتال ضد قرطاج، فبعدما حشدوا جيشاً كبيراً جداً، وصلوا إلى أفريقيا، وبنيتهم القتال ضد قرطاج، ولدى وصولهم إلى أحد الأنهار انقض على فرقهم حيوان هائل، وكان ثعباناً متوحشاً جداً، حيث تمكن من قتل أعداد كبيرة من الرجال، وبعنف أعيقوا من

قبل هذا الحيوان الوحيد، إلى حد أرغموا فيه على جلب جميع آلات الحرب لديهم للحملة عليه، وبعد مقتل عدد كبير، أمكن أخيراً غلبة ذلك الحيوان، وسحق بالحجارة، ولقد كان مقياس جلده سبعين قدماً، وعندما حمل إلى روما، صعق كل من رآه عجباً ورعباً.

ومثل هذا الآن عندما وصل غودفري، ذلك الرجل المجيد مع قواته إلى القسطنطينية، قرر الانتظار هناك حتى تلحق به بقية قواته، لأنه كان عليه الاستعداد على حدود المسلمين الأتراك، حيث كان ما أن يعبر البوسفور، لايمكنه المرور خلال الأراضي التركية من دون قتال، وإثر اجتماع جميع الفرق مع بعضها، تشكل هناك جيش واحد للرب الحي، ولدى استعراض جميع الفرق وجدوا هناك سبعمائة ألف من المقاتلين الرجّالة، ومائة ألف من الفرسان الدارعين، فضلاً عن استمرار تدفق الرجال والتحاقهم بالفرق، وغادر هؤلاء جميعاً القسطنطينية، وعبروا بالسفن البوسفور، أي ذراع القديس جورج، وبذلك عبروا من تراقيا إلى بيسينيا، والبوسفور هذا هو ذراع ضيق من القناة التي يصب فيها البحر المتوسط في بحر يوكسين، وهو ضيق إلى حد أن الذي تتطلب أعماله، يمكنه أن يعبر ثلاث مرات أو أربع مرات من تراقيا إلى بيسينيا، ومن القسطنطينية إلى خلقيدونية، والعودة ثانية.

وعندما وصلوا إلى بيسينيا، وهي منطقة في آسية الصغرى، مروا بجميع القرى الأخرى والبلدات وقصدوا مباشرة مدينة نيقية، وهي مدينة مكتظة جداً بالسكان، شرعوا بمحاصرتها في ٢٠ حزيران ١٠٩٧، وهرب مقدم الأعداء(قلج أرسلان بن) سليمان التركي، الذي كان صاحب نيقية، مع كثيرين سواه، ونجامنهم، وطاف الأتراك في المنطقة، حيث تمكنوا من حشد جيش لقتالنا، وبعد ترتيب الأمور في نيقية انطلق الجيش، وزحف نازلاً من بيسينيا إلى بامفيليا Pamphyliaمع عناء كبير، وهنا التقوا مع(قلج أرسلان بن) سليمان الذي كان معه جيشاً

كبيراً من المسلمين، واشتبكوا في القتـــال، وبفضـل الرب هـزم شعبنا الأعداء، وأرغموهم على الفـرار، وقتلوا ثلاثة آلاف من نخبة مقاتليهم، في حين سقط من جانبنا من الناس غير المسلحين حوالي الستة آلاف.

ونزلوا من مقاطعـة بامفيليا إلى أراضي كليكيا، وهناك هزمـوا العدو، واستولوا على مدينة طرسوس القديمة جدا، والجليلة، مع المدن الأخرى لتلك المنطقـــة، ومن أجـل وصف لتلك الأراضي انظـر ص١٣٨ من القسم الثـاني، وتابعـوا زحفهم مـن هناك، فـوصل جيشهم عبر محطات كثيرة إلى سـوريـة المجـوفـة، ومن ثـم إلى مـدينة أنطاكيــة الجليلة، التي احتلت فيما مضى المقام الثالث بعد روما نفسها، وكانت المقدمة والسيدة لجميع المناطق في الشرق، وكـان اسـم هذه المدينة في العصـور القـديمـة ربلة(١) (الملوك الثـاني: ٢٥/ ٢٠—٢١. ارميا:٣٩/ ٥—٦) وهنا جـرى اعدام أولاد صـدقيا، ملـك القدس أمام عينيـه، كما جرى اقتـلاع عيني صدقيـا نفسه، وبعـد موت الاسكندر المقـدوني الكبير، قام انطـوخيوس بتحصين هذا المكان بـالأســوار والأبراج، واتخذ من المدينة عــاصمـــة لامبراطوريتـه، سماها انطاكيـة، صـدوراً عن اسمـه، وهنا جلس بطرس المقــدم بين الرسل، أسقفــاً لمدة سبع سنـوات، مشهــوراً بسبب أعماله اللاهوتية والمعجزات التي عملها، وهنا جرى عقد أول مجمع للمؤمنين، خـلاله منحوا اسم مسيحيين، لأنه حتـى ذلك الحين، كان الذين اتبعـوا تعاليم المسيح، قد عرفوا باسم النصارى، أو الرسل، لكن فيما بعد حملوا اسم مسيحيين، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل(١١/ ٢٦)، ويقال بأن بطريرك هذه المدينة، يوجد تحت سلطته عشرين منطقة.

وهذه المدينة قـائمة في منطقـة سورية المجـوفة، وتشغل مكاناً مـوائماً جداً، وموقعاً جميلاً، وهي كلها مروية تقريباً بينابيع وجداول، ويوجد في داخل اطار الأسوار هناك رابيتــان عاليتان كثيراً، وقـد بدت الأولى بينها

١— هذا وهم، وربلة بلدة واقعة على العاصي إلى الغرب من حمص.

هي الأعلى، وهي تحمل على حـافتهـا قلعـة جيـدة التحصين، وهاتان الرابيتان منفصلتـان عن بعضهما بواد عميق جداً، وضيـق، خلاله يجري جدول إلى وسط المدينة، ويقول بعضهم بأن طول المدينة ميلين ايطاليين، ويقول آخـرون ثلاثة أميال، وهي تبعـد عن البحر عشرة، أو اثني عشر ميـلاً، ويتـولى السلطة بشكل آثم فيهـا، منذ زمن طويل الأتراك، مع أن محمدﷺ لم يتجرأ عندما كان حيـاً على الاقتراب منها، وقد ذكر في قرآنه أربع مدن، اثنتـان مباركتان، هما: القـدس ومكة، واثنتان ملعـونتان هما: أنطاكية وروما.

وفي أثناء حصـارها كـان يحكمهـا رجل كبير بين الأتراك اسمـه يغي سيان الفارسي، وعندما وصل رجال شعبنا إلى هذه المدينة الحصينة جداً، حاصروها لمدة ثمانيـة أشهر، وفي أثناء ذلك الحصـار عانى جيشنا كثيراً، وتعـرض بشكل دائـم إلى حملات مفـاجئة من قبل أهـل المدينة، ومن كوارث كثيرة نزلت بهم أمام أسوارها، ولهذا صرخ الناس جميعاً بصوت مـرتفع بأن الحصـار ينبغي رفعـه، ولولا أن أحـد القـادة عـارض رفع الحصار، لرفعوا الحصار خاسرين ملومين، وكان هذا القائد يتآمر بشكل سري من أجل تسليم المدينة إليه بشكل خياني، الأمر الذي تمّ فعله.

وجـرى الاستيـلاء على هذه المدينة في سنة ١٠٩٨ لتجسيـد الرب، وقتل المحـاصرون عندمـا خـرقـوا المدينة ودخلوها، كل من صـدفـوه، واقترفـوا كثيراً من الفظائع هنـاك فيهـا، ولم يكن في المدينة أطعمـة، لأن أهل المدينة كـانوا قـد أكلوا مـاكان فيهـا أثناء الحصـار، لكنهم وجـدوا مخزوناً كبيراً من الذهب والفضة والأشياء الثمينة، وفي اليوم الثالث بعد الاستيلاء على المدينة، وصل كربوغا، الذي كـان أميراً فارسياً قوياً جداً، إلى مساعـدة أهل أنطاكية، مع قوات كبيرة جداً، وجـاء وصوله بناء على التماسات أهل أنطاكية بتقـديم العون لهم، وقد أقام حواجـز دفاعية من حـول المدينة، وهكذا حـدث أن المسيحيين الذين كـانوا قبـل أيام

يحاصرون المدينة،ثم جعلوها مـدينتهم، انقلب حالهم تماماً، مثلما يحدث غـالبـاً في الشـؤون البشرية، وأصبحـوا الآن تحت الحصـار، وعـانوا إلى أقصى الحدود من الحاجة إلى الطعام.

وتشدد الحصـار عليهم إلى حد أن مـامن انسان كـان بامكانه الخروج من المدينة أو الدخول إليهـا، وتغير وضع شعبنا إلى الأسوأ بشكل كبير، وكـانت هناك ندرة عظيمة في الأطعمـة داخل المدينة، إلى حـد أن شعبنا كان مسروراً بإرضاء نفوسـه بالأطعمة الملوثة وغير الطبيعية، ولم يمتلك ذوي النشأة الناعمـة والطعـام اللين، شيئاً ليأكلوه أفضل من البقيـة، ولم يكن هناك تمييز بين لحم نظيف ولحم نجس، ولماذا عليّ أن أقول أكثر؟

ونظر إلى الجمال، والحمير، والخيول، والبغال، وجميع أنواع الحيوانات النجسة، على أن لحومها طيبـة جداً، من قبل الذين امتلكوا الحظ للأكل منها، وللحصول على مثل هذه الأنواع من الأطعمة، التي من المؤلم مجرد النظر إليهـا، تجول بعـض الناس هنا وهناك بنفـوس مكسـورة وهم يتسـولون في الشوارع والأزقـة في المدينة، وامتـزج الرجال الأقـوياء مع النبلاء بالرعـاع، ومامن تاريخ يمكنه أن يخبرنا عـن مثل أولئك الأمراء العظام، وعن جيش بمثل تلـك العظمـة، استطاع بصبر تحمل مثل تلك الندرة بالأطعمة وتلك التعاسة وذلك الشقاء.

وفي الوقت الذي كـان فيه شعب المسيح يعيش في ظل تلك المعـاناة، نظر الرب إلى آلامهم، وبعث مـواسـاة طيبـة لهم، فقـد كـان في الجيش رجل سـاذج، منصرف كثيراً إلى تقـديس الرسول القـديس أندرو، وقـد تجلى القـديس أندرو إليـه، عندما كـان نائماً، وأخبره بأن العـدو لايمكن هزيمته إلاّ بسنان الـرمح الذي طعن به جنب الرب يسوع، عندمـا كان على الصليب، علاوة على ذلك أظهر الرسول بوضوح إلى متعبده المكان الموجـود فيـه سنان الرمـح المقـدس تحت الأرض في كنيسـة القـديس بطرس.

وفي الصباح استيقظ هذا الرجل، وأخبر بما رآه الأساقفة والأمراء، فذهبوا بمسيرة إلى المكان الذي حدد له، وبعدما حفروا عميقاً في الأرض، وجدوا سنان الرمح وحملوه مع سرور عظيم، مع أن كثيرين استخفوا به وتشككوا، لكن جندياً عمل ناراً طولها ثلاثة عشر قدماً في وسط الشارع، وأخذ سنان الرمح بيده، ومشى خلال النار دون أن يصاب بأذى، وبذلك تشجع رجال جيش الرب كثيراً، لأنه بسبب معاناتهم نشبت الخلافات في المدينة، وشرع عدد كبير من الأمراء يفكرون بشكل سري، ويتآمرون لإيجاد السبل، ليتمكنوا من النجاة بأنفسهم، لكن بعد العثور على سنان الرمح المقدس، ربطوا أنفسهم بقسم جديد، وأقسموا بالرب بأنهم سوف لن يترك أحدهم الآخر ويتخلى عنه قبل إعادة المدينة المقدسة إلى حريتها الماضية.

وفي اجتماع عقد فيما بين الشيوخ والمقدمين، جرى تحديد يوم يقومون فيه بمواجهة العدو، ومقاتلته، وبناء عليه في الليلة التي تقدمت على اليوم الخامس والعشرين لحصارهم، لم يكن هناك راحة، بل أعدّ الرجال جميعاً أنفسهم من أجل القتال في الصباح، وتحزموا بأسلحتهم، واستمعوا إلى قداسات في الكنائس في المساء، واعترفوا بذنوبهم، وتناولوا القربان، وبوساطة هذا القربان، نال الناس كثيراً من النعمة، وبذلك غدا الناس الذين كانوا في البارحة بلاطاقة، وبلافائدة، وغير قادرين على السير متجاوزين عتبات بيوتهم، الآن قادرين على التقدم، وقد تعهد كل واحد منهم وأقسم بأنه سوف يتفوق على البقية في المعركة، ولدى الفراغ من تنظيم الصفوف، فتحت الأبواب وقام الأساقفة مع رجال الدين الآخرين، وهم في ملابسهم المقدسة بمباركة الناس لدى توجههم إلى القتال، وعندما كان الحشد يزحف خارجاً من المدينة، تساقط عليه ندى في غاية الحلاوة، وقد بلل جميع الحشد، مما أنعش كل من الناس والدواب سواء.

وزحف شعبنا ببطيء نحـو الأعـداء، وقـد حملوا معهم رمح الرب، وبمعونة الرب، وبعـد قتال مرير، جـرى تحطيم جناحي العدو، وتمزقت صفـوفـه، وبدأت عسـاكره بالفـرار، ورجـالنا يتـولون مطاردتهم، وقـد استمـروا يضربون ويقتلون في صفوفهم حتـى غياب الشمس، وعندمـا انتهت المعـركـة رجع شعبنا إلى معسكر العـدو، حيث وجـدوا كميـات كبيرة وافـرة مـن جميع الأشيـاء الضرورية، مع مخزون هـائل من ثروات الشرق، والذهب، والفضـة، والمجـوهرات، والسلع الثمينة، مما لايمكن حصره ولاعـدّه، عـلاوة على ذلك تـمّ العثور هناك على قطعـان كثيرة، وعلى أطعمة وافرة، إلى حـد أن الذين كانوا من قبل بحاجـة ماسة لكل شيء، قد باتوا الآن لايعرفون مـاذا يختارون من الأشياء الجيدة الموجودة أمامهـم، ولقد نالوا هذا النصر في سنة ١٠٩٨م.

واستعدوا بعـد هذا للزحف نحـو القدس، وانطلقـوا في اليوم الأول من ايلول، وبعـد مـرورهـم بكثير من المناطق، والاستيـلاء على كثير من المدن بالقـــوة، وذلك على طـول سـاحـل البحـــر، دخلوا إلى ســـورية، وعسكروا أمام طرابلس، التي كانت مدينة بحـرية فائقة القوة وعظيمة، عـازمين على الاستيلاء عليهـا، وتقـدم أهل طرابلس لقتـال شعبنا، غير أنهم أصيبـوا بـالرعب مبـاشرة بوســاطة معجـزة، فأداروا ظهـــورهم، وركضوا راجعين إلى المدينة، وبعدما حاصر شعبنا المدينة المقدسة لبعض الوقت، بدأوا يتــذمـــرون بسبب تعبهم ولأن صبرهم تلاشـى لرغبتهم بالوصول إلى القدس، وقد كانت هناك خلافات فيما بينهم، لأن النبلاء، والأمراء والأعيـان بينهم أرادوا الإستيلاء على كل مكان حتـى القدس، في حين أراد الرعاع والعامة من الناس، واعتقدوا وجوب الاستيلاء على القدس أولاً، وأنه بعد ذلك، يمكن منها الاستيلاء على المناطق التي من حولها ومهـاجمتها، ولذلك قام الأمراء ارضـاء للشعب برفع الحصار عن طرابلس، وزحفـوا على طول السـاحـل، ووصلوا في اليـوم الثـالث إلى

بيروت، وكانت بيروت مدينة عظيمة على شاطىء البحر، كما وكانت من قبل مستعمرة رومانية، وذلك حسبما حدثنا جيروم في روايته عن حياة وموت باولا، لكنها الآن ملك السلطان، ويوجد فيها ميناء لاستخدامات كل من التجار المسلمين والتجار المسيحيين.

ومن هناك وصلوا إلى صيدا، ومروا بصور، وقد وجدوا أن هاتين المدينتين، مدينتين عظيمتين على شاطىء البحر، محصنتان بشكل جيد، وعلى استعداد لصد الغزاة، وتابعوا السير على طريقهم فوصلوا إلى سهل عكا، وهي مدينة حصينة جداً على ساحل البحر، وأصيب ساحل فلسطين كله بالرعب لدى وصول جيشنا، وعاش في حالة خوف عظيم، وتابعوا مسيرهم فوصلوا إلى جبل الكرمل، وتركوا الجليل على يسارهم، ومروا بقيسارية فلسطين، التي على شاطىء البحر، ونصبوا معسكراً في الحقل ليس بعيداً عن قيسارية، وعندما كانوا معسكرين هناك جرح صقر طائراً من الحمام كان يطير فوق المعسكر، جرحاً بليغاً، لذلك سقط فوق الجيش، فوجدوه يحمل رسالة جاء نصها كما يلي:« يتمنى ملك عكا الصحة إلى والي قيسارية، هناك جيل من الكلاب، من شعب مشاغب زاحف ضدكم، دافعوا عن شريعتكم ضدهم بأنفسكم وبالآخرين، واطلب من المدن الأخرى فعل الشيء نفسه»، ووقعت هذه الرسالة بأيدي أمرائنا، وفي الحقيقة استخدم الحمام في المراسلات الملكية في البلدان الشرقية، وهذا سوف نشرحه في ص٨٥ من القسم الثاني.

وقد قوضوا معسكرهم، وزحفوا من هناك، ووصلوا في اليوم الثالث إلى قرب يافا، فنصبوا معسكرهم في الحقل أمامها، وقد علموا آنذاك، أنه ليس بعيداً عنهم توجد مدينة الرملة الغنية، فبعثوا بكونت فلاندرز أمامهم مع خمسمائة من الخيالة، حيث وجد المدينة فارغة، وقد دخلوها جميعاً من دون مقاومة، لأن سكان المدينة عندما سمعوا بوصول جيشنا أصيبوا بالرعب وهربوا إلى جبال اليهودية، لانقاذ حيواتهم، تاركين كل

مـاامتلكوه وراءهـم في المدينة، وعندما سمـع شعبنا بذلك جلبوا قـواتهم إلى المدينة وأقاموا فيها لمدة ثلاثة أيام، وقـد وجدوا مايكفيهم من أطعمة لهذه الأيام.

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل شعبنا

جـرى الاستيـلاء على مـدينة القـدس المقـدســة من قبل شعبنا وفق الطريقة التالية: عندما سمع الذين سكنوا بالقدس عن قدوم الصليبيين، وبعدما عرفوا صدقـاً بأن تلك الحشود القادمة لها اهتمام خاص محدد هو الاستيـلاء على تلك المدينـة، لذلك حصنوها بكل عنايـة ممكنة، وجمعـوا الطعـام والســلاح من جميع الأنواع، وأعـادوا بنـاء الأسـوار والأبراج، وجددوا الأجـزاء التي تهدمت بحكم الزمان، ووضعوا حاميـة من نخبة مقاتليهم في القدس، وتوفر لديهم أربعين ألفاً من الرجال لرد الصليبيين وطردهم، وحفـروا أيضـاً خندقاً، وأقـامـوا سـواتر دفاعيـة، من حـول المدينة، وأفـرغوا جميع الصهـاريج التي في الوادي من الماء، وبنوا حصناً حـول نبع سلوان، حتى لايجد الفـرنجـة مـاء، عـلاوة على ذلك اتفقـوا بالاجماع على قتل جميع المسيحيين الذيـن سكنوا معهم في القـدس، وعلى تهديم كنيسـة قيـامـة الرب، وعلى إزالـة ضريح الرب إزالة كليـة، وعلى مسح صخـرة الجمجمــة وازالتهـا من على وجــه الأرض، حتى لايأتي الصليبيـو ن إلى هناك لعبادة هذه الأمـاكن إذا ماأزيلت من الوجـود، إنما فيما بعد، رأوا بعـد مناقشات عقلانيـة، أنهم بفعلهم ذلك سوف يثيرون حقداً عظيماً بيننا ضـدهم أنفسهم، ولذلك سمحوا لهم جميعـاً بالبقاء من دون أذى.

أما بالنسبة للمسيحيين من الجنسين، من الشباب والشيوخ، من الذين سكنوا معهم في القـــدس، فقــد جــردوهم من جميـع ممتلكاتهم، ومن ملابسهم، وعـاملوهـم بدون رحمة، وطردوهم من المدينة مع بطريركهم، وعندمـا جرى طرد هؤلاء النـاس، جاءوا إلى معسكرنا، وجلبـوا معهم

معلومات عن جميع دفاعات المدينة المقدسة وأوضاعها، ولدى سماع رجالنا بذلك سارعوا إلى تقويض معسكرهم، وزحفوا من الرملة إلى جبال اليهودية، وعندما رأوا أخيراً المدينة المقدسة، التي من أجلها تحملوا كثيراً من المشاق والمخاطر، بكوا من البهجة، ومجدوا الرب، واقتربوا من المدينة مع الأغاني ومظاهر السرور.

وعندما وصلوا إلى حقل القصار، الذي هو حقل كبير، على الجانب الغربي من المدينة، قسموا حشدهم وطوقوا المدينة من جميع الجهات، ونصبوا خيامهم فوق جبل الزيتون، وجبل العدوان، وجبل جيحون، وأقاموا ساتراً دفاعياً حول المدينة المقدسة والمحبوبة، مع أنها كانت عدوة لهم، وبنى المسلمون منشآت كثيرة للدفاع عن المدينة خارج الأسوار، وقد جرى تهديمها جميعاً في ساعة واحدة من قبل شعبنا، وبدأ الحصار في سنة ١٠٩٩ لتجسيد الرب، وذلك في اليوم السابع من شهر حزيران، وقد قاومت خمسة وثلاثين يوماً، أي حتى يوم الحادي عشر من تموز.

هذا ولاأعرف ماالذي فعله المسلمون مع اليهود الذي سكنوا في المدينة، حيث أنني لم أقف على أي ذكر لذلك، والذي اعتقده أنهم عدّوا بين المسلمين، وبقيوا حتى النهاية، لأنه مع أن هذين الشعبين لايحبان بعضهما، هما يتفقان دوماً ضد المسيحيين، وهذا واضح من التاريخ، ذلك أنه في أيام الامبراطور جستنيان اتفق اليهود والمسلمين(كذا) في الأرض المقدسة، وتكتلوا مع بعضهم ضد المسيحيين، واقترفوا مذبحة قاسية بينهم، وحاولوا إزالتهم من الوجود، لكن الامبراطور المتقدم ذكره جاء إلى انقاذهم، وهزم المسلمين واليهود، ودمرهم تدميراً مريعاً.

وفي اليوم الخامس، بعد وصول جيشنا إلى المدينة، حمل جميع الرجال بلا استثناء أسلحتهم، وعانى رجالنا من كثير من الجراحات من أسوار المدينة، لأن المدينة— كماقلت— كانت حسنة الدفاعات، ومجهزة بكل

شيء كان محتاجاً إليه للدفاع، ولذلك جرى صد حملات رجالنا، وتمّ حمل عدد كبير من الجرحى إلى المعسكر، وبالطريقة نفسها بذل رجالنا غاية جهدهم لخرق الأسوار، غير أنهم رجعوا من الأسوار فقط على شكل أجساد موتى، وأجساد جرحى بين اخوانهم في السلاح، علاوة على ذلك بدأت الحاجة إلى الضروريات، وللماء والخبز، وبشكل خاص الماء، لايمكن تحملها، فقد رأى رجالنا أن الشطر الأكبر من العوام كانوا مرضى بسبب الجفاف والعطش، وكان رجالنا كلما حاولوا الهجوم على المدينة، تمت مواجهتهم بمقاومة عنيفة، حتى أنه لم يعد لدى شعبنا أي أمل بالربح، والانتصار بقوتهم، وأدركوا بشكل واضح أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة من دون مساعدة سماوية، أو معجزة من نوع من الأنواع، ولهذا أقيمت القداسات وأعمال الوعظ لكل فئة من فئات الجيش في المعسكر كله، ولذلك حثوا كل انسان بأن ينصرف نحو الرب بقلبه كله، وساروا حفاة حول المدينة يصلون يومياً، وهذا مافعلوه جميعاً، أي ليس من قبل الكهنة والعامة فقط، بل من قبل الأمراء والقادة أيضاً، الذين كان الأول بينهم دوما، غودفري المجيد، والقائد للحشد كله.

وفي اليوم الثامن لهذا الإذلال، أي في اليوم الحادي عشر من تموز، هاجموا المدينة بإرادة واحدة، وقاتلوا من الصباح الباكر حتى الظهر، وجرى قتل عدد كبير من رجالنا، وأنهكوا جميعاً من دون محصلات، وبعد مابذلوا هذا الجهد الجبار، بدأوا يتراخون، وأنهك الناس إلى أبعد الدرجات نتيجة للتعب والجوع، وبدأوا يتوقفون عن القتال، ولدى رؤية الأعداء هذا، شرعوا من فوق الأسوار والأبراج يصرخون بصوت مرتفع، ويهينون شعبنا ويستخفون به، ولعنوا شعب الرب الحي، ورقصوا وغنوا بسرور فوق الأسوار، ولم يتوقفوا عن الاستخفاف برجالنا، وطلبوا منهم العودة، لكن هذا السرور العابث لم يطل كثيراً،

بل كـان علامـة على دمـارهـم المقبل، على أســاس أن التفاخـر يسير قبل الدمار كما قيل بالأمثال:١٦/ ١٨.

وبعملهم هذا أظهروا أنفسهم حمقى، ولذلك أغضبوا الحشد ضدهم، وأثاروا حقدهم ضدهم لأنه كتب في الالهيات:٧/ ١٢:« على الانسان أن لايضحك ليثير حقد الآخرين في أنفسهم، لأن هناك من قد يتواضع ثم يمجد» وفي الأمثال:٢٧« الغضب قساوة، والسخط جراف، ومن يقف قدام الحسد»؟ كما أنهم لم يقرأوا ماقاله ذلك الفيلسوف الكبير، الذي عدّ الحكيم الأول بين حكماء العـــالم السبعـــة هو الذي قـــال ينبغي أن لانستخف بأي شكل من الأشكال و لانهزأ بالرجل السيء الحظ.

ولدى سماع رجـــالنا السخـــرية منهم بـآذانهم، وتلقيهم الشتـــائم واللعنات والتجـديف، وقفوا بين شرين أو لنقل خيـارين صعبين، ففي الوقت الذي لم يكن بإمكـانهم فيه تحمـل الإهانات التي انصبت فـوقهم من دون الانتقـام من فاعليهـا، كـانوا في الوقت نفسـه لايدركون تمامـاً كيف يمكنهم الاستيـــلاء على مـدينة الذين أهانـوهم، وفيما هم في هذه الحيرة، فجأة ظهـرت القـدرة الالهيـة بينهم، وجلبت العـون إلى المؤمنين وهم في وضعهم اليائس، فقد نزل من جبل الزيتـون نحو حشدنا فارس كان مرتدياً لسـابغة مشعة، وهو على ظهر مهر شجـاع، وكان بيده رمح يتوهج ضياء، وأشار إلى عساكرنا بالعودة وتجديد الحملة، وبعدما أعطى هذه الاشـارة لم يعـد بالامكان رؤيتـه في أي مكان، كما أنه لم يكن هناك شك أنه ميكائيـل، الذي كـان مقـدم الحشـود المسيحيـة، أو كما تقـول الأسطورة، اللومباردية بأن ذلـك الفارس كان القـديس جرجس، حيث قـام من بين الأمـوات لمسـاعـدة المسيحيين، وذلك مثلما قـام ميركـوري Mercury القـديم للقتـال ضد يوليـان المرتد وجيشـه، وهو الذي ورد خبره في التاريخ اللاهوتي.

ولدى رؤية جيشنا لهذه الاشـارة، بات مسروراً، وعاد إلى الحملة على

المدينة بشجاعة أعظم من ذي قبل، وقد توهج بالحماسة هؤلاء الرجال، الذين كانوا قبل هذا مرهقين ومنهكين لما عانوه من متاعب وشقاء، وكانوا ضعفاء بسبب الجراحات، ومعاقين، غير أنهم الآن جددوا نفوسهم، وبها ضغطوا وتقدموا بشجاعة أعظم من ذي قبل، وحملوا على العدو حملة رجل واحد، وعم سرور عظيم في معسكرنا، وبدوا وكأنهم واثقين من النصر، ففي إطار ساعة واحدة طموا الخندق، وخرقوا السواتر الدفاعية، والموانع والحواجز، وأوصلوا الآلات الحربية إلى سور المدينة، وقد ستروا أنفسهم تحت هذه الآلات، وبذلك لم يعودوا يصابون بالحجارة التي رميت من الأسوار، وكانوا وهم تحت الآلات بإمكانهم شق طريقهم إلى السور واعتلائه، لأنه في ذلك الوقت لم يكن قد جرى اختراع المدافع، تلك الأسلحة المخيفة— حيث يقال بأنها اكتشفت من قبل ألماني في حوالي سنة ١٣٦٠— والذي توفر لديهم فقط آلات لرمي الحجارة الثقيلة.

وكان مقاتلونا قد عملوا برجاً عظيماً وعاليا، على شكل سلة، ومثل قلعة، وملأوه بالتراب والحجارة، بصورة أن الذين يقفون خلفه، يكونون آمنين من الرمايات من الأسوار، ووقف هذا البرج، أو الحصن على عجلات، وكان قابلاً للتحريك، وكان العدو قد علق أشجاراً ضخمة وطويلة أمام الأسوار، لتحطيم قوة كبش التدمير، وقام رجالنا الذين كانوا في الحصن المتقدم ذكره بقطع الحبال التي ربط بها اثنتان من هذه الأشجار ورموهما إلى الأرض، وعندما علم بهذا الدوق غودفري الذي كان يهاجم المدينة من ذلك الجانب، أمر بحمل الشجرتين المتقدمتي الذكر إلى الحصن، وباسناد نهاية أولاهما على الآلة، ونهاية الأخرى على سور المدينة، وبذلك جعلهما تعملان بمثابة جسر، وفوق الجسر المعمول على هذه الشاكلة، كان غودفري ذلك الرجل المتميز، مع أخيه يوستاس، أول رجلين دخلا المدينة، وبعدهما جاء عدد كبير آخر،

واتخذوا لأنفسهم مكاناً فـوق الأسـوار وأعـلامهم التي حملت شـارة الصليب تخفق، وزعقـوا بأبواقهم إلى الحشـد ليقدم لمسـاعـدتهم، ولدى رؤية العدو لهذا تخلى عن الأسـوار والأبراج، وهرب جميع مقاتلوهم من أجل الالتجاء في ساحة الهيكل، الذي اسمه هيكل سليمان.

وهنا نزل رجـالنا الـذين وقفـوا على السـور، وذهبـوا إلى أقـرب الطرقـات، ثم ركضوا نحـو الباب الشمالي، فكسروا أقفـاله وحواجـزه، وتركـوا رجـال حشـودنا التي كـانت تنتظـر في الخارج تدخل، ومن ثم تركض إلى هنا وهناك في الطرقات وسيوفهم مجردة، حيث قتلوا كل من صدفـوه، ولم يوفروا أحـداً لالسنة أو لجنسه، وتجمعت في الوقـت نفسه القوات المقاتلة لدى العدو في الهيكل وفي ساحتـه، وقد استعدوا لمقاومة شعبنا، الذي اقتيدوا بصفـوف قتاليـة للهجوم على الهيكل بقـوة عظيمة، وجـرى صد رجـالنا خمس مـرات من قبل المسلمين، لكن في الاشتبـاك الخامس(؟) كـانوا قـادرين على تحطيم ميمنـة العـدو، وعندمـا منح هذا طريقاً لشعبنا، انخـرط في مذبحة، إلى درجة أنه في بعض أجـزاء الساحة وصلت دمـاء المقتـولين إلى ركب الذين كـانوا على ظهـور خيـولهم، ولم يرقط مثل هذه الكثرة من الدمـاء البشرية في مكان واحد ووقت واحد، لأنه بالاضافة إلى الذين ذبحهم شعبنا في البيوت، والأزقة، والشوارع في المدينة، قتلوا في الهيكل وحـده مع سـاحتـه عشرة آلاف من المسلمين، حيث ألقي بهم أرضـاً وذبحـوا، وكـان بين الذين طعنـوا بألف سيف الخليفـة(الوالي)، أي ملـك البرابرة في القـدس، الذي عثـر عليـه شعبنا متـوارياً تحت جدار مهـدم، وبذلك جرى الاستيـلاء على المدينة في سنة ١٠٩٩، وكـان ذلك في الخامس عشر من تموز، وكـان اليوم يوم جمعـة، والساعـة هي الساعـة التاسعـة، والسنة هي السنة الثـالثة بعدمـا امتلك شعبنا الشجاعة للقيام بمثل هذا الحج الهائل.

وبعـدما جـرى الاستيـلاء على المدينة، ألقى المؤمنون أسلحتهم، ومع

الدموع، وبروح متـواضعة، وبدون اهتمام بالدمـاء التي لطخت الهيكل، بادروا مسرعين في مسيرة إلى الهيكل الذي امتلأ بدم المسيح، وإلى كنيسة ضريح الرب، وكـان يتقدمهم أسـاقفتهم وكهنتهم بمـلابسهم المقدسـة، وعندمـا دخلوا إلى هيكل قيامـة الرب، غنوا بسرور لاحـدود له، ترانيم الفصح غنوها كل جماعـة منهم بلغتهـا، وبموسيقـاها، وساروا بخشـوع عظيم وطافوا حول الأماكن المقدسة كلها في الكنيسة.

ولكم هو رائع أن تتحـدث، ومقـدس وممتع أن تسمع بأن جميع هذه الأماكن المقـدسة، جرت بها مشاهدة فرسـان مسلحين، وحجاج بشكل واضح ومكشـوف، وهم رجال كـانوا قبل وقت طويل يقـابلون بالموت من قبل سيـوف المسلمين، هذا وذكر الشطر الأكبر من الجيش، وأكـدوا بالايمان مـاكـانوا ذكـروه، بأنهم عندمـا كـانوا يتسلقـون سـور المدينة شاهدوا، الفرسان أنفسهم، الذين ماتوا في انطاكية وأماكن أخرى، وهم يرتدون دروعهم، ويمـدون بسرور أذرعتهـم إلى الذين كـانوا يتسلقـون على السـلالم، ويشجعــونهم على القتـال، ولم يكن هنـاك من شك لدى الذين شاهدوهم، أنه كـان من غير الممكن نيل النصر من دون الحصول على مساعدة ورضا الذين سقطوا في المعارك السالفة، وذلك مثلما حدث أنه لدى صـلاة القـديس باسيل، أقـامت العـذراء المبـاركـة من الموت ميركوريوس Mercurius، الذي كان عسكرياً في غـاية الشجاعـة، كان قـد استشهد على يدي يوليـان المرتد، وقد أقـامته لكي يقتل يوليـان هذا نفسه، وقد فعل ذلك حقيقة، ومثل هذا فإن أشجع المقاتلين الذين ماتوا على أيدي المسلمين، قـد رجعـوا إلى الحيـاة ثانيـة حتـى ينتقمـوا منهم، ولذلك شوهدوا بشكل واضح يقاتلون بين الرجـال الذين كانوا رفاقهم في الحيـاة، ولقـد تبرهن بهذا بوضوح أن أولئـك القوم، وإن كـانوا قـد فـارقوا الحيـاة الأرضية، وأخـذوا إلى السعـادة الأبدية، مع ذلك لم تخب آمـالهم في تحقيق رغبـاتهم، لابل في الحقيقـة حصلوا على تحقيـق كـامل

للذي تشوقوا إليه بخشوع كبير، وغسلوا دمهم الشرير، وأقاموا مطابخ في كل مكان من أرجاء المدينة، وعينوا أناسا للقيام بتقديم الأطعمة، وأمضوا على هذه الصورة ثمانية أيام.

وهناك كثير من المؤرخين الذين أرخوا لهذا النصر المجيد جداً، وقد كتبوا باسلوب ملحمي، وجاءت الكتابات من قبل كتاب متعلمين كثيراً، ومن قبل خطباء بلغاء، بكل من الايطالية، والاغريقية، والفرنسية، وقد نسب كل واحد منهم الفضل إلى أمته، ولأنهم لم يذكروا الألمان، مع أن غودفري كان قد فعل كل شيء وتفوق على الجميع قام الشاعر العظيم أنياس سيلفيوس Aeneas sylvus بالقاء خطاب في فرانكفورت، وجهة إلى أمراء ألمانياونبلاء سوابيا، بمناسبة الغزو التركي، وقد تحدث إليهم قائلا:« وإنني أعرف بأن غودفري، الذي كان دوق اللورين، قد سار خلال كثير من الممالك، براً وبحراً، وحرر ضريح الرب من أيدي المسلمين، وكان معه الألمان فقط، الذين قطنوا فيما وراء الراين، والسوابيين، وبعض الفرنسيين، وقلة من الايطاليين».

قائمة بملوك القدس اللاتين وبأمراء المملكة الصليبية في القدس

وهكذا حدث أنه في الخامس عشر من حزيران(اقرأ: تموز) من سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، استولى المسيحيون الغربيون على القدس، المدينةالمقدسة، واستخلصوها من أيدي، ومن سلطان الأمم، وعينوها إلى ورثتها الحقيقيين، الذين هم أبناء المملكة، الذين ولدوا مجدداً أمام جرن المعمودية والذين هم أتباع المسيح، وأعادوها بعدما بقيت غريبة في أيدي الأمم لحوالي أربعمائة وستين سنة، أو أربعمائة وتسعين سنة.

وفي اليوم الثامن بعد تحرير القدس، اجتمع الأمراء المنتصرون في مؤتمر من أجل اختيار واحد من أفرادهم ليتسلم السلطة على البلاد،

ويتولى كملك العناية بالمنطقة المستولى عليها حديثاً، وبعدما صلوا من أجل أن تكون نعمة الروح القدس معهم في أعمال الاختيار، قاموا بصوت واحد، وبروح واحدة، باختيار غودفري، دوق اللورين، الذي تقدم ذكره مراراً، اختاروه ملكاً، وقد حمله الفرسان على أكتافهم إلى القصر وأعلنوه ملكاً للقدس. وقد حكم لمدة سنة واحدة

وكان غودفري هذا من مملكة فرانسا، من مدينة بولليون في مقاطعة الراين، وكان كونت غالاريا Gallaria (كذا)، وكان أبوه اللورد يوستاس، وأمه اسمها ايدا Ida ، وكانت أختاً لدوق اللورين، وبما أن هذا الدوق كان بلا أولاد، فقد تبنى ابن اخته غودفري هذا، واتخذه بمثابة ابن له، وعندما مات خلفه غودفري في دوقية اللورين، وكان هذا الدوق رجلاً رائعاً جداً، وكان متديناً، ورحيماً، ومقدساً، ومستقيماً، ومتحدثاً وقوراً، وصاحب أخلاق صلبة، يكره العبث الدنيوي، وهذا كان أمراً نادراً بالنسبة للجندي، لاسيما في ذلك الوقت، وكان علاوة على ذلك كله متدفقاً في حديثه، لايمل ولايتعب في الأعمال الدينية، ومع أنه كان نبيلاً، لم يكن متشامخاً، بهي الطلعة، وجميلاً أن تنظر إليه، ومن حيث الجسم، كان طويلاً، ورشيقاً، وفي غاية القوة، مع وجه جميل، وشعر أصفر، ولحية، وبالنسبة لاستخدام السلاح، والممارسة للأعمال العسكرية، قرر كل واحد بأنه كان متفوقاً، وكانت أعماله دوما رائعة، وجديرة بالاعجاب، وقام في احدى المرات، مثل شمشوم آخر، أوداوود، بمهاجمة أسد هائج وقتله، كما جاء في Frasciculus tem-porum(وهو تاريخ صنفه الراهب ويرنر رولونك وطبع سنة ١٤٧٧).

وعندما رفع إلى عرش مملكة القدس، لم يرفض اللقب، لكنه رفض أن يلبس تاجاً ذهبياً، قائلاً بأنه لايجوز لرجل مسيحي ارتداء تاج ملكي من الذهب، في المكان، الذي لبس فيه المسيح، ملك الملوك، تاجاً من

شـوك مـن أجل انقـاذ الجنس البشري، ولهذا فإن بعـض الذين لم يكن تواضعهم كما ينبغي، لم يضعوه في قائمة الملوك اللاتين للقدس، وبالنسبة لما أفكر به، هو لم يكن ملكاً فقط، بل الأفضـل بين الملوك، وكان ضـوءاً ومـرآة للبقية، وعلينا عـدم الافتراض بأنه رفض عرض تكريسـه ملكاً، لكنه تواضعاً منه رفض الأبهة الدنيـوية، والتاج الفاني، من أجل أن ينال تاجاً لايفنى في العالم الآخر.

وعندمـا حصل هذا الأمير التقي على العـرش، شرع مبـاشرة كـرجل دين بتقديم أول الثمار في مملكتـه إلى الرب، كما أنه أسس أنظمة قـانونية لكنيسـة ضريح الرب، ولهيكـل الرب، وعين لهما مـوارد وافـرة، وفي الحقيقة قـام هذا الرجل، الذي أحبه الرب، فجلب معـه رهباناً نظاميين من ديرتهم، وقد أقـام هؤلاء له، طوال الرحلة، القـداسات في الليل وفي النهـار، ومثل هذا بعث إلى كل من ايطاليـا وفـرنسـا، فجلب اكليروس ديني، ووزع فيما بينهم الأبرشيات، ولهم بنى الكنائس والديرة.

وفي هذه الأيام، تمّ العثـور على قطعـة من صليب الرب، في كنيسـة القيامة، وهي قطعة كـانت قد أخفيت من قبل المؤمنين خوفاً من الأمم، ومنح هـذا راحـة عظيمـة إلى جميـع المؤمنين، وجلب مجداً عظيماً إلى الكنيسة، وكانت الكنيسة قد بقيت حتى ذلك الحين، فارغة، لكن الآن، وضعـوا في الكرسي البطريركي بمـوافقة جميع الناس، السيـد ديبيرتوس Daybertus، الذي كان رئيس الأساقفة المبجل لبيزا، وكان قد جاء إلى الأرض المقدسة من ايطاليا مع آخرين كثر بالبحر، بعد الاستيلاء عليها.

وبعدما حل مشـاكل الكنيسة وأرسى قواعدها، سـار الملك غودفري التقي جداً من أجل توسيع حدود المملكة المقـدسة للقدس، واصطحب معه اخوانه، وجميع حشـد مقاتليه، وكلهم مجهز للقتـال، وزحف خارجاً من المدينـة المقـدسـة، ونـزل إلى فلسطين لمحـاربـة كليمنت -Clem ent(الأفضل) ملك القـاهرة، الذي كان معسكراً في عسقـلان مع حشد

كبير من المحــاربين المسلمين، وكــانوا قـد هـاجموا الصليبيين من هناك بشكل غـادر، وهاجم غودفـري بلدة عسقـلان، واستولى عليهـا، وقتل كليمنت [كـذا] مع ثلاثين الفـاً من عسـاكـره ووجـدوا هناك المخـزون الأعظم من الذهب والفضة، مما كان قد تمّ العثور عليه في أي ناحية من أنحاء العالم، وزحف من هناك هو وإخوانه، مستثمرين نصرهم وحظهم السعيـد، فحاصروا واستـولوا على مدينتي يافـا والرملة، وبعض المناطق الأخرى الهامة مثلها.

وأخيراً عندما عـاد الملك إلى القدس، سقط مـريضاً، وأصيب بحمى حادة جداً، وتمدد على الفراش بحالة مرضية شديدة جداً، ولدى شعوره باقتراب منيتـه، قـام مثله مثل معترف حقيقـي بالمسيح، فتناول القـربان الأخير، وغادرت روحه الجسد، وبذلك انتهت حياته سريعاً، ومع ذلك حقق أعمال أجيال كثيرة في وقت قصير، ودفنه إخوانه في كنيسة الضريح المقـدس، عند سفح صخـرة الجمجمـة، وكـان ذلك وسط بكاء وأسف جميع الشعب الصليبي، وجـرى فهم بعض النصـوص المقـدسـة(رؤيا يوحنا:١٧—١٨)حـرفياً، وشرحـت على أنها تشير إلى غودفـري، وذلك وفقـاً إلى نيقـولادي ليرا، وإلى تـاريخ أنطونيـوس، القسم الأول، العنوان:٦، الفصل:١، الفقـرتين:١٤—١٥، وقـد عُـزي إليـه كثيراً من المعجزات، قمت باسقاطها.

الملك الثاني

بعـد وفاة غـودفـري، الملك الأول للقدس، في سنة ١١٠٠ لتجسيـد الرب، خلفه أخـوه اللورد بلدوين على العرش، وقد كـان كونت الرها، ورجـلاً قويـاً، ولديه كفاية مـن المعرفـة الأدبيـة العامـة، وكـان له أنف معكوف، وسلوك مهيب، وأحـاديث جـدية، وكان دومـاً يرتدي عبـاءة على كتفيه، ولذلك بدا للغرباء أنـه أكثر شبهاً بأسقف، منه بأمير علماني، وقدم إلى القدس، عدد كبير من الأمراء لحضور تتويجه، واقتادهم هو إلى

بيت لحم، حيث تسلم التاج مع فرح عظيم في موضع ولادة الرب.

وأحتاج إلى وقت طويل للحديث عن عظمة هذا الملك، وعن شجاعته، وعن قوته، وعن معاركه الكثيرة وانتصاراته على الكفار، فقد هزم الأتراك مرات عديدة، وسحق المسلمين، وأذل المصريين ثلاث مرات، وقتل ملكهم الخليفة(كذا) على ظهر أحد الغلايين، وكان في أيامه زلزال عظيم هدد المدينة المقدسة كلها بالدمار، ومع ذلك تبرهن أنها لم تكن شارة سوء طالع، لأنه استولى بعد الزلزلة على كثير من مدن المسلمين، وقتل آلافاً كثيرة، وزاد كثيراً من حجم مملكة القدس، وقد استولى على مدينة عكا الحصينة جداً، ومثل ذلك بنى حصناً عظيماً في البتراء في القفار فيما وراء الأردن، وهي القلعة التي أطلق عليها اسم جبل الملك(مونتريال=الشوبك)، وكنا قد تحدثنا عن هذا المكان من قبل.

ونزل في أيامه طاعون بسورية، وقد هلك به جميع الشعب اللاتيني تقريباً، وعندما رأى الملك أن مدينة القدس المقدسة قد غدت شاغرة، ليس فيها أحد يسكنها، وأنه لم يعد في المدينة مايكفي من سكان للدفاع عنها ضد الأعداء، احتار كيف يمكنه اسكانها من قبل مسيحيين، وعلم أخيراً أنه يوجد عبر نهر الأردن وفي العربية عدد من القرى مسكونة من قبل المؤمنين، وهم يخدمون المسلمين، أعداء ايمانهم، في ظل شروط قاسية، ويدفعون الجزية إليهم، وجمع الملك هؤلاء جميعاً مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع آلهم، وأسكنهم في القدس، ورفع النير الثقيل من على أكتافهم، علاوة على ذلك اشترى أطفالاً من المسلمين، وأمر بتعميدهم، وعينهم للسكنى في القدس.

وفي سنة ١١١٨ لتجسيد ربنا، قام هذا الملك الفاضل بالنزول إلى مصر مع قوة كبيرة، وكان قصده الانتقام من المصريين للأعمال التي غالباً مااقترفوها في مملكته، وقد هاجم بحدة متناهية مدينة قديمة جداً اسمها الفرما، وقد استولى عليها، وأباحها للنهب من قبل جنوده،

وكـانت هذه المدينة قـائمة على شـاطىء البحـر، ليس بعيـداً عن مصب النيل، وكـان اسمها في القـديم تنيس، وعندمـا كـان الملك مقيماً في هذه المدينة يستعـد ليندفع نحـو المناطـق الداخليـة من مصر، سقط مـريضـاً مرضاً عظيماً، ولذلك أمر جيشه بالتراجع، وقد حمل على محفه حتى غلبه مـرضـه، ومن ثم انتقل إلى الرب، وجـرى حمل جسـده عـائـدين به إلى القـدس، وفي يوم أحـد السعف جـرى دفنـه بأبهة ملكيـة، تحت مـوقع الجمجمة بقـرب أخيه غـودفري، وقـد حكم في القدس لمدة ثمان عشرة سنة، ولم يخلف وريثاً من بعده.

الملك الثالث للقدس

وبعد وفـاة بلدوين الذي كان الأول في حمل هـذا الاسم، والثاني بين ملوك القدس، خلفـه هناك على العرش بلدوين الثـاني، الذي كان ثالث ملوكنا اللاتين في القدس، وكان ذلك سنة ١١١٨م، وقد حكم لمدة ثمان عشرة سنة، وكـان ابن عم الملكين المتقـدمين، وكـان اسمـه بلدوين دي بورغ، وكـان فرنسيـا من حيث الأصل، من مقـاطعة الرايم، وكـان ابن هوغو، كونت ريثيل Rethel ، وله لحية رقيقة، وصلت حتى صدره، وكـان خبيراً في استخـدام السـلاح، وصـاحب تجربة كبيرة في الحرب، علاوة على ذلك، كـان رحيماً، متديناً، ويخاف الرب، مخلصـاً في صلواته، حتى أنه امتلك جلداً قـاسيـاً فـوق يديه وركبتيـه من مـداومـة الركـوع والسجود.

ومع ذلك، إنه على الرغم من هـذا كله، ومن صفات أخـرى جيـدة، كـان انتخابه للملك قـد أغضب عـدداً كبيراً من الأمراء، ولذلك بعثـوا بسفـارة مهيبة لدعـوة يوستـاس كـونت أوف بولليـون، الذي كان أخـاً للملك بلدويـن الأول، للقـدوم إلى المملكـة، التي هي حقــه الموروث، وعلى الرغم من عدم رغبته، وكراهيته، جلبوا يوستاس هذا حتى أبوليا، حيث سمعــوا وقتــذاك بـأن بلدوين دي بورغ قـد تـمّ تعيينه ملكاً في

القـدس، وهنا استعـد للعودة إلى الوطن، وعنـدما أعلمـوه بأن هذا قـد عمل ضد القـانون، ولايمكنه بأي حال من الأحوال الثبـات، يقال بأنه أجابهم:« ليكن بعيداً عني القيام بأي عمل تآمري في مملكة الرب، الذي من خـلال دمـه حصل العالم على السـلام، ومن أجل الهدوء فيهـا بعث أولئك الرجـال العظام، أي أخوي صـاحبي الذكـرى الخالدة، بروحيهما المجيدتين إلى السماء»، وبنـاء عليه حزم حقـائبه، وعـاد إلى موطنه ثـانية، وفي الوقت نفســه ترسخ وضع بلدوين في مملكتـه، وقــد هزم في السنة الثانيـة من حكمِـه ايلغازي، قائـد الأتراك في آسيـة الصغرى، وكـان قد زحف على رأس قوات كبيرة لمهاجمة القـدس، وألقاه في السجن، وأنزل في السنة التـاليــة الهزيمـة بملك دمشق، الذي كـان قــد زحف بشكل مفاجىء على رأس جيشه ضد القدس مع نوايا عدوانية، وقد قتل ألفين من الأعداء، وأخذ ألفاً أسرى، وقد فقد ثلاثين فقط من رجاله.

وفي السنة الخامسة من حكمه، زحف هـذا الملك، ضد ملك الفرثين، الذي كـان يهدد كونتيه الرهـا، وعندما كـان في أحد الأيام، خارجـاً من مدينة تك باشر، وكان يسير بلا انتباه مع آل بيته، في صف متخلف وراء الجيش، لحقـه بلك المتقدم ذكـره، ونصب كمينا له، فأسر ملك القـدس مع نبـلائـه، وحملهم إلى قلعـة وراء الفــرات، حيث وضعهم بالأغـلال واحتفظ بهم لمدة سنتين، وفي الوقـت نفســه عندمـــا سمع ملك مصر بوقــوع ملك القــدس بالأسر، جــاء عبر الطريق الســاحلي مع جيش لايحصى عـدده من شعبـه، ووصـل إلى عسقـلان، قـاصـداً الزحف إلى القدس، وعندمـا سمع يوستاس غـريمر، الذي إليه عهـد بادارة شؤون المملكة، أثناء غيـاب الملك بهذا، قـام هـو وأعيـان المملكة بحشـد جميع القوات المتـوفرة، واستعدوا للحملة وكانوا قلة ضـد كثرة، وليس لديهم أمل بالبقـاء إلاّ بـالرب، وقـام أهل القـدس، مثل أهـل نينوى، فأعلنوا الصيـام بالنسبة إلى الرجـال والنســاء سواء، لابـل أكثر من هذا، منعـوا

الطعـام حتى عن الأطفـال الرضع، وعن الدواب والسـائمـة، وعندمـا زحف جيش الرب خارجـاً من المدينة المقدسـة، زحف بطريرك القدس على رأس الرتل، وهـو يحمل صليب الرب عـوضـاً عـن الراية، وحمل الذي كـان فيما مضى راعي دير كلـوني، سنان رمح الرب، الذي جـرى اكتشـافــه مـؤخـراً، كما تحدثنا من قبـل، وحمل أسقف بيت لحم حليب العذراء المباركة في حُق.

وهكذا ساروا وهـم متسلحين بالايمان، وقصدوا قتـال أعدائهم، وقد وجدوهم في مكان اسمـه يبنا(ابلين)، ودون الاهتمام بأعدادهم الكبيرة، حملوا عليهم بجرأة، وضربوهم بسيوفهم، وتمكنوا بعون الرب من الحاق الهزيمة بهم، وطاردهم شعبنا، ولدى قيامهم بذلك عملوا مذبحة مرعبة بينهم، ومع الأعـداد التي لاتحصى من الأسرى، يقـال بأن سبعـة آلاف منهم قـد قتلوا في ذلـك اليـوم، عـلاوة على ذلك عمل شعبنا مــذبحـة أخــرى كبيرة بين صفــوف المسلمين في البحــر، لأنهم طاردوا اسطول المسلمين الذي هرب لدى سماعه بالهزيمة، فوجدوه، وقتلوا أعداد كبيرة في المعركـة التي وقعت إثر ذلك، وكانت مذبحة خـارج اطار التصديق، حيث قيل بأن البحر قد تحول إلى أحمر لمسـافة ميلين حول المكان، بسبب أعداد الجثث الكبيرة التي ألقيت فيه.

وبعد هذا، والملك مايزال بالأسر، استولى شعبنا على مدينة صور التي كـانت لاترام، حيث ترافـق ذلك مع مـذبحـة هائلة جـداً بين صفـوف المسلمين هناك، وصـور مـدينة قــديمـة جـداً، ولها منحهـا الامبراطور سيفيروس، جـائـزة بسبب اخـلاصهـا للدولة الرومـانيـة، وكـانت هذه الجائزة هي: Jus Italicum، وكان هذا امتيـازاً اعتاد الأمـراء الرومان على اضفائه فقط على عدد قليل جداً من المدن ذات الأهلية العالية.

ولم يشهــد فقط الكتــاب من الأمــم على عظمــة مجد هذه المدينة في العصور القديمة، بل أيضاً شهـد وحي الأنبياء المقدسين، حسبما جاء في

إشعيا:٢٣، وفي حزقيال:٢٦و٢٧.

وإلى هذه المدينة ينتمي سيخايوس وزوجته ديدو، التي بنت مدينة قرطاج العجيبة، وحكم هنا حيرام الذي كان العامل المتعاون والتابع لسليمان في بناء الهيكل، وعندما جرى الاستيلاء على صور، أطلق سراح ملك القدس وعاد إلى القدس، وقد تمكن من إعادة المملكة المتداعية للمسيحيين وأضاف أنطاكية إلى مملكة القدس، وهزم ملك عسقلان الذي كان يزعج شعب القدس، وكان ذلك في معركة واحدة، وهزم طغتكين، أمير دمشق، الذي كان مثل ذلك يحاول مضايقة أهل القدس، وقد هزمه في ثلاث معارك، حيث جرى ذبح أعداد كبيرة من الأعداء مثل الأغنام.

ومنح الرب بعد ذلك، هذا الملك، حكماً هادئاً، وما من انسان تجرأ على الوقوف في وجهه، ولذلك قام وهو يعيش بسلام، فوجه نفسه نحو تحسين الخدمات الدينية، فجلب عدداً كبيراً من الرهبان، ومن رجال الدين، من العالم المسيحي، وشيد كثيراً من الديرة لكل من الرجال والنساء، وأسس في صور جامعة أو مدرسة عامة، إليها قدم كثير من العلماء من بلاد ماوراء البحر، وفي أيامه تأسست ثلاث طوائف دينية في القدس، وكانت الطائفة الأولى بينها الاسبتارية، ومع أنه كان يوجد قبل استرداد الأرض المقدسة، في القدس اسبتارية، لكن لم تكن هناك طائفة منظمة، فلقد قرأت، كما ذكرت من قبل، أن المسيحيين اللاتين شيدوا بموافقة من السلطان، قبل أيام غودفري، ديراً للرجال، قرب كنيسة ضريح الرب، من أجل استخدامات الحجاج، فيه أقام الذكور من الحجاج كضيوف، وبعد ذلك، وبسبب تزايد أعداد النساء من الحجاج اللائي قدمن إلى هناك، جرى بناء دير آخر، أقامت فيه النساء من الحجاج، وبعد ذلك، وبسبب تدفق حشود الحجاج إلى هناك، لم يعد هذين الديرين قادرين على استيعاب مثل هذه الأعداد الكبيرة، ولذلك

قام راعي الدير والرهبان ببناء مشفى على مقربة من البيعة المكرسة إلى القديس يوحنا المعطاء، الذي كان بطريرك الاسكندرية وصار الحجاج يقيمون في هذا المشفى، ويتلقون جميع المؤن المحتاجة من هذين الديرين على أيدي الرهبان والراهبات هناك، الذين كما أتصور كانوا من طائفة القديس بندكت، لأنهم كانوا لاتين في الديرين معاً، ولم تكن طائفة الاسبتارية قد تأسست نظامياً بعد، ومع مرور الأيام، وبعد استرداد الأرض المقدسة، وبعدما نال الملك بلدوين السلام في البلاد، تدفق الحجاج على القدس، بأعداد كبيرة، ولذلك عين راعي الدير واحداً من النبلاء اسمه جيراد، كان قد تطوع بارادته للقيام بخدمة الذكور من الحجاج ورعايتهم، وقامت راعية الدير بالوقت نفسه بتعيين سيدة رومانية نبيلة لخدمة النساء من الحجاج، وقام هذان الشخصان بالتعهد بتقديم الولاء إلى راعي الدير المتقدم ذكره، تبعاً للنظام الذي عاشا في ظله، وكان نظاماً موائماً للناس المقيمين في المشفى، وهو نظام عمل لهم من قبل راعي الدير مع موافقة بطريرك القدس.

وكان الثوب الذي ارتدوه أثناء الخدمات الدينية عباءة سوداء مع صليب أبيض عليها، وقد تزايدت أعدادهم بشكل كبير، مما دفع إلى تأسيس أديرة كبيرة لهم في جميع أرجاء العالم، وذلك بسبب أنهم كانوا رجالاً متدينين كثيراً، ولايسمحون باقتراف أي عمل شرير، وباتوا الآن يعرفون باسم مزدوج: فبعضهم يدعوهم باسم اسبتارية، لأنهم كانوا يمتلكون السيطرة على المشفى، في حين دعاهم آخرون باسم فرسان القديس يوحنا، اشتقاقا من اسم القديس يوحنا المعطاء، الذي إليه كرست المستشفى في القدس، وقد احتفظوا بهذا الاسم حتى هذا اليوم، ولكي يمنحوا أنفسهم شرفاً أعظم، اتخذوا القديس يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، وكان ذلك بعد استيلائهم على جزيرة رودس، كما أنهم كانوا قد أخذوا بنظام القديس أوستين، وذلك بعد طردهم من القدس، لأنهم

أثناء إقـامتهم في القدس لم يتخذوا يـوحنا المعمدان وليـاً راعياً لهم، كما أنهم لم يعرفـوا وجوب تطبيق نظام القديس أوستين، بل عـاشوا في ظل أوامر الراعي والبطريرك، وعلى هذا بدأت طائفة فـرسان القديس يوحنا في سنة ١١١٨ في القدس، في أيام حكم البـابا غيلاسيوس Gelasius، لكن الطائفـة ترسخت فوق نظام قـانوني في سنة ١٣٠٨م في أيام حكم البابا كليمنت الخامس، في جزيرة رودس.

وهناك أيضـاً رجالاً آخـرون، بعد هؤلاء بوقت، عـرفوا أيضـاً باسم الاسبتارية، لكن هؤلاء القوم لم ينالوا هذا الاسم من المشفى في القدس، لكن حصلوا على اسمهم ونظامهـم من مشـافي أخـرى كبيرة، خـدمـوا فيها، تحت أنظمة متنوعة.

وكانت الطائفـة الثانية، التي جاءت بدايتهـا في القدس، في أيام حكم الملك بلدوين، قد تطورت من الطائفة الأولى، لأنه بعد تأسيس المشفى، والمنح العظيمة التي نالتهـا، استمر تدفق الحجاج بأعـداد كبيرة جداً من جميع أرجاء العـالم، ووصلوا يومياً إلى هناك، وهنا بـدأ بعض اللصوص ينصبـون لهم الكمائن على طول الطريق السـاحلي، وشرعـوا يسلبـون الحجاج، ويقتلونهم أحيـاناً، وأحدثوا فـوضى عظيمة بينهم، ولدى رؤية ذلك، قام بعض الفرسان الغيورين، فتعهدوا إلى البطريرك، بأنهم سوف يتـولون حماية الطرق العامـة، علاوة على هذا تعهـدوا بأن يعيشوا حيـاة طهارة، وطاعة وفقر.

ولدى انطلاقهم، كان هناك عشرة فقـط منهم، وقد أسكنهم الملك في قصره، على مقـربة من الهيكل، وبعـد مضي تسع سنـوات على تأسيس طائفتهم ثابـروا على ارتداء مـلابس علمانيـة، وظل هذا مستمـراً حتى أخيراً، عندمـا عقد المجمع التـاسع في تروي Troyes في فرنسـا في ١١٢٨م، جرى تعيين نظام لهم، وعين لهم البابا هونوريوس رداءً أبيض مع صليب أحمر، ولأنهم سكنوا على مقربة من الهيكل، فقد عرفوا باسم

فـرسان الهيكل، أو الداوية، ولهم عمل القـديس بندكت نظامـاً، وغالبـاً ماكتب رسائل لهم، هذا وكانت بـدايتهم مقدسة، ومليئة بالفضائل، غير أنهم انحطوا وابتعـدوا عن سلفهم، وكـان ذلك بعـدما صـاروا أغنيـاء، وبعدما انتشروا في الخارج في جميع أرجاء الأرض.

ولهذا حـدث في أيام البابا كليمنت الخامس، وبعـدمـا صار واضحـاً لدى شعبنا بأنهم تحولـوا وصـاروا مثل المسلمين، واقترفـوا آثـامـاً كثيرة بسبب ثروتهم العظيمـة، فإن كل واحـد منهم أمكن إلقاء القبض عليـه من قبل المسيحيين جرى قتله، ولم يقتصر هذا على آسيـا بل حدث أيضاً في فـرنسـا، حيث جـرى تدميرهـم من قبل فيليب ملك فـرنسـا، وذلك بموافقة البابا الحاكم في روما، لأنهم كـانوا يمارسون حياة شائنة، وجرى منح جزء من ثرواتهم الهائلة إلى فـرسان القديس يوحنا، وجـزء آخر إلى طوائف دينيـة تأسست حديثـاً، في حين استـولى الأمراء العلمانيـون على جـزء من هذه الثـروات، ومعـــروف بشكل جيـــد، أنه في تلك الأيام، استـولى الرهبان الدومينيكان على كثير من الديرة المشهـورة للداوية، من ذلك على سبيل المثال الديرة في: فينا، وستراسبورغ، وايسلنغ، وورمز، وأمـاكن أخـرى، هذا ودافع بعضهم عن مـوقف الداوية، ووأعلنوا بأن الملك كـان متشوقـاً لتدميرهم، حتى يتمكن من الحصـول على ثرواتهم، حسبما قـرأنا في تاريخ أنطونيوس- الجزء الثـالث، العنوان: ٢١،الفصل: ١، الفقرة ٣.

وكانت الطائفـة الثالثة التي تأسست في القدس، لكن ليس بعـد مدة طويلة من تأسيس الطائفتين الأخـريتين، هي الطائفة التي عـرفت باسم فـرسان التيـوتون للقـديسـة مريم، وقـد قيل بأنها قـامت كما يلي: بما أن الألمان قـد تفوقـوا على جميع الأمم المسيحيـة بتعلقهـم التقوي بالأمـاكن المقـدســة، ولأنهم اعتـادوا على القـدوم بأعـداد كبيرة كـل يوم، صـار الاسبتارية، الذين كانوا فـرنسيين متعبين منهم، وصاروا يتعاملون بسوء

مع الألمان، وانتقل الآن واحـــد من الألمان وزوجتــه من مــوطنه إلى القدس، وسكن هناك، ولدى رؤيتـه للأوضاع التعيسـة للمحاربين من أبناء وطنه، حصل على إذن وموافقة السيـد بطريرك القدس، فحول بيته الكبير مع بيعة العذراء المباركة إلى مشفى صغير.

وتعهـد في هذا المكان بعض الرجـال بأنهم سوف يتـولون خـدمـة الفقـراء وتدبير شؤون الحجاج، ومع الأيام ازداد عـددهم كثيراً جـداً، وصاروا أغنيـاء إلى أبعد الحدود، ولذلك عين لهم البـابا سيلستاين -Ce lestine الثـالث نظامـاً، ولبـاساً أبيض مـع صليب أسود، وقـد وقفـوا بالفعل في وضع وسط بين الطائفتين السـالفتين، ذلك أنهم اعتـادوا على خـدمـة الحجاج والفقـراء مع الاسبتـارية، أو فـرسـان القـديس يوحنا، وقاتلوا في الوقت نفسه ضد المسلمين وغير المسيحيين مع الداوية، وبعد فقـدان الأرض المقـدسـة، وبناء على أمـر من البـابا، قـدمـوا إلى سيـزيا Scythia الأوربيـــة حيـث حــولوا الشعـب في الـ Ruthenians إلى المسيحية، وكـان هذا الشعب حتى ذلك الوقت وثنيا، وبعـد بذل جهود كبيرة حولوا: بروسيـا، وليفونيا، والمناطق الحدودية الأخـرى لألمانيا على المحيط.

وبعدمـاتأسست هذه الطوائف، وتم إنجـاز أعمال أخرى كثيرة، وقع بلدوين الملك التقي للقـدس، مريضـاً مرضـاً شديداً، ولدى رؤيتـه بأن مـوته بات قريبـاً، خـرج من قصره على شكل متسول، وبتـواضع وضع جانبا ثيابه الملكية على مشهد من الرب، وأمر بحمله إلى قصر البطريرك، لأن ذلك المكان كان قـريباً جداً من موضع قيامـة الرب، وهنا استدعى ابنتـه وزوجهـا ختنه، وابنهما بلدوين، الذي كـان آنذاك في الثـانيـة من عمره، وبحضور مجمع أمـراء المملكة عهد بالعناية بالمملكة لهم، في حين قـام هوكمعترف حقيقي، فارتدى لبـاساً دينيـاً، وتعهد بالعيش كـراهب نظامي إذا مـابقي حيـاً، وأسلم روحـه إلى الذي هو أبو الأرواح كلهـا،

وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من حكمه، وقد دفن عند سفح جبل الجمجمة.

الملك الرابع للقدس

وكان الملك الرابع للقدس، اسمه فولك، وكان ختن بلدوين المتقدم ذكره، وكان كونت أنجو، ومين، وتورين، وكان قد حصل على العرش في سنة ١١٣١م، في الستين من عمره، وقد حكم احدى عشرة سنة في المقدس، وخاض هو وولديه كثيراً من الحروب، ليس فقط ضد المسلمين، بل ضد امبراطور القسطنطينية، وأمراء مسيحيين آخرين، تآمروا ضد مملكته، وفي أيامه أزعج المصريون -تحت قادة متعددين- الصليبيين الذين كانت القدس بأيديهم، وخرقوا بلادهم في عدة أماكن وتوغلوا في مدنهم، ولذلك تجددت الحروب، واستولى أثناء ذلك شعبنا على بعض المدن، وجعلوا مدنا أخرى تدفع لهم الجزية، وهكذا دواليك، وكان من بين أعمال هذا الملك المجيدة، إلحاقه الهزيمة مراراً بالترك الذين سكنوا في بلاد فارس، ولم يكتف بإلحاق الهزيمة بهم، بل تمكن في إحدى الحملات من قتل عدد كبير منهم بلغ ثلاثة آلاف، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، ووسع مملكته كثيراً.

وغزا الأتراك في أيامه مدينة الرها، التي كان الصليبيون قد استولوا عليها بوساطة جهود حربية كبيرة، واحتشدوا لطرد الصليبيين من هناك، وأمر كونت الرها، الذي كان ضعيفاً ومتقدما بالسنين، ابنه بأن يأخذ قوة من الجند معه، وأن يهاجم الأعداء برجولة، لكن هذا الابن شرع بجبن يفتعل الأعذار، معلنا أنه سوف يكون خطيراً مهاجمة مثل ذلك الحشد الكبير بعدد صغير من الرجال، وقد غضب أبوه منه، وأمر باعداد محفة فرس -من النوع الذي يدعوه الألمان Rossbar- وامتطى فرسه، وانطلق مع القوات التي تمكن من جمعها، لطرد الأتراك من منطقته، وعندما علم الأتراك بأنه قادم، خافوا من دنوه، وهربوا إلى

بلادهم.

وفي الساعة نفسها، وفي المكان عينه حيث هزم الأعداء، أمرهم الكونت بوضع محفته على الأرض، ورفع عينيه نحو السماء، وقدم الشكر مع الآهات والتنهدات، لأن الرب منحه في أيامه الأخيرة مثل هذه النعمة، أثناء وقوفه على أبواب الموت ذاتها، فأبقاه رعباً لأعداء الايمان المسيحي، وعندما فرغ من كلامه هذا، في الميدان المفتوح، وفي وسط رجاله، أسلم الروح.

وفي سنة ١١٤٢، نزلت بالصليبيين فاجعة كبيرة، فعندما كان اللورد فولك، ملك القدس، يتجول قرب عكا، وكان قد خرج من المدينة لتمضية الوقت، صدف أن أثارت كلابه أرنبا برياً، فركضت وبذلك ركضت الجماعة كلها خلفها وهي تصرخ، والملك الذي كان على ظهر فرسه لحق بها بسرعة مفرطة، وكبا حصانه، وانقلب على الأرض، وألقى بالملك بطريقة أن رأسه انسحق كله بالسرج، وخرج دماغه من أنفه وأذنيه، ووسط أسف عام حمل إلى المدينة، حيث تمدد لمدة ثلاثة أيام وهو فاقد للوعي، لكنه كان حياً ويتنفس، ثم إنه أسلم الروح في اليوم الرابع، وقد حملوا جسده إلى القدس، ودفنوه في موضع الجمجمة، حيث جرى دفن الملوك اللاتين المتقدمين، والذين ماتزال قبورهم مرئية حتى هذا اليوم، وهي تلمع برخام مصقول.

الملك الخامس للقدس

إثر وفاة فولك، الملك الرابع للقدس، خلفه في المملكة ابنه بلدوين الثالث، فكان الملك الخامس في سلسلة الملوك، وكان شاباً، صاحب أخلاق نبيلة، متحرراً من شرور الشباب، وقد حكم الدولة المقدسة بشكل في غاية الجودة، وعندما كبر،صار شاباً طويلاً، ووسيماً جداً، حتى أن الغرباء اندهشوا لسمو أخلاقه، مما أعطى برهانا واضحاً عن

سماته وجلالته الملكية، وقد كان دمثا، وصاحب قلب حنون، ولم يكن شرها تجاه أملاك الآخرين، كما انه لم يقم كانسان مبذر، بالتجول لسلب رعاياه من ثرواتهم، وكان متعلما بشكل جيد، وقد أحب قراءة تواريخ الملوك ومعارك التاريخ القديم، وتعامل بقدرة حربية فائقة مع مخاطر الحرب غير المؤكدة، وكان قد بدأ بممارسة سلطاته في ١١٤٢م، وحكم في القدس لمدة أربع وعشرين سنة.

وفي أيام حكم هذا الملك نهض الأتراك، والمصريون، والمسلمون، والبداة العرب ضد المؤمنين، وكان من بينهم زنكي، وكان رجل آثام، كما كان أكثر الأتراك قدرة، وقد حاصر الرها واستولى عليها، وهي التي كانت تعرف من قبل باسم Rages Medorum ، وكانت مليئة بالسكان اللاتين، الذين قتلهم جميعا بضربة قاسية واحدة، وحشد الملك بلدوين جيشاً، وبادر مسرعاً لإنقاذ الرها، لكنه صد، واتخذ طريقه عائداً إلى القدس، بعدما خسر كثيراً من رجاله.

وجرى إعلام يوجينيوس الثالث، بابا روما، بالذي حدث، فأرسل رجال دين إلى مختلف أصقاع الغرب، لإيضاح صورة الأوضاع القاسية التي يعيشها الصليبيون في الشرق، وكان بينهم ذلك الرجل صاحب الذكرى الخالدة، الراعي القديس برنارد، الذي اختير لمتابعة تنفيذ هذه المقاصد والخطط، وقد بشر بحماس ملتهب، حتى أن كل من النبلاء والناس عامة وافقوا عن طواعية على فصاحته غير الأنانية، ووعدوا بأنهم سوف يرتحلون إلى القدس، فضلاً عن هذا أخذ الرجلان اللامعان: كونراد الثالث السوابي امبراطور الرومان (كذا)، والسيد لويس ملك فرنسا، طريقيهما نحو الشرق مع كثير من الأمراء من الأمتين، وقد كان جيشيهما كبيراً جداً، حيث كان في جيش الامبراطور وحده سبعين ألفاً من الفرسان الدارعين، وذلك بصرف النظر عن الجنود الرجالة، ولم يكن أتباع ملك فرنسا أقل من حيث العدد، ولو

أنها حظيا بنعمة الرب لأمكنهما بسهولة ليس فقط قهر سلطان قونية وآسيا الصغرى القوي، لابل لإستوليا على جميع بلدان المشرق لصالح المسيحية، والذي حدث أنه بقدر من الرب، ليس بمقدور الانسان فهمه، رفض الرب قبول خدمتيهما، مثلما لايقبل أعطية، قد قدمت بأيدي غير جديرة، ولذلك تخلى الرب عنهما وسلمهما إلى أيدي الأتراك والمسلمين، الذين ضايقوهما، وهزموهما، وأنقصوا أعدادهما، وهما على طريقيهما، وقد وصلا إلى القدس بعد متاعب جمة، وتوفر الآن في القدس، ثلاثة ملوك عظام هم: كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك الفرنسيين، وبلدوين الثالث، ملك القدس، وقد اجتمعوا في مكان واحد مع جميع أمرائهم، وكونتاتهم، وباروناتهم، وبدأوا يتناقشون حول ما هو الأفضل والأكثر نفعاً أن يعملوه لمجد اسم المسيحية، ولتطور مملكة القدس وتقدمها.

كما أن هذا المؤتمر لم يحظ كذلك بالعناية الربانية، ولهذا تراجعوا مجللين بالعار من مدينة دمشق، التي كانوا قد حاصروها للإستيلاء عليها، وتباحثوا بعد عودتهم إلى القدس حول حصار عسقلان، وبعد كثير من الأحاديث والخطابات، وصلت هذه الخطة أيضاً إلى لاشيء، وبناء عليه، عندما رأى الامبراطور، وملك فرنسا، بوضوح بأن الرب ليس معهما، ركبا السفن، وذهبا إلى بلديهما، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، تزايدت أوضاع اللاتين في الشرق سوءاً كل يوم، لأن المسلمين تصدوا الآن بلاخسائر لهذين الأميرين العظيمين، اللذين كان مجرد ذكر اسميهما من قبل يبعث الرعب في قلوبهم، ولهذا باتوا مسرورين جداً وواثقين من أنفسهم، ولم يعودوا من الآن فصاعدا يشكون مطلقاً بقوتهم، أو يخشون أن يضغط عليهم بشدة من قبل شعبنا.

وبعد تراجع جيوش المسيحيين الغربيين، أعان الرب بلدوين ملك القدس، حيث استولى عنوة على مدينة عسقلان، التي كانت مطوقة منذ

زمن طويل من قبل الصليبيين، وأعـاد بناء غـزة، وكانت مـدينة قديمـة جداً، ومهجـورة تماماً، وأعطاها إلى رهبـان الداوية للسكن فيهـا، وكان ملكاً عظيماً جـداً وشجاعـاً إلى حـد أنه هزم وطارد جيشاً من المقـدمين الترك، مع ايقـاع مـذبحـة كبيرة بينهـم، بلغت خمسـة آلاف رجل كلهم ماتوا، وهزم بعد هذا نور الـدين قائد عساكر دمشق، في معـركة دموية، وطارده حتى أحـواز دمشق، كما أنه خـاض عـدداً آخـر مـن المعـارك المرعبة، وبصعوبة بالغة نجا أحيانا من الوقوع بالأسر.

وثار في أيامـه نزاع، وخـلاف خطير بين السيـد البطريرك، وريمـوند مقدم استبارية القـديس يوحنا، الذي شرع مع رهبانه بتسبيب اضطراب عظيم للسيد البطريـرك، وللأساقفة الآخـرين في مختلف الكنائس، بشأن ما يتعلق بمـدى سلطات البطريرك، ذلك أنهم اعتـادوا على أن يخضعوا عن طواعيـة لطقوس رجـال قـداسات كـانوا لذنوبهم محرومين كنسيـا، ومبعـدين عن الكنيسة من قبل السيـد البطريرك، أو من أساقفـة مختلف الكنائس، وتولـوا القيـام بقيـادة القـداسـات والمسح الأقصـى بالزيت للمـرضى، ودفـن المحـرومين كنسيـا، وفعلوا أشيـاء كثيرة خـرقـوا بها امتيـازات الكنيسة، وعنـدما عمل السيـد البطريرك شكاوى كثيرة ضـد هذه الأعمال المخـالفة، ودعـا إليـه رعايـاه كما اعتاد أن يفعل وعليـه أن يفعل، غضبوا لذلك غضبـاً عظيماً، وحملوا أسلحتهم واندفعوا إلى داخل كنيسة الضريح المقدس لمقاتلة البطريرك.

وكـان هذا بداية جميع الشرور، والخسـارة التـاليـة للمـدينة المقـدسـة والبلاد، وتسببت كنيسـة روما بنشوب هذه الشرور، بابقائهـا الاستبارية معفيين دومـا من سلطان البطريرك، وذلك مثلما أعفـت الداوية من حق السلطان القضائي للبطريرك، وأضفـت امتيازات على فرسـان التيوتون، وعندما جرى إعفاء هذه الطوائف، صارت امتيازات الإشراف القضائي للبطريرك والأساقفـة قليلةجداً، لابل انعدمت تقـريباً، وبذلك تقسمت

المملكة، وبالتالي تدمرت، وذلك وفقاً لما جاء في انجيل لوقا: ١١/ ١٧ قوله: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب».

وذهب الملك بلدوين من القدس إلى أنطاكية، لأن بعض المشاكل الصعبة استدعت منه فعل ذلك، وأثناء وجوده في أنطاكية وقع مريضاً، وكان مرضه شديداً، ولشعوره أنه على حافة الموت، وأنه في خطر عظيم، أمر بأن ينقل إلى بيروت،وهناك أمر باجتماع جميع الأساقفة وأمراء مملكته، والمثول بحضرته، حيث قام بتقوى وتدين بالاعلان عن إيمانه، واعترف بذنوبه مع كثير من الندم إلى الكهنة الأعلين، وقد تحرر من معاناته، ومن سجن الجسد، وحمل روحه إلى السماء في سنة ١١٦٣ لتجسيد الرب، وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر شباط، وجرى حمل جسده إلى القدس، ودفن بين سلفه في كنيسة الضريح المقدس.

وقد قيل بأن سماً قد أعطي له في دواء، وأن بقية ما أعطي إلى الملك ليشربه صب فوق بعض الخبز، وأعطي إلى كلب ليأكله، فمات ذلك الكلب على الفور، ولم يذكر التاريخ في أي مكان حزناً شهدته أية دولة مثل الحزن الذي شهدته مملكة القدس على هذا الملك، حتى قيل بأن أعداء الايمان قد حزنوا لموته، إلى حد أنه عندما اقترح بعضهم على نور الدين ملك دمشق -عندما رأى قادة الصليبيين في اضطراب كامل -وجوب مهاجمة مملكتنا، قيل بأنه أجابه قائلاً: «علينا أن نظهر نحوهم مواساتنا، وأن نتعامل معهم بلطف، ماداموا يبكون بشكل صحيح أميراً، لم يبق الآن نظيراً له في العالم».

الملك السادس للقدس

إثر وفاة الملك بلدونين، ملك القدس، خلفه في المدينة المقدسة عموري الملك السادس للاتين، وهو أخو الملك المتوفى، وكان ذلك في

سنة ١١٦٣م، وقد حكـم في القدس لاثنتي عشرة سنة، وكـان عموري هذا رجـلاً مليئاً بالحكمـة الدنيـوية، وكـان حكيماً جـداً، ومتيقظاً في الأعمال، ولم يكن كبير التعليم، لكنه تمتع بعبقـرية حيـة وبذاكـرة قـوية، ولايمكن أن ننكر أنه كان شرها نحو المال، خارج حدود كرامته الملكية، ومع ذلك كان بالنسبـة للقضايا الأساسية المتعلقة بصـالح مملكته، هو لم يوفـر لامالاً ولا جهـداً من جهته الشخصيـة، وكان مقتـدراً في الحرب، لأنه بالفعل، هزم في السنة التي كانت قبل استـلامه الحكم، بعون الرب شـاور قائـد المصريين، بمعركـة، مع مـذبحة كبيرة، وبعـد قتله له، ألقى الحصـار على الاسكندرية، وهي مكان كان شيركـوه القـائد التركي قـد اغتصبه بشكل غير قانوني من السلطان.

ولم يكن أهـل الاسكندرية، راغبين بأي حـــال مـن الأحـــوال بأن يصبحوا خاضعين للصليبيين، ومع ذلك استسلموا لعموري، على شرط أن يقـوم بطرد طاغيتهم، ومن ثـم يعـادوا إلى مملكة السلطان على يديه، وبناء عليه استلم عمـوري من السلطان المتقدم ذكـره أربعين ألف قطعة من الذهب وأعـاد الاسكندرية إلى السلطان، بعـدمـا طرد شيركـوه من مصر، وجرى الآن عقـد معاهدة سـلام بين ملك مصر، وملك القدس، ولو أنه تمت المحافظـة على هذه المعاهدة، لما تمكن أحد مـن ازعاج مملكة القـدس، لكن الثعبـان القـديـم الذي يزرع الخلاف بين الإخـوة، جعل عمـوري والسلطان على خـلاف، وتصـور الملك عمـوري بأن السلطان أبرم اتفاقـاً سرياً بينه وبين شيركوه، الطاغية التركي، الذي طرد مـؤخراً من مصر، ولذلك حشـد جيشاً، وذهب إلى مصر من خـلال الصحراء، واستـولى على بلدات مصرية عـدة، وألقـى الحصـار على القـاهرة، التي كـانت المدينة الملكية، وكـانت قـوية جداً، والذي حـدث هو أنه، بما أن الملك كـان دوماً متشـوقاً إلى المال، أزاحـه السلطان عن أهدافه بإعطائـه مبلغـاً لايحصى مـن المال، ذلك أن بعضهم قـال بأنه قـد وعـده بمبلغ

مليوني قطعة ذهبية، وهو مبلغ كان من الصعب على مملكة مصر كلها أن تدفعه، وسلمه بيده مائة ألف قطعة من الذهب شريطة ان يسحب قواته، وعندما تسلم هذا المبلغ رفع الحصار عن القاهرة، ونصب معسكره على مقربة من حديقة البلسم، وبعد استعراضه لقواته، زحف عائداً إلى موطنه من جديد، وقد جعل كل من ملك مصر وملك دمشق أعداء له.

وبعد هذا عزم الامبراطور الاغريقي في القسطنطينية على ضم مصر إلى امبراطوريته، فأرسل أسطولاً كبيراً إلى سورية، حيث كان فيه مائة وخمسين سفينة منقارية، واثنتين وستين سفينة نقل، ودعا اللورد عموري، ملك القدس، لمساعدته، وهكذا ذهبا معا إلى مصر، في البحر وفي البر، وحاصرا دمياط، لكن دون أن يحدثا تأثيراً، ومن ثم توجب عليهما العودة إلى الوطن مجدداً مع خسائر لم تكن صغيرة.

علاوة على ذلك، قام في مصر ملك جديد، وكان رجلاً سعيداً جداً، اسمه صلاح الدين، سوف يأتي ذكر اسمه من الآن فصاعداً كثيراً، وهو الذي جعل جميع أسرة الخلافة والملوك طعمة للسيف، وصار سيداً لممالك مصر وسورية، ولم يعرف الراحة قط حتى نشر دولته على جميع الشرق تقريباً، وفي الحقيقة، كان رجلاً سريع الحركة، شجاعاً في الحرب، عميق التفكير، كريماً جداً، لاسيما نحو العسكريين، الذين كان على استعداد لمنحهم كل ما كان لديه، وبالاضافة إلى هذا، كان رحيماً تجاه المغلوبين، ملتزما بصدق بوعودة وكان من جميع الجوانب رجلاً له شهرة عظيمة، وصيت كبير، ولم يكن يعوزه شيء لمدحه إلاّ الاسم المسيحي، وبما أنه لم يتميز بهذا، فقد أقام نفسه ضد المسيح والشعب المسيحي، وصار سوط عذاب للصليبيين في الشرق، علاوة على ذلك، لقد هزم الصليبيين هزيمة ساحقة، وطرد اللاتين، وفتح الأرض المقدسة، واستولى على القدس، وجعل ضريح الرب خاضعاً له، وأزال فخار

الكنيسة الشرقية، وحول تاج ومجد المؤمنين بالمسيح إلى عار لهم، كما سنوضح فيمايلي.

وقد قرأت عن صلاح الدين الحكاية المتميزة التالية، في واحد من التواريخ، فهو عندما كان يموت أوصى أن يحمل أمام موكب دفن جسده، قطعة قماش سوداء معلقة على رمح، أمامها ينبغي أن يسير مناديا ينادي: «عندما مات صلاح الدين فاتح آسيا لم يحمل معه من بين جميع مملكته وثروته سوى قطعة القماش السوداء هذه».

وعندما رأى عموري، ملك القدس، بأن صلاح الدين ملك سورية ومصر كان حكيماً وحذراً، وينوي أيضاً نيل الممالك الأخرى، أرسل سفراء إلى أمراء الغرب لإخبارهم عن جميع الشدائد التي لايمكن تحملها، والتي وقعت فيها مملكة القدس، وعن مشاكل جميع الصليبيين هناك، وعن الدمار الوشيك المهددين بوقوعه، وقام هؤلاء السفراء برحلات موفقة في بلدان الغرب، وشرحوا هناك المخاطر التي تتهدد مملكة القدس، لكنهم حصلوا على لاشيء، ولم يصغ إليهم، لا من قبل الأمراء، ولامن قبل أساقفة الكنيسة.

وفي الوقت نفسه قام صلاح الدين بغارات يومية على مملكة القدس، واضطربت المملكة بشكل متواصل بتهديدات العدو، وعاشت في اضطراب خطير خانق، ولذلك قام الملك عموري في سنة ١١٧١م، وقد شعر بخوف مؤلم، فأرسل سفراء وقورين جدد إلى الغرب، وأبحر هو شخصياً مع أسطول مؤلف من عشرة غلايين إلى القسطنطينية، حيث خدم الامبراطور، وشرح له وبيّن حاجات مملكة القدس، وبعدما فرغ من عمله عاد إلى القدس، وأخيراً بعدما تمدد الملك عموري مريضاً بالحمى لعدة أشهر، مات في سنة ١١٧٥ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة من حكمه، والثالثة والثلاثين من عمره، وقد دفن مع أسلافه، وكان التالي لأخيه، في الخط نفسه أمام الجمجمة.

الملك السابع للقدس

وإثر وفاة عموري، الملك السادس للقدس، خلفه ابنه بلدوين الرابع، وقد كان في الثالثة عشرة من عمره، أثناء وفاة والده، وقد حكم في القدس لمدة ست سنوات، وفي أيام حياة أبيه، عندما كان في التاسعة من عمره، تبين أنه مصاب بمرض دار الفيل، وقال بعض الكتاب بأنه أصيب منذ طفولته بالجذام، لكن على الرغم من ضعفه الذي عانى منه، حكم مملكته بشجاعة عظيمة، وبحكمة بالغة، ذلك أنه تمكن من إلحاق الهزيمة مرتين في معركتين، بصلاح الدين ذلك الرجل البالغ الشجاعة والنشاط، وكانت المعركة الأولى عند عسقلان والثانية عند طبريا، وعن هاتين المعركتين تحدثت كتب التاريخ كثيراً.

وحدث في سنة ١١٨٧م، أن قام صلاح الدين ومعه جيشه بغزو مملكة القدس مرة ثانية، وعندما سمع الملك بهذا وعلم، دعا رجاله وحشدهم، وانطلق لقتال أعداء الايمان، وسقط في المعركة كثير من رجالنا طعمة للسيف، ووقع بالأسر اللورد أوتو، المقدم الأعلى للداوية، وقد مات بالأسر، كما جرى أسر آخرين كثر أيضاً، ونجا الملك نفسه بصعوبة، (حقيقة وقع بالأسر) وتشجع صلاح الدين بنصره هذا، فأحدث أضراراً بلا حدود في مملكة القدس، لكن أمكن أخيراً، بناء على وساطة بعض الأشخاص، الوصول إلى إقامة هدنة سنتين بين صلاح الدين والصليبيين.

ونظراً لتزايد مرض الملك بلدوين، الذي لم يتزوج، ولم يكن له لا أبناء ولا بنات، لكن كان لديه أختين، الكبرى بينهن كان اسمها سيبيلا، وقد عزم بشكل سري على توريثها المملكة، فكان أن زوجها إلى وليم، الملقب بصاحب السيف الطويل، وكان ابن مركيز أوف مونتفرّات،

وقاتل وليم هذا كثيراً وبشجاعة ضد المسلمين، وكان رجلاً عالي النسب كثيراً، إلى درجة أنه لم يكن له نظير في النبالـة، لأن أخته كانت أم فيليب ملك فـرنسا، وكـانت أمـه أخت صاحـب السيادة الامبراطور كـونراد، وحدث أنه بعد مضي ثلاثة أشهـر على زواج وليم المتقدم ذكره، قد توفي مخلفاً زوجته وهي حامل.

وولدت في وقتهـا المناسب، ولداً ذكراً، أسمتـه بلدوين، ثم كان بعـد ذلك أن زوج الملك أختـه سيبيـلا إلى شـاب نبيل، اسمـه غي لوزغنان، ولأنه كان راغبـاً في رعاية مصلحة ابن أخته عهـد بذلك إلى غي نفسه، وإلى ريموند كونت طرابلس، وكلفهما أن يكونا حارسين له، شريطة، أنه طوال بقاء الطفل بلدوين تحت وصـايتهما، عليهما معا حكم المملكة، كما عليهما تسليمها إلى ابن أختـه عندما يصل إلى السن القـانوني، ومن أجل أن لايقف شيئاً في وجـه تنفيـذ هذا، أمـر بـرسم الطفل ملكاً على مملكة القـدس، بحضـور جميع فـرسـان المملكة، وكـان هذا هو الملك التـاسع (كـذا) لمملكة القـدس، جـرى رسمه وتعميـده قبل وفـاة الملك الثـامن (كذا)، الذي كان خاله.

وقبل مضي أيام كثيرة، تـوفي هذا الطفل بلدوين، الـذي كـان الملك التـاسع (كذا) للقـدس، وأخفت أمـه خبر موته عن قصـد لأيام كثيرة، لأنه بدا لها أن الملـك بلدوين القـديم المصـاب بـالجذام، قـد اقتربت منيته،وأنه عنـدما يكون هو قـد مات مع الطفل، سـوف يتمكن زوجها غي من خـلافتهما على العرش، وهذا مـا حـدث بالفعل، ذلك أنه ليس بعد ذلك بكثير، مات بلدوين الثـامن (السابع)، ملك القدس، ودفن في المدفن الملكي في موضع الجمجمة، وكان ابن أخته، الملك الطفل بلدوين التـاسع (كـذا) قـد دفن في كنيسـة ضريح الرب،إنما خـارج البيعـة في الجمجمـة، حيث اعتيد على دفن الملوك الآخـرين، لأنه عـدّ ليس ملكاً، بل مجرد طفل.

الملك الثامن للقدس

بعد ما مات بلدوين الرابع، الملك السابع للقدس، ومات أيضاً ابن أخته بلدوين الخامس، ملك المدينة المقدسة، خلفهما غي لوزغنان، الذي كان زوج سيبيلا، أخت بلدوين المجذوم، كما كان أخاً بالزواج لبلدوين الرابع، وقد حكم لمدة عامين في القدس، وقد وصل هذا الملك إلى العرش وسط مصاعب، وحكم دوما في شدائد كبيرة، وأنهى حكمه مع مأساة مرعبة، وأوصل مملكة القدس إلى نهاية محزنة.

وعندما مات الملكان بلدوين الرابع وبلدوين الخامس، تطلع ريموند، كونت طرابلس، والوصي على بلدوين الطفل المتوفى إلى العرش، وقد وقف إلى جانبه كثير من الأمراء والكونتات، وتآمروا ضد غي زوج سيبيلا، التي كانت وريثة المملكة، وتمكنت السيدة سيبيلا بوساطة رشاوى كبيرة وأعمال استعطاف من السيطرة على بطريرك القدس، وعلى المقدم الأعلى للداوية، وعلى النبلاء واقناعهم برسم زوجها وتتويجه ملكاً للقدس، وغضب ريموند، صاحب طرابلس، تجاه هذا غضباً عظيماً، ونشبت خصومة مريرة جداً بينهما، ولما كان ريموند صديقاً سرياً لصلاح الدين التركي،وكان متحالفاً معه، فقد تسبب بإلحاق أذى عظيماً بغي وبالصليبيين الآخرين، وفي الحقيقة دفعت الغيرة بريموند إلى حد من الشر أنه تخلى عن الايمان المسيحي، واختتن، واعتنق الدين الاسلامي، لكن ذلك لم يكن بشكل مكشوف، بل بشكل سري.

وفي سنة ١١٨٧م، قام صلاح الدين، الذي صار قويا، من خلال التمزق بين شعبنا فحشد عساكر لاتحصى، وهاجم المملكة المقدسة، وكسب أراضي كثيرة من الصليبيين، وعندما شعر الملك غي أنه محاصر الآن من كل جانب من قبل المسلمين، قام بناء على نصيحة أمرائه فأرسل السيد بطريرك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، ورئيس الاسبتارية، إلى أمراء الغرب، ليشرحوا لهم الوضع المأساوي للشعب

الصليبي في الشرق، ووصلوا أول كـل شيء إلى فيليب ملك فـرنسـا، فمنحوه مفـاتيح ضريح الرب، والهيكل والمدينة المقدسـة،، وتوسلوا إليه أن يتلطف بالقيـام بانقـاذ الأرض المقـدسة، المشرفـة الآن على الضيـاع، وبناء عليه دعا إليه هذا الملك التقي جداً جميع الأساقفة، وعقد مجمعاً في باريس، وأرسل بعض الجنود الشجعـان جـداً إلى الأرض المقـدسـة على حسابه.

وفي الوقت نفسه كان صلاح الديـن قد حشد عدداً كبيراً من الأتراك ومن المسلمين من جميع أرجاء الشرق، وغـزا أرض الصليبيين، واستولى على منطقـة الجليل، وحـاصر طبريا، وحشـد غي ملك القـدس جيشـاً كبيراً، وزحف للقتـال ضده، لكن، وياللأسف، هزم شعبنا، من خـلال خيانة ذلك الرجل الشرير، أي كونت طرابلس، لأنه عندما كان الجيشان مصطفان وعلى وشك الاشتبـاك، قام الكونت، وعلمـه مرفـوع، بالفرار من صف القتـال، ممـا جعل جيشنا يتخبط بـاضطراب، وقـد لحق به بعض أعـداء ملك القـدس، والمتـآمرين ضـده، وحـدث هذا قبل فـرار جيشنا، وأثناء فـراره، وقعت مـذبحـة مروعـة بين شعبنا، وخـلال هذه الشدة، أصيب أسقف عكا، الذي كان يحمل صليب الرب أمام الجيش، بجـراحة بليغـة، ولشعوره بنفسـه أنه على خافـة الموت، وعندما لم يعـد بإمكانه الركـوب على حصـانه، أعطى الصليب إلى رجل آخـر، حمله إلى الملك غي.

وأخيراً بعدمـا قاتل الملك بشجاعـة حتى نهاية المعركة ومعـه صليبه، هاجمه العدو من جميع الجهـات، وكان معظم رجاله قـد قتلوا، وحوصر هو من قبل الأعداء، حتى أنه لم يعد بإمكانه الفرار، وهنا أخذ أسيراً مع خشبة الصليب المانح للحياة، ولم تكن هناك معركة في جميع زمان وجود المملكة اللاتينية في الشرق، قد سفكت فيهـا دماء صليبية مثلما سفك في ذلك اليـوم، فقد تهاوت في ذلك اليـوم قوى الصليبيين كلهـا في الشرق

وانهارت، وكان أكثر الذين تميزوا بالشجاعة هم الاسبتارية والداوية، وهلك في هذه المعركة المحزنة جداً جميع النبلاء ورجال الحرب، باستثناء قلة أخذوا أسرى، كان من بينهم الملك، ومقدم الداوية.

وقال فنسنتوس في مصنفه Speculcem historiale - الكتاب الثلاثين، الفصل: ٤٣، بأن الأولاد الذين ولدوا بعد ذلك اليوم، الذي وقع فيه الصليب المقدس، بالأسر، ولدوا بعشرين سنا، أو بواحد وعشرين سنا فقط، في حين اعتادوا من قبل على الولادة بثلاثين، أو بثلاثة وثلاثين.

وبعد هذا النصر استغل صلاح الدين حسن طالعه، فقاد جيشه للاستيلاء على مدن وقلاع الصليبيين عنوة، واحتل الأماكن القائمة على ساحل البحر، وكان أول كل شيء احتله عكا، ثم بيروت والمدن الأخرى المسورة، كلها استسلمت له دون ابداء مقاومة تذكر ضده، ذلك أنه لم يعنف ضد أي مدينة من هذه المدن، شريطة أن تبقى المدينة تحت سلطانه، وتدفع الجزية له، ولم تكن هناك مدينة واحدة من عكا حتى عسقلان تجرأت على مقاومته، لأن هذه المدن جميعا قد فقدت الذين توجب عليهم الدفاع عنهن، وقام أهالي عسقلان، الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاترام،، فأعاقوا مهمة صلاح الدين لبعض الوقت، ورفضوا تسليم مدينتهم، وأعلنوا أنهم لن يستسلموا بأي حال من الأحوال، قبل أن يتأكدوا يقيناً، بأن سكان مدينة القدس قد سلموا مدينتهم، وعندما سمع صلاح الدين بهذا، أقام ساتراً من الركام أمام المدينة، وثابر على مهاجمتها لمدة عشرة أيام، غير أن جهوده لم تثمر شيئاً، لأن عسقلان كانت مدينة حصينة جداً، وهي التي استولى عليها غودفري، أول ملوك القدس، كما تحدثنا من قبل، وقد ورد الحديث عنها في أقدم أسفار الكتابات المقدسة، وهذا يمكن لأي انسان أن يراه.


المحتوى

